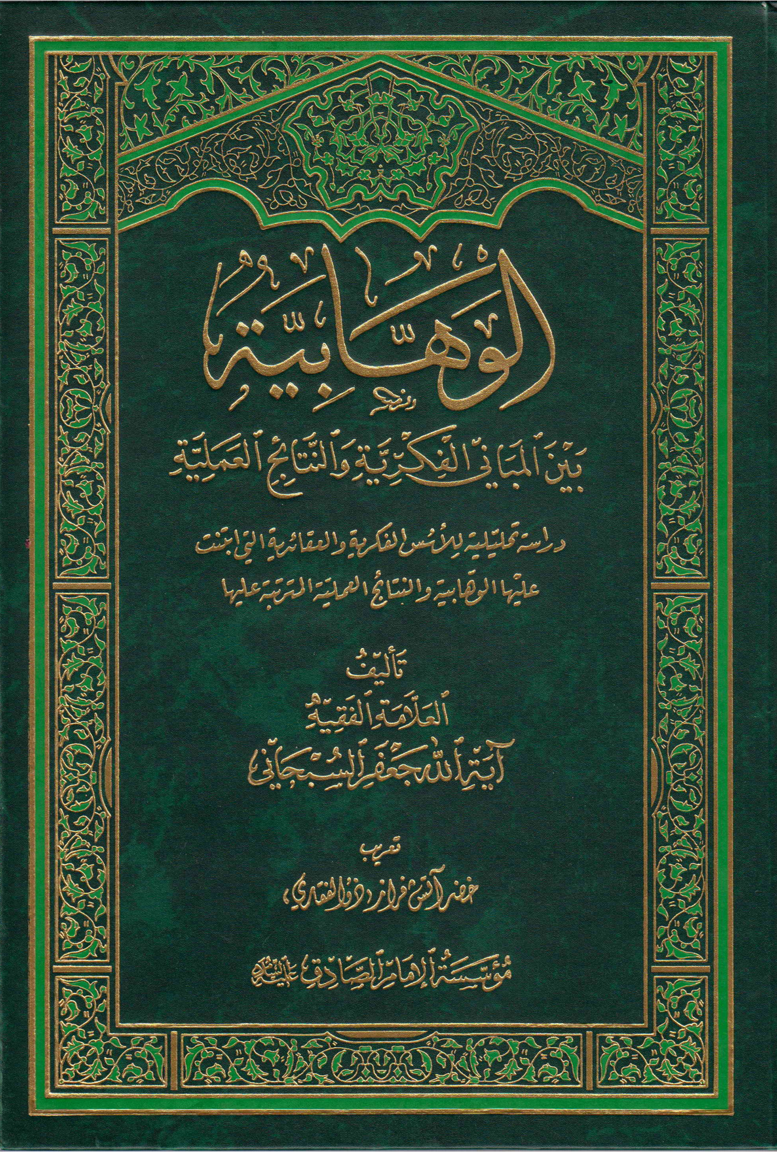
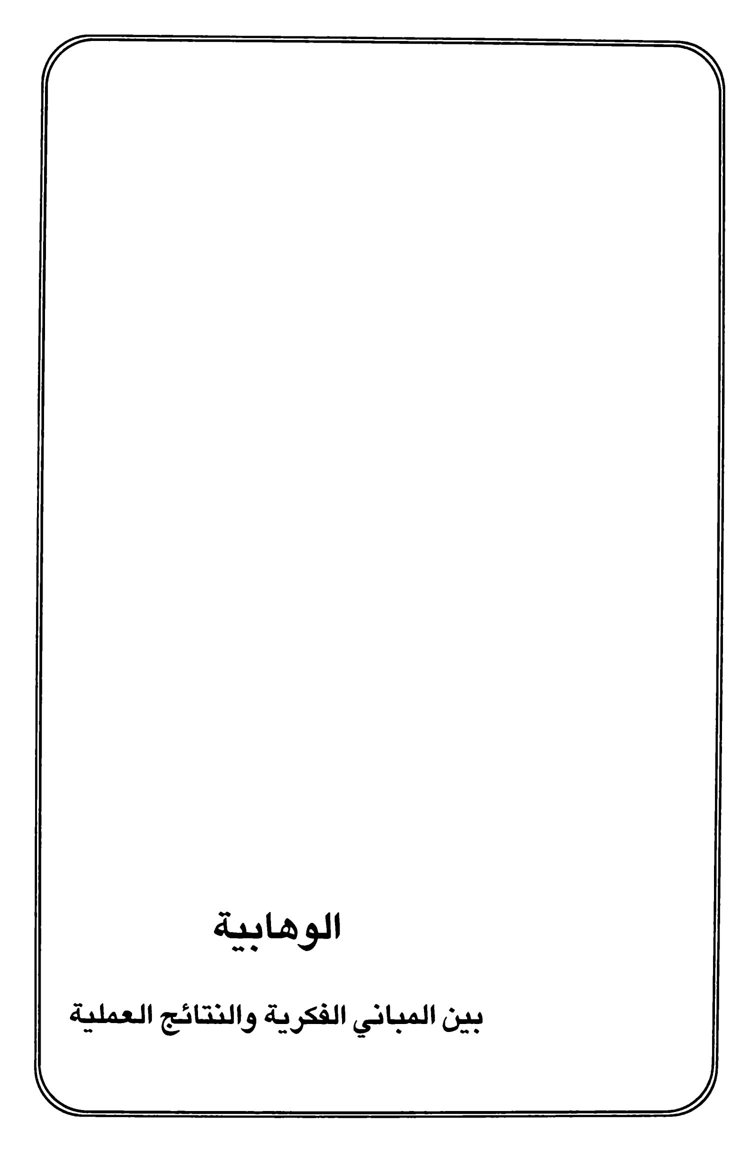


الوهابية
بين المباني الفكرية والنتائج العملية
دراسة تحليلية للأسس الفكرية والعقائدية التي ابتنت
عليها الوهابية والنتائج العملية المترتبة عليها
تأليف
العلامة الفقيه
آية الله جعفر السبحاني
تعريب
خضر آتش فراز (ذوالفقاري)
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم





الوهابية

بين المباني الفكرية والنتائج العملية

فهرست‌نویسی پیش از انتشار توسط: مؤسسهٔ امام صادق عليه‌السلام

السبحاني التبريزي، جعفر، ١٣٤٧هـ.ق ـ

الـوهابيـة بين المباني الفكـريـة والنتائج العمليـة / تأليف جعفر السبحـاني ؛ تعريـب خضر آتش فراز(ذوالفقارى) ـ قم : مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام، ١٤٢٦ ق.= ١٣٨٤ش.

٥١٢ص. ISBN:964-357-202-1

١ . وهابيه، . الف . آتش فراز، خضر، ١٣٣٩ ــ ، مترجم . ب . مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام .

ج . عنوان .

BP ٢٠٧ / ٦ /٢و٩س ٠٤٣ ٢٩٧ /٤١٦

اسم الكتـاب:	الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية
تـأليـف:	آية الله جعفر السبحاني
تعـريب:	خضر آتش فراز (ذوالفقاري)
النـاشـر:	مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام
المطبعـة:	مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام ـ قم
الطبعـة:	١٤٢٦ هـ . ق/ الأُولى
الكميـة:	٢٠٠٠ نسخة
الصفّ والإخراج باللاينوترون:	مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام

توزيع

مكتبة التوحيد

قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٧٤٥٤٥٧

E-mail: pub@imamsadeq.org

www.imamsadeq.org

الوهابية

بين المباني الفكرية والنتائج العملية

دراسة تحليلية للأُسس الفكرية والعقائدية التي ابتنت عليها الوهابية والنتائج العملية المترتبة عليها

تأليف

العلاّمة الفقيه

آية الله جعفر السبحاني

تعريب

خضر آتش فراز (ذوالفقاري)

نشر

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

التجديد الديني

لم تكن فكرة التجديد الديني ـ التي تثار هذه الأيّام بحيث أصبحت المادة الأساسية التي تلوكها الأفواه وتـردّدها الألسن هنا وهناك في الصحف والمجلات فضلاً عن الكتب ــ من المسائل المستحـدثة كما يحلـو للبعض أن يصفها، بل أنّ القضية تضرب بجـذورها في أعماق التـاريخ الإسلامي، ويكفي في صحّـة ذلك مراجعة تاريخ العقائد والثقافة الإسلامية.

فبعد رحيل الرسول الأكرمﷺ واحتكاك الثقافة الإسلامية بثقافات وأفكار دخيلة كالرومانيـة والفارسية والهندية، برزت ظاهرة التجـديد الديني في الأوساط الإسلامية العلميـة، وتحت لواء الإصلاح والتصدّي للانحراف والبـدع الدخيلة، رفع البعض راية الإصلاح ووضعوا حجر الأساس لمذاهب وحركات فكرية شتّى، والـذي يـؤسف لـه أنّ هـذه الحركـات والاتجاهـات الفكـريـة لا أنّها لم تنجح في الإصـلاح والقضاء على البـدعة والانحـراف فحسب، بل هي بنفسهـا أصبحت عاملاً أساسيـاً وعنصراً فاعلاً في نشوء الكثير من البدع في كيـان الأُمّة الإسلامية، ومن المؤسف أيضاً أنّنا نجد بعض الكتاب ـ الذين تابعوا تلك الحركات من بُعد

ـ يسبغ عليها وصف «التجديد والإصلاح الديني»[١] و الحال أنّها المصداق البارز لقوله تعالى:

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُون﴾.[٢]

وأخيراً لبست حركـة التجديد الديني ــ المزعومة ــ لباساً جديـداً وتأطّرت بإطار خلاّب يبهر العيون ويستهوي القلوب، ويخفق له قلب كلّ موحّد، ألا وهو إطار (محاربة الشرك والتصدي للابتداع)، منطلقة في حركتها من أفكار ابن تيمية الحرّاني ـ التي أثارها في القرن الثامن الهجري ـ وبهذا استطاعت أن تعيد للأوساط الإسلامية في القرن الثاني عشر وعلى يد رجل يدّعي الإصلاح الديني تلك الأفكار التي علاها ركام الإهمال والهجران لقرون عديدة بسبب الموقف الصارم الذي وقفه علماء الإسلام الكبـار والتصدّي الصلب والموقـف الشجاع الذي وقفـوه تجاه ابن تيمية وأفكـاره، ثمّ تمكنت تلك الحركة ــ بالإضافـة إلى إحياء هذه الأفكـار ـ من التصدّي لتصـدير معتقداتها وتوجّهـاتها إلى شتّى أقطار العالم الإسلامي والـدفاع عنها باعتبارها أفكار تجديدية وحركة إصلاحية، محاولين تأطيرها بإطار سياسي.

ولكي يقف القارئ الكريم على مؤسس هـذه الحركة ومَن تصدّىٰ لإحيائها ومدى النجاح الذي حقّقوه في التصدّي للشرك و الابتداع ـ كما يزعمون ـ نقول:

ولد أحمد بن عبـد الحليم المعروف بابن تيميـة في مدينة حرّان عـام ٦٦١هـ بعـد خمس سنوات من سقـوط الخلافـة الإسـلامية في بغـداد وانغمار المسلمين في مشاكل كثيرة. وتوفّي مسجوناً في قلعة دمشق عام ٧٢٨هـ.

لم يتصدّ الرجل لعرض أفكاره وآرائه على الملأ العام إلاّ في عام ٦٩٨هـ، ولم

---

١. كما فعل ذلك أحمد أمين المصري(١٢٩٦ـ١٣٧٢هـ) في كتابه «زعماء الإصلاح».

٢. البقرة:١١.

تمض فترة طويلة حتى قوبلت أفكاره بمواجهة قوية من قبل كبار العلماء والمفكّرين المسلمين في ذلك الوقت، وقد أخذت تلك المواجهات أبعاداً مختلفة كالمناظرات والرسائل والمحاضرات و... ممّا أدّى إلى انحسار أفكاره وانزوائها في مطاوي الكتب، التي دوّنها هو أو تلميذه ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ)، ولكن بعد مرور أربعة قرون من وفاته انبرىٰ محمد بن عبد الوهاب النجدي (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) لإحياء تلك الأفكار الدفينة وانتشالها من بين الأنقاض وإزاحة الركام عنها، وإعادتها إلى الساحةالفكرية الإسلامية من جديد، وسعى لنشرها والدفاع عنها ومواجهة كلّ من يتصدّى لها، وقد أعانه وآزره في حركته هذه أُسرة آل سعود، ومع كلّ تلك المعونة والدعم لم يتمكّن الرجل من تجاوز حدود نجد، ولم يوفق لنشر أفكاره خارج تلك المنطقة .

ولكن بعد سقوط الدولة العثمانية وتصدّي آل سعود لسدة الحكم في الجزيرة وبسط نفوذهم على المراكز المهمة كمكة والمدينة، توفّرت الظروف للحركة في الانتشار، خاصة بعد اكتشاف النفط وزيادة العائدات المالية، بحيث استطاعت أن تسخّر الأقلام المأجورة لنشر أفكارها والتبليغ لمبادئها، وقد قام أصحاب تلك الأقلام بالمهمة الموكلة إليهم تحت إغراء الأموال التي كانت تتدفق عليهم.

وقد تصدّى لهذه الأفكار كبار المفكّرين المسلمين ـ شيعة وسنّة ـ في العراق والشام ومصر، وقاموا بالمهمة الملقاة على عاتقهم في الردعليها وبيان زيفها، وستأتي الإشارة إلى بعض تلك الشخصيات التي قامت بذلك وأسماء مصنّفاتهم في مطاوي هذا الكتاب وخاصة في الفصل العاشر منه إن شاء الله تعالى.

ونحن بدورنا نحاول في هذه المقدّمة تقييم تلك المعتقدات بصورة إجمالية،

ونبيّن أهمّ الأُسس الفكرية لتلك الحركة، والتي منها تظهر فداحة الخطب وخطورة الموقف والثمار المرّة التي جناها المسلمون من هذا الفكر. ومن هنا يمكن الإشارة إلى أهمّ خصائصهم ومرتكزاتهم الفكرية، وهي:

١. الدعوة إلى التجسيم

يمتاز الفكر الإسلامي بصفات خاصة تميّزه عن غيره وتفضّله على ما سواه من النظريات والأفكار الأُخرى، ومن بين النقاط الناصعة والعلامات المضيئة في هذا الفكر هو نظرية تنزيه الحق تعالى من الجسم والجسمانيات حتّى عدّ أحد شعارات المسلمين الأساسية قولهم: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[١]، وقد بذل الفلاسفة والمتكلّمون المسلمون جهوداً جبارة ومساعي مشكورة لترسيخ تلك النظرية،والتصدّي للمجسّمة والمشبّهة، وإيصاد الأبواب أمام أفكارهم الدخيلة وعدم السماح لها في الدخول إلى حظيرة الإسلام، كما تصدّوا دائماً للتوراة المحرّفة لا التوراة الحقيقية التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنا التَّوراةَ فِيها هُدىً وَنُور**﴾.[٢] نعم تصدّوا للتوراة المحرفة التي لم تكتف بوصفه بالجسم والجسمانيّة فقط، بل أنزلته سبحانه وتعالى من مقامه السامي إلى الأرض ليدخل على يعقوب في خيمته ويصارعه.[٣]

والذي يؤسف له أنّ ابن تيمية تخطّى تلك الجهود محاولاً السماح لفكرة التجسيم والتشبيه بالعودة إلى الأوساط الإسلامية داعياً إليها، حيث صرح بأنّه

---

١. الشورى:١١.

٢. المائدة:٤٤.

٣. التوراة، كتاب التكوين، الفصل ٣٢، الجمل٢٦ـ ٣٠، طبع عام ١٨٥٦م.

تعالى تصح الإشارة الحسيّة إليه بالأصابع، قال في العقيدة الواسطية: «وما وصف الرسول به ربّه من الأحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة ـ كابن تيمية ومن لفّ لفّه ـ بالقبول، وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله: «ينزل ربّنا إلى سماء الدنيا كلّ ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر...».

وقوله ﷺ: يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر كلاهما يدخل الجنة.

وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حيث يضع ربّ العزّة فيها قدمه».[١]

وقوله ﷺ: «إنّكم سترون ربّكم كما ترون الشمس والقمر».[٢]

يقول الرحّالة ابن بطوطة: وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلّم في الفنون إلاّ أنّ في عقله شيئاً، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على المنبر الجامع ويذكّرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: «إنّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا» ونزل من درج المنبر.[٣]

٢. الحطّ من مقامات الأنبياء والأولياء

إنّ للنبي الأكرم ﷺ والأولياء الصالحين منزلة ومقاماً لدى الله سبحانه وفي قلوب المؤمنين وأوساط المسلمين، ولقد شهدت بذلك الآيات القرآنية الكريمة والروايات الشريفة، وأنّه لا فرق في ذلك بين كون الرسول حيّاً أو ميتاً، فمقامه المعنوي ومنزلته الرفيعة ودرجته السامية محفوظة في حياته وبعد رحيله إلى الرفيق

---

١. العقيدة الواسطية: الرسالة التاسعة: ٣٩٨ـ ٤٠٠.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ١/ ٢٠٣، طبع لجنة التراث العربي.

٣. رحلة ابن بطوطة: ١١٢ـ ١١٣.

الأعلى ولم يتغير ولم ينقص منها شيء أبداً، كذلك الأمر يجري في صلته ﷺ وارتباطه بالأُمّة الإسلامية.

ولكن الذي يمعن النظر في أفكار ابن تيمية والسائرين على نهجه يجد أنّهم يذهبون وبوضوح إلى أنّ الرسول الأكرم شأنه شأن أيّ إنسان عادي تنقطع علاقته بالأُمّة بمجرّد موته، وحينها لا يعود على الأُمّة أدنى نفع أو فائدة منه ﷺ بعد رحيله!!!

٣. تكفير المسلمين

لقد سعى النبي الأكرم ﷺ وبكلّ ما أُوتي من قوة إلى تحكيم أواصر الأُخوّة والمودّة في أوساط المؤمنين بحيث استطاع أن يصنع منهم كياناً متماسكاً يقف سدّاً منيعاً أمام الكفر العالمي، حتّى استطاع المسلمون وببركة وفضل «كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة» من الصمود والثبات أمام ضربات الصليبيين القاسية، وعنجهية وغطرسة وجهل المغول ممّا انجر إلى دخولهم في الإسلام واعتناقهم الديانة الإسلامية في آخر المطاف، وبهذا تمكّن المسلمون أن يجعلوا من ألدّ خصومهم أُناساً مدافعين عنهم وعن شريعتهم ومروّجين لها. ولشديد الأسف أنّ هذه الوحدة الإسلامية تعرّضت لضربة قاصمة من قبل مؤسّس الفكر الوهابي بحيث حصروا الإسلام في تلك الثلّة من الناس التي تعتنق المذهب الوهابي والتي تسير على منهج ابن عبد الوهاب، وإلاّ فلا نصيب لهم من الإسلام!

هذه هي بعض الثمار المرّة التي جنتها الأُمّة الإسلامية من وراء هذه الحركة الفكرية التي تدّعي ـ زيفاً ـ أنّها حركة إصلاحية، وهل يوجد عاقل يحترم عقله ويعتز بدينه وقيمه يستطيع أن يصف الحركة أو رجالتها بأنّها حركة إصلاحية وإنّ

إمامها محيي السنّة ومميت البدعة؟!!

والكتاب الماثل بين يديك ـ أيّها القارئ الكريم ـ هو دراسة تحليلية للأُسس والمباني الفكرية للمذهب الوهابي محاولين من خلاله تسليط الأضواء على أفكارهم ومعتقداتهم بأُسلوب علمي رصين يعتمد المنهج العقلي والنقلي ولكن بأُسلوب سلس وعبارات واضحة، ليتسنّى لجيل الشباب الاستفادة منها على أكمل وجه، لكي لا يقعوا فريسة في شباك هذه الحركة الهدّامة.

وفي الختام أتقدم بالشكر والامتنان للشيخ الفاضل خضر آتش فراز (ذو الفقاري) الذي قام بترجمة الكتاب ونقله إلى العربية بأُسلوب واضح رصين، وأمانة خالصة كما هو شأنه دائماً، وتصحيحه بدقة متناهية حتّى ظهر بهذه الحلّة القشيبة.

أسأله سبحانه أن يتقبّل مني هذا الجهد اليسير وأن يهدي ثوابه ـ إن كان له ثواب وأجر ـ إلى روح والدي المرحوم آية الله الحاج محمد حسين الخياباني التبريزي قدس‌سره الذي يُعدّ ـ و بحق ـ أوّل شخصية عرّفتني حقيقة هذا المذهب والأخطار الكامنة في ذلك الفكر.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه‌السلام

١٧ ربيع الأوّل يوم مولد

منقذ البشرية الرسول الأكرم من عام ١٤٢٦هـ

الفصل الأوّل

الاتّحاد رمزّ الانتصار

يكمن في الاتّحاد والوحدة رمز انتصار الأُمم وتغلّبها على المشاكل والعوائق التي تقع في طـريقهـا، أو في الحقيقـة أنّ سرّ تطوّر الأُمـم وتكاملهـا ورقيّهـا رهين بمدى اتّحادها و إلفتها واستغلالها لجميع الطاقات والقدرات والإمكانات المودعة فيها مـادية كـانت أو معنـوية، بل انّ أسـاس نظام الكـون والحياة قـائم على هذا القانـون المحكم والسنّة الإلهية التي لا يمكن أن تتخلّف بحال من الأحـوال أبداً وهو قانون «الاتّحاد والتآخي».

ونحن إذا ألقينا نظـرة عابرة إلى عالم الطبيعـة وغيره من العوالم نجد فـاعلية هذا القانـون بجلاء ووضوح لا ريب فيـه، فالروافد الصغيرة تتحـوّل باتّحادها إلى أنهار عملاقة، وهذه الأنهار باتّحادها تخلق بحاراً ومحيطات مترامية الأطراف تغطي قسماً كبيراً من سطح الكرة الأرضية.

وهكذا الأمر إذا نظرنا إلى قطـرات المطر الصغيرة كيف تتحول إلى خزانات ماء كبيرة قادرة على تحريك عجلة أعظم المولّـدات الكهربائية (التوربين) وانّها في نفس الوقت قـادرة على إرواء أراضٍ زراعية شـاسعة جـداً لتخلق في الأرض ـ إن صحّ التعبير ـ ثورة خضراء وانقلاباً نباتياً يبهر العيون ويحيّر الألباب.

كذلك الأمـر بالنسبة إلى القطعـات والآلات المتفرّقة للمصـانع والماكنات فإنّها تتحوّل باتّحادهـا وترابطها إلى أجهزة عملاقـة ومصانع كبيرة قادرة على صنع الأعاجيب، والكلام نفسه يجري في النباتات فإنّ الشجرة لا تثمر ولاتؤتي أُكلها إلاّ

من خلال الاتّحاد والانسجام والتناسق بين جميـع أعضائها من الجذور إلى الساق والأغصان والأوراق.

ثمّ إذا انتقلنـا إلى الأُمور والمؤسسـات التنظيميـة في الحيـاة البشرية نجـد فاعلية هذا القانون جليّة جداً، فسرّ نجاح المدرسة ـ على سبيل المثال ـ و تكاملها يكمن في الـوحدة والتنـاسق بين جميع مكونـاتها البشرية والماديـة، ابتداءً بمـدير المدرسة ومروراً بالأساتذة والكادر الفني والخدمي، وعروجاً على الطلاب، والأُمور المادية من الكتاب إلى اللوحات والمقاعد و...

بل انّ فهم الـدروس واستيعـاب المادة الـدراسية هـو الآخـر رهين بتركيـز الذهن وجميع القـوى العقلية حـول موضوع واحـد وعنوان خـاص. حكمه حكم الآلـة الرافعـة التي تركـز جميع قـدراتها على مركـز وثقل واحد لتستطيع نقلـه من مكان إلى مكان آخر.

كما نجد أثر هذا القانون بوضوح في دراستنا لتاريخ الجيوش والحروب التي وقعت في العالم، فكم من جيش كان النصر حليفه والغلبة من نصيبه بسبب اتحاد قواه ومركزية قيادته، إذ يلتف حول قائد بصير ومحنّك ويعمل ضمن خطة موحدة ونظـام مـرسوم؛ وفي الـوقت نفسـه تجد الخيبـة والخسران والهزيمـة نصيب الجيش المنحلة قواه والمفكّكة عراه الذي تسوده الفوضىٰ وعدم الانسجام، بحيث تجد كلّ فرقة منه أو فوج أو فصيل يعمل على شاكلته ويخطط لوحده ويتحرك بمفرده.

ولا غرابة إذا ما وجدنا مجمـوعة مكونة من ٣٠٠رجل تنهزم وتؤسر من قبل رجلين أو ثلاث رجال فقط، وما هذا إلاّ بسبب وحدة الاثنين وتفرق الثلاثمائة!!

ولقـد أحسن الحكيم العـربي حينما جمع بنيـه ليوصيهـم بالـوحـدة والاتّحاد وليبين لهم أنّ سر نجاحهم في الحياة وتغلبهم على مشاق الحياة وصعابها يكمن في

الاتحاد والتآخي ومعرفة مخاطر الاختلاف والفرقة، وان سر انهزامهم يكمن في التشتت والتشرذم، والقصة معروفة حيث أعطى الشيخ الكبير لكلّ واحد من أبنائه عصا وأمره بكسرها على انفراد، فتمكّن الجميع من كسر العصي، ثمّ جمع لهم العصي في حزمة واحدة فطلب منهم كسرها فعجز الجميع عن كسرها، فأنشد يقول:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترىٰ خطب ولا تتفرقوا آحاداً
تأبى العصي إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسّرت آحادا[1]

إنّ العالم المعاصر الآن يحاول أن يتغلّب على المشاكل التي تعترض طريقه من خلال تشكيل المنظمات والهيئات الدولية و... التي يتم التجمع فيها لتبادل وجهات النظر وطرح الآراء والنظريات المتعددة ووضع الحلول المتنوعة والمقترحات المختلفة، ودراستها دراسة دقيقة ومتأنية والنظر إلى القضايا والمسائل من جميع أبعادها وزواياها، ثمّ الخروج بنتيجة تمثّل حصيلة التشاور وتبادل جميع الآراء وتلاقح الأفكار، بل هي في الحقيقة حصيلة وثمرة العقل الجماعي، بعيداً عن التزمّت والانفراد في الرأي واعمال الآراء الفردية.

وممّا لا ريب فيه أنّ تلاقح الأفكار وتعدّد وجهات النظر وطرح النظريات المختلفة ممّا يمنح الحقيقة دفعة قوية للانطلاق إلى الأمام والوصول إلى الهدف ويزيح الستار والغموض عن وجهها. نعم انّ في الاتحاد سر انتصار الأُمم وتطورها.

---

١. جاء في ديوان «گلستان سعدى» الباب الثالث، مجموعة أبيات تتّحد في مضمونها مع ما ذكرناه في المتن.

الاتّحاد في القرآن الكريم

لقد أولى القرآن الكريم مسألة الوحدة والاتّحاد اهتماماً خاصاً، وحثّ عليهما، وحذّر من مغبة الوقوع في التفرّق والتشرذم حيث قال سبحانه:

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾.(١)

ولعلّ السرّ في استعمال مصطلح «الحبل» في الآية المباركة هو أنّ مَثَل المجتمع الغارق في بحر ظلمات الفرقة والتشتّت وعدم التآخي، والمجتمع المبتلي بالنفاق والشقاق، كمثل الإنسان الواقع في قعر بئر من الظلمات، إذ يسعى جاهداً للإمساك بحبل ينقذه من الورطة التي وقع فيها والمصير الأسود الذي وصل إليه.

بل هناك نكتة جديرة بالانتباه، وهي أنّ من يراجع الذكر الحكيم يجد في بعض آياته إشارة واضحة إلى أنّ التفرّق والتشتّت يُعدُّ من وجهة نظر القرآن الكريم من أشدّ أنواع العذاب الإلهي الذي تبتلي به الأُمم والشعوب حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هُوَ الْقادِرُ على أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.(٢)

وهناك آيات أُخرى تشير إلى مفهوم دقيق آخر ومهم جداً، وهو أنّ الأُمم والمجتمعات التي تبتلي بالفرقة والتشتّت والتشرذم وتبتعد عن الحركة حول محور قيادي إلهي واحد، بعيدة كلّ البعد عن الرسول الأكرمﷺ ولا تربطها به صلّى الله

---

١. آل عمران:١٠٣.

٢. الأنعام:٦٥.

عليه وآله وسلم أيّة رابطة أو علاقة. قال تعالى معبراً عن تلك الحقيقة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾.(١)

الاتحاد في السنّة النبوية

لقد سلكت السنّة النبوية نفس المنهج القرآني في الحث على الاتّحاد والتآخي ولمّ الشمل ووحدة الصف، وأثنت على التماسك ورص الصفوف، وقد سعى الرسول الأكرم ﷺ إلى ترسيخ هذا المفهوم في وسط المجتمع الإسلامي من الناحية النظرية، كما سعى ﷺ إلى إنزاله إلى حيز التنفيذ بصورة عملية، ومن هنا كانت الخطوة الأُولى التي خطاها ﷺ حينما وطأت قدماه الشريفتان أرض المدينة واستقر به الأمر فيها أن آخى بين قبيلتي الأوس والخزرج.

وقد انطلق ﷺ من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ (٢)، ليصلح ويؤاخي بين هاتين القبيلتين اللّتين طالما خاضتا حروباً طاحنة بينهما، من هنا حاول الرسول ﷺ أن يقضي على الآثار السلبية والضغائن والأحقاد التي خلفتها تلك الحروب بين القبيلتين، فعقد بينهما عقد الأُخوة الإسلامية، وأبدل الضغينة والكره والبغضاء بالود والمحبة والإلفة بين الجانبين.

ولقد كان لهذه الحركة وقع الصاعقة على رؤوس يهود المدينة الذين غاظهم هذا الموقف الحكيم من الرسول الأكرم ﷺ، فسعوا جادّين لضرب تلك الوحدة والإلفة بين المسلمين، وكان على رأس اليهود شخصية شديدة العناد لهذا المشروع يدعى (شاس)، إذ سعى جادّاً لإحباط مشروع الرسول الأكرم ﷺ

١. الأنعام:١٥٩.

٢. الحجرات:١٠.

بكلّ الطرق والوسائل. ولقد نقل لنا التاريخ بعض تلك المحاولات والتي منها:

قال ابن إسحاق: ومرّ شاس بن قيس ـ وكان شديد الضغن على المسلمين، وشديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار؛ فأمر فتى شاباً من يهود فقال له: «اعمد إليهم ثمّ اذكر يوم بعاث وما كان قبله» وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج؛ ففعل الشاب اليهودي فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين فتقاولا، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم في من معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال:

«يا معشر المسلمين! الله، الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر،وألّف به بين قلوبكم». فعرف القوم انّها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً.[1]

وهناك نموذج آخر ذكره لنا التاريخ في هذا الخصوص وقع في السنة السادسة من الهجرة في غزوة بني المصطلق:

---

١. سيرة ابن هشام:٢/ ٢٥٠.

قال ابن إسحاق: خرج رسول الله إلى بني المصطلق حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فهزم الله بني المصطلق، فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا؛ فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي سلول وعنده رهط من قومه.[1]

وكادت أن تقع فتنة لولا أنّ الرسول الأكرمﷺ تصدّى لمعالجة الموقف بحنكته المعروفة حيث أمر بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول اللهﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.[2]

وبهذا استطاع الرسول أن يخمد نار الفتنة التي كادت أن تقع، وللرسولﷺ كلام في هذا المجال حيث قال: «دعوها فإنّها نتنة».

ولأمير المؤمنين عليه السلام كلام عميق وجذّاب في هذا المجال قال فيه:

«والزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب».

ولم يكتف أمير المؤمنين عليه السلام بهذا المقدار من الكلام، بل خطا إلى الأمام خطوة أوسع فقال:

«ألا مَنْ دعا إلى هذا الشِّعار فاقتلوه، ولو كان تحت عمامتي هذه».[3]

١و٢. نفس المصدر:٣/ ٣٠٣، غزوة بني المصطلق.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

الوحدة الإسلامية في إيران

ومن حسن الحظ أنّ الشعب الإيراني المسلم يعيش ولقرون متمادية ـ و ببركة الاقتداء بالقرآن الكريم وسيرة الرسول الأكرمﷺ وأهل بيته الطاهرين ـ أفضل حالات الانسجام والاتّحاد والتآخي في الله، ولقد استطاع هذا الشعب تحت ظل الوحدة والانسجام التغلّب على الكثير من المشاكل والمعوقات والصعاب التي اعترضت طريقه في مسيرة الحياة.

ولكن ـ و للأسف الشديد ـ تنطلق من هنا و هناك بعض الأصوات الشاذة والنكرة التي تغنّي خارج السرب، والعناصر الساذجة والتي ترتبط بجهات أجنبية مدعومة من قِبل خصوم الإسلام، تحاول ومن خلال إثارة بعض المسائل العقائدية بصورة ساذجة وسطحية وملتوية جداً، بذر الفتنة وزرع الفرقة، سعياً منهم لضرب هذه الوحدة الراسخة والتي تضرب جذورها في أعماق التاريخ.

ومن هنا وانطلاقاً من المهمة الملقاة على عاتق العلماء والمفكّرين في مواجهة تلك الحركات المشبوهة والأفكار الهدّامة، وبيان سذاجة ووهن الأفكار التي يطرحونها على الساحة، قمنا ولله الحمد ببيان وتوضيح أهمّ المسائل ـ التي يمكن أن ينطلق منها الخصم والتي تتمثل بمسألة «التوحيد والشرك» و «البدعة» ـ بصورة منطقية، معتمدين فيها القرآن الكريم والسنّة النبوية القطعية وحكم العقل الصريح، لتكون إن شاء الله مناراً يهتدي به الجيل والنشأ الحاضر المتعطش لنمير الفكر الإسلامي ومفاهيمه الراقية، الجيل الذي يسعى بكلّ إمكاناته وقواه لدرك الحقيقة والتمييز بين الحقّ والباطل، وتمييز الحكمة عن السفسطة، لينقذ نفسه من السقوط في شباك وأحابيل المنحرفين وحيلهم .

الفصل الثاني

ابن تيمية، حياته، عصره، أفكاره

مكانة التوحيد في الفكر الإسلامي

يمثّل التوحيد الأصل الأساسي الذي قامت عليه أُسس جميع الديانات السماوية، وهو الأصل الأوّل الذي أمر الله سبحانه أنبياءه ورسله بتبليغه والدعوة إليه ونشره بين الشعوب والأُمم المختلفة، وبالخصوص نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام (الذي تنسب إليه الديانات التوحيدية الثلاثة الكبرى: اليهودية، المسيحية، والإسلام). من هنا كان لهذا الأصل فاعليته وأهميته القصوى في الدين والمفاهيم الإلهية، الأمر الذي دعا الأنبياء وأتباعهم إلى التأكيد عليه وعدم التهاون فيه ولو تهاوناً يسيراً، فلا يمكن بحال من الأحوال لأيّ إنسان أن يدخل في حيطة الدين الإلهي الحقّ، ويُعدّ من زمرة المسلمين، إلاّ إذا اعتقد أوّلاً وبالدرجة الأُولى بأصل التوحيد والوحدانية. ومن هنا كان شعار المسلمين الذي رفعوه هو كلمة التوحيد: «لا إله إلاّ الله»، ومن الواضح أنّ هذا الشعار يحمل النفي والإثبات في آن واحد، نفي جميع الآلهة المصطنعة وإثبات إلوهية الله الفرد الصمد، الجدير بالعبودية والخضوع له.

ومن حسن الحظ أنّ المسلمين ـ و بالرغم من وجود بعض المسائل الخلافية ـ متّفقون على أصل التوحيد ولم يشذ فيه أحد منهم، وهناك سنن وعقائد كانت شائعة بين المسلمين ولم يشم منها المسلمون أيّة رائحة شرك أو بدعة في الدين،

مثل «طلب الشفاعة من أولياء الله تعالى والصالحين من عباده» و «تكريم مراقد وقبور الأولياء والاهتمام بها» ولا يرى المسلمون في ذلك تضادّاً مع أصل التوحيد وتجاوزاً على حدوده، وكان بعض الحاج من المسلمين يأخذ التراب من قبر سيد الشهداء حمزة(رض) (شهيد معركة أُحد) ليعمل منه مسبحة، بل نرى أنّ الخاقاني الشرواني من شخصيات القرن السادس الهجري نظم قصيدة يطلب فيها ممّن يزور المدائن ـ قبر الصحابي الجليل سلمان المحمّدي(رض)ـ أن يعمل له مسبحة من تراب قبره الشريف، ولقد كانت هذه القصيدة تقرأ على مرأى و مسمع من كبار المسلمين ، فلم تثر حفيظتهم ولم يروا فيها ما يضاد عقائدهم، بل على العكس من ذلك كان كبار المجتمع المكي يكتبون قصائده بماء الذهب، وكان الخليفة يدعوه إلى مجلسه ويستقبله بحفاوة و إكرام وتبجيل و....[١]

وهكذا استمر الأمر في أوساط المسلمين إلى أوائل القرن الثامن الهجري، حيث ظهر المدعو أحمد ابن تيمية، الذي حاول التشكيك في بعض عقائد وسنن المسلمين وحاول أن يشير بأصابع الريب والشك إلى تلك العقائد معترضاً عليها باعتبارها مخالفة لأصل التوحيد وأنّها على الضد معه، واعتبر أنّ الاعتقاد بها والعمل وفقاً لها، يُعدّ نوعاً من الشرك وابتعاداً عن جادة التوحيد، ومن النماذج التي اعتبرها ابن تيمية من مصاديق الشرك والابتعاد عن خط التوحيد مفهوم طلب الشفاعة من الأولياء، حيث ذهب إلى أنّ أصل الشفاعة في الآخرة حق لا مرية فيه، ولكن طلب الشفاعة من الأولياء في هذا العالم يُعدّ شركاً!

ومن هنا سنحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ في البحوث القادمة أن نسلّط الأضواء على ادّعاءاته وأفكاره، معتمدين في منهجنا هذا القرآن الكريم والسنّة

١. انظر ديوان الخاقاني: ٣٢٣، المقدّمة بقلم محمد العباسي.

النبوية القطعية، لنبين نقاط القـوة والضعف في أفكار الرجل بعيداً عن التعصّب له أو عليه. ولكن هـذا لا يمنعنا من أن نبدي أسفنا الشديـد على أنّ الرجل طرح أفكاره وعقائده ـ و التـي كانت عاملاً مهماً في بذر التفرقـة بين المسلمين ـ وأثارها في وقت وظرف حسّـاس جداً كان يعيشـه المسلمون في تلك الحقبة، حيث كـانوا يعانون أزمة شديدة وظروفاً عصيبة من تاريخهم، نعم لقد أُثيرت عقائده في الوقت الذي كانت البلاد الإسلامية تعيش بين كمّاشتين: الصليبية من جهة، والمغول من الجهة الأُخرى. وفي هذا الوقت الذي كانت فيـه الأُمّة بأشدّ الحاجة ـ أكثر من أيّ زمان آخـر ـ إلى الـوحدة ورصّ الصفـوف والتلاحم ورأب الصـدع لمواجهة تلك الأخطـار الجسـام والمحن الصعبـة، نجـد الـرجل يثير عقـائده ويعلن عن آرائه ومعتقداته.

ومن هنا يكـون تحليل ودراسة شخصية ابن تيمية والظـروف العصيبة التي كـانت تعيشها الأُمّـة الإسـلامية في ذلك العصر بمثـابة دروس وعبـر أسـاسية في التـاريخ الإسـلامي ينبـغي أن تسلـط عليها الأضـواء وتدرس دراسة متـأنّية ودقيقة.

عصر النهضة الإسلامية

تُعـدّ بدايـة القـرن الـرابع إلى أواسط القرن الخامس الهجـري من التـاريخ الإسـلامي من أفضل العصـور وأبـرزها، فقـد وصل المجتمع الإسـلامي في هـذه البرهـة الـزمنيـة إلى ذروة الرقـي والتطوّر والازدهـار الحضـاري في مجالات الحيـاة المختلفـة، كالعلم والأدب والسيـاسة و...، وكلّ ذلك حصل ببركـة رجال أفـذاذ وشخصيات عظيمة استطـاعت أن تقفز بالعالم الإسلامي قفزة نـوعية من أمثال:

الفيلسوف الكبير ابن سينا، وأبي ريحان البيروني، والفردوسي، والصاحب بن عباد، والخواجة نظام الملك الطوسي؛ حيث استطاع هؤلاء الفطاحل من العلماء والأُدباء والسياسيين أن يعرضوا صورة ناصعة للفكر والثقافة والحضارة الإسلامية الأمر الذي حدا بالمستشرقين أن يطلقوا ــ و بحق ـ على هذه الفترة من تاريخ العالم الإسلامي اسم عصر النهضة الإسلامية.

ولكن ـ و لشديد الأسف ـ ابتليت الأُمّة الإسلامية بعد هذا العصر الذهبي بمرض التفرقة، ودبّ في جسدها مرض الاختلافات والتناحر و التشرذم وتعدّد الأهواء والميول السياسية والفكرية، ممّا كان له الأثر الفاعل في تفريغ الأُمّة من الرجال العظام والشخصيات الكبيرة الأمر الذي أدّىٰ بدوره إلى أُفول شمس القوّة الإسلامية وضعف شوكتها، وطمع الأعداء بها.

الحروب الصليبية

لقد كان الغرب الصليبي ـ الذي مازال يتجرّع مرارة الهزيمة أمام الجيش الإسلامي في الأندلس وانتشار الإسلام في القارة الأُوروبية ـ يرصد الوضع في العالم الإسلامي ويراقب الأُمور عن كثب، ويتحيّن الفرصة المناسبة للانتقام من الإسلام والمسلمين، ولمّا أحسّوا بضعف المسلمين وتشتّت كلمتهم في أواخر القرن الخامس الهجري أصدر البابا في روما الأوامر بالهجوم على قبلة المسلمين الأُولى فلسطين فلبّى هذا النداء مئات الآلاف من المسيحيّين الأُوروبيين ـ بصدور ملؤها البغض والكراهة والأحقاد الدفينة للتوحيد والموحّدين ـ فارتكبوا أبشع الجرائم وانتهكوا الحرمات، وحوّلوا القدس إلى حمام دماء وساحة تناثرت فيها الأشلاء، وكانت هذه هي البداية للحروب الصليبية التي استمرت ما يقرب من ٢٠٠ عام

(٤٨٩ـ ٦٩٠هـ.ق الموافق لعام ١٠٩٥ـ ١٢٩١م) والتي راح ضحيتها الملايين من القتلىٰ والجرحىٰ والمشرّدين والمعذّبين.

زحف التتار

والذي يؤسف له أنّ الأُمّة الإسلامية لم تلملم شملها بعد ولم تضمّد جراحها التي تلقتها من الغرب الصليبي، حتى ابتليت بعدوٍ مارد وإعصار كاسح أصابها هذه المرّة من قبل الشرق، والذي تمثّل بجيوش المغول الزاحفة بقيادة جنكيزخان التي عاثت في أرض المسلمين فساداً، وأهلكت الحرث والنسل، وبعد خمسين عاماً من بداية الهجوم المغولي على الأراضي الإسلامية تمكّن حفيد جنكيزخان، «هولاكو» من دخول بغداد وتدميرها وإنهاء عصر الخلافة العباسية وطي صفحتها من الوجود، وذلك في عام (٦٥٦هـ).[١]

ولم يقف الزحف المغولي عند بغداد وحدودها بل استمر الزحف باتجاه الشام حيث صنعوا بحلب والموصل مثل ما صنعوا ببغداد، وذلك في الفترة ما بين عام ٦٥٧ إلى ٦٦٠هـ، في الوقت الذي كانت فيه كلّ من مصر والشام تواجه الغزو الصليبي بعنف وضراوة حتّى أنّ بعض طلائع الجيوش الصليبية قد اقتربت في بعض الفترات من مدينة القاهرة ، ولولا وفاة الخان المغولي الكبير «منگوقاآن» الأخ الأكبر لهولاكو، ممّا اضطر هولاكو لمغادرة الشام والعودة إلى إيران ، وانهزام قائده كيتوبوقا ـ الذي أوكل إليه هولاكو مهمة فتح مصر ــ أمام المسلمين في معركة عين جالوت (في فلسطين)، لما علم ماذا سيكون مصير القاهرة إلاّ الله سبحانه.

---

١. راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري:١٢/ ٣٥٨ـ ٣٦١.

ولقد كان لهجوم المغول على الأراضي الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري، أثره الإيجابي على الغرب الصليبي، فتلقّوا ذلك الحدث بارتياح تام، واعتبروها فرصتهم الذهبية للقضاء على الإسلام وإنهاء وجوده بالكامل، ومن هنا استثمروا هذه الفرصة الذهبية وبدأوا تحركهم للقضاء على الحضارة الإسلامية في الأندلس، وقد استمرت هذه الحروب ما بين (٦٠٩ـ ٨٨٩هـ)، والجدير بالذكر أنّه وطوال تلك الفترة كانت الوفود الصليبية تقوم بحركة مكوكية في البلاط المغولي، وكان همّهم الأساسي ودورهم الرئيسي منصباً على التنسيق مع المغول لوضع العالم الإسلامي بين كمّاشتين والقضاء عليه من الجانبين. ولقد كان تواجد أُسرة ماركوپولو في البلاط المغولي لهذا الغرض.

أضف إلى ذلك أنّ أُمّ هولاكو نفسه وزوجته كانتا من النساء المسيحيات، وكان قائد جيشه في بلاد الشام كيتوبوقا هو الآخر نصرانياً أيضاً.

وهكذا استمر التحالف المغولي الغربي في عهد خلفاء هولاكو الايلخانيين حيث استطاع هولاكو أن يؤسّس دولة مغولية جديدة مستقلة هي الدولة الايلخانية، والتي انفصلت تدريجياً عن الامبراطورية المغولية الكبرىٰ.

نعم استمر التواجد والتأثير المسيحي في هذه الدولة حيث نجد أنّ «اباقاخان» ابن هولاكو والذي حكم ما بين (٦٦٣ـ ٦٨٠هـ) قد اقترن بابنت امبراطور الروم الشرقية، وتحالف مع السلاطين الفرنسيين و الانجليز ضد المسلمين، وقاد الجيوش نحو مصر والشام.

والأدهىٰ من ذلك والأفضع موقف ابنه «ارغون» (حكم ما بين ٦٨٣ ـ ٦٩٠هـ) حيث وقع الرجل تحت تأثير وزيره اليهودي سعد الدولة الأبهري، الذي راح يسوّل له غزو مكة المكرمة واحتلالها وتحويل الكعبة إلى معبد للأوثان،

والقضـاء على رجال السيـاسـة والـدين من المسلمين، فأخذ يُعـد العـدة ويهيئ الجيوش والعساكر لغزو الحجاز وتنفيذ الخطة المشؤومة،ولكن ومن حسن الحظ انّ الله سبحـانه كـان له بـا لمرصاد حيث انتهت هـذه الغائلـة بمرض ارغـون ومقتل سعدالدولة.

حتى السلطـان المغـولي غازان بن ارغـون (٦٩٤ــ ٧٠٣هــ) والذي يُعـد السلطـان المغولي الأوّل الـذي اعتنق الدين الإسـلامي، هو الآخـر كان يفكـر في باديء الأمـر بفتح دمشق والقاهـرة وقد وقعت بـالفعل في عصره بين عام ٦٩٩إلى ٧٠٢هــ معارك بين جيـوش المغول وسـلاطين مصر وحظيت تلك الوقـائع التي أحدثها غازان، بمباركة وتشجيع ودعم الصليبيين.(١)

في تلك الظروف الحسّاسة والوضع القلق الذي يعيشه العالم الإسلامي ظهر ابن تيمية ناشراً أفكاره ومعتقداته، والتي جوبهت بردة فعل شديدة من قبل علماء المسلمين الأعم من السنّة والشيعـة، فأحدثت تلك الأفكار شرخـاً كبيراً في جسد الأُمة الـذي كان بأشدّ الحاجة إلى الـوحدة ولمّ الشمل ومواجهة الأخطـار الجسام التي تحيط به.

ولقد كـان العالم الإسـلامي بحاجة مـاسّة في تلك الفترة العصيبـة إلى قائد محنّك ورائد كبير يستطيع بقاطعيته وشجـاعته أن يجمع المسلمين على المشتركات بينهم، والتي تتمثّل بـ «الإلـه الواحد والرسـول الواحد والكتاب الـواحد والقبلة الـواحدة»، ليخلق من العـالم الإسلامي جبهـة متماسكة ووجـوداً متّحداً لمواجهـة

١. انظـر للاطـلاع على الجرائم المروعـة والفضـائع التي قام بها المغـول وتحالفهم مع الصليبيين ضـد المسلمين «تاريخ المغول» للمرحوم المحقق عباس اقبال الآشتياني الصفحات:١٩١ـ ١٩٧ و٢٠٢ ـ ٢٠٤ و ٢٠٧ـ ٢١٦ و ٢٣٧ـ ٢٤٥ و ٢٦٦ ومابعدها.

العـدو المشترك المتمثّل يومهـا بـالصليبيين واليهود والـوثنيين. ولكن ــ و لشديـد الأسف ـ ما قام به ابن تيمية كان على العكس من ذلك تماماً.

أحمد بن تيمية

ولـد أحمد بن تيميـة عـام ٦٦١هــ بعد خمسـة أعـوام من سقـوط الخلافـة الإسلامية في بغداد، في مدينة «حرّان» من بلاد الشام، وواصل دراسته الأوّلية فيها حتّى بلغ السـابعة عشر من عمـره، وفي تلك البرهة كـان العالم الإسـلامي عامـة وبـلاد الشام خـاصة عـرضة لغـزو جيوش المغـول. وقد أحـدثت تلك الهجمات المغولية على أطراف الشام حالة من الرعب الشديد والهلع في قلوب الناس، الأمر الذي حدا بوالـده عبد الحليم أن يشد الرحال مع أفراد اسرته وأقاربـه تاركاً حرّان ومتوجهاً إلى دمشق حيث ألقىٰ رحله هناك.

وحتى العام ٦٩٨هــ كان ابن تيمية شخصية مغمـورة لم يسمع عنها شيء ما، ولكن مع إطـلالة القرن الثـامن بدأ الـرجل بنشر أفكاره الشاذّة وعـرضها بين الناس وخاصة حينما طلب منه أهل «حماة» أن يفسر لهم قوله تعالى: ﴿**الرّحمن عَلى الْعَرْشِ اسْتَوى**﴾[1] حيث زلّت به قدمه في تفسيره لهذه الآية، فأجاب بما هو نص في التجسيم، وأثبت أنّ لله مكاناً في السماء، وأنّه متكئ على العرش.[2]

إنّ أكثر المسلمين وخـاصة الشيعـة منهم ينزّهـون الله سبحانـه عن الجسم

---

١. طه:٥.

٢. انظر الرسالة الحموية:٤٢٩، ضمن مجموعة «الرسائل الكبرى». والغريب أنّ ابن تيمية قد استدلّ على مدّعاه ـ و اعتبر ذلك مـلاك الحقيقة ـ بالتصوّر الساذج والفهم الخاطئ لفرعون، والذي كان يتصور إنّ إله مـوسى مستقر في السماء، فاستدلّ ابن تيميـة بقوله: ﴿**يا هامـانُ ابنِ لي صَرحاً لعَلّي أَبلُغُ الأَسْبابَ* أَسبابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسىٰ**﴾.(غافر:٣٦ـ٣٧).

والجسمانية، وإنّه تعالى لا يحيطه شيء من الزمان والمكان، وإنّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء﴾ و ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحد﴾ يردعهم عن تشبيه الله سبحانه بصفات المخلوقين، ولكن نرى أنّ ابن تيمية قد جاء في تفسيره للآية السابقة بما يخالف تلك الآيات، ويستلزم تشبيهه سبحانه بمخلوقاته.

وقد كان لتفسيره المذكور للآية المباركة ردّة فعل شديدة وأحدث ضجّة كبيرة في أوساط المسلمين طلب على أثرها العلماء من القاضي جلال الدين الحنفي، إحضاره ومحاكمته، فوجّه إليه القاضي المذكور الدعوة لكنّه امتنع عن الحضور إلى قاعة المحكمة.

وهكذا استمر ابن تيمية في عرض أفكاره الشاذّة، وعقائده المخالفة للمشهور في أوساط المسلمين محدثاً بذلك حالة من التشنّج والانفعال في الوسط الإسلامي، حتى حكم عليه في عام ٧٠٥هـ وأُبعد إلى مصر، ثمّ أُطلق سراحه عام ٧٠٧هـ ولم يرجع إلى الشام إلاّ عام ٧١٢هـ حيث بدأ في نشر أفكاره ونظرياته مجدّداً، حتّى حكم عليه مرّة أُخرى عام ٧٢١هـ بالسجن، وبقي مسجوناً إلى أن توفّي مسجوناً عام ٧٢٨هـ.[1]

ولقد أصدر علماء الشام ومصر الكبار بياناً أوضحوا فيه الخلل في عقائد ابن تيمية وشطحاته الفكرية، وبما أنّ المقام لا يسع لنقل ذلك البيان، نكتفي بذكر خلاصة من بعض كلمات العلماء ليطّلع القارئ على الدور التخريبي الذي أحدثته أفكار الرجل في الوسط الإسلامي، وكيف أنّها بذرت بذرة النفاق في أوساط المسلمين.

١. انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية: ١٤/ ٤ـ٥٢.

العلماء الذين تصدّوا له

ولكن قبل التعرّض لذكر أسماء العلماء الذين أصدروا البيان المذكور نحاول أن ننقل مقطعاً من شهادة شهد بها مؤرّخ محايد، شاهدها بأُمّ عينه ونقلها ممّا شاهده، يقول الرّحالة ابن بطوطة:

وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلّم في الفنون إلاّ أنّ في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم ويعظهم على المنبر. وتكلّم مرّة بأمر أنكره الفقهاء، ورفعوه إلى الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة ... فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على المنبر الجامع ويذكّرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: «إنّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا»، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزاهراء، وأنكر ما تكلّم به، فقامت العامّة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته.[١]

لا شكّ أنّ ابن تيمية لم يكن بالشر المطلق، بل كانت للرجل نقاط قوّة كما كانت له نقاط ضعف وخلل في التفكير، إلاّ أنّ أتباعه ومريديه ركّزوا على نقاط القوّة في شخصيته، وأغمضوا عيونهم عن نقاط الضعف والخلل في شخصيته، ولكنّ الباحثين عن الحقيقة الذين يحدوهم طلب الحقّ نظروا إلى الرجل من الزاويتين، وأخذوا في نقد أفكاره ونظرياته بنفس علمي بعيداً عن التعصّب والميول الشخصية، ومن العلماء الذين تعرّضوا لدراسة أفكار الرجل ونقدها العلماء التالية أسماؤهم أدناه، والذين يُعدّ كلّ واحد منهم من أساطين العلم

١. رحلة ابن بطوطة: ١١٢ـ ١١٣.

ورموزه في الشام ومصر، فاعتبروا آراءه مخالفة ومغايرة لتعاليم الأنبياء والأولياء:

١. الشيخ صفي الدين الهندي الأُرموي(٦٤٤ـ ٧١٥هـ).

٢. الشيخ شهاب الدين ابن جهبل الكلابي الحلبي (المتوفّى ٧٣٣هـ).

٣. قاضي القضاة كمال الدين الزملكاني (٦٦٧ـ ٧٣٣هـ).

٤. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (المتوفّى ٧٤٨هـ)

٥. صدر الدين المرحّل (المتوفّى ٧٥٠هـ).

٦. علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفّى ٧٥٦هـ).

٧. محمد بن شاكر الكتبي (المتوفّى ٧٦٤هـ).

٨. أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي(٦٩٨ـ ٧٦٨هـ).

٩. أبو بكر الحصني الدمشقي (المتوفّى ٨٢٩هـ).

١٠. شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ).

١١. جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي (٨١٢ـ ٨٧٤هـ).

١٢. شهاب الدين ابن حجر الهيثمي (المتوفّى ٩٧٣هـ).

١٣. الملا علي القاري الحنفي(المتوفّى ١٠١٦هـ).

١٤. أبو الأيس أحمد بن محمد المكناسي المعروف بأبي القاضي (٩٦٠ـ ١٠٢٥هـ).

١٥. يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني (١٢٦٥ـ ١٣٥٠هـ).

١٦. الشيخ محمد الكوثري المصري (المتوفّى ١٣٧١هـ).

١٧. الشيخ سلامة القضاعي العزامي (المتوفّى ١٣٧٩هـ).

١٨. الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ـ١٣٩٦هـ).[١]

وقد ألّف بعض العلماء كتباً خاصة بنقد أفكاره والرد عليها كتقي الدين السُّبكي الذي ألّف في الردّ على ابن تيمية كتابين: الأوّل منهما تحت عنوان «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»، والآخر: «الدّرة المضية في الرد على ابن تيمية».

ولأجل أن يقف القارئ على آراء معاصريه وغيرهم من مفكّري وعلماء أهل السنّة وتقييمهم للرجل وللأفكار التي جاء بها. نقتطف بعضاً من تلك الكلمات:

كلام الحافظ شمس الدين الذهبي (المتوفّى ٧٤٩هـ)

يُعدّ الحافظ الذهبي من كبار علماء أهل السنّة في الحديث و الدراية، وكان تربطه بابن تيمية رابطة مذهبية، حيث ينتمي الرجلان إلى المذهب الحنبلي، وقد كتب الذهبي رسالة مطوّلة إلى ابن تيمية ينصحه فيها ويبيّن له نقاط الخلل في منهجه الفكري والعلمي، وممّا جاء في الرسالة:

ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟! إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمّ العلماء وتتبع عورات الناس؟! مع علمك لنهي الرسول ﷺ.

ثمّ تعرّض الذهبي لتقييم أتباع ابن تيمية ومريديه فقال: فهل معظم

---

١. راجع للاطّلاع على آراء هؤلاء الأعلام موسوعة بحوث في الملل والنحل لآية الله جعفر السبحاني: ٤/ ٣٧ـ ٥٠.

أتباعك إلاّ قعيد مربوط خفيف العقل؟! أو عامّي كذّاب بليد الذهن؟! أو غريب واجم قوي المكر؟! أو ناشف صالح عديم الفهم؟! فإن لم تصدقني ففتّشهم وزنهم بالعدل.

ثمّ انتقل الذهبي لبيان أُسلوبه ومنهجه الأخلاقي فقال: إلى كم تصادق نفسك وتعادي الأخيار؟! إلى كم تصادقها وتزدري الأبرار؟!

إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟! إلى متى تخاللها وتمقت الزهّاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح ـ و الله ـ بها أحاديث الصحيحين؟! يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك!!

ثمّ قال: أمّا آن لك أن ترعوي؟! أما حان لك أن تتوب وتنيب؟! أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟! بلى ـ و الله ـ ما أذكر إنّك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت، فما أظنّك تقبل قولي ولا تصغي إلى وعظي.

وبعد إيراد وعظه أشار الذهبي إلى نكتة مهمة، حيث قال: فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟! وأعداؤك ـ و الله ـ فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أنّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة، وبطلة وعود وبقر، قد رضيت منك بأن تسبّني علانية، وتنتفع بمقالتي سرّاً، فرحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي.[١]

هذه بعض كلمات الذهبي والتي لو تأمل فيها الإنسان لوقف على فداحة المنهج وخطر الفكر الذي كان يعتمده ابن تيمية، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الرسالة جاءت على لسان مشفق محب ودود لا تحمله ضد ابن تيمية ضغينة حقد أو حسد أو عداء مذهبي.

---

١. راجع السيف الصقيل:٢١٧؛ والغدير:٨٧.

الحافظ علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفّى ٧٥٦هـ)

ترجمه ولده في طبقات الشافعية وهو أحد من ردّ على ابن تيمية وألّف كتاباً أسماه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» و ربّما سمّي «شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة»[١]، وهو يعرّف والده ويقول: «إمام ناضح عن رسول الله بنضاله، وجاهد بجداله، حمي جناب النبوة الشريف، بقيامه في نصره، وتسديد سهامه للذب عنه من كنانة مصره ـ إلى أن قال: ـ قام حين خلط على ابن تيمية الأمر، وسوّل له قرينه الخوض في ضحضاح ذلك الجمر، حين سدّ باب الوسيلة، وأنكر شدّ الرحال لمجرد الزيارة، ومابرح يدلج ويسير حتى نصر صاحب ذلك الحمى الذي لا ينتهك، وقد كادت تذود عنه قسراً صدور الركائب. وتجهر قهراً أعنّة القلوب بتلك الشبهة التي كادت شرارتها تعلق بحداد الأوهام... كيف يزار المسجد ويخفى صاحبه أو يخفيه الإبهام؟! ولولاه ﷺ لماعرف تفضيل ذلك المسجد، ولولاه لما قدّس الوالي ولا أُسّس على التقوى مسجد في ذلك النادي، شكر الله له، قام في لزوم ما انعقد عليه الإجماع».[٢]

وقال أيضاً في خطبة كتابه «الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: أمّا بعد فإنّه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أُصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب، والسنّة، مظهراً أنّه داع إلى الحقّ، هاد إلى الجنّة، فخرج عن الابتداع، وشذّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدّسة، وانّ الافتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات الله

١. طبقات الشافعية: ١٠/ ٣٠٨.

٢. طبقات الشافعية: ١٠/ ١٤٩ـ ١٥٠، وللكلام صلة.

تعـالى، وانّ القـرآن محدث تكلّم الله بـه بعـد أن لم يكن، وانّـه يتكلّم ويسكت، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلـوقات، وتعدى في ذلك إلى استلـزام قدم العالم، والتـزم بالقول بأنّـه لا أوّل للمخلوقات فقـال بحوادث لا أوّل لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلـوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملّة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاثة والسبعين التي افترقت عليها الأُمّة،ولا وقفت بـه مع أُمّة من الأُمم همة. وكلّ ذلك وإن كان كفراً شنيعاً لكنّه نقل جملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع.[1]

محمد بن شاكر الكتبي(المتوفّى ٧٦٤هـ) وموقفه من ابن تيمية

قـال في «فوات الـوفيـات» في ترجمة ابن تيميـة:«إنّـه ألّف رسالـة في فضل معاوية وفي أنّ ابنه يزيد لا يسب».[2]

وقال معلّقاً على ذلك: هذه الرسالة تعرب عن نزعته الأُموية، ويكفي القول في الوالد والولد ﴿**ووالد وما ولد**﴾ انّه بدّل الحكومة الإسلامية إلى الملكية الوراثية، ودعا عبـاد الله إلى ابنه يـزيد، المتكبّر، الخمّير، صاحب الـديوك والفهـود والقرود، وأخذ البيعـة له على خيار المسلمين بـالقهر والسطوة والتـوعيد والإخافـة والتهدّد والرهبـة، وهو يطلع على خبثه ورهقـه، ويعاين سكره وفجـوره، ولما استتبّ الأمر ليزيد أوقع بأهل الحرة الوقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، وظن أنّه قد انتقم من أولياء الله، فقال مجاهراً بكفره:

---

١. المصدر نفسه:١٠/ ١٨٦. وتوفّي السبكي تقي الدين والد تاج الدين عام ٧٥٦هـ وتوفّي الولد عام ٧٧١هـ.

٢. فوات الوفيات:١/ ٧٧.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وهذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله؛ ثمّ من أغلظ ما انتهك وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله، مع موقعه من رسول الله، ومكانه منه، ومنزلته من الدين والفضل، وشهادة رسول الله له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، اجتراءً على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمته، فكأنّما يقتل به وبأهل بيته قوماً من الكفّار.[1]

شهاب الدين ابن حجر الهيتمي (المتوفّى ٩٧٣هـ)

قال في ترجمة ابن تيمية: ابن تيمية عبد خذله الله، وأضلّه وأعماه وأصمّه وأذلّه، وبذلك صرّح الأئمّة، الذين بيّنوا فساد أحواله، وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتّفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد؛ أبي الحسن السبكي، وولده التاج، والشيخ الإمام العز بن جماعة، وأهل عصرهم.

ثمّ قال: والحاصل أنّه لا يقام لكلامه ـ ابن تيمية ـ وزن، بل يرمى في كلّ وعر وحزن، ويعتقد فيه أنّه مبتدع، مضل، غال، عامله الله بعدله، وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله.[2]

ولقد كان للمواجهة القوية وردّة الفعل الشديدة من قبل العلماء والمفكّرين

---

١. مأخوذ من كتاب (المعتضد)، نقله الطبري في تاريخه: ١١/ ٧٧، وانظر فوات الوفيات: ١/ ٧٧.

٢. الفتاوى الحديثية: ٨٦. ونقله الشيخ محمد بخيت (المتوفّى ١٣٥٤هـ) في كتابه «تطهير الفؤاد»: ٩، طبع مصر.

المسلمين تجاه آراء الرجل ومعتقداته أثرها الفاعل في اندحارها وانكفائها ووضعها في زاوية النسيان، و إهمالها إهمالاً كاملاً، وكأنّها لم توجد يوماً ما في الوسط الإسلامي.

وكان موقف العلماء هذا ــ و بحق ــ تجسيداً حيّاً وامتثالاً رائعاً لقوله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أُمّتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله».(١)

وهكذا اختفى مذهب ابن تيمية وأفكاره ونظرياته عن الأنظار، إلاّ ما كان منها في كتب تلميذه ابن قيم الجوزية (٦٩١ــ ٧٥١هـ)، بل حتى تلميذه ابن قيّم الجوزية نفسه وقف متحدّياً أُستاذه في كتاب «الروح».

هذه هي إطلالة سريعة على شخصية ابن تيمية، وموقف علماء المسلمين منها، وبيان سبب انزوائها وخفائها فترة طويلة من الزمن، وحان الوقت للبحث عن العوامل والأسباب التي أدّت إلى إحياء أفكاره من جديد وطرح نظرياته في أوساط المسلمين في القرن الثاني عشر الهجري، لتخرجها من الظلام وتنفض عنها غبار الإهمال. وهذا ما نبحثه في الموضوع التالي إن شاء الله تعالى.

١. الكافي:١/ ٥٤، باب البدع والرأي.

الفصل الثالث

الوهابية، الأُسس الفكرية، والمنهج العملي

١

الظروف التي أُثيرت فيها أفكار ابن تيمية من جديد

قد اتّضح جلياً في الفصل السابق أنّ ابن تيمية أثار أفكاره ونظرياته في وقت كان يعيش فيه العالم الإسلامي أقسى الظروف وأشد الصعاب والتحدّيات، ويواجه أعتى الجيوش الغازية من جهتي المشرق والمغرب المتمثّلة بالمغول والصليبيّين، وكان العالم الإسلامي في تلك البرهة ــ وكما هو واضح ــ بأمسّ الحاجة إلى الوحدة والاتّحاد والتآخي والالتفاف حول المشتركات ونبذ العوامل التي تثير الفرقة والتشتت والانقسام وتثير الجدل.

ومن هنا لو فرضنا ـ جدلاً ـ أنّ أفكار الرجل ومعتقداته كانت قائمة على أُسس متينة وأدلّة محكمة يدعمها القرآن الكريم والسنّة المطهّرة ودليل العقل، إلاّ أنّه ممّا لا ريب فيه أن الرجل لم يكن موفقاً في توقيته لإثارة أفكاره من الناحيتين المكانية والزمانية معاً.

هذا إذا سلّمنا بصحّة آراء الرجل ونظرياته، وأغمضنا النظر عن الموقف الصارم الذي وقفه علماء الإسلام منه، سواء في ذلك المعاصرون وغير المعاصرين، فكيف إذا سلّطنا الضوء على آرائه التي تزخر كلّ واحد منها بالمتناقضات، و

تحمل في طياتها من الخلل والسقم ما لا يخفى، وبيّنا وهنهـا وضعفها وبعدها عن منطق العقل و البرهـان ومفـاهيم القرآن والسنّـة المطهّـرة، كما سيتّضح ذلك من البحوث القادمة إن شاء الله تعالى؟!

وعلى كلّ حـال فقد تعـرّضت أفكار ابن تيميـة للنقد والتفنيـد منذ الأيـام الأُولى لإثـارتها ، ولقـد كانت الـردود والنقـود بـدرجـة من القوّة والمتـانـة بحيث استطاعت أن تدحر آراءه ومذهبه وتقصيهما عن الساحة في السنين الأُولى؛ ولكن بالـرغم من ذلك وبعد خمسـة قرون من الإنـزواء والإهمال، أخذت تلك الآراء في العودة إلى الساحة الإسلامية والظهور في الأوساط العلمية من جديد على يد رجل يدعىٰ محمد بن عبد الوهاب. حيث تمكّـن الرجل من نفض غبار العزلة والانزواء عنها و إعادتها إلى الوجود، ولكن لا على أساس من المنطق و الدليل والبرهان، بل تحت سطوة السلطـان وحد السيف، ممّـا أودى بحياة الكثير من المسلمين وسلب ذراريهم ونهب أموالهم، ويكفي في إثبـات ذلك مطالعة تاريخ الجزيـرة العربية في تلك الفترة ومـا تـلاهـا. وبهذا تمكّن الـرجل من إحـداث شرخ في جسـد الأُمـة الإسلامية وتمزيق صفّها من جديد.

والغريب في الأمر ـ والذي يؤسف لـه بشدة ـ أنّ إثارة أفكار ابن تيمية من قبل محمد بن عبـد الوهاب قـد تمّت في ظروف شـديدة الحساسيـة والخطورة بنحو لا تقل عن حساسية وخطورة الظـروف التي أثار ابن تيمية أفكاره فيها ، إن لم تكن أشدّ خطورة وحسّاسية ، وكأنّـه قد وضعت تلك الأفكار من أجل إيجاد الفـرقـة والتشتّت و التصـدّع في جسـد الأُمّـة الإسـلاميـة في أحلك الظـروف وأصعبها!!

فلقد روّج محمـد بن عبد الـوهاب ــ والذي نسبت الطـريقة إليـه ـ لتلك

الأفكار مدعوماً بالحماية والإسناد العسكري من قبل بعض شيوخ قبائل نجد، وشرع في غزو المناطق الإسلامية في الحجاز والعراق و الشام واليمن، ما بين النصف الثاني من القرن الثاني عشر إلى أوّليات القرن الثالث عشر الهجري المقارن للتاسع عشر الميلادي في الوقت الذي كانت فيه البلاد الإسلامية تتعرّض لحملة صليبية جديدة من أربعة محاور.

فلقد استطاع الإنجليز السيطرة على القسم الأعظم من الأراضي الهندية، وتمكّنوا من إنهاء الامبراطورية التيمورية الإسلامية فيها بقوّة السلاح تارة، وبالخديعة والمكر أُخرى. و كان يجول في أذهانهم حلم الهيمنة على أراضي البنجاب وكابل و الخليج الفارسي، ولقد كانت طلائع جيوشهم تسير بخطى متواصلة زاحفة باتّجاه جنوب إيران وغربه.

وأمّا الفرنسيون فقد تمكّنوا وبقيادة نابليون من احتلال كلّ من مصر وسورية وفلسطين والهيمنة على مقدّراتها في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الإسلامية العثمانية منشغلة بكيفية معالجة المشكلة في الأراضي الهندية.

ومن جهة ثالثة نجد الروس (من أتباع الروم الشرقية) أيضاً يفكّرون في التوسّع من خلال اقتطاع جزء من أشلاء جسد الأُمّة الإسلامية، وذلك في محورين: الأوّل: يتمثّل في التقدّم باتّجاه القسطنطينية وفلسطين، والمحور الثاني يتمثّل في الزحف نحو الأراضي الإيرانية وصولاً إلى الخليج الفارسي.

ومن هنا جعلوا في أولويات عملهم الهيمنة العسكرية على الأراضي الإيرانية وتوابع الامبراطورية العثمانية في أُوروبا والقفقاز.

بل حتى الأمريكان اشرأبّت أعناقهم وسال لعابهم للهيمنة على بعض الأراضي الإسلامية وإمكاناتها، في شمال أفريقيا، وقد قاموا فعلاً ولتحقيق حلمهم

هذا بالغارة على المدن الليبية والجزائرية.

وهكذا توالت الأحداث المريعة واشتدت الهجمة على البلاد الإسلامية، ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، بل نشبت ــ و في تلك البرهة أيضاً ــ الحرب بين الامبراطورية العثمانية والنمسا حول صربيا، وكذلك تمّ التحالف العسكري بين الأُسطولين الهولندي والانجليزي لإحكام الطوق على العاصمة الجزائرية ومحاصرتها.

في هذه الظروف العصيبة والمحنة الشديدة التي يعيشها العالم الإسلامي والتي كانوا فيها في أمسّ الحاجة إلى الوحدة ولمّ الشمل والتكاتف ورصّ الصفوف في وجه القوات الغازية، يعلن محمدبن عبد الوهاب حملته على المسلمين متّهماً إيّاهم بالشرك والخروج عن خط التوحيد، لإيمانهم بـ «طلب الشفاعة من الصالحين»، أو «زيارة قبور الأولياء»، وغير ذلك من المعتقدات، وقد أعمل هو وأتباعه فيهم السيف وقتل الأنفس ونهب الأموال وسبى الذراري، معتبراً كلّ ما يقوم به جهاداً في سبيل الله ومواجهة للمشركين و الكافرين!!!

ولم يسلم من سيفه ولسانه السنّة والشيعة على السواء ممّن كانوا في العراق والشام واليمن وغيرها.

والأنكى من ذلك والأعجب أنّه أصدر ـ باعتباره يرى نفسه فقيهاً ـ فتوى لم يسبقه أحد من المسلمين فيها، حيث أفتى فيها بكفر المسلمين وجواز قتلهم واستباحة أموالهم، ودعا أتباعه ومريديه لغزو البلاد الإسلامية و إعمال السيف فيهم إن لم يتوبوا، كلّ ذلك تحت ستار الشرك والخروج من الدين، الأمر الذي كانت له مردودات سلبية ونتائج عكسية طوال هذه الفترة.

قال في كتابه «كشف الشبهات»: «من جعل بينه و بين الله وسائط يدعوهم

ويسألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم كفر إجماعاً».[١]

وقال أيضاً: إنّ من نخا نبيّاً أو ملكاً أو ندبه أو استغاث به، فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله ﷺ.[٢]

إنّ القسوة والصلافة التي تكمن في هذا المذهب وصلت إلى حدّ لا يصدّق، وما مظاهر القسوة من القتل والاغتيالات و... التي يقوم بها الوهابيون الآن في الباكستان وأفغانستان إلاّ نماذج حيّة لهذا الوجه القبيح.

إذا عرفنا ذلك نعطف الكلام إلى دراسة حياة مؤسّس المذهب الوهابي،وتسليط الضوء على سلوكه ومنهجه في الحركة.

---

١. كشف الشبهات: ٨٧.

٢. نفس المصدر:٥٨.

٢

محمد بن عبد الوهاب

نشأته ووفاته

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ في مدينة «العيينة» في نجد، وكان والده الشيخ عبد الوهاب رجلاً صالحاً متّقياً، بحيث يُعدّ من قضاة المدينة، تلقّى محمد بن عبد الوهاب دروسه الفقهية ـ الفقه الحنبلي ـ في موطنه، ثمّ سافر إلى المدينة ليكمل دراسته فشرع فيها بدراسة الحديث والفقه.

وكان يبدو على قسمات وجهه وفلتات لسانه بين الحين والآخر، ما يكتمه ويخفيه من المعتقدات، وقد كان محمد بن عبد الوهاب ممّن يتفرّس مشايخه وأساتذته فيه الضلال، حينما كان يتردّد إلى مكة والمدينة لأخذ العلم من علمائها، وعندما كان يدرس على الشيخ محمد بن سليمان الكردي والشيخ محمد حياة السندي كانا يتفرّسان فيه الغواية والإلحاد، بل يتفرّس غيرهما فيه مثل ذلك، وكان ينطق الكلّ بأنّه سيضلّ الله تعالى هذا الرجل ويضلّ به من أشقاه من عباده، حتّى أنّ والده عبد الوهاب وهو من العلماء الصالحين كان يتفرّس فيه الإلحاد ويحذّر الناس منه، وانّ أخاه سليمان ألّف كتاباً في الرد على ما أحدثه من البدع

والعقائد الزائفة».[١]

وبعد دراسته في المدينة طاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي، فأقام نحو أربع سنين في البصرة، وخمس سنين في بغداد، وسنة في كردستان، وسنتين في همدان، ثمّ رحل إلى اصفهان، ثمّ شدّ الرحال إلى قم، بعدها توجّه نحو الأحساء ماراً بمدينة البصرة، ثمّ إلى «حُرَيملة» محل إقامة والده.[٢]

ولم يكن محمد بن عبد الوهاب يجرأ على الإعلان عن أفكاره وعقائده مادام أبوه حيّاً، وإن كانت تقع بينهما بين الحين والآخر مشادّات ومنازعات، ولكن بعد رحيل والده في سنة ١١٥٣هـ أزاح الستار عن عقائده وأعلن في الملأ العام عمّا تنطوي عليه نفسه من أفكار وعقائد خاصة.

ولقد كان لحركته هذه ردة فعل بين أهل «حريملة»، فأوجدت ضجّة بينهم فهمّوا بقتله، فلم يجد بدّاً من الهرب إلى «عيينة» مسقط رأسه ودار نشأته، وقد تعاهد هو وأميرها «عثمان بن معمر» على أن يشدّ كلّ أزر الآخر، فيترك الأمير الحرية للشيخ في إظهار الدعوة والعمل على نشرها، لقاء أن يقوم محمد بن عبد الوهاب بدوره وبشتى الوسائل لسيطرة الأمير على نجد بكاملها.[٣]

لم يطل عمر التحالف بين ابن عبد الوهاب والأمير ابن معمر، لأنّ سليمان الحميدي صاحب الأحساء والقطيف أمر عثمان بن معمر ـ و كان أقوى منه ـ أن يقتل الشيخ فاضطر على أثرها ابن عبد الوهاب للتوجّه إلى «الدرعية» وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود جد الأُسرة الحاكمة في السعودية «آل سعود» و تم

١. الفجر الصادق:١٧؛ فتنة الوهابية:٦٦.

٢. تاريخ نجد: ١١١ـ١١٣.

٣. هذه هي الوهابية:١١٢.

إبرام الاتّفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قد تم بينه و بين ابن معمر، فقد وهب الشيخ نجد وعربانها لابن سعود، ولتوطيد تلك العلاقة وإحكام الأمر بينهما زوّج محمد بن سعود ابنه عبد العزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب.

بدأ ابن عبد الوهاب حملته التبليغية تحت ظل التحالف الجديد ودعمه المادي والعسكري، فجمع الشيخ أنصاره وأتباعه وحثّهم على غزو البلدان المجاورة المسلمة، أو الدخول في الدعوة الجديدة، وهكذا بدأ سيل الغنائم والأموال يسيل باتّجاه الدرعية، تلك المدينة الفقيرة، ولم تكن تلك الغنائم إلاّ أموال المسلمين الذين أعمل الشيخ وأتباعه فيهم السيف وتركهم أشلاء متناثرة وسبى ذراريهم ونهب أموالهم تحت ذريعة التهمة بالشرك والارتداد عن الدين، وهكذا أباح الشيخ أموال المسلمين لجيشه ومناصريه!! حتّى أنّ الآلوسي ـ المعروف بميوله الوهابية ـ ينقل عن المؤرخ ابن بشر النجدي إشارة واضحة إلى حالة النهب و السلب التي اعتمدها الوهابيون.

شهادة ابن بشر النجدي

«... وكان أهل الدرعيّة ـ يومئذٍ ـ في غاية الضيق و الحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم....

ولقد شاهدت ضيقهم في أوّل الأمر، ثمّ رأيت الدرعيّة بعد ذلك ـ في زمن سعود ـ وما عند أهلها من الأموال الكثيرة والأسلحة المحلاّة بالذهب والفضّة، والخيل الجياد والنجائب العُمانيات، والملابس الفاخرة، وغير ذلك من أسباب الثروة التامة، بحيث يعجز عن عدّه اللسان ويكلُّ عن تفصيله البيان.

ونظرتُ إلى موسمها يوماً ـ في الموضع المعروف بالباطن ـ فرأيت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب آخر، فرأيت من الذهب والفضة والأسلحة والإبل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتدٌّ مدّ البصر، وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين وقولهم: بعتُ واشتريت كدويّ النحل...».[1]

١. تاريخ نجد للآلوسي: ١١٧ـ١١٨.

٣

العوامل التي ساعدت على انتشار الفكر الوهابي

هناك عاملان أساسيان ساعدا في نشر الوهابية في أوساط أبناء الجزيرة العربية، هما:

١. الدعم السياسي والعسكري من قبل أُسرة آل سعود.

٢. بعد المجتمع النجدي عن الحضارة والمفاهيم الإسلامية الحقّة.

وعلى هذا الأساس كان الوهابيون يشنّون الغارات والمعارك في نجد وخارجها ـ كاليمن والحجاز و نواحي سورية والعراق ـ و كانوا يبيحون التصرّف بالمدن ـ التي يسيطرون عليها ـ كيفما يشاءون، فإن أمكنهم ضمُّ تلك الأراضي إلى ممتلكاتهم وعقاراتهم فعلوا ذلك؛ وإلاّ اكتفوا بنهب الغنائم منها.[1]

وممّا لا ريب فيه أنّ كلّ نظرية جديدة ـ وخاصة إذا كانت تتستر بستار التوحيد وترفع شعار الإصلاح ـ تجتذب إليها الكثير من الأعوان والمؤيدين والأنصار في أيّامها الأُولى وتنفذ إلى قلوب الكثير من الناس، وخاصة إذا طرحت في أوساط بعيدة عن العلم والمعرفة، ومن الملاحظ أنّ حركة محمد بن عبد الوهاب

---

١. جزيرة العرب في القرن العشرين: ٣٤١.

قد حصلت على هاتين الخاصيتين: التظاهر بالدفاع عن التوحيد والإصلاح في المجتمع،والثاني طرحها في أجواء بعيدة عن العلم والمعرفة، ممّا ساعدها على إغفال واستقطاب الكثيرين.

يقول جميل صدقي الزهاوي: لما رأى ابن عبد الوهاب أنّ قاطبة بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة، لم يزالوا على البساطة والسذاجة في الفطرة، وقد ساد عليهم الجهل حتّى لم تبق للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج، وجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن تزرع فيه بذور الفساد ممّا كانت نفسه تنزع إليه وتمنّيه به من قديم الزمان، وهو الحصول على رئاسة عظيمة ينالها باسم الدين ـ إلى أن قال: ـ فلم يجد للحصول على أُمنيته طريقاً بين أُولئك، إلاّ أن يدّعي أنّه مجدِّد في الدين، مجتهد في أحكامه.[1]

بل انّ شعارات الحركة انطلت على بعض الشخصيات أيضاً، فقد انخدع بها السيد محمد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ـ ١١٨٦هـ) مؤلف كتاب «سُبُل السلام في شرح بلوغ المرام» فإنّه لمّا بلغه ـ في اليمن ـ من أحوال الشيخ النجدي ودعوته إلى التوحيد، تفاعل مع الحدث، فأنشأ قصيدته المشهورة والتي كان مطلعها:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

ثمّ حقّق الأحوال من بعض من وصل إلى اليمن ووجد الأمر على عكس ما روي له، فأنشأ يقول في قصيدة ثانية تائباً عمّا قاله أوّلاً:

رجعت عن القول الذي قلت في نجد فقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي

١. الفجر الصادق: ١٤.

وقد صرّح بسبب تـوبته ومغالاته في التوّهب، حيث قال: وقـد قدم إلينا الشيخ الفاضل عبد الرحمن النجدي، ووصف لنـا من أحوال ابن عبد الوهاب أشياء أنكرناها عليه من سفك الدماء ونهب الأموال والتجرّي على قتل النفوس، ولو بالاغتيـال، وتكفيره الأُمّة المحمديّة في جميع الأقطار، فبقي فينـا تردّد فيما نقله ذلك الشيخ، حتى قدم إلينا الشيخ «مربد» وله نباهة ومعه بعض رسائل ابن عبد الوهاب التي جمعها في وجه تكفير أهل الإيمان، وقتلهم ونهبهم وحقّق لنا أحواله، فعـرفنا أحوال رجل عرف من الشريعة شطـراً، ولم يمعن النظر، ولاقرأ على من يهديه نهج الهداية، ويدلّه على العلوم النافعة ويفقهه، بل طالع بعض مؤلّفـات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وقلّدهمـا من غير إتقان مع أنّهما يحـرمان التقليد.[١]

الوهابيون والعتبات المقدّسة

لقد مثّلت المجازر الـوهابية في العتبات المقدّسة صفحـة سوداء من تاريخ الوهـابية، وقـد اعترف بهذه الحقيقة المرّة الكـاتب الوهـابي صلاح الـدين المختار حيث قال: وفي سنة ١٢١٦هـ جهّز سعود بن عبـد العزيز بن محمد جيشاً جراراً من أعراب نجـد وعشائر الجنـوب والحجاز وتهامة وسـائر البلاد، فقصـد العراق فوصل في شهر ذي القعدة إلى مدينة كربلاء فحاصرها، فهدم برج المدينة ومنارتها ودخل المدينة بالعنوة، وأعمل السيف فيهم، فقتل من وجد في الأسواق والشوارع والبيوت، وتـرك المدينة عند الظهـر بعد أن استولى على الأمـوال والغنائم الكثيرة، وتـوقّف ليستريح في أرض يقال لها«الأبيض»، فأخـرج خمس الغنائم لـه ثمّ قسّم

---

١. كشف الارتياب:٨.

الباقي على المقاتلين سهم للراجل وسهمان للفارس.[١]

وأمّا المؤرّخ ابن بشر النجدي فهو الآخر تحدّث عن تلك الهجمات والتجاوزات التي ارتكبها الوهابيون في العتبات المقدّسة.[٢]

وهكذا نقل لنا الكاتب كوران سيز وصف تلك الواقعة حيث قال:

وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كلّ عام بعيد الغدير في يوم الغدير في النجف الأشرف، فخرج أهالي كربلاء عن بلدتهم، فانتهز الوهابيون فرصة غيابهم عن البلدة واقتحموها، وهم حوالي اثنا عشر ألف جندي، ولم يكن في البلدة إلاّ عدد قليل من الرجال المستضعفين، قتلهم الوهابيون ولم يبقوا أحداً منهم حيّاً، ويقدّر عدد الضحايا خلال يوم واحد بثلاثة آلاف.

وأمّا السلب فكان فوق الوصف، ويقال: إنّ مائتي بعير حمّلت فوق طاقاتها بالمنهوبات الثمينة، فقد استولى الوهابيون على كلّ الكنوز والأموال الثمينة، وجرّدوا القبة من صفائح النحاس المطلية بالذهب.[٣]

وقد يتصوّر البعض أنّ الاعتداء والغزو الوهابي اختصّ بالشيعة فقط وأنّ باقي المسلمين كانوا في مأمن ومنأىً عن تلك التجاوزات والغارات، وهذا في الواقع تصوّر ساذج بعيد عن الواقع، بل الحقيقة أنّ الظلم الوهابي شمل كافّة المسلمين ولم ينج منهم سكان البلاد الإسلامية الأُخرى كالحجاز والشام واليمن، و ....، ولا ريب أنّ استقصاء تلك الوقائع و الاعتداءات على بلاد المسلمين يحتاج إلى تأليف مفرد، ولذلك سنكتفي بذكر بعض النماذج فقط.

---

١. تاريخ المملكة العربية السعودية:٣/ ٧٣.

٢. عنوان المجد في تاريخ نجد:١/ ٣٣٧.

٣. تاريخ البلاد العربية:١٢٦ـ ١٢٧.

احتلال الطائف عام ١٢١٧هـ

قال الجبرتي: في أواخر عام ١٢١٧هـ غار الوهابيّون على الحجاز، فلمّا قاربوا الطائف خرج إليهم الشريف غالب فهزموه، فرجع إلى الطائف وأُحرقت داره وهرب إلى مكة، فحاربوا الطائف ثلاثة أيام حتى دخلوها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم في من يحاربهم، وهدموا قبة ابن عباس في الطائف.[١]

يقول زيني دحلان: فدخلوا البلد عنوة في ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ فقتلوا الناس قتلاً عاماً حتّى الأطفال، وكانوا يذبحون الطفل الرضيع على صدر أُمّه، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين فأدركتهم الخيل وقتلت أكثرهم، وفتّشوا على من توارى في البيوت فقتلوه وقتلوا من في المسجد - إلى أن قال: ـ و صارت الأعراب تدخل كلّ يوم إلى الطائف وتنقل المنهوبات حتّى صارت كأمثال الجبال.[٢]

ولقد اعتبر جميل صدقي الزهاوي الهجوم الوهابي على الطائف بمثابة الصفحة السوداء في التاريخ الوهابي، وانّ ما قاموا به في الطائف هو من أقذر ما اقترفوه من الجرائم.[٣]

وبعد أن نفذ الوهابيون مجزرتهم المروعة وجريمتهم النكراء والإبادة الجماعية في الطائف كتبوا كتاباً إلى علماء مكة يدعونهم فيه إلى الدخول تحت ظل الحركة

---

١. أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي:٩٣.

٢. نفس المصدر: ٩٣.

٣. الفجر الصادق:٢٢.

الوهابية، ثمّ تريّثوا إلى أن انقضت أيام الحج وخرج الحاج من مكة، حينها قصدوا مكة المكرّمة ووصل ابن سعود بقواته إلى مشارف مكة المكرّمة يوم العاشر من محرم فدخلها من دون مقاومة تذكر، ففعل بها وبإهلها ما فعله جنده بأهل الطائف.[١]

ولقد تعرّض شاه فضل رسول قادري «الهندي» في كتابه «سيف الجبار» إلى الإشارة إلى المنهج الوهابي في مواجهة المسلمين وموقف العلماء منهم فقال في مقدمة كتابه المذكور: أمّا بعد فقد ورد الصحيفة الردية، أعني: «الرسالة النجدية» ضحوة الجمعة سابع شهر المحرّم سنة ١٢٢١هـ بحرم الله المحترم وبيت الله المكرّم، وجند شياطين نجد إليها قاصدة، على نيّات خبيثة وعزائم فاسدة، والأخبار موحشة غير راشدة، وما فعلوا بالطائف من القتل والنهب والسبي وهدم مسجد عبد الله بن عباس رضي الله عنه، ينذر بإساءة أدبهم في البلد الأمين، فاجتمع علماء مكة المعظّمة ـ زادها الله شرفاً ـ بعد صلاة الجمعة عند باب الكعبة، وأكبّوا على مطالعة الرسالة النجديّة ليحقّق ما فيها من الغي والضلال.

وبعد أن تعرّض الشاه فضل لذكر نقاط الخلل والانحراف التي بيّنها علماء مكة في الباب الأوّل من «الرسالة النجدية» قال في خاتمتها:

قالوا ـ أي العلماء ـ : تمّ النظر إلى الباب الأوّل، وحان العصر، وقامت الصلاة فقاموا، فلماّ فرغوا من الصلاة رجعوا وراجعوا في النظر إلى الباب الثاني، فإذا طائفة من مظلومي الطائف دخلوا المسجد الحرام وانتشر ما جرى عليهم من أيدي الكفرة، واشتهر أنّهم لاحقون من أهل الحرم وعامدون لقتلهم، فاضطرب الناس كأنّها قامت الساعة، فاجتمع العلماء حول المنبر، وصعد الخطيب أبو حامد عليه وقرأ عليهم الصحيفة الملعونة النجدية... وقال العلماء والقضاة والمفاتي:

---

١. سيف الجبار المسلول:٢ و مابعدها.

سمعتم مقالهم وعلمتم عقائدهم، فما تقولون فيهم؟

فأجمع كـافة العلماء والقضـاة والمفـاتي على المذاهب الأربعة من أهل مكـة الشريفة وسـائر بلاد الإسلام الـذين جاءوا للحج ــ و كانوا جـالسين ومنتظرين لدخول البيت عاشر المحرم ـ و حكموا بكفرهم وبأنّه يجب على أمير مكة الخروج لدفعهم عن الحرم، ويجب على المسلمين معاونته ومشـاركته، فمن تخلّف بلا عذر يكون آثماً، ومن قاتلهم يكون مجاهداً، ومن قتل على أيديهم يكون شهيداً....[١]

ومن هنـا يتّضح أنّ الحركة الـوهـابية قـد أُدينت وفنّـدت عقائدهـا وحكم ببطلانها منذ زمن طويل من قبل علماء المسلمين قاطبـة ـ شيعة وسنّة ـ ولم تقتصر مواجهتهم على طائفة دون أُخرى.

---

١. سيف الجبار المسلول على الأعداء: ٢ و ٨٩ـ ٩٠.

٤

روّاد المواجهة الفكرية مع ابن عبد الوهاب

لقد تعرّضت حركة محمد بن عبد الوهاب و أفكاره الشاذّة وتصوّراته الباطلة لموجة من الردّ والتفنيد قام بها ثّلة من العلماء والمفكّرين الواعين في الحرمين الشريفين وغيرهما من الأقطار الإسلامية، أثبتوا خلالها وهن تلك الأفكار الهدّامة وشذوذها وابتعادها عن هدي الإسلام وروحه السامية ومفاهيمه الحقّة، واعتبروا أنّ ابن عبد الوهاب شخصية منحرفة عن الصراط المستقيم، وأنّه مجرّد بوق من أبواق الفكر السلفي لابن تيمية يردّد ما طرحه هو وتلميذه ابن قيّم الجوزية.

ولكي تنجلي الحقيقة نأتي هنا بأسمائهم وأسماء مصنّفاتهم في هذا الصدد:

كان على رأس قائمة الرادّين عليه أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، في كتابه الموسوم «الصواعق الإلهية» حيث جاء فيه:

«إنّ هذه الأُمور ــ التي كفّر بها الوهابيون المسلمين ــ حدثت من قبل زمن الإمام أحمد بن حنبل في زمان أئمّة الإسلام وأنكرها من أنكرها منهم، ولا زالت حتّى ملأت بلاد الإسلام كلّها، وفُعلت هذه الأفاعيل كلّها التي تكفرون بها، ولم

يُروَ عن أحد من أئمّة المسلمين أنّهم كفّروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدّون، ولا أمروا بجهادهم، ولاسمّوا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفّرتم من لم يُكفّر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها...».[1]

وهكذا توالت الردود على ابن عبد الوهاب من قبل الكثير من العلماء والشخصيات الإسلامية السنيّة مفنّدة آراءه ومبطلة نظرياته، منهم:

١. الشيخ العلاّمة عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي في كتابه «تجريد سيف الجهاد لمدّعي الاجتهاد».

٢. العلاّمة عفيف الدين عبد الله بن داود الحنبلي في كتابه الموسوم «الصواعق والردود».

٣. العلاّمة المحقّق محمد بن عبد الرحمن ابن عفالق الحنبلي، مؤلف «تحكُّم المقلّدين بمن ادّعى تجديد الدين».

٤. أحمد بن علي القباني البصري، ألّف رسالة، تقع في نحو عشر كراريس عقد فصولها كافّة للرد على معتقدات ابن عبد الوهاب وتزييفها و إبطالها.

٥. الشيخ عطاء الله المكي صاحب «الصارم الهندي في عنق النجدي».

هذه بعض المصنّفات التي تصدّى فيها أصحابها للرد على الوهابية، وهناك ردود كثيرة لم نذكرها هنا روماً للاختصار، وقد أوردناها في موسوعتنا «بحوث في الملل والنحل» الجزء الرابع، ص ٣٥٤ ــ ٣٥٩، فمن رغب في المزيد من التفصيل فعليه بمراجعتها.

---

١. الصواعق الإلهية: ٣٨.

الردود الشيعية

وهكذا أدلى الشيعة بدلوهم في هذه القضية، وساهم علماؤهم في التصدّي لأفكار الرجل ودحض مدّعياته وتزييف آرائه، وقد بذلوا جهوداً جبارة في هذا المجال، وجاءوا بما يعجز اللسان عن وصفه. وكان رائدهم في هذا المضمار المرجع المعروف المرحوم آية الله الشيخ جعفر كاشف الغطاء، حيث صنّف كتاباً في الردّ على الوهابية تحت عنوان «منهج الرشاد لمن أراد السداد» كشف فيه عن حقيقة الوهابية وزيف أفكارها، كتبه ردّاً على الرسالة التي بعثها سعود بن عبد العزيز إليه يشرح فيها مواقفه من الوهابية، وقد أرسل الشيخ نسخة من الكتاب إلى الأمير المذكور والذي كان معروفاً بميوله الوهابية المتعصّبة.

وهكذا قام حفيده المرحوم آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في الرد على الوهابية بعد الجريمة التي اقترفوها في حقّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهدمهم لمراقدهم الطاهرة في البقيع عام ١٣٤٤ هـ فصنّف الشيخ قدس سره كتابه المعروف «الآيات البيّنات في قمع البدع و الضلالات» الذي استطاع أن يفنّد فيه آراءهم اعتماداً على المنهج القرآني ومنطق الوحي.

ثمّ توالت سلسلة الردود ومازالت تترىٰ، ومن تلك الردود التي يشار إليها بالبنان ما قام به العلاّمة الكبير والمصلح الفقيه آية الله السيد محسن الأمين العاملي حيث صنّف كتابه الموسوم بـ«كشف الارتياب عن أتباع محمد بن عبد الوهاب» أجلى فيه الحقيقة وأزاح الستار عن الكثير من الأُمور والمسائل الغامضة، والكتاب يُعدّ وبحق من الكتب التي لا يستغني عنها الباحث في هذا المجال.

هذه نماذج قليلة للردود الشيعية، ولو أردنا استقصاء ذلك لطال بنا المقام.

٥

الانعطاف في بعض الاتجاهات الوهابية

من المسلّم به أنّ الوهابية تقوم أُسسها على الفكر السلفي المتحجّر الذي لا يسمح بأيّ نوع من أنواع الحداثة و التجديد في جميع نواحي الحياة البشرية، وحين استولى عبد العزيز بن عبد الرحمن في عام ١٣٤٤هـ على الحرمين الشريفين وأحكم قبضته على تلك البقاع المقدّسة واستتب له الأمر وجد نفسه مضطراً إلى إحداث نوع من الانفتاح في حكومته لتنسجم مع الواقع المعاصر له في ذلك الوقت، وانّ النهج البدوي الذي كان يعتمده الوهابيون في حياتهم لابدّ أن يتغيّر نوعاً ما، ولذلك وافق على دخول بعض مظاهر الحداثة إلى بلاده كالهاتف ووسائط النقل والدراجات النارية والهوائية و... الأمر الذي أثار حفيظة وغضب أتباعه المتعصّبين ، الذي يعبّر عنهم في تاريخ المملكة بالإخوان، فأثاروا له مشكلة خاصة تكمن في إصرارهم على السير على النهج الوهابي السابق وتطبيق مبادئ الوهابية، فرموه بموالاة الكفّار الإنجليز، والتساهل في الدين، وأنكروا عليه ألقاب السلطان والملك وتطويل شاربه وثوبه ولبس العقال وغير ذلك، واعتبروا استعمال الهاتف واللاسلكي ووسائط النقل كالسيارات بدعاً، لأنّها من صنع الإفرنج.

ولقد أشار الكاتب المصري أحمد أمين في ضمن حديثه عن الوهابية إلى حقيقة الفكر الوهابي في ذلك الوقت، وأنّ ما يرى منهم الآن يختلف اختلافاً جوهرياً عمّا كانوا عليه في تلك الحقبة، حيث قال:

إنّهم ـ أي الوهابية ـ لم يمسّوا الحياة العقلية، ولم يعملوا على ترقيتها إلاّ في دائرة التعليم الديني، ولم ينظروا إلى مشاكل المدنية الحاضرة ومطالبها، وكان كثير منهم يرون أنّ ما عدا قطرهم من الإقطار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ـ حسب اعتقادهم ـ ليست ممالك إسلامية، وأنّ دارهم دار جهاد، فلمّا تولّت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لابدّ أن تواجه هذه الظروف وتقف أمام منطق الحوادث، ورأت نفسها أمام قوتين قويتين لا مَعْدى (أي لابدّ) لها عن مسايرتهما:

قوّة رجال الدين في نجد المتمسّكين أشدّ التمسّك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشدّدين أمام كلّ جديد، فكانوا يَرَون أنّ التلغراف السلكي واللاسلكي والسيارات والعجلات من البدع التي لايرضىٰ عنها الدين.

وقوّة التيار المدني الذي يتطلّب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة، كما يتطلّب المصانعة والمداراة، فاختطّت لنفسها طريقاً وسطاً شاقّاً بين القوّتين. فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأُخرى وعدتهم مسلمين، وبدأت تنشر التعليم الديني وتنظم الإدارة الحكومية على شيء من النمط الحديث... وما أشقه عملاً، التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن، وبين طبائع البادية ومطالب الحضارة.[1]

ومن حسن الحظ أنّ الحكام السعوديين هم أنفسهم ضاقوا ذرعاً بالكثير

---

١. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ٢٠ـ٢١.

من العقائد الـوهابية المتحجّرة والـرجعية التي تكبّل أقدام الناس و تقيّـد أيديهم بشتّى القيـود، وتسعى إلى إلغـاء السنن الثبـوتيـة والمواريث التـاريخيـة المشتركـة والأُسلـوب الخشن الذي يعتمـده الوهـابيـون في نشر دعوتهم ومـواجهة الأفكـار الأُخرى المخـالفة لهم بنحو أنّهم يقفون حجـر عثرة أمام أيّ ظاهـرة عصرية تحت غطاء البدعة والخروج عن الدين.

نعم لقـد ضاق هؤلاء الحكّـام ذرعاً بهذا المنهـج المتخلّف، وبالإضـافة إلى ذلك كان للتواصل الحضاري بين المسلمين فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم و بين غيرهم من جهة أُخرى، وانتصار الجمهورية الإسـلامية المباركة ودعوتها إلى توحيد الصفـوف ولم شمل المسلمين ومواجهـة الاستكبار والصهيـونية وغير ذلك، كـان لكلّ ذلك دوره الفـاعل في أن تغيّر الحكـومة السعـوديـة من أُسلوبها في التعـامل ومنطقها في الحوار و رؤيتهـا إلى أبناء العالم الإسلامي، وتعيـد النظر في الكثير من الأفكار الوهابية المبنية على تكفير الآخرين وإخراجهم من الدين.

الفصل الرابع

حدود التوحيد والشرك في العبادة

من الــواضح والجلي أنّ كلّ من أمعن النظــر في خلق السماوات و الأرض عــامّة والإنســان خــاصّة يــدرك جيداً أنّ لخلــق العالم والإنســان من قبل الحكيم العزيــز، هدفاً وغــاية يتطلّبها،وفي الحقيقــة أنّ هذا الهدف، وتلك الغايــة تعود إلى المخلوقات نفسها، وأنّ الله القدير غني عــن تلك الأهداف والغايات ومنزّه عنها، فلا يعود عليه شيء من النفع أو الزيادة أو الضرر والخسارة في حالة عدم خلقهم. فإذا أخذنــا تلك القضية بنظر الاعتبــار يتّضح لنا حينئذٍ وبجــلاء أمران مسلّمان، هما:

١. انّ الله تعالى غني ولا يمكن أن تتطرق الحاجةوالنقص إلى ذاته المقدّسة أبداً.

٢. انّ الله خالق حكيم ، فــلابدّ أن يتجلّى أثر حكمته في خلقــه، بمعنى أنّه يجب أن ينزّه فعله تعالى عن العبث واللغو، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

من هنا ومن خلال هذين الأصلين نصل إلى النتيجة التالية: وهي أنّ خلق العالم والإنســان لم يكن بالأمر العبثي أبــداً، بل أنّهما خلقا لهدف وغــاية ويتطلّب كلّ منهما الغاية والهدف الذي خلق من أجلــه، وانّ نتيجة هذا الهدف في الحقيقة، ترجع إلى المخلوق نفسه لا إلى الله سبحانه.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة بقوله:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾.[1]

وهنا يطـرح السؤال التـالي نفسه: مـا هو الهدف ومـا هي الغايـة من خلق الإنسان؟

في مقـام الإجابـة عن هذا التسـاؤل وبصـورة إجمالية نقـول: إنّ معرفـة الله سبحانه وصفاته الجلالية والجمالية، ثمّ سوق الروح والنفس الإنسانية نحو الذات الإلهية وتـزيينها بتلك الصفات ــ تلك الفضائل والسجـايا والخصال الأخـلاقية العليا والسامية التي يكمن تكامل الإنسان ورقيّه فيها ـ يرسم لنا الهدف من خلق الإنسان وإيجاده.

وذلك لأنّ معرفة الله ـ و بالحد الممكن ـ تُعدّ نوعاً من أنواع الاتّصال بمركز الكمال المطلق، كما أنّ تـزيين النفس بالفضـائل الأخلاقيـة والسجايـا الإنسانيـة الفضلىٰ، يُعدّ تجلياً لإنسانية الإنسان وعلامة على وصوله إلى قمّة الكمال.

ثمّ إنّ الإنسان في سعيه وكدحه للوصول إلى نيل الكمال يعتمد مجموعة من السبل والوسائط التي تأخذ بيده لنيل مبتغاه والحصول على غايته، وهذه الوسائط عبارة عن:

الف: تنمية الغرائز الباطنية النزيهة

إنّ غريـزة معرفـة الله والميل نحو الفضائل والأخـلاق الساميـة والنفرة من السجايا والخصال الرذيلة من الأُمـور التي عجنت في طينة الإنسان وخلقته، وقد هيمنت على وجـوده بصـورة واضحـة بنحـو تـرجّح دائماً كفّـة الأُمـور المعنـويـة والمفاهيم الأخـلاقية، ولقـد أثبتت العلوم الحديثة هـذا النوع من الميـول والغرائز،

---

١. المؤمنون: ١١٥.

فاعتبروا أنّ «غريـزة التديّن» أو «الشعور الديني» عاملاً فـاعلاً في ظهور الميل إلى ماوراء الطبيعـة، كما اعتبروا «غريزة حب الجمال» عـاملاً أساسيـاً في ظهور القيم الأخلاقية، وأنّ تلك الغريزة هي المنبع الأساسي لتلك الفضائل والسجايا.

وفي الحقيقة أنّ تلك الميـول «الغرائز البـاطنية النـزيهة» هي بمنزلـة العامل الأساسي لـلإنسان ورأس مـاله الأوّل الـذي يستطيع من خلال تنميتـه أن يخطو الخطوة الأُولى في طريق الكمال والرقي المعنوي، وإلاّ ـ أي إن لم ينمّ تلك الغرائز ـ فإنّه سيبقـى بعيداً عن قمّة ذلك الكمال و يعيـش بعيداً عن كل المثل الأخـلاقية العليا.

ب: العقل

إنّ العقل هو الـوسيلة الأُخرى التي تأخـذ بيد الإنسان نحـو الكمال، وهو الضياء الساطع والمصباح المنير الذي ينير للإنسان طريقه، ويبدّد الظلام الحالك الـذي يعترض مسيرة حيـاته، من هنـا تكـون الاستفـادة من هذه النعمـة الإلهيـة العظيمة ــ على أفضل وجه وأكمله ــ عاملاً أساسيـاً آخر في سوق الإنسـان نحو الكمال ووصوله إلى قمّة الرقي الإنساني و التطوّر الحضاري.

ج: الأنبياء والمصلحون الإلهيّون

إنّ الوسيلة الثالثة التي تأخذ بيد الإنسان نحو الكمال وتسوقه نحو الرقي تتمثّل في الأنبياء والصالحين من عباد الله الذين جـاءوا بتعاليم وإرشادات سامية وبرامج متكـاملة للهداية والاستقـامة والصيانة من الضـلال والانحراف، بل أنّ قسماً من مهـام الأنبياء ومسـؤوليـاتهم تكمن في تنميـة الاستعدادات و القـدرات

الكامنة في الإنسان، وتهذيب تلك الغرائز والميول الإنسانية النزيهة وتطهيرها عمّا يشوبها من عوامل الدنس والانحراف اعتماداً على المنهج السماوي الذي جاءوا به، وكأنّ وظيفتهمعليهم السلام تشبه إلى حد ما وظيفة المهندس الذي يستغل إمكاناته ووسائله لاستنباط الكامن في الطبيعة من القدرات والإمكانات المخزونة فيها.

ولقد أشار أمير المؤمنينعليه السلام إلى هذه الحقيقة بقولهعليه السلام:

«فبعث فيهم رُسُله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول».[١]

والحقيقة أنّ هذا الميثاق هو نفس الأُمور الفطرية والميول الباطنية التي عجنت في خلقة الإنسان، وأنّ خلق الإنسان مقروناً بهذه الغرائز والميول يُعد نوع ميثاق وعهد على الالتزام به والسير على نهجه.

ومن بين الأُمور الفطرية والجبلية من الغرائز الباطنية النزيهة التي حظيت باهتمام جاد ونالت منزلة خاصة هي غريزة الميل إلى التوحيد والوحدانية. الأمر الذي تتلخّص فيه جميع رسالات السماء وبرامج المصلحين الإلهيّين. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾.[٢]

إنّ هذه الآية المباركة ونظائرها من الآيات تشهد وبوضوح على أنّ نظرية «التوحيد في العبادة» وعبادة الله الواحد القهّار وحده لا شريك له، ونفي عبادة

---

١. نهج البلاغة: الخطبة الأُولى.

٢. النحل:٣٦.

كلّ ماعـداه من الآلهة المزيّفة، تمثّل عصـارة فكر الأنبيـاء ورسالاتهم، وأنّها بمنزلة الجوهرة الأساسية، في جميع تعـاليمهم وأفكارهم ونظرياتهمعليهم السلام. من هنـا نجد أنّ جميع الـديانـات الإبـراهيمية تـؤكّد وبصـورة شـديدة على هـذا الأصل وتضع التوحيد في العبادة والوحدانية على رأس قائمة تعاليمها.

إنّ هـذا الأصل وإن تعـرّض وعلى طـول التـاريخ البشـري إلى نـوع من الانحراف، وزاغ عنـه الناس بعض الشيء حتّى أنّهم عبـدوا شخصاً، كـالسيد المسيحعليه السلام أو غير السيـد المسيح من الأُمور المـادية، ولكن بقي هـذا الأصل يلمع في قلـوب وعقـول وأرواح أصحـاب الضمـائر الحيّـة والنفـوس الطـاهـرة والعقول المستنيرة، فنظروا إلى جميع الشرائع الإلهية على أنّها شرائع توحيدية، وأنّ التوحيـد هو الأصل المسلّـم بين أتباع تلك الشـرائع، من هنا نجـد القرآن الكـريم وفي مقـام الاحتجاج على اليهـود والنصـارى يؤكّـد على هـذا الأصل المشترك، ويذكّرهم به ويحثّهم للعودة إليه، حيث قال سبحانه:

﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتـابِ تَعالَوا إِلى كَلِمَةٍ سَـواء بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ الله وَلا نُشْـرِكَ بِهِ شَيئاً وَلاَ يَتَّخِـذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبـاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُون﴾. [١]

مراتب التوحيد

إنّ للتوحيد مـراتب بيّنها علماء الإسلام في كتبهم التفسيريـة والكلامية، وإنّ «التوحيـد في العبادة» يمثّل في الـواقع أحد تلك المـراتب وفرعـاً من فروع التوحيد التي تتمثّل في:

---

١. آل عمران: ٦٤.

ألف: التوحيد في الذات

أو ما يعبّر عنه بالتوحيد الذاتي، والمراد منه هو: أنّه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾. (١)

ب: التوحيد في الخالقية

والمراد منه: انّه ليس في صفحة الوجود خالق أصيل غير الله، ولا مؤثر مستقل سواه، وانّ تأثير سائر الأسباب الطبيعية وغيرها بأمره وإذنه وإرادته سبحانه، قال تعالى:

﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الواحِدُ القَهّارُ﴾. (٢)

ج: التوحيد في الربوبية والتدبير

والمراد منه انّ للكون مدبراً واحداً، و متصرّفاً فرداً لا يشاركه في التدبير شيء آخر، وانّ تدبير الملائكة وسائر الأسباب بأمره وإذنه، قال تعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُون﴾. (٣)

د. التوحيد في العبادة

والمراد منه حصر العبادة في الله وحده سبحانه فلا معبود إلاّ هو، لا

---

١. الإخلاص:١.

٢. الرعد:١٦.

٣. يونس:٣.

يشاركه فيها شيء مهما كان، وهذا الأصل ممّا اتّفق عليه الموحّدون فلا نجد موحّداً يجوّز عبادة غير الله سبحانه.

إنّ من بين المراتب التي ذكرناها للتوحيد تعتبر هذه المرتبة الأخيرة«التوحيد في العبادة» المحور الأساسي في بحثنا هنا و إن كانت المراتب الأُخرى تحظى هي الأُخرى باهتمام خاص من البحث والدراسة.

وحينما قلنا: إنّ محور بحثنا هنا هو «التوحيد في العبادة» فلا يعني أنّ هذا الأصل في الحقيقة وقع فيه الشكّ أو الترديد في كلّيته أو عموميته، أووقع فيه الالتباس حتى نأتي لإزاحة الستار عن وجه هذا الأصل الأصيل، بل في الحقيقة أنّ كلية وعمومية هذا الأصل من الأُصول المسلّمة التي لاخدشة فيها أبداً وانّ جميع الموحّدين متّفقون على هذا الأصل كما قلنا، فالكلّ شعارهم وكما صرّح القرآن الكريم به ﴿إيّاك نعبد﴾.

بل لا يمكن أن يدخل الإنسان في قائمة المسلمين ويُعدّ من زمرتهم ما لم يُسلِّم أوّلاً بهذا الأصل الأصيل، وانّ إنكاره بمنزلة الارتداد عن الدين والخروج من ربقته، فهذا الأصل لابدّ من الالتزام به ابتداءً واستمراراً. وانّ إنكاره يساوي إنكار الإسلام من الأساس.

نعم وقع الكلام في بعض المصاديق والجزئيات من قبيل: «الاستغاثة بالأولياء وطلب الدعاء منهم والتوسّل بهم» و«طلب الشفاعة من الأنبياء» و«تكريم مواليد الأنبياء ووفيّاتهم»، فهل ذلك يُعدّ من مصاديق العبادة لهم حتى يحكم على مرتكبه بالشرك لأنّه عبد غير الله أو لا؟ فإنّ البعض اعتبروا أنّ كلّ ذلك من مصاديق عبادة غير الله سبحانه وأنّه من الشرك الذي يخرج الإنسان من الإسلام!!!

من هنا عقدنا العزم لدراسة هذه المسألة الحسّاسة؛ ولابدّ من تركيز البحث على هذه النقطة لتنجلي لنا حقيقة الأمر في هذه الأُمور التي يقوم بها المسلمون من طلب الشفاعة والاحتفال، وما هي حقيقتها؟ وهل هي من الأُمور التي تنافي التوحيد وتعدّ من الشرك أم لا؟وهل انّ عبادة الرسولﷺ شرك وخروج من التوحيد أو انّ مجرّد تكريمه وتبجيلهﷺ والاحتفال بمولده يعتبر هو الآخر شركاً وخروجاً عن الدين؟

إنّ حلّ هذه الإشكالية والخروج بنتيجة منطقية وعلمية يكمن في دراسة العبادة وتعريفها تعريفاً منطقياً وعلمياً، لكي نضع الحد المائز بين العبادة وغيرها ومعرفة الأُمور المشكوكة والفصل بين «التكريم» و بين «العبادة»، فما لم نعرّف العبادة تعريفاً دقيقاً لا يمكن بحال من الأحوال القضاء البات في تلك الإشكالات التي أُثيرت أو تثار في هذا المجال.

التعريف المنطقي للعبادة

إنّ تعريف أيّ مفهوم أو علم ينبغي أن تتوفر فيه ـ بالإضافة إلى الاختصار ـ صفتان، هما: الجامعية، والمانعية. بمعنى أن يكون التعريف جامعاً لكلّ أفراده ومصاديقه يشملها ولا يشذّ منه فرد منها، وأن يكون مانعاً، بمعنى أنّه يمنع دخول الأغيار ـ المصاديق الغريبة ـ تحت هذا التعريف ولا يسمح لأي فرد غريب في الدخول تحت خيمته. وبالاعتماد على هذه الضابطة لابدّ أن يكون تعريف العبادة بنحو تتوفّر فيه الخصوصيات المذكورة ليتسنّى لنا من خلالها وضع اليد على المصاديق الحقيقية للعبادة، وبيان المصاديق المغايرة لها، وليتسنّى لنا أيضاً تجنب الخلط بين المصاديق بعضها بالبعض الآخر.

وبالطبع لو تمكّنا من تعريف العبادة تعريفاً منطقياً، فلا ريب أنّه سَتُحلّ لنا كثير من العقد والإشكالات وترتفع حينئذٍ الكثير من نقاط الاختلاف في القضاء والحكم.

طرق الوصول إلى تعريف العبادة

لكي نصل إلى تعريف العبادة تعريفاً صحيحاً توجد أمامنا مجموعة من الطرق التي ينبغي اعتمادها، وهي:

أ. مراجعة المعاجم اللغوية.

ب. تحليل المسائل التي وردت فيها لفظة العبادة.

ج. تحليل الخصائص القطعية والعناصر المقوّمة للعبادة، سواء كانت هذه العبادة عبادة الموحّدين أم عبادة الوثنيّين.

والجدير بالذكر انّ اعتماد الطريق الأوّل ـ معاجم اللغة ـ لا يوصلنا إلى النتيجة المطلوبة والهدف المنشود من إعطاء الضابطة الدقيقة لتمييز مصاديق العبادة عن غيرها. نعم الذي يوصلنا إلى الهدف المنشود و يضيء لنا الطريق ويحدّد لنا الضابطة الأساسية هو اعتماد الطريق الثالث من تلك الطرق. وها نحن نتعرض لدراسة هذه الطرق واحداً تلو الآخر.

الف: العبادة في المعاجم اللغوية

كما ذكرنا أنّ من الطرق التي يجب دراستها لتحديد مفهوم العبادة وتفسير المعنى المراد منها هو الرجوع إلى الكتب والمعاجم اللغوية، ونحن هنا نسلك هذا الطريق لنرى ماذا يقول أصحابها.

قال ابن منظور في «لسان العرب» : «أصل العبودية : الخضوع والتذلّل» .

وقال الـراغب الاصفهاني في «المفـردات» : «العبودية : إظهـار التذلّل ، والعبادة أبلغ منها ، لأنّها غاية التذلّل ، ولا يستحقّ إلاّ من له غاية الإفضال وهو الله تعالى» .

وقال الفيروز آبادي في «القاموس المحيط» : «العبادة الطاعة» .

وقال ابـن فارس في «المقـاييس» : «العبد : الـذي هو أصل العبـادة ، له أصـلان متضـادان ، والأوّل من ذينك الأصليـن ، يـدلّ على لين وذل ، و الآخـر على شدّة وغلظ» .(١)

والمـلاحظ على هذه التعـاريف جميعاً أنّهـا لا تعطي الضابطـة الدقيقـة لحقيقـة العبـادة ، بل كلّ هـذه التفـاسيـر تعطي المعنى الأعم ، فليس التـذلّل وإظهار الخضوع والطاعة نفس العبادة ، وإلاّ يلزم الالتزام بأُمور لا يصحّ لمسلم الالتزام بها من قبيل :

إنّـه يلزم أن يكـون خضـوع الولـد أمـام الوالـد ، والتلميـذ أمام الأُستـاذ ، والجندي أمام القائد عبادة لهم ! ! !

والحال أنّنـا نجد أن القرآن الكـريم قد حثّ وبصـراحة على بعض تلك الأُمور منها قوله سبحانه في حقّ الوالدين :

﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمَةِ﴾ .(٢)

وفي آيـة أُخرى نجـد الباري تعالـى يأمر المـلائكة بـالسجود لآدم عليه السلام ، حيث قال تعالى :

---

١. انظر : لسان العرب، مفردات الراغب، قاموس اللغة، مقاييس اللغة، مادة «عبد».

٢. الإسراء: ٢٤.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ... ﴾.[١]

وهكذا في آية ثالثة يشير سبحانه وتعالى إلى قصة يوسف عليه السلام وموقف يعقوب عليه السلام وزوجته وأولاده وسجودهم أمام يوسف عليه السلام بقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾.[٢]

فلو أخذنا بالتعريف اللغوي للعبادة يلزم من ذلك أن يكون سجود الملائكة ـ الذي هو من أعلى مظاهر الخضوع ـ لآدم وسجود يعقوب وزوجته وبنيه ليوسف، عبادة لآدم وليوسف عليهما السلام !!!

ولا يوجد مسلم على وجه الأرض يتفوّه بذلك أبداً.

ومن هنا يظهر أنّ تفسير العبادة بنهاية الخضوع والتذلّل وغير ذلك ممّا جاء في كتب اللغة، تفسير غير دقيق، وانّه لا يعطي الضابطة الكلية، وإنّما هو في الواقع ـ وكما قلنا ـ تفسير بالمعنى الأعم، ومن هنا إذا قصرنا النظر في تفسير العبادة على هذه التعاريف، وقلنا بأنّها تعاريف تامّة جامعة للأفراد ومانعة للأغيار، لزم رمي الأنبياء والصالحين والمرسلين والشهداء والصدّيقين بالشرك، إذ ليس منهم من لم يتذلّل أو يخشع أو يخضع لوالديه على أقلّ تقدير.

قد يقال في مقام الدفاع عن سجود الملائكة لآدم: إنّ السجود كان في الحقيقة لله وحده وليس لآدم، وإنّما كان آدم يمثّل دور القبلة بمعنى أنّ السجود كان لله تعالى ولكن باتجاه آدم عليه السلام كما يفعل المسلمون حيث يسجدون لله ويجعلون سجودهم باتّجاه القبلة.

لكن يرد على هذا النمط من التفكير والتوجيه أنّه معارض وبصورة تامّة

١. البقرة:٣٤.

٢. يوسف:١٠٠.

للآيات القرآنية، وذلك لأنّه لو صحّ هـذا التوجيه لما كان لامتناع إبليس وتمرده معنى، حيث قال:

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ .[1]

فالآية توضح وبجلاء أنّ الأمر كان موجّهاً للملائكة بأن يسجدوا لآدم لا أن يسجدوا باتجاه آدم عليه السلام فقط.

وهنا نكتة لابدّ من أن نلفت انتباه القارئ إليها، وهي أنّنا حينما ناقشنا آراء أصحاب اللغـة وعلماء هذا الفن لا يعني ذلك أبـداً التقليل من أهمية عملهم، أو إثبات بطـلان آرائهم بصورة مطلقة، وذلك لأنّهم في الحقيقة ليسـوا في مقام التفسيـر التفصيلـي للمصطلحـات، بل هم في مقــام بيـان التفسيــر بصـورة إجماليـة، بمعنى آخر أنّهم ليسـوا في مقام بيان الحـدود والتعريفـات المنطقية (الواقعية) وإعطاء الضابطة الكلية المنطقية والعلمية للمصطلحات.

ب: تحليل المسائل التي وردت فيها لفظة العبادة

إنّ اعتماد هذا الطـريق هو الآخر لن يوصلنا إلى النتيجة التي نتـوخّاها في تعـريف العبادة، بمعنى أنّـه لا يمكننا بحـال من الأحوال اعتمـاد هذا الطـريق واستقصـاء الموارد التي وردت فيهـا العبادة، واعتبـار ذلك هـو المعيار لتمييـز العبـادة عمّا سـواها، وذلك لأنّـه من الواضح أنّ للّغـة من الناحيـة الصناعيـة والبلاغيـة أساليبهـا الخاصـة من «الاستعارة، و المجـاز و التشبيه و... فقـد ترد لفظـة العبـادة فـي آيـة أو جملـة أو بيت شعـر أو حكمـة ويـراد منهـا المعنى المجـازي، أو أنّها استعيـرت في معنى آخر أو ...، فعلى سبيل المثـال يطلق

---

١. الإسراء: ٦١.

لفظ العبادة على من خضع لغرائزه وميوله، فيقال لشديد الطمع والحريص على كنز المال والثروة أو المنحرف أمام تيار الشهوة الجنسية أو المتلهّف إلى الجاه والسلطان انّه عبد بطنه أو ماله أو فرجه أو عبد المنصب والجاه.

ومن الواضح انّ إفراط هؤلاء في الأكل أو كنز المال وتكديس الثروة وطلب الجاه والمنصب لا يكون عاملاً في إدخالهم في قائمة المشركين وإطلاق لفظ الشرك المصطلح عليهم أبداً، نعم انّ العامل الذي جوّز استعمال هذه اللفظة في حقّهم هو انّهم تركوا زمام أُمورهم بيد تلك الغرائز والشهوات والميول تقودهم حيث تشاء، ولذا عدّوا بنظر الناس عابدين لبطونهم ومناصبهم، ... بل انّ هذه الاستعمالات المجازية جاءت في القرآن الكريم نفسه في موارد شبيهة لتلك الموارد المذكورة حيث قال:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. (١)

فالإنسان الغارق في الغضب أو الشهوة والمنحرف مع ميوله وأهوائه المتساهل في أداء العبادات والتارك للفرائض أو شارب الخمر والمرتكب للزنا، مطيع للشيطان، وقد اقترف بعمله هذا المعاصي والموبقات، ولكن ذلك لا يعني أنّه يعبد الشيطان كعبادةالله سبحانه، أو كعبادة المشركين للأصنام، ولأجل ذلك لا يكون مشركاً محكوماً عليه بأحكام الشرك، وخارجاً عن عداد المسلمين وزمرتهم مع أنّه من عبدة الشيطان بالمعنى الوسيع الأعم من الحقيقي والمجازي.

ومن هنا يكون اعتماد هذين الطريقين ـ و إن كانا لا يخلوان من فائدة ما ـ

---

١. يس: ٦٠.

غير مُجد في إيصالنا إلى الغاية المنشودة والهدف المقصود في «تعريف العبادة تعريفاً منطقياً»، بل لابدّ من اعتماد الطريق الثالث الذي سيأتي الحديث عنه في الفرع التالي.

ج. تحليل الخصائص القطعية والعناصر المقوّمة للعبادة

إنّ الباحث الموضوعي إذا أراد أن يحلّل مفهوم العبادة ويحدّد الخصائص والعناصر المقوّمة لها، لا ريب أنّه سيواجه خصوصيتين أساسيتين: إحداهما ظاهرية والأُخرى باطنية، وهاتان الخصوصيتان بمثابة عنصري الأُوكسجين والهيدروجين المقوّمين لحقيقة الماء، ومن هنا فإنّ هاتين الخصوصيتين سيكون لهما الأثر الفاعل في تحديد ملاك العبادة وتميّزها عن غيرها.

وهذه الخصائص يمكن اقتناصها من أفعال العباد وعقائدهم من غير فرق بين عبادة الموحّدين وعبادة المشركين.

ثمّ إنّ الإمعان في هذا المجال يدفعنا إلى القول بأنّ العبادة عندهم عبارة عن: الفعل الدالّ على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة في حقّ المخضوع له.

من هنا يتّضح انّ العنصرين المقوّمين للعبادة، هما:

١. الفعل المنبئ عن الخضوع والتذلّل.

٢. العقيدة الخاصة التي تدفعه إلى عبادة المخضوع له.

أمّا الخاصية الأُولى: والتي يمكن مشاهدتها في جميع مصاديق العبادة ولمسها بسهولة من خلال «الخضوع والتذلّل والخشوع» أمام الطرف المقابل،

أو بعمل خارجي كالركوع والسجود والانحناء، بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك ممّا يدلّ على ذلّة وخضوع أمام موجود ما. ولا شكّ أنّ جميع المفاهيم تشترك في هذه الخصوصية من قبيل «العبادة، التكريم، الطاعة، إحياء الذكريات» وغيرها، فالكلّ تشتمل على خصوصية الخضوع والخشوع والتذلّل. ومن هنا لا يمكن أن تكون تلك الخصوصية هي المائز الرئيسي والمعيار الأساسي لتحديد المفهوم الحقيقي والمراد النهائي من العبادة، أو تحديد المصاديق الواقعية للعبادة، لذلك اقتضى الأمر أن نفتش عن الحقيقة الثانية وأن ندرسها بدقّة و إمعان للتمكّن من خلالها من تمييز المصاديق الواقعية والحقيقية للعبادة عن المصاديق التي تشبه بظاهرها العبادة وليست هي عبادة حقيقية فنقول:

إنّ معرفة الأهداف والأغراض الباطنية تكمن في تحليل الهدف الذي ينشدونه من العبادة والخضوع، فممّا لا ريب فيه أنّ الهدف الذي ينشده الموحّد المؤمن بالله تعالى يختلف اختلافاً جوهرياً عن الهدف الذي ينشده غيره.

وبعبارة أُخرى: انّ الموحّدين عامّةوالوثنيين كلّهم، وعبدة الشمس والكواكب يعتقدون بإلوهية معبوداتهم، فالاعتقاد بإلوهية المعبود بهذا المعنى هو المقوّم لصدق العبادة، ولكن الهدف يختلف بينهم اختلافاً جوهرياً كما قلنا، ومن هنا يقتضي الأمر أن نسلّط الضوء على تلك الأهداف، فهدف الموحّدين وأتباع الرسالات التوحيدية يرتبط بدرجة ومرتبة إخلاصهم ومقدار معرفتهم ودرجة فهمهم لمعبودهم تعالى، ولذلك يمكن تصنيف الخصوصية الباطنية لهؤلاء الموحّدين إلى صورتين:

١ . الهدف الذي ينشده الخاصة (العارفون) من الموحّدين .

٢ . الهدف الذي ينشده العامّة من المؤمنين .

١ . الهدف الذي ينشده العارفون بالله

إنّ الهدف الذي ينشده الخاصّة من الناس والذي يطلق عليهم حسب الاصطلاح لفظ «العارفون» الذين يرتبطون بمركز الحق ارتباطاً خاصاً ، فإنّ من الواضح انّ هذه الطائفة من الناس تبتغي من وراء العبادة هدفاً خاصاً وتنشد غرضاً فريداً من نوعه من خلال عملهم هذا ، وهذا الهدف يتمثّل في العشق والوله والذوبان في معشوقهم ومعبودهم ، وانّ إدراكهم ومعرفتهم بالجمال المطلق قد هيمن على وجودهم بنحو جعلهم تتسمّر أقدامهم ، وتخضع أعناقهم ، وتنشد أعينهم إلى المعشوق والخضوع له وعبادته من دون أن يفكّروا ولو يسيراً في الجزاء المادي : جنة أو نار، أو ثواب أو عقاب .

وبعبارة أُخرى : انّ المحرّك الأصلي والدافع الأساسي لهم في الخضوع والخشوع والتذلّل للحق المطلق هو عشق الجمال والكمال المتجلّي في الله سبحانه والذوبان في الذات الإلهية بنحو لا يرون غيره ولا يرتبطون بسواه .

ولقد أشارت الأحاديث الإسلامية الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة إلى هذه الحقيقة ، واعتبرت هذا النوع من العبادة عبادة الأحرار الذين تخلّصوا من كلّ الميول والرغبات المادية وعشقوا الله وفنوا فيه . ومن تلك الأحاديث :

«وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً فتلك عبادة الأحرار» .[١]

ولا ريب أنّ هذا الهدف السامي منحصر بثلّة من المؤمنين ولا يعمّ سائر

---

١ . وسائل الشيعة:١/ ٥٥، الباب٩ من أبواب مقدّمة العبادات، الحديث١ .

الناس من أصحاب الديانات التوحيدية، بل انّه يختص بتلك الثلّة من الصالحين الذين وصلوا قمّة الكمال الإنساني بنحو أضحىٰ حاديهم ورائدهم إلى العبادة والخضوع لله هو الحب والعشق الإلهي لا غير.

٢ . الهدف الذي ينشده عامّة المؤمنين

إنّ الهدف الذي ينشده عامّة المؤمنين والعامل الذي يحدوهم إلى العبادة والخضوع لله سبحانه وتعالى يكمن في عاملين أساسيّين، هما:

الف: شعورهم بأنّ الله تعالى هو خالق الكون ومانح الوجود ومفيضه، وأنّه منبع الحياة.

ب: شعورهم ـ بالإضافة إلى كونه خالقاً ـ بأنّه تعالى هو ربّ العالم ومدبّره، وانّ العالم مرتبط به وجوداً وإدامة، أي أنّ تدبير العالم موكول إليه سبحانه ولم يفوض ذلك لغيره. وانّ مصير العالم والإنسان في الدنيا والآخرة بيده، كما أنّ بداية خلقهم بيده عزّ وجلّ، وأنّه هو الملجأ والملاذ في قضاء الحاجات و إفاضة البركات، وأنّ رفع النقص والحاجة عن الإنسان بيده لا بيد سواه.

إنّ من يمعن النظر في القرآن الكريم وآياته يرى أنّها قد أشارت إلى هذه الحقيقة وشهدت بها، ورتّبتها بصورة واضحة. إذ نرى الآيات عندما تتحدّث عن الخالقية وانّ الخالق للكون والإنسان هو الله سبحانه، تردف تلك الشهادة بالمدبّرية، وتؤكّد أنّه هو المدبّر لا غير وانّ أمر العالم بيده، وبعد أن تنتهي من هذه الحقيقة الثانية تنتقل إلى المسألة الثالثة فتطرحها وهي «الدعوة إلى العبادة». ومن الواضح أنّ هذا التسلسل الثلاثي للمطالب يوصلنا إلى النتيجة التالية:

إنّ عبادة الله معلولة ووليدة شعورين في داخل الإنسان، هما: الشعور بكونه تعالى خالقاً، والآخر الشعور بكونه تعالى ربّاً مدبّراً للعالم قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُون﴾. [1]

وقد أشارت الآية إلى أربعة أُمور وبصورة متسلسلة هي:

ألف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات والأرض﴾.

ب: ﴿يُدبّر الأمر﴾.

ج: ﴿ما مِنْ شَفيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

وبعد أن أشارت الآية إلى أنّ الله هو الخالق وهو المدبّر وأنّ تأثير جميع الموجودات تابع لإذنه سبحانه وإرادته، عطفت الكلام على العبادة وحصرها به فقالت: ﴿ذٰلِكُمُ الله ربّكم فاعبدوه﴾ باعتباره سبحانه هو الغني المطلق، وهو الجدير بأن يعبد دون سواه، لأنّ غيره موجودات فقيرة ومحتاجة فلا تستحق العبادة أبداً. [2]

---

١. يونس:٣.

٢. قد يقال: لماذا جاء التعبير في الآية المباركة عن المؤثرات الأُخرى بلفظ «الشفيع»؟

والجواب واضح: وذلك لأنّ «شفيع» مأخوذ من «الشفع» بمعنى الزوج، وهو يقابل الفرد، وبما أنّ العلل الطبيعية أو أيّ مؤثر آخر في عالم الوجود لا يمكن أن يؤثر مالم يضم إليه الإذن الإلهي. من هنا أطلق لفظ «الشفيع» على تلك العلل والمؤثرات، وكأنّ تأثير المؤثرات وفاعلية العلل الأُخرى اقترنت بالمشيئة الإلهية، وضمّت إليها. فعلى سبيل المثال إذاكان لضياء الشمس ونور القمر والماء دورٌ في نمو النباتات والحيوانات الأُخرى، فما هي ــ في الحقيقة ـ إلاّ مظهراً من مظاهر المشيئة والإرادة الإلهية.

ثمّ إنّ الموحّدين الذين تربّوا في أحضان الرسالةالمحمدية ونهلوا من منبع الوحي الإلهي العذب وعينه الصافية، ساروا في مجال الحقل المعرفي طبقاً للمعارف السماوية، وخطوا خطوات سريعة في كسب العلم والمعرفة، فأدركوا أنّ الله هو خالقهم وهو المدبّر لأُمورهم ولا مؤثر في الكون إلاّ بإذنه سبحانه، من هنا خضعوا لله وخشعت قلوبهم له وذلّت أعناقهم أمام هيبته سبحانه، ووقفوا أمامه رافعين أكفّهم بالدعاء طالبين منه المغفرة، ومتوسّلين إليه سبحانه في أن يقضي حوائجهم وينجز لهم ما وعدهم وأن يأخذ بأيديهم إلى ما فيه الخير والصلاح، ساعين إلى كسب رضاه واجتناب سخطه سبحانه من خلال امتثال أوامره والاجتناب عن نواهيه تعالى، رافضين عبادة غيره من الموجودات الأُخرى مهما كانت، وكأنّ لسان حال الجميع يقول:

﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلاّ ما شاءَ اللهُ﴾.(١)

الهدف الذي ينشده المشركون من العبادة

لا شكّ انّ تكريم وتبجيل وتعظيم المشركين لمعبوداتهم يُعدّ عبادة لها وإن كانت تلك العبادة باطلة ولا تجدي نفعاً ولا تدفع ضرراً.

ولكن لابدّ من تركيز البحث على معرفة الأهداف والغايات التي ينشدها المشركون ويبغونها من وراء عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة والمزيّفة. وقبل أن نشرع في بيان تلك الأهداف والغايات لابدّ من تقديم البحث عن مسألة أُخرى وهي: الإشارة إلى المراحل والمراتب المختلفة للشرك.

نقول: ينقسم المشركون على هذا الصعيد إلى قسمين أو طائفتين، هما:

١. يونس:٤٩.

ألف: طائفة من المشركين ذهبت إلى أنّ الله الأزليّ والأبديّ قد تجلّى في ثلاثة مظاهـر، وهذا ما نشاهده في الديانة الهنـدوسية حيث قامت ديأنتهم على الأُسس التالية:

١. البراهما: الخالق.

٢. ويشنو: الواقي.

٣. سيفا: المهلك أو المبيد.

لقد حصل في المائة الثالثة قبل الميلاد تحوّل في الديانة البراهماتية أدّى إلى ظهور الديانة الهندوسية إذ ذهبت هذه الديانة إلى أنّ الله الأزلي والأبديّ، قد تجلى في الآلهة الثلاثة التي ذكرناها[١] ويوجد في أحد المتاحف الهندية تمثال لذلك الثالثوت المقدّس بهيئة ثلاثة جماجم متلاصقة فيما بينها.

والـذي يؤسف لـه أنّ الـديانـة المسيحيـة في القرون الخمسـة الأُولى من عمرها وبسبب التأثّر بالأفكار الفلسفية اليـونانية والشرقية قد ابتليت هي الأُخرى بـالقـول بـالتثليث، ولكنّـه بصـورة جـديـدة تحت عنـوان: الأب، الابن، روح القدس.

يقـول المستره‍اكس: تتألف طبيعة الإلـه من ثلاثـة أقانيم، هي: الإلـه الأب، والابن، وروح القـدس. إلى أن يقول: ولابـدّ أن يعرف أنّ هذه الأقـانيم متّحدة الرتبة والعمل.[٢]

---

١. العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: ١٠.

٢. قاموس الكتاب المقـدس: ٣٤٤ (باللغة الفارسية)، ومن الجدير بالذكـر أنّ القرآن الكريم أشار إلى حقيقة تبعية الديانة النصرانية للهندوسية والتقاطها منها نظرية التثليث حيث جاء في الآية ٣٠ من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَقالَتِ النَّصـارى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِـأَفْواهِهِمْ يُضاهِئُـونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

ولا ريب أنّ هذا النوع من الشرك الهندوسي أو النصراني يضاد التوحيد الذاتي مضادة تامة، وذلك باعتبار أنّ هذا النوع من الشرك يثبت تركّب الذات الإلهية، والقول بالتوحيد الذاتي ينافي هذا التركيب ويثبت بساطة الذات الإلهية.

والمهم في بحثنا هنا هو دراسة نوع الشرك الذي كان رائجاً في العصر الجاهلي وعصر نزول الوحي على النبي الأكرمﷺ، الشرك الذي تعرضت له الكثير من آيات الذكر الحكيم وهو الذي يعتمده الكثير من الباحثين المعاصرين في الدراسات المطروحة في مجال التوحيد والشرك.

إنّ من طالع آيات الذكر الحكيم وتاريخ الجزيرة العربية يدرك أنّ المجتمع الجاهلي لم يكن منحرفاً عن التوحيد في الخالقية، بل كانوا يؤمنون بأنّ الخالق للكون والإنسان والموجد لهما هو الله سبحانه، وهذا ما أشارت إليه بعض آيات الذكر الحكيم.[١]

نعم انّ شركهم يتمثّل في المرحلة الأُخرى، وهي مرحلة الشرك في الربوبية وتدبير عالم الخلق، بمعنى أنّهم يعتقدون أنّ الخالق للعالم هو الله وحده ولكنّهم يعتقدون في نفس الوقت أنّ المدبّر للعالم والذي بيده مصيره ومصيرهم هو «الأصنام»، لأنّ الله سبحانه قد فوّض أمر التدبير إليها.

إنّ كتب الملل والنحل وإن أشارت إلى نقاط مهمة وأساسية في مجال عقائد أبناء المجتمع الجاهلي وطريقة تفكيرهم[٢]، ولكنّ أوثق المصادر

---

١. انظر: العنكبوت:٦١؛ لقمان:٢٥.

٢. انظر: الملل والنحل للشهرستاني، وبلوغ الأرب في أحوال العرب:٣/ ٨٠؛ والمعضل في تاريخ العرب قبل الإسلام:٩/ ١٩.

وأحكمها وأتقنها والذي يمكــن الاعتماد عليه بصورة كاملة والركـون إليه في بيان عقائدهم ونظرياتهم الدينية وآلهتهم المـزيّفة والباطلة هو القرآن الكريم، حيث تحـدّث عن تلك العقائد في منـاسبات مختلفـة، وأزاح الستار عن الكثيـر من الأُمور التي تدور في هذا الفلك، ومنها أنّه بيّن الأهداف والغايات التي ينشدونها من وراء عبادتهم وطاعتهم للأصنام والأوثان.

ومن هنـا يكتسب بحثنا أهميـة قصوى وقيمـة عليـا، وهانحن نقتفي أثـر القرآن الكـريم ونستمد العـون من آياته المبـاركة لمعرفـة الأهداف التي ينشـدها المشركون من العبادة، وهذه الأهداف تتمثل بالأُمور التالية:

الهدف الأوّل: طلب النصرة والعزّة

إنّ مشركي العصر الجاهلي ـ و على العكس من الموحّدين ـ يعتقدون أنّ عزّة المجتمع الإنساني وانتصاره على الأعـداء والخصوم تقع بيد الأصنام، فهي التي تتمكّن من تحقيق ذلك متى شاءت وأرادت.

ومن هذا المنطلق تراهم يتوجّهون إليها بخشوع وتذلّل طالبين منها المدد والنصرة والعزة والغلبـة، ولقد أشار القرآن الكريم في آياتـه المباركة إلى كلّ من نظـريـة الموحّـدين والمشـركين في هـذا المجـال وبيّن الفارق الجـوهـري بين النظريتين بما لا لبس فيه ولا يعتريه شك، وذلك بالنحو التالي:

١. إنّ المـوحّدين يعتقـدون اعتقـاداً جازمـاً أن العزّة والكـرامـة والرفعـة الاجتماعية وغيرها بيد الله سبحانه وتعالى وحده:

﴿فَلِلّهِ الْعِزَّةُ جَميعاً﴾.[1]

---

١. فاطر:١٠.

أمّا المشركون فيعتقدون انّ ذلك كّله بيد الأصنام والأوثان :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ .(١)

٢ . يعتقد الموحّدون أنّ النصرة والغلبة والفوز على الأعداء وكسب النصر في الحرب وغيرها من ساحات الصراع بيد الله سبحانه وحده ويردّدون دائماً قوله تعالى :

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ .(٢)

وأمّا المشركون فيعتقدون أنّ ذلك بيد آلهتهم المصطنعة :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ .(٣)

الهدف الثاني : انّهم يملكون مقام الشفاعة

إنّ الهدف الثاني والغاية الأُخرى التي ينشدها المشركون من آلهتهم المزيّفة(الأصنام) هو طلب الشفاعة حيث كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تلك مالكة لمقام الشفاعة ، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث اعتقدوا أنّ شفاعة آلهتهم مطلقة وأنّها غير مشروطة بشرط وغير مقيّدة بقيد ، ويكفي في نيل تلك الشفاعة عبادة تلك الآلهة والخضوع أمامهم فقط ليكونوا لهم شفعاء يقربونهم من الله سبحانه .

ولقد ردّ القرآن الكريم على هذه النظرية الزائفة ، وأبطل هذا الادّعاء الواهي ، حيث قال سبحانه نافياً الشفاعة عمّا سواه سبحانه ، وانّه لا شفيع إلاّ

---

١ . مريم:٨١.

٢ . آل عمران:١٢٦ .

٣ . يس:٧٤.

من بعد إذنه :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ﴾ .[١]

ولقد أشارت إلى هذه الحقيقة آيات أُخرى من الذكر الحكيم .[٢]

الهدف الثالث : الأفعال الإلهية

إنّ هذا النوع من التفكير لم يكن من النظريات المخترعة من قبل العرب في العصر الجاهلي، بل انّ هذا النوع من التفكير يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، ويظهر لنا ذلك بوضوح من خلال الآيات التي تعرضت للحديث عن قصة النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، وحواره مع المشركين في عصره، فكان إبراهيم عليه السلام يؤكّد أنّ مصدر الأفعال والنعم التي يتنعم بها هو خاصة والناس عامّة هو الله وحده حيث جاء في حواره معهم :

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ .[٣]

فأنت تلاحظ هنا أنّ بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام ينسب الأفعال التالية : الهداية، الإطعام والسقي، الشفاء من المرض، الموت والحياة، وغفران الذنوب إلى الله الواحد الأحد، وبما أنّه عليه السلام في مقام الرد على مشركي عصره في مدينة (بابل) يظهر لنا وبجلاء ـ من خلال عنصر المقابلة ـ أنّهم كانوا

---

١. البقرة:٢٥٥.

٢. انظر: الزخرف:٨٦، مريم:٨٧.

٣. الشعراء:٧٨ـ٨٢.

يعتقـدون أنّ تلك الأفعال والنعم بيـد آلهتهم البـاطلة، إذ بإمكـانها أن تهـديهم وتطعمهم وتسقيهم وتشفيهم مـن الأمـراض وتميتهم وتحييهم و... ، ومـن هنـا خضعوا لها وعبدوها.

ومن هنا أيضـاً يتّضح الهدف الثـالث الذي ينشـده المشركـون من خلال عبـادتهم لتلك الآلهة، وهـذا الهدف يتمثّل في الحصـول على الهدايـة والنعم المادية والأُخروية.

الهدف الرابع: الاعتقاد بأنّ آلهتهم أنداد لله ومتكافئة معه

إنّ الآيات التالية توضّح وبجـلاء عقيدة المشركين في آلهتهم (أصنامهم) ونسبتها إلى الله سبحـانه، حيث تصرّح بـأنّهم يعتقدون أنّ هذه الآلهـة أنداد لله سبحانه ونظراء له ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ حيث قال تعالى:

الف: ﴿**وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْـداداً يُحِبُّـونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**﴾.[١]

والأنداد لغة جمع «ند» بمعنى «المثل» و «النظير»، بمعنى أنّهم يعتقدون أنّ آلهتهم مثل الله تناظره وتساويه وتكـافئه، وهذا يعني أنّهم يعتقدون أنّ آلهتهم تناظـر الله وتشابهه في القدرة على القيـام بجميع الأفعال التي يقوم بها سبحـانه من: الإحياء، الإماتة، الرزق، الشقاء، الهدايـة، غفران الذنوب وحطّ الخطايا و... ، فجميع تلك الأفعال التي يعتقد الموحّـدون أنّها من خصائصه سبحانه، وأنّـه لا يقـدر أيّ مخلـوق مهمـا كان علـى القيام بهـا بصـورة مستقلـة؛ تجـد المشركين يعتقدون بأنّ أصنامهم وآلهتهم المزعومة قادرة هي الأُخرى على القيام

١. البقرة:١٦٥.

بها بصورة مستقلة، وأنّه لا فرق بينها و بين الله في هذه الأُمور.

ب: قوله تعالى: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾.[1]

يتّضح ـ بما لا مزيد عليه ـ من خلال هذه الطائفة من الآيات المباركة الهدف الذي ينشده المشركون من وراء عبادتهم لآلهتهم المصطنعة والمزيفة.

خلاصة البحث

١. انّ مشركي عصر الرسالة كان يعتقدون بآلهة صغار قد فوّض الله سبحانه إليها ـ بعد أن خلقها ـ أُموراً مهمة، منها: تدبير العالم.

وبعبارة أُخرى: أنّهم منحوا آلهتهم مقام «الربوبية» بحيث اعتقدوا أنّهم يملكون قدرة التصرّف في العالم و إدارته، ومن هذا المنطلق ولهذا الغرض خضعوا لهم وعبدوهم.

إنّ ربوبية تلك الأصنام و الآلهة وسيطرتهم على العالم، ليس لها معيار معيّن وحدّ خاص حيث نرى في بعض الأحيان أنّ المشركين خطوا خطوات خطيرة في شمولية وسعة حدود تلك الآلهة، وذلك في عصر النبي إبراهيم عليه السلام حيث جعلوا بيدهم نزول المطر، وشفاء المرضى وحطّ الذنوب وغفرانها والشفاعة.

يذكر ابن هشام: انّ عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره، فلمّا قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذٍ العماليق، رآهم يعبدون

---

١. الشعراء:٩٧ـ٩٨.

الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم:

أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.[1]

إذاً استمطار المطر من هذه الأوثان والاستعانة بها يكشف عن أنّ بعض المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لهذه الأوثان دخلاً في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

٢. قد يتصوّر البعض أنّ نظرية المشركين في حقّ آلهتهم لا تتعدى القول بأنّهم يملكون مقام الشفاعة المقبولة لدى الله سبحانه وتعالى.

ولكن الإمعان في آيات الذكر الحكيم يوضح لنا وبجلاء وهن هذا التصوّر وبطلان هذا الرأي، فإنّ آيات الذكر الحكيم ـ والتي ذكرنا بعضها ـ تصرّح بأنّ المشركين كانوا يعتقدون لآلهتهم أكثر من مقام الشفاعة، حيث كانوا يؤمنون بأنّ: العزة والذلّة، النصر والهزيمة، الشفاعة والمغفرة، كلّ ذلك بيد آلهتهم المزعومة، وكأنّ آلهتهم قد هيمنت على المقام الربوبي وأخذت على عاتقها القيام ببعض الأفعال التي هي من خصائص، الشأن الإلهي.

ثمّ إنّ الاعتقاد بمقام الشفاعة المقبولة للأصنام والأوثان لدى الله سبحانه وتعالى، وإن كان اعتقاداً باطلاً، مع هذا لا يمكن أن يُعدّ مائزاً خاصاً لجعلهم أنداداً ونظراء ومتكافئين مع الله سبحانه، ومن هنا نجد حالة الحسرة والخيبة بادية على وجوه المشركين مظهرين الندامة على مااقترفوه من الخطأ في الاعتقاد وحيث تصرّح الآية المباركة بندمهم هذا فتقول: ﴿إِذْ نُسوّيكُم بِرَبِّ العالَمين﴾

---

١. سيرة ابن هشام: ١/ ٧٦ـ ٧٧.

وهذا واضح بأنّهم كانوا على اعتقاد بأنّ آلهتهم الباطلة تساوي الإله الحقيقي لا أنّهم يعتقدون بمجرّد مقام الشفاعة المقبولة لهم فقط.

٣. انّ هدف المشركين في عبادتهم للأوثان، نابع من اعتقادهم القلبي وإيمانهم بأنّ آلهتهم لها مقامات خاصة تتمكن من خلالها من إدارة العالم وتدبير شؤونه و... ، ومن هذا المنطلق وبناءً على هذا الاعتقاد عبدوهم وخضعوا لهم باعتبارهم «آلهة» و«أرباب» و «يملكون مقام الشفاعة و الهداية و...».

٤. مع الالتفات إلى الأُمور السابقة يمكن أن نعرّف العبادة تعريفاً دقيقاً فنقول: **العبادة عبارة عن الخضوع الصادر لمن يتّخذه الخاضع إلهاً**، ولقد أجاد المرحوم الشيخ جواد البلاغي حينما عرفها بقوله: العبادة ما يرونه مشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلهاً، ليوفيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلوهية.[1] سواء كانت هذه الإلوهية حقّة كما في اعتقاد الموحّدين، أو كانت باطلة كما في اعتقاد المشركين.

٥. إذا عرفنا أنّ مقوّم العبادة عبارة عن اعتقاد السائل والخاضع والداعي أو المنادي بأنّ المسؤول والمخضوع له «إله» و «ربّ» يملك شيئاً ممّا يرجع إليه في عاجله أو آجله، في مسيره ومصيره، وإنّه يقوم بذلك لكونه خالقاً أو مفوضاً إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال والأصالة، نستطيع أن نقضي في الأعمال التي يقوم بها أتباع الأنبياء ومحبّوهم، بأنها ليست عبادة أبداً، وإنّما هي من مصاديق التكريم والاحترام، وإن بلغت نهاية التذلّل، لأنّها لا تنطلق من اعتقاد الخاضع بإلوهية النبي، ولا ربوبيته، بل تنطلق من الاعتقاد بكونهم عباد الله

---

١. آلاء الرحمن: ٥٧.

الصالحين، وعباده المكرمين الذين لا يعصون الله وهم بأمره يعملون، نظير:

١ . تقبيل الأضرحة وأبواب المشاهد التي تضمّ أجساد الأنبياء والأولياء، فإنّ ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد، لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل واللّمس وما شابه ذلك.

٢ . إقامة الصلاة في مشاهد الأولياء تبركاً بالأرض التي تضمّنت جسد النبيّ أو الإمام، كما نتبرّك بالصلاة عند مقام إبراهيم اتّباعاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهيمَ مُصَلّى﴾ .[1]

٣. التوسّل بالنبي، سواء كان توسّلاً بذاته وشخصه، أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه في حال حياته ومماته؛ فإنّ ذلك كلّه لا يكون عبادة، لعدم الاعتقاد بإلوهية النبي ولا ربوبيته.

٤. طلب الشفاعة من الأنبياء أو النبيّ الأكرم ليس شركاً، لأنّه يطلبها منه بقيد أنّه عبد مأذون، لا أنّه مفوّض إليه أمرها.

هذه خلاصة البحث حول حصر العبادة بالله سبحانه وحدودها وحدود الشرك، وإذا أمعنت النظر فيما ذكرنا يمكنك الإجابة عن الكثير ممّا أثارته بعض المناهج الفكرية في الأوساط الإسلامية حول هذه الأُمور، التي نسبت جلّ المسلمين إلى الشرك في العبادة مع أنّهم بمنأى عن الشرك! وقد حان الوقت للحديث عن مسألة أُخرى مهمة وهي: «مفهوم البدعة في الدين».

---

١. البقرة:١٢٥.

الفصل الخامس

مفهوم البدعة في الدين

البدعة في الدين

للتوحيد الإبراهيمي ـ و الذي يمثّل حجر الأساس لجميع الأديان السماوية ـ مراتب ودرجات تعرّض لها المتكلّمون الإسلاميّون بالبحث والدراسة بصورة شاملة ومفصّلة، وسلّطوا الأضواء على جميع أبعادها وزواياها، وألّفوا في هذا المجال الكثير من الرسائل والكتب.

ومن مراتب التوحيد تلك مرتبة «التوحيد في التشريع والتقنين» بمعنى الاعتقاد الراسخ أنّ «حق التقنين» منحصر بالله تعالى وحده، ولا يحق لأحد غيره مهما كان شأنه أن يصدر قانوناً أو تشريعاً من عند نفسه ليعالج به قضية، أو يرسم به خطاً معيّناً، ويجبر الناس على السير على وفق ذلك القانون ويحدّ من حريّاتهم من خلال إلزامهم بذلك التشريع، بل يجب على كلّ موحّد أن يلتزم نظرياً وعمليّاً بأنّ حقّ التقنين و إصدار التشريعات والتوجيهات ورسم الخطط وتحديد حرية الإنسان في هذا المجال، كلّها من شؤون الله وحده لا يشاركه فيها سواه. فهو صاحب الحقّ المطلق في التشريع، والتصرّف في الأنفس والأموال، وهو صاحب الأمر والنهي كما يصطلح عليه.

ويمكن إثبات هذه المرتبة من التوحيد من خلال سلوك منهجين، هما:

١ . المنهج العقلي .

٢ . المنهج النقلي .

وهـانحن نشرع في دراسـة وتحليل المنهج الأوّل ثمّ نعرّج على الحـديث عن المنهج الثاني منهما .

المنهج العقلي

إنّ قضيـة حصـر التشريع والتقنين بـالله وحـده ليست وليـدة ضيق الأُفق وقصر النظر والتعصّب الأعمى ، بل هي وليدة النظرة الموضوعية والرؤية الواقعية لـلأُمور، ونحن إذا أردنـا أن ندرس الأُمـور بمـوضوعيـة وواقعية ، لابـدّ أن نسلّط الضـوء على الخصـائص والمـواصفـات التي ينبغي أن يتـوفّـر عليهـا المقنّن الموضـوعي الذي تكـون تشريعـاته وأحكامـه مطابقـة للواقع و تمتلك خـاصية المعالجة الموضوعية للأُمور.

ومن هـذا المنطلق نقول : إنّـه ينبغي للمقنّن أن يتوفّـر على مجموعـة من الشروط والمواصفات التي لا تتوفر إلاّ بالله وحده وتنحصر به سبحانه ، وهي :

١ . أن يكـون المقنّن ذا معرفـة تـامّة وكـاملـة بـالإنسان من جميع أبعـاد شخصيته وما يحيط بها ويؤثر عليها من العوامل .

٢ . أن لا ينتفع المقنّن بما يسنّه من القوانين والتشريعات .

٣ . أن يكـون المقنّن منـزّهاً عن الميـول الحـزبيـة والتكتّلات الفئـويـة ، ومتحرّراً من ضغوط السلطات الحكومية وأصحاب النفوذ .

وممّا لا ريب فيـه أنّ هذه الشـروط الثلاثة لا يمكن تـوفّرهـا إلاّ في خالق العالم وموجده لا غير، وذلك لأنّ :

ألف : لابدّ أن يكـون المقنّن عالماً بالإنسـان علماً تاماً كي يتسنّى له من

خلال معرفة الإنسان والإحاطة بميوله وغرائزه وعواطفه أن يرسم له خطاً، ويسنّ لها قانوناً ينسجم مع تلك الغرائز والميول، ويمتلك القدرة على تهذيبها وتربيتها بنحو يسوقها نحو الهداية والكمال المنشود من وراء خلقها.

كذلك لابدّ أن يكون المقنّن ذا معرفة كاملة وعلم تام بالمجتمع بجميع أبعاده وخصوصياته وزواياه، حتى يتمكّن من معرفة مهام ووظائف الأفراد في المجتمع من جهة ويعرف حقوقهم التي ينبغي للمجتمع توفيرها من جهة أُخرى، كذلك يعرف أُسلوب حركة الأفراد في المجتمع والعوامل المؤثرة على حركتهم، وردود الفعل التي يبدونها اتّجاه تلك العوامل والضغوط.

ولا ريب أنّ هذه الخصوصية ـ المعرفة الكاملة بالمجتمع ـ هي الأُخرى من خصائصه سبحانه ولا يشاركه فيها أحد من خلقه مهما كان، ولقد أشارت آيات الذكر الحكيم إلى هذه المسألة، حيث قال سبحانه:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.[1]

ثمّ إنّ الله الذي خلق ذرّات الإنسان وخلاياه التي لا تحصى وخلق أعضاءه ومكوّناته المختلفة، هو وحده العارف بمتطلّباته وحاجاته المعلنة والخفية، وما ينفعه وما يضرّه، ومصالحه ومفاسده، على أكمل وجه وأتمّ صورة، لا يدانيه في هذه المعرفة أحد أبداً، وهو وحده العالم بطريقة وأُسلوب حركة المجتمع، ومنهج التعايش الذي ينبغي أن يعتمدونه، وردود الفعل التي يبدونها تجاه القوانين والتشريعات، وتحديد المهام والوظائف التي تكون عاملاً في انسجام المجتمع وسوقه إلى الاستقرار والرقي والكمال، ووضع الإنسان في

---

١. الملك:١٤.

الموضع الذي يليق به ويستحقه.

ب: انّ الواقعية ورعاية مصالح الإنسان ومنافعه تقتضي أن يكون المقنّن بعيداً عن كلّ أنواع الهوىٰ، ومنزّهاً عن حب الذات، والسعي لجلب المنفعة الشخصية أو الفئوية في سنّه للقوانين والتشريعات، وذلك لأنّ الغرائز والميول الضاغطة على الإنسان كالأنانية والنفعية تُعدّ حجاباً غليظاً ومانعاً قوياً بين المقنّن وبين الرؤية الواقعية للأُمور، وانّ المقنّن مهما سعى أن يكون إنساناً موضوعياً منزّهاً عن تلك الميول ومتحرّراً منها، إلاّ أنّها تفعل فعلها في اللا شعور ومن دون إرادته واختياره، وتؤثّر أثرها في التلاعب بالقانون والميل به عن جادة الواقعية والموضوعية.

ج: انّ الميول الحزبية والتوجّهات الفئوية والخوف من أصحاب النفوذ والقدرة في المجتمع تُعدّ هي الأُخرى من العوامل التي تجنح بالمقنّن إلى الميل عن جادة الحق والموضوعية، وتحرفه عن أُصول وأُسس التقنين المتزنة والمحايدة، وتبعده عن النظرة الشمولية واعتماد منهج العدل والإنصاف، ولذلك تجد المقنّن والمشرع وتحت ضغط عامل الخوف والخشية من أصحاب النفوذ والسطوة في المجتمع يسنّ القوانين بطريقة تؤمّن مصالح ومنافع تلك الثلّة حتّى لو كان ذلك على حساب المصلحة العامّة وسحق الطبقات الأُخرى.

ثمّ إنّ عامل الخشية والخوف من مراكز القدرة وأصحاب السطوة ـ أفراداً كانوا أو جماعات ـ يبقىٰ كالسيف المرهف المسلّط على رقبة المقنّن يسوقه إلى الجهة التي يريدها صاحب السيف وذو السلطة والنفوذ بنحو تجعل المقنن يعيش بين خيارين: إمّا الخضوع إلى السلطة وتلبية رغباتها وسن القانون وفقاً لميولها و إرادتها والانجراف مع تيارها؛ وأمّا تحمّل أشدّ الضغوط والمصاعب

كالسجن والإبعاد، أو على أقل تقدير المحاربة بلقمة العيش.

من هنا ندرك أهمية هذا الشرط وقيمته في التشريع، وكيف يكون استقلال المقنّن وتحرّره عاملاً فاعلاً في الرؤية الموضوعية، وممّا لا شكّ فيه أنّ التحرر الكامل والنفوذ المطلق والغنى التام هو من خصائصه سبحانه وحده لا شريك له، ولهذا فهو الجدير بمقام التشريع وسن القانون ولا يستحق هذا المنصب غيره مهما كان.

ومن حسن الحظ أنّ بعض المحقّقين والمفكّرين الغربيين تنبّهوا إلى هذا الشرط ومدى أهميّته في موضوعية القانون وواقعيته من أمثال المفكّر جان جاك روسو حيث يقول في كتابه «العقد الاجتماعي»: «لاكتشاف أفضل القوانين المفيدة للشعوب لابدّ من وجود عقل يرى جميع الشهوات البشرية ولكن لا يجد في ذاته ميلاً نحوها. عقل لا يرتبط بالطبيعة ولا يخضع لضغوطها، ولكنّه يعرفها تمام المعرفة، عقل لا ترتبط سعادته بنا ولكنّه مستعد لئن يعيننا في سعادتنا».[1]

إلى هنا اتّضح لنا حكم العقل في حصر حق التقنين والتشريع في الله وحده لا يشاركه في هذا الحقّ غيره مهما كان، وقد حان الوقت لدراسة المسألة من الزاوية الأُخرى لنرى ما هي الرؤية القرآنية في هذه القضية الحسّاسة والمهمة؟

القرآن وحصر التشريع بالله سبحانه

لقد أقرّ القرآن الكريم حكم العقل بحصر حق التشريع بالله تعالى حيث

١. العقد الاجتماعي: ٨١.

اعتبرت آيات الـذكر الحكيم انّ حقّ التقنين خاصاً بـالله وحده، ولا يحق لأحد مهما كان أن يتجاوز على هذا الحق أو يخترق حدود هذا المقام كائناً من كان، ومن الملاحظ انّ الآيـات التي وردت في هذا المجـال كثيرة، نكتفي هنا بـذكر نموذجين منها ـ فقط ـ روماً للاختصار:

١. قال تعـالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للهِ أَمَـرَ أَلاّ تَعْبُـدُوا إِلاّ إِيّـاهُ ذَلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.[1]

فإنّ جملـة: ﴿إِنِ الْحُكْـمُ إِلاّ للهِ﴾ تحكي وبـوضوح تـام انّ كافّـة أنواع الحكم والقوانين والدساتير من شؤونه ومختصـاته وحده سبحانه وتعالى، وبما أنّ شأن الحكم والتقنين مختص به أردفت الآية الجملة المذكـورة بالأمر بعبادته وحده والخضوع له لا لغيره ﴿أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ﴾.

٢. وقولـه تعالى: ﴿وَاتَّخَـذُوا أَحْبـارَهُمْ وَرُهْبـانَهُمْ أَرْبـاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم﴾.[2]

إنّ الآية المباركة تشير وبوضوح تام إلى أنّ أهل الكتاب قد تجاوزوا الخط المرسـوم لهم، واقتحموا دائرة الحقّ الإلهي في الانفـراد في التشريع والتقنين، فمنحـوا أحبارهم ورهبـانهم هـذا الحق، وانّهم بـدلاً من الـرجوع إلى الكتـاب السمـاوي وأخـذ الأحكام منـه رجعـوا في ذلك إلى أحبـارهم ورهبـانهم، ومن الواضح أنّ الرهبان والأحبار قد يحلّلون ـ ولأسبـاب ما ـ ما حرّم الله ويحرّمون ما أحلّ الله.

من هنـا اعتبـر القرآن الكـريم أهل الكتـاب غيـر موحّـدين في التشـريع

---

١. يوسف:٤٠.

٢. التوبة:٣١.

ومنحرفين عن خط التوحيد.

روى الثعلبي باسناده عن عدي بن حاتم ـ و قد كان نصرانياً ـ قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي«اطرح هذا الربق من عنقك» قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ هذه الآية: ﴿**وَٱتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً**﴾. حتى فرغ منها. فقلت: إنّا لسنا نعبدهم. فقال: «أليس يحرّمون ما أحلّه الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله فتستحلونه؟» قال: قلت: بلى. قال: «فتلك عبادة». (١)

يتّضح ممّا سبق أنّ مركز التشريع وسنّ القوانين وتنظيمها من مختصّاته سبحانه وحده لا يشاركه فيها سواه. وأمّا عمل الأنبياء والأئمّة ووظيفتهم فيكمن في بيان تلك التشريعات والقوانين الإلهية، وانّهم عليهم السلام لا يتصرّفون في القانون أبداً. (٢)

سؤال و إجابة

إذا كان حقّ التشريع من شؤونه سبحانه وأنّ زمام أمر القانون بيده تعالى، فما هي ياترى وظيفة ومهام المجلس التشريعي في الجمهورية الإسلامية

١. نور الثقلين:٢/ ٢٠٩؛ بحار الأنوار:٩/ ٩٨. وقد روى العلاّمة البحراني في تفسيره «البرهان» أحاديث جمّة بهذا المضمون فراجع ج٢، ص ١٢٠.

٢. إذا ثبت انّ حقّ التشريع وزمامه بيد الله سبحانه وحده دون سواه، فكيف يفسّر ما ورد في الكافي:١/ ٢٠٩ـ ٢١٠ من الأحاديث التي تثبت أنّ الرسول ﷺ قد شرّع بعض الأحكام، والجواب: انّ هذه الروايات لها تفسير خاص لا يتنافى مع القول بالتوحيد في التشريع وقد أجبنا عن الشبهة بصورة مفصّلة في موسوعتنا «مفاهيم القرآن» فمن أراد الاطّلاع فعليه بمراجعة: الجزء الأوّل ص ٥٥٣ـ ٥٥٤، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ، ط. إيران.

والمسمّى «بمجلس الشـورى» ، فهل يعتبـر وجود هـذا المجلس تجـاوزاً على الحق الإلهي واعتداء على حدود مقامه سبحانه في التشريع ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في مسألتين :

الأُولى منهما هي : أنّه ممّا لا ريب فيه أنّ كلّ دولة تسعى إلى الرقي والرفاه وتنظيم أُمورهـا وتسيير الحياة فيها على أكمـل وجه ، لابدّ لها من وضع مـؤسسة تتكفّل بهـذه المهمـة ، وتقوم بـرسم الخطط ووضع البـرامج التي تسهّل عمليـة حركة الشعب وتنظيم مسيـرته . فإذاً وجود مجلس أو مؤسسة تقـوم بهذه المهمة أمر ضروري وحيوي لا يمكن الاستغناء عنه وتجاوزه . وهذا من الأُمور الضرورية التي لا تحتاج إلى مزيد بحث ودراسة .

المسألة الثانية : بعـد أن عـرفنـا أهميـة المجلس التشـريعي أو مجلس الشورى في إدارة البلاد وتنظيم حركتها لابـدّ من التركيز على هذه المسألة ، وهي بيان الدائرة التي يتحرك فيها هـؤلاء النواب وأعضاء المجلس المذكور، فهل هم يسيـرون في دائرة مستقلـة عن دائرة القـوانين الإلهيـــة وفي خط مـوازٍ للتشـريع الإلهي؟ أم أنّهم يتحـــركـون في دائرة و إطـار التشـــريعـات الإلهيـــة والقـوانين السمـاويـة ، ويـدورون في فلكهـا ، ويعتمدون علـى الأُصول الكلّيـة والعـامّـة للإسلام؟

الحقيقة انّ مجلـس الشورى الإسلامـي يتحرك في إطـار القوانين العـامّة للإسـلام ، وليس مهمته إلاّ رسم الخطط والبرامح في هذا الإطـار واعتماداً على هذه القوانين الكليـة والأُصول المسلّمة ، وليس له حق التشـريع المقابل ، ومن هنا نجـد الدستـور في الجمهوريـة الإسلاميـة وضع مؤسسـة أُخرى للتأكـد من صيـانة القـوانين التي يسنّها المجلس عن الانحـراف عن الخط العام للتشـريع

الإسلامي، وقد أُطلق على هذه المؤسسة اسم «مجلس صيانة الدستور».

ومن هنا يتّضح أنّ تشكيل مجلس الشورى لا يمثل أبداً جهة مقابلة ومضادة للحق الإلهي في التشريع، بل هو في الواقع يدور في فلكها ويتحرك في إطارها وضمن أُصولها المسلّمة.

التصرّف في التشريع الإلهي أو «البدعة في الدين»

كما أنّ حقّ التقنين والتشريع ـ و كما أثبتنا ـ منحصر بالله تعالى وحده ولا يحق لأحد مهما كان أن يتجاوز على هذا الحقّ ويعطي لنفسه أو لغيره حقّ التشريع وسن القوانين، كذلك لا يحق لأحد مهما كان التصرّف والتلاعب في الأحكام والقوانين والتشريعات الإلهية الصادرة منه تعالى، سواء كان هذا التصرّف يتمثّل في الزيادة والإضافة، أو في الحذف والنقصان، فالكلّ «بدعة» لا يحق لأحد القيام بها. وانّ المبتدع خارج عن إطار التوحيد في التشريع.

وبسبب المفاسد والمخاطر التي تكمن في التصرّف في القوانين والتشريعات الإلهية والتي عبّر عنها «بالبدعة» اعتبرت «البدعة» من الذنوب الكبيرة والموبقات التي تهوي بصاحبها إلى الدرك الأسفل من النار.

ومن هنا اقتضت الأُمور أن نعرّف البدعة تعريفاً دقيقاً، ونحدّها«نعرفها» حدّاً منطقياً وعلمياً، ونسلّط الضوء على جميع أبعادها وزواياها لتّتضح لنا حقيقة الأمر وينجلي لنا الواقع، وذلك لأنّه يترتّب على تعريف البدعة وتحديدها بصورة دقيقة الكثير من الثمار العملية، ويمكن من خلالها أيضاً الإجابة عن الكثير من الإشكالات والتساؤلات والشبهات التي تثار في هذا المجال.

تعريف البدعة

في مقام تعريف البدعة لابـدّ من التحرك في محورين : التعريف اللغوي والاصطلاحي للبدعة .

البدعة لغة

تعرّض اللغويون لتعريف البدعـة في مصنّفاتهم التي دوّنوها لبيان معاني المصطلحات اللغوية .

فقال الخليل : البـدع إحداث شيء لم يكن لـه من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة .[١]

وقال ابن فـارس : البدع له أصـلان : ابتداء الشيء وصنعـه لا عن مثال ، والآخر الانقطاع والكلال .[٢]

وقال الراغب : الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء .[٣]

هذه هي بعض أقوال العلماء في هذا المجال .

وممّا لا شكّ فيه أنّ روحية التجديد والحـداثة حاكمة على الإنسان ، فهو يطمح إلى الجديد وترنو عينه إلى الحديث فلـذلك تراه يملّ الحياة الرتيبة الثابتة ويسعى إلى التجديـد والتغيير، ومن هنا نجد المهندسيـن والمصمّمين للأزياء والأشكال في حركة دؤوبة وسباق جاد ، بحيث تجد أنّهم في كلّ يوم يأتون بنمط

١ . كتاب العين: ٧٢.

٢ . مقاييس اللغة: ١ / ٢٠٩، مادة «بدع».

٣ . مفردات الراغب: ٣٨ـ٣٩.

جديد يختلف عمّا سبقه على جميع الأصعدة. وقد يطلق على عملهم هذا لغة «البدعة» أو «البديع»، ومن هنا أُطلق مصطلح «البديع» على الله سبحانه نفسه، حيث قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، [1] لأنّه سبحانه قد ابتدع خلق السماوات والأرض والإنسان من دون مثال سابق.

والجدير بالذكر أنّ البدعة بهذا المعنى ليست هي محط بحثنا هنا، وبعبارة أُخرى: ليست هي موضوع التحريم والنهي الذي ورد في النصوص. وذلك لأنّ الدين لا يضاد الحداثة، ولا يخالف التجديد، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي، فالمجتمع البشري الآن يعيش حالة من التنوّع والتجديد في جميع نواحي حياته من المسكن والملبس والمركب والمشرب ووسائل التعليم وأساليبها و... بنحو يختلف اختلافاً جوهرياً عمّا كان عليه الإنسان في الماضي، وهذه الأُمور وإن كان التعريف اللغوي للبدعة يشملها بحيث يصحّ إطلاق لفظ البدعة لغة عليها، ولكن ذلك ليس من مصاديق البدعة في الاصطلاح والتي تعدّ من الذنوب الكبيرة.

ولقد حدّثنا المؤرّخون: انّ أوّل بدعة حدثت بعد رحيل رسول الله ﷺ بين المسلمين أنّهم عمدوا إلى نخل الدقيق وفصل السبوس «قشور الحب» عنه، ولا ريب أنّ هذه الظاهرة الفتية تُعدّ بدعة مستحدثة في الحياة ليس لها سابقة، ولكن ذلك لا يعني أنّها من مصاديق البدعة التي قال بحرمتها فقهاء المسلمين. ومن هنا اقتضى الأمر البحث في بيان البدعة التي هي موضوع الحكم الشرعي، أي البدعة التي حرّمها الشارع ونهى عنها.

---

١. البقرة:١١٧.

البدعة في اصطلاح المتكلّمين والفقهاء

لا ريب أنّ البدعة من المحرمات الشرعية والتي أكّد الشارع على النهي عنها واجتنابها، واعتبرها من الذنوب الكبيرة التي تورد صاحبها النار، وتلقيه في المهالك، سواء كانت هذه البدعة بإضافة أشياء جديدة وتشريع قوانين مستحدثة، أو كانت تتمثّل في حذف ونقصان بعض التشريعات.

ومن هنا أولى المتكلّمون والفقهاء هذه المسألة أهمية وعناية خاصة، وأشبعوها بحثاً وتحقيقاً، الأمر الذي يكشف عن أهمّيتها وخطرها في مجال الفكر الإسلامي.

وقد عرّف المحقّقون البدعة بتعاريف مختلفة، منها:

الف: عرّفها الشريف المرتضى بقوله: الزيادة في الدين، أو النقصان منه، مع إسناد إلى الدين.[١]

ب: وعرّفها ابن حجر العسقلاني بقوله: المراد بالبدعة ما أُحدث وليس له أصل في الشرع، وما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة.[٢]

ج: وعرّفها ابن حجر الهيتمي بقوله: ما أُحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمّى في عرف الشرع بدعة.[٣]

ونكتفي بذكر هذه التعريفات الثلاثة ونغض النظر عن التعاريف الأُخرى والتي لا تختلف عن هذه التعريفات اختلافاً جوهرياً.

---

١. رسائل الشريف المرتضى: ٣/ ٨٣.

٢. فتح الباري: ٥/ ١٥٦ و ١٧/ ٩.

٣. التبيين بشرح الأربعين: ٢٢١.

وإذا أمعنّا النظر في التعاريف المذكورة للبدعة، نجد أنّها تعتبر مقوّمات البدعة المحرمة والتي تميّزها عن «السنّة» ثلاثة أُمور أساسية، هي:

الأوّل: التدخل والتصرّف في الدين عقيدة أو حكماً بزيادة أو نقيصة.

الثاني: أن لا تكون لها جذور في الشرع تدعم جوازها لا بالخصوص ولا بالعموم.

الثالث: أن تكون هناك إشاعة بين الناس.

وبعد أن عرفنا الأُسس والمقوّمات الأساسية للبدعة ـ بصورة إجمالية ـ نشرع في دراسة تلك المقوّمات بصورة مستقلة وعلى نحو التفصيل.

١. التدخّل والتصرّف في الدين عقيدة أو حكماً

لا ريب أنّ التدخّل في الدين بالزيادة أو النقيصة، أو بعبارة أُخرى: استهداف روح الدين وأحكامه وعقائده وإيجاد حالة من التحوّل والتغيّر فيه ونسبة ذلك إلى الله ورسوله ﷺ، يُعدّ من أنواع التصرّف في الدين المنهي عنه تحت عنوان «البدعة»، وأمّا التجديد والحداثة التي لا يستهدف صاحبها روح الدين وأحكامه وعقائده ولم يتصرّف فيها ولم ينسب ذلك إلى الله ورسوله ﷺ، وإنّما يوجد حالة من التحوّل والتطوير في برامج الإجابة وطريقة الطرح ومنهجيّة العرض فقط، فإنّ كلّ ذلك لا يُعدّ من البدعة المصطلحة التي وقعت موضوعاً للنهي والحرمة، وإن كان يصدق عليه معنى البدعة لغة.

نعم قد يكون التصرّف هذا في حدّ ذاته غير جائز لسبب ما، ولكنّه على كلّ حال ليس من مصاديق البدعة المصطلحة.

يتّضح من البيان السابق انّ قسماً من أعمالنا وتصرفاتنا ـ الأعمّ من الجائزة

والمحرمة ـ لا يمكن أن تدخل تحت مظلة البدعة وإطارها، من قبيل لعبة كرة القدم والسلّة والطائرة وأمثال ذلك، فإنّ كلّ هذه الأُمور المستحدثة بالرغم من انتشارها في المجتمع وشيوعها في الأوساط لا يصدق عليها مصطلح البدعة أبداً.

وخذ على سبيل المثال أيضاً حالة الانفلات الجنسي ورفع الحواجز والموانع بين الرجال والنساء في المجتمع الغربي، واعتبار ذلك من الأُمور الطبيعية التي يتلقّاها المجتمع الغربي بالقبول، فإنّ هذه الحالة من الانفلات الأخلاقي والتهوّر الجنسي بما أنّها لم تنسب من قبل أصحابها إلى الله ورسوله ولم توسم بسمة الشرعية، لا تُعدّ بدعة وإن كانت من وجهة نظر المشرّع الإسلامي تُعدّ من المحرّمات والذنوب الكبيرة.

الخلاصة: اتّضح لنا ـ من خلال ما سبق ـ أنّه قد أخذ في مصطلح البدعة قيد «التصرّف في الدين».

وعلى هذا الأساس نحكم على الأُمور المستحدثة بحكمين مختلفين تبعاً لتوفر الشرط وعدمه، فإذا كانت الأُمور المستحدثة لا تستهدف الدين ولا تنسب نفسها إلى الشرع ودين الله ورسوله، لا تدخل حينئذٍ في إطار البدعة المصطلحة، سواء كانت تلك المستحدثات محللة كلعبة كرة القدم وغيرها، أو كانت محرمة كالاختلاط ورفع الحواجز بين الجنسين.

وأمّا إذا توفر الشرط «التصرّف في الدين» فهي بدعة محرمة منهيٌ عنها.

٢. عدم وجود الدليل الداعم للنظرية المطروحة من الكتاب والسنّة

الشرط الثاني لصدق عنوان البدعة المصطلحة هو أن تفتقد الظاهرة

المستحدثة الدليل الداعم والمؤيّد لها من الكتاب والسنّة لا على نحو الخصوص ولا على نحو العموم، ولذلك تعتبر ـ لهذا السبب ـ تصرّفاً في الدين وتجاوزاً على حدود الشريعة، وأمّا إذا كانت الظاهرة المستحدثة تتوفر على السند الشرعي المؤيد لها فحينئذٍ لا يمكن اعتبارها تصرّفاً في الدين وبدعة في الإسلام، بل تعتبر في حقيقة الأمر تجسيماً وتفعيلاً لأصل قد غفل عنه الآخرون في الوقت الذي التفت إليه صاحب النظرية المستحدثة.

وهذا الشرط المذكور أعلاه قد صرّح به في تعريف البدعة حيث قالوا: «البدعة ما أُحدث وليس له أصل في الشرع».

وعلى هذا الأساس يتّضح أنّ الكثير من الأُمور المستحدثة المعاصرة لا تُعدّ من مصاديق البدعة في الدين، وإن نسبها إلى الدين، وذلك لأنّ هذه الأنواع من الحداثة لها جذورها في الشريعة بنحو يمكن استنباط مشروعيتها من الكتاب والسنّة إمّا على نحو الخصوص، أو نثبت مشروعيتها بصورة عامّة.

خذ على سبيل المثال الجيوش في البلاد الإسلامية عامّة وفي الجمهورية الإسلامية خاصة، فإنّها مجهّزة بأحدث التجهيزات والمعدّات العسكرية الحديثة والمتطوّرة، بنحو ترفع درجة القدرات القتالية للجندي المسلم إلى درجة عليا، ومن الواضح أنّ هذه المعدّات وأُسلوب التدريب العسكري والنظام الذي يعتمد في الجيوش المذكورة ليست له سابقة مماثلة في الجيوش في صدر الإسلام وما تلاه من القرون الطويلة. ولكن ذلك التطوّر وهذا التحوّل يمكن أن نلمس له دليله الشرعي الداعم والمؤيّد له في كتاب الله المجيد حيث قال سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ

بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ .[1]

فقد ورد في الآية المباركة أمران، أحدهما خاص والآخر عام.

١. أمّا الدستور والأمر العام فيتمثّل في قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾**.

٢. وأمّا الدستور الخاص فيتمثّل في قوله تعالى: **﴿ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ﴾**.

وعلى هذا الأساس يكون تجهيز الجيش بأحدث الأسلحة المتطوّرة وتدريب الجندي على أحدث الفنون القتالية وتعليمه أنواع الأساليب الحربية، داخلاً تحت إطار الأمر الأوّل «العام» المتمثّل في قوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾**، ومن هنا يمكن وبلا ريب الاستناد إلى هذه الآية لرفع القدرات القتالية للجيش الإسلامي ونسبتها إلى الله سبحانه والشرع الإسلامي، إذ يمكن لنا أن نقول ـ و بحق ـ : إنّ الله أمرنا بإعداد القوة وتطوير الجيوش الإسلامية، ولا يعتبر عملنا هذا بدعة في الدين وتجاوزاً على الحدود الإلهية. بالرغم من أنّه لم تتم الإشارة إلى ذكر المعدّات الحربية والوسائل القتالية بصورة خاصة. إذاً الآية أشارت إلى الأمر بصورة كلّيّة، وتركت الأمر في تحديد الوسائل والطرق إلى الحكومة هي التي تتكفّل بوضع الخطط المناسبة وشراء المعدات الحديثة التي تحقّق المفهوم الكلّي والمعنى العام الذي صدر الأمر الإلهي به، وهو إعداد القوّة والتهيّؤ لمواجهة العدو **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾** .

---

١. الأنفال: ٦٠.

٣ . الإشاعة بين الناس

الشرط الثالث لتحقّق مفهوم البدعة وصدقها هو أن تكون هناك إشاعة، ونشر للأمر المستحدث بين الناس، وهذا الشرط وإن لم يؤخذ في تعاريف «البدعة» إلاّ أنّه كامن في حقيقتها. وهناك الكثير من القرائن التي تدلّ عليه، فعلى سبيل المثال قد وردت روايات كثيرة توجب الرد على البدع والمبتدعين ومواجهتهم والتصدّي لهم.

ولا شكّ انّ هذا الأمر يكشف عن رواج وانتشار البدعة وشيوعها من قبل أصحابها ونشرها في أوساط المسلمين.

روى مسلم في صحيحه عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». [١]

إنّ هذه الرواية وأمثالها تحكي عن أنّ الظاهرة المستحدثة والتصرف في الدين في الزيادة أو النقيصة إذا كان لوحده وفي بيته ومنزله ولم يطّلع عليه أحدٌ من الناس بأن يزيد في صلاته أو ينقص منها أو ... ، فإنّ ذلك كلّه لا يُعدّ «بدعة» وإن كان معصية وحراماً، نعم البدعة تتوقّف على إشاعة الفكرة الخاطئة والنظرية المبتدعة بين الناس وفي المجتمع ودعوتهم إليه بعنوان أنّه من الشرع.

---

١. صحيح مسلم:٨/ ٦٢، كتاب العلم.

ومع الالتفات إلى هذه الشروط الثلاثة للبدعة يتّضح لنا جانب مهم من جوانب «مفهوم البدعة».

تحريم البدعة في القرآن الكريم

كما ذكرنا انّ البدعة تعتبر تدخلاً في الشأن الربوبي وتجاوزاً على حدود الله في التقنين والتشريع، وذلك لأنّ مهمة «التقنين» حق خاص به سبحانه ولا يتعدّى منه إلى غيره، وانّ كلّ أنواع التدخّل في هذا الشأن يعتبر اعتداءً وانتهاكاً لحدوده سبحانه وتجاوزاً على حقّه تعالى. أضف إلى ذلك أنّ نسبة أيّ حكم أو تشريع أو قانون إلى الله تعالى من دون دليل وسند شرعي، يعتبر «افتراءً» و«كذباً» على الله ورسوله ﷺ.

وبسبب وجود هاتين الخاصيّتين في البدعة نجد القرآن الكريم قد ذمّ البدعة والمبتدعين وردّ عليهم، فعلى سبيل المثال نجده يردّ على المشركين في تقسيمهم النعم الإلهية إلى قسمين بعضها حلال وبعضها الآخر حرام، ونسبوا ذلك إلى الله سبحانه بلا دليل فقال تعالى:

﴿ءَ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾.[1]

وقال تعالى في آية أُخرى:

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذا حَلالٌ وَهٰذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلى اللهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ﴾.[2]

---

١. يونس:٥٩.

٢. النحل:١١٦.

إنّ ذم المبتدع في هذه الآية المباركة ينطلق من كون عمله تدخلاً في التشريع والتقنين الإلهي، وانّه افتراء على الله سبحانه، حيث حرّموا وحلّلوا من عند أنفسهم ومن دون إذنه سبحانه ونسبوا كلّ ذلك إليه تعالى.

كما ذمّ القرآن الكريم اليهود والنصارى لتلاعبهم وتصرفهم في كتبهم السماوية وتحريفهم لكلام الله وأحكامه سبحانه ثمّ نسبة ذلك التصرّف كلّه والتغيير إلى الله سبحانه ليصلوا من خلال هذا الطريق المنحرف والمنهج الملتوي إلى تحقيق أهدافهم ومآربهم المادية والدنيوية، قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ يَكْسِبُونَ﴾. [1]

البدعة في السنّة

لقد تصدّى الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته بقوّة لأصحاب البدع والمتلاعبين بأحكام الله وقوانينه، واعتبروا عمل المبتدعين تصرّفاً مذموماً في الدين والشريعة، وأنّ عملهم هذا يُعدّ ضلالاً وغواية لهم وللآخرين ممّن يتبعهم في بدعتهم وتحريفهم. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى الرواية التي نقلها علماء المسلمين عن الرسول الأكرم ﷺ والتي يكثر خطباء الجمعة افتتاح الخطبة بها، وهي قوله ﷺ:

«أمّا بعد فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهُدى هدى محمد،

---

١. البقرة:٧٩.

وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة». [١]

نكتفي بهذه الرواية من بين الروايات الكثيرة التي وردت في هذا المجال، والتي ذكرنا ثلاثين رواية منها في كتابنا «في ظلال التوحيد» فمن أراد المزيد من الاطّلاع فعليه بمراجعة المصدر المذكور. [٢]

وبالإضافة إلى موقف القرآن الكريم والسنّة المطهّرة الصارم من البدعة والمبتدعين، نجد العقل أيضاً يذمّ ذلك الفعل الشنيع ويستقبحه، لأنّه في الحقيقة يعدّه تعدّياً على حدود الله، وتجاوزاً على حريمه سبحانه وتعالى من جهة أُخرى، وافتراء وكذباً عليه سبحانه، وكلّ ذلك من الأُمور الشنيعة والقبيحة التي يذم العقل صاحبها، وينهى عن ارتكابها بنحو لا يحتاج إلى مزيد تفصيل وبحث ودراسة.

خلاصة البحث

قد خرجنا من البحوث السابقة بالنتيجة التالية:

١. انّ حقّ التقنين أمر منحصر بالله وحده، وأيّ نوع تدخّل في هذا الحقّ وتجاوز على حدوده، أمرٌ يستقبحه العقل ويذمّه الشرع وينهى عنه.

٢. انّ انحصار حقّ التقنين بالله تعالى ينطلق من كون المقنّن لابدّ أن يتوفّر على الخصائص والشروط التالية:

أ. المعرفة الكاملة بالإنسان وخصوصياته.

ب. عدم الانتفاع والاستفادة من القانون الذي يسنّه ويقرره.

---

١. مسند أحمد: ٣/ ٣١٠؛ ومثله في سنن ابن ماجة: ١/ ١٧، الباب ٧، الحديث ٤٥.

٢. انظر ص ٦٣ـ ٦٩.

ج . عـدم الخوف والخشيـة من أصحـاب النفـوذ والسطوة والتحـرر من هيمنتهم .

ولا ريب أنّ هذه الخصوصيات لا يمكن توفّرها مجتمعة وبالنحو الأكمل إلاّ في الله سبحانه لا يشاركه فيها سواه .

وأمّـا القوّة التشـريعيـة في النظام الإسـلامي ، فمهمتهـا الحركـة في فلك التشـريع الإسلامي وإطـار الأُصول الكلّيـة المسلّمـة ، وسنّ القوانين والأحكـام والتشـريعـات ، ورسم الخطط على أسـاسهـا ، ولا يحق لتلك القـوّة بأيّ وجـه الاستقلال في التقنين والتشريع .

٣ . انّ أيّ تجاوز على حدود التقنين يُعدّ أمراً محرّماً وممنوعاً ، فعلى هذا الأساس تعتبـر أيّ زيادة في أحكام الله وقـوانينه أو الإنقـاص منها أمراً محـرّماً ، وتقع تحت عنوان البدعة المصطلحة التي نهى الشارع عنها .

٤ . انّ عنـوان البدعـة المصطلحـة انّما يصـدق على الأُمور المستحـدثـة إذا توفّرت فيها الشروط الثلاثة التالية:

أ. التدخّل في الدين عقيدة وحكماً بزيادة أو نقيصة ونسبة ذلك إلى الدين.

ب. أن تكون هناك إشاعة ودعوة في أوساط المجتمع.

ج. أن لا يكـون هنـاك دليل في الشرع يـدعم جوازهـا لا بـالخصـوص ولا بالعموم.

٥ . لقد ذمّ القـرآن الكريم المبتـدعين باعتبـارهم مفترين على الله ورسـوله، واعتبر ما قاموا به من التدخّل في التقنين أمراً محرماً ، كما ذمّ أهل الكتاب لتصرّفهم وتلاعبهم في الكتب المقدّسة وتحريفهم لها.

وهكذا كـان موقف السنّـة الشريفـة من البدعة والمبتـدعين حيث وقفت موقفاً صارمـاً منها بدرجة اعتبرت الروايات الصـادرة من الرسول الأكرمﷺ وأهل بيته عليهم السلام ذلك الفعل من أقبح الأفعـال وحكمت عليـه بـالضـلالـة والانحـراف الموجبين لإثارة الغضب الإلهي والدخول في الجحيم.

٦. انّ العقل هو الآخـر ذمّ البدعة واعتبرهـا أمراً قبيحاً لا ينبغي ارتكـابه، وبذلك أيّد العقل حكم الشرع في هذه القضيّة المهمة.

***

بعد أن تعـرّفنا على المعنى اللغوي والاصطـلاحي للبدعـة وموقف العقل والنقل منهـا، لابدّ من الانتقـال إلى الحديث عن بعض الأُمـور الفرعيـة التي لا يخلو البحث فيها هنا من الفائدة، وهي:

تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة

من التقسيمـات الرائجـة لدى بعض الكتّـاب تقسيم البـدعة إلى جميلـة وقبيحة، أو حسنة وسيئة.

وفي الحقيقة تعود جـذور هذا التقسيم تاريخياً إلى قـول الخليفة عمر بن الخطاب، وبـالتحديـد إلى السنـة الرابعة عشـرة للهجرة عنـدما جمـع الخليفة الناس للصلاة بإمامة أُبي بن كعب في شهـر رمضان في صلاة النافلة. ووصف الجماعة المذكورة بقوله: «نعم البدعة هذه».

فقد روى البخـاري ذلك في صحيحـه وقال: قال عبـد الرحمن بـن عبد القـارئ: خرجت مع عمـر بن الخطـاب ليلة رمضـان إلى المسجد فإذا النـاس أوزاع متفرّقون ... فقال عمر: إنّي أرى لـو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان

أمثل، ثمّ عزم فجمعهم على أُبي بن كعب، ثمّ خرجت معه ليلة أُخرى والناس يصلّون بصلاة قارئهم. فقال عمر: «نعم البدعة هذه». [١]

ونحن هنا لسنا بصدد البحث عن جواز إقامة الصلاة المستحبة جماعة أو عدم جوازه، بل نحن في الحقيقة في مقام البحث في التقسيم المذكور الذي كان مصدره كلام الخليفة الثاني.

لقد ذكرنا سابقاً أنّ البدعة التي تحدّث عنها الكتاب والسنّة هي التدخّل في أمر الدين بالزيادة أو النقيصة، والتصرّف في التشريع الإسلامي من دون أن تكون لهذا التصرّف والتدخّل جذور في التشريع الإسلامي تدعمه لا على نحو العموم ولا على نحو الخصوص، ومن هنا لا تكون البدعة إلاّ أمراً قبيحاً محرّماً، ولا يصحّ تقسيمها إلى حسنّة وقبيحة بأيّ وجه من الوجوه.

نعم البدعة بالمعنى اللغوي تنقسم إلى قسمين، فكلّ شيء مستحدث أو ظاهرة مستجدة يعتمدها الناس في حياتهم اليومية من العادات والتقاليد والرسوم، إذا قاموا به من دون إسناده إلى الدين ولم يكن ذلك الشيء محرّماً بالذات شرعاً، كان بدعة حسنة، أي كونه أمراً جديداً مفيداً للمجتمع، كما إذا احتفل الشعب بذكرى استقلاله في كلّ عام، أو اجتمع للبراءة من أعدائه.

وأمّا ما كان محرّماً في ذاته فهو محرّم ومنهي عنه ولكن ليس من باب البدعة، لأنّ الحرمة ناشئة من سبب آخر وهو وجود المفسدة في نفس ذلك الفعل، مثل دخول النساء متبرّجات في مجالس الرجال.

إذاً البدعة المصطلحة ليس لها إلاّ قسم واحد وهو كونها أمراً قبيحاً

١. فتح الباري:٤/ ٢٠٣؛ عمدةالقاري:٦/ ١٢٥، وانظر الصحيح:٣/ ٥٨، كتاب الصوم، باب فضل قيام رمضان.

ومذموماً، ولا يصحّ وصفها بحال من الأحوال بالحسنة، وأمّا البدعة لغة فيمكن أن تقسّم إلى التقسيمين المذكورين.

وفي الحقيقة انّ هذا التقسيم للبدعة إلى حسنة وسيئة في حقيقته خلط للبدعة في المصطلح الشرعي بالبدعة اللغوية.

عوامل التحريف في الدين

بالرغم من أنّ حقيقة الدين وجوهره تكمن في «التسليم والخضوع أمام الله سبحانه» وأنّ قسماً كبيراً من العقائد والأحكام الإسلامية تنبع من هذا الأصل الكلّي، من هنا يطرح السؤال التالي:

كيف يتسنّى للإنسان المسلم القيام بعملية التحريف؟ وما هي العوامل التي تحثّه على القيام بذلك العمل؟ وما هي الغاية التي يتوخّاها من وراء ذلك؟

نشير هنا إلى بعض تلك العوامل والأهداف والتي تندرج جميعها تحت مظلّة «الاجتهاد في مقابل النص»:

١. التقدّس والتحجّر

هناك بعض الناس ممّن يضفي على تصرّفاته الشخصية وتلاعبه في الأُمور الدينية وتدخله في التشريع نوعاً من القداسة، وقد حدّثنا التاريخ عن الكثير من هذه النماذج، نشير إلى نموذج واحد منها، وهو:

من المسلّم به أنّ الصوم محرّم على المسافر، ومن هنا حينما خرج الرسول الأكرمﷺ لفتح مكة المكرمة في شهر رمضان، فعندما وصل إلى نقطة

يجب عليه الإفطار فيهـا دعا صلّى الله عليه وآله وسلّم بقدح من المـاء ليفطر به وينهي صومه وأفطر معه جمع كبيـر من المسلمين، ولكن ـ وللأسف الشديد ـ وقف أمـام هـذا الحكم الإلهي مجموعـة من المتحجّـرين والمتقـدّسين حيث استمروا على صيامهم تحت ذريعة أنّ التوجّه إلى الجهاد وهم صيام أفضل من غيـره وأكثـر ثـوابـاً!! ولكن حينمـا وصل خبـرهم إلى النبي الأكـرم ﷺ وصفهم بالعصاة والمذنبين.

روى الكليني عن الإمـام الصـادق عليه السلام قـال: «إنّ رسـول الله ﷺ خـرج من المدينـة إلى مكة في شهر رمضـان ومعه الناس وفيهم المشـاة، فلمّا انتهى إلى كُراع الغميم دعا بقدح من ماء فيما بيـن الظهر والعصر، فشرب وأفطر، ثمّ أفطر الناس معه، وتمّ أُناس على صومهم، فسمّـاهم رسول الله العصاة، وإنّما يؤخذ بآخر أمر رسول الله». [1]

٢. اتّباع الهوىٰ

من الواضـح أنّ لكلّ موضوع حكمـاً واحداً في الشـريعة وقـانونـاً فارداً لا غير، فـلا يمكن أن يكون للمـوضوع الواحـد أكثر من حكم واحـد في آن واحد وبلحاظ واحـد. ولهذا نجـد أنّ القسم الأعظم من الاختلافـات التي وقعت بين المسلمين في الأحكـام والمفاهيم نـابعـة من اتّباع الهـوىٰ والـرغبات والميـول الشخصيـة، وإذا أحسنّـا الظن نقـول: إنّهـا نـاتجـة من الاختـلاف في الـذوق والسليقة الشخصية، ولقـد أشار أمير المؤمنين في إحدى خطبـه إلى هذا الأمر بقوله عليه السلام:

---

١. الكافي: ٤/ ١٢٧، باب كراهية الصوم في السفر، ح٥؛ صحيح مسلم: ٧/ ٢٣٢.

«أيّها الناس إنّما بدءُ وقوع الفتن أهواءٌ تتّبع، وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله».[١]

ولقد حدثنا التاريخ الإسلامي بشواهد كثيرة من هذه البدع التي أُحدثت في الإسلام، نكتفي بذكر نموذجين منها فقط، هما:

١. من المعلوم أنّ أحد أقسام الحج هو حجّ التمتّع، وهو وظيفة المسلم الذي يبعد موطنه عن مكة المكرمة ٤٨ ميلاً شرعيّاً أو أكثر، وانّ وظيفة من يحجّ حجّ التمتّع أن يحل من إحرامه بعد أداء مناسك العمرة، فتحل له محرّمات الحجّ جميعاً إلاّ الصيد، ثمّ يحرم مجدداً في اليوم التاسع من ذي الحجة بنية حجّ التمتع ويأتي بأعمال الحجّ المفروضة عليه.

وقد نقل لنا المؤرّخون المسلمون أنّ هذا الحكم الإلهي لم يرق لواحد من الصحابة في حياة رسول الله ﷺ، إذ لم تطق نفسه أن يرى الحاج متنعماً باللذائذ الجنسية المحلّلة بين إحرامي المتعة وإحرام الحجّ، وانّه كيف يحرم إلى الحج ورأسه يقطر من غسل الجنابة؟! ولذلك نجد الرجل حينما استلم دفة الأُمور وتصدّى للخلافة نهى المسلمين عن ذلك وحرّم عليهم متعة الحجّ.[٢]

قال القوشجي في أواخر مبحث الإمامة من شرح كتاب التجريد في علم الكلام: إنّ عمر قال وهو على المنبر: أيّها الناس! ثلاث كنّ على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهن وأُحرمهنّ وأُعاقب عليهنّ: متعة النساء، ومتعة الحجّ، وحيّ على خير العمل.

ومن الواضح أنّ هذا الموقف من الخليفة وهذا الأمر الصادر منه مخالفة

---

١. الكافي: ١/ ٥٤، الحديث١، باب البدع.

٢. سنن أبي داود: ٢/ ١٥٦، رقم الحديث١٧٨٩.

صريحة لأمر الله ورسولهﷺ، يُعدّ بدعة في الدين، لأنّه لا مبرر لـه ولا سند له إلاّ الميول والرغبات النفسية والأهواء الشخصية.

ومن حسن الحظ أنّ هذا النهي لم يترك أثره في أوساط المسلمين إلاّ فترة قصيرة، حيث نجد الآن أنّ قاطبة المسلمين من أهل السنّة يحجّون حجّ التمتع كإخوانهم الشيعة.

٢. نقل مالك بن أنس إمام المذهب المالكي في «الموطأ»: أنّه بلغه أنّ المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح.[1]

٣. التعصّب الممقوت

ومن العوامل التي تؤدّي إلى نشوء ظاهرة الابتداع في الدين هو عامل التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والتعصب الممقوت لسننهم وآدابهم التي كانوا عليها، القبلية منها والقومية، وما شاكل ذلك، فإنّ هذاالعنصر يُعدّ من أعظم السدود والموانع التي تقف في طريق المعرفة وتحول بين الإنسان وبين الوصول إلى الحقّ. وهذا المانع هو الذي حال بين الأُمم ـ عبر التاريخ ـ و بين دعوة الأنبياء والرسلعليهم السلام، بالرغم من متانة البراهين وقوّة الأدلّة التي جاء بها هؤلاء الرسلعليهم السلام. وليس التاريخ الإسلامي مستثنى من هذه الظاهرة الخطيرة.

فقد حدّثنا التاريخ أنّه حينما جاء وفد من الطائف إلى الرسولﷺ ليعلنوا استعدادهم للتشرّف بالدين الإسلامي الحنيف والدخول تحت راية الإسلام

---

١. موطأ مالك:٧٨، رقم٨.

الحقّة، جعل الوفد المذكور إسلامهم مشروطاً بثلاثة شروط هي :

١ . أن يحلّ لهم الربا .

٢ . أن يحلّ لهم الزنا .

٣ . أن يدع لهم اللاّت يعبدونها ثلاث سنين .

يقول المؤرّخون : اقترح تميم بن جراشة على النبيّ ﷺ ـ عندما جاء على رأس وفد من الطائف يخبره بإسلام قومه ـ أن يكتب لهم كتاباً ، بأن يفي لهم بأُمور، يقول : قدمت على النبيّ ﷺ في وفد ثقيف فأسلمنا وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروطاً ، فقال ﷺ : اكتبوا ما بدا لكم ثمّ آتوني به ، فسألناه في كتابه أن يحلّ لنا الربا والزنا ، فأبىٰ علي رضي الله عنه أن يكتب لنا ، فسألنا خالد بن سعيد بن العاص ، فقال له علي : «تدري ما تكتب؟» قال : اكتب ما قالوا ، ورسول الله ﷺ أولىٰ بأمره .

فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ ، فلمّا انتهى إلى الربا قال : «ضع يدي عليها في الكتاب» فوضع يده ، فقال : ﴿**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا**﴾[1] ثمّ محاها ، وألقيت علينا السكينة فما راجعناه ، فلمّا بلغ الزنا وضع يده عليها وقال : ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً**﴾[2] ثمّ محاها وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا .[3]

ورواه ابن هشام بصورة أُخرى قال: وقد كان ممّا سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين.[4]

---

١ . البقرة:٢٧٨ . ٢ . الإسراء:٣٢ .

٣ . أُسد الغابة:١/ ٢١٦،مادة «تميم» و٣/ ٤٠٦ .

٤ . السيرة النبوية:٢/ ٥٣٧ـ ٥٤٣ .

وهذه الـواقعة تكشف شدّة التعصب المقيت الذي كـان يهيمن على وفد الطائف، الأمر الـذي جعل الرسول الأكرمﷺ يندهش عند سمـاع هذه الشروط ويرفضها جملة وتفصيلاً.

ولو كان أهل الطـائف قد أسلموا إسلامـاً حقيقياً، لكان ينبغي عليهم ألاّ يتفوهوا بهذه الشروط التافهة وأن يسلّمـوا لله ورسوله ويذعنوا إلى الحق ويرفضوا جميع أنـواع الباطل، لا السعي للحصـول على اعتراف من الـرسول الأكـرمﷺ بأُمور ذميمة تنافي روح الإسلام وجوهره ومبادئه الحقّة، وإذا أردنا أن نحلّل هذا الطلب من قبل وفد ثقيف وندرسه دراسة دقيقة، لـوجدنا وبوضوح تام أنّ عنصر العصبيـة الممقوت هـو العامل الفـاعل في الطلب المذكـور وإن كانت هنـاك عوامل أُخرى غيره.

إلى هنـا تمّ الحديث عن العلل والعـوامل المسـاعدة على نشـوء ظاهـرة الابتداع في المجتمع، وهناك عناصر وأسباب أُخرى لم نذكرها روماً للاختصار.

تحصين الدين من الابتداع

من مهـام الفقهاء والمتكلّمين الأسـاسية مهمـة تحصين الدين من خطـر الابتداع وحمـاية حدود الشـريعة من التلاعـب فيها والتجاوز على حـريمها من خلال دسّ الأفكار المسمـومة والتي تؤطّر بأُطر جميلـة، وتغلّف بغلاف برّاق. فعلى الفقهـاء والمتكلّمين أن يكـونـوا حذرين ويقظيـن أمام هـذه المحـاولات الخادعة، ويتابعوا كلّ ما يصدر أو ينشر من كتاب أو رسالة أو مقالة أو خطاب أو ما شـاكل ذلك للتصدّي لهـا، وبيان زيفها ومخـالفتها لمفـاهيم وقيم الدين الإسلامي الحنيف. ليصونوا بذلك المجتمع الإسلامي عن الانحراف والانزلاق

في مهاوي المبتدعين.

ولا ريب أنّ مصونية المجتمع الإسلامي عن الانحراف والسقوط في شباك البدعة والمبتدعين مرهونة بأن يأخذ المسلم دينه من العين الصافية والنبع العذب الذي يتمثّل بالكتاب الكريم والعترة الطاهرة، اللّذين أوصى الرسول الأكرمﷺ بالتمسّك بهما في حديث الثقلين، فقد تواتر عن الفريقين أنّ الرسول الأكرم أرجع الأُمّة إلى هذين المصدرين، وأمرها بالتمسّك بهما لصيانةنفسها عن الانحراف والضلال، فقالﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي؛ وانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض». (١)

وفي رواية أُخرى: «يا أيّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي». (٢)

وفي ثالثة: «إنّي تركت ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. فانظروا كيف تخلّفوني فيهما». (٣)

والحديث الآخر الذي ورد عن الرسولﷺ والذي يُعدّ هو الآخر صمام الأمان للأُمّة الإسلامية من الانحراف، حيث بيّن الرسول الأكرمﷺ فيه الملاذ والمرجع الذي ينبغي على الأُمة اعتماده والدخول تحت خيمته هو حديث السفينة حيث شبّه ﷺ أهل بيته بسفينة نوحعليه السلام التي كانت العنصر الوحيد للهداية والسلامة في وقتها فقالﷺ: «ألا إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة

---

١. مسند أحمد: ٥/ ١٤٨، و قد نقل الحديث بصورة متواترة.

٢. كنز العمال: ١/ ٤٤، أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.

٣. كنز العمال: ١/ ٤٤، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

نوح من قومه، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».[1]

فلو أنّ الأُمّة الإسلامية تمسّكت في فروعها وأُصولها بأذيال هذين المصدرين الأساسيّين: القرآن الكريم وأهل بيت الوحي والطهارة مجتمعين، لاهتدت إلى الصراط المستقيم، ولوصلت إلى أرقى درجات الكمال والهداية والرشاد، ولصانت نفسها عن كلّ فكر غريب وبدعة في الدين.

إلى هنا اتّضح لنا معنى «البدعة» و حدودها وشروطها والفرق بينها و بين «السنّة» وسيكون هذا الأصل بمنزلة المفتاح الأساسي والرئيسي في حلّ الكثير من الإشكاليات التي تعترض طريقنا في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

---

١. رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي ذر: ٣/ ١٥١.

الفصل السادس

زيارة قبور الصالحين

سجيّة إنسانية وسنّة رحمانية

حينما يطلّ الإنســان على وادي الصمت المتمثّل في أكبر مقبرة في العــالم ، وهي مقبرة النجف الأشرف على مشرّفهـا آلاف التحية والسـلام، ويرى عن كثب ذلك الـوادي المرعب ويشاهـد فيه الملايين من البشر الصغير والكبير، والشـاب والكهل، والمرأة والرجل، والغني والفقير، والضعيف والقـوي، والمعدم وأصحاب الجاه والسلطـان و...، ويـراهم كيف يغطّـون في سبـات عميق وصمت مخيف في تلك الديـار الموحشة والأرض القفـرة، والقبور التي انـدرس أكثرهـا فتحوّلت إلى بيوت للحشرات ومأوى للديدان، ولا يقف الأمر عند مقبرة النجف الأشرف، بل تجد الأمر يتكرر في كلّ مدينة أو قرية، حينئذٍ تنتابه الدهشة والذهول، ويذعن من حيث يشعـر أو لا يشعـر أنّ مصير الجميـع إلى الفنـاء، ويعترف بعجـز الإنسـان الـذاتي أمـام التصدي إلى هـذا المصير المحتـوم الـذي يبيـد الجميع ويفني الكلّ ويـزيل الملك ويسلب السلطــان والسطـوة. حينئـذٍ يأخـذ الإنسـان في التفكير بمصيره وبما يؤول إليه، وانّه لابدّ أن يَعدّ العُدّة لمستقبله ويفكر في عاقبة أمره أمام هذا المصير المجهول، ويُعـدّ الزاد لهذا السفر الطويل والبـلاء العظيم، ويفكر في إعمار آخرته أكثر ممّا يفكر في إعمار دنيـاه الفانية، وحينها يعود إلى التفكير في ذاته وأصل وجوده والهدف من خلقة الكون والعالم، وبالنتيجة يعود إلى رشده ويرعوي عن غيّه ويفكّر في الحياة الخالدة التي تنتظره .

انطلاقاً من هذا الدرس التربوي لزيارة القبور نجد الرسول الأكرمﷺ وضع

إصبعه على هذا الأمر الحسّاس، وحثّ على زيارة القبور لما فيها من العبرة والاتّعاظ، فقالﷺ:

«زوروا القبور فإنّها تُذكّركم الآخرة».[١]

وفي حديث آخر لهﷺ قال:

«زوروا القبور فإنّ لكم فيها عبرة».[٢]

وقد صب الشاعر المرهف المعاصر المرحوم السيد صادق سرمد هذا المعنى في قصيدة عصماء باللغة الفارسية حينما زار مصر وشاهد آثار الفراعنة وقبورهم، وكيف لعبت بها يد الدهر، وكيف تحوّلت إلى عبرة وموعظة للآخرين.[٣]

وكان لأهل بيت العصمة والطهارة قصب السبق في الاستفادة من التذكير بالقبور وما يؤول إليه أصحابها في الوعظ و التربية حتّى مع أعتى الطواغيت وفي أشدّ اللحظات.

فقد روى المسعودي في «مروج الذهب» أنّ جماعة من حاشية المتوكّل سعوا بأبي الحسن علي بن محمدعليه السلام إلى المتوكل... فأخذوه ــ أي الإمام ـ إلى المتوكل فمثل بين يديه، والمتوكل على مائدة الخمر وفي يده كأس...، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده، فقال الإمامعليه السلام: «والله ما خامر لحمي ولا دمي، فأعفني منه»، فعفاه، ثمّ قال له: أنشدني شعراً أستحسنه. فاعتذر الإمامعليه السلام وقال: «إنّي لقليل الرواية للشّعر». فألحّ عليه ولم يقبل عذراً، فأنشده:

---

١. سنن ابن ماجه:١/ ٥٠٠، ح١٥٦٩.

٢. كنزالعمال:١٥/ ٦٤٧، ح ٤٢٥٥٨.

٣. ديوان سيد صادق سرمد: ٩٠، بالفارسية.

بـــاتـــوا على قُلَلِ الأجبـــال تحرسهم غلب الـــرجـــال فما أغنتهـم القُلل
واستنـزلـوا بعـد عـــزّ من معـاقلهم فـأُودعـــوا حفـراً يـابئس مـانـــزلـوا
نـاداهـم صـارخ من بعـــد مـا قبروا أيـن الأسرّة والتيجــــــان والحُلَـلُ
أين الـــوجـوه التي كـانـت مُنعَّمـة من دونها تُضرب الأستــــار والكلل
فأفصـح القبر عنهم حين ســـاءلهم تلك الـوجـوه عليهـــا الـدود يقتتل
أضحت منـــازلهم قفـراً مُعَطّلـــة وساكنوها إلى الأجـداث قد رحلوا[١]

وهكذا تجد كيف يستفيـد الإمام من الصورة المرعبـة والموحشة للقبر في ردع الطاغية عن غيّه، وهو في أشدّ حالات زهوه وبطره وتماديه.

الوقوف على قبور الأحبّة

لا ريب أنّ الـذين يفقـدون عـزيزاً مـن أعزّتهم تبقىٰ آثـاره ــ رغم فقـده ـ تـلاعب مخيلتهم وذكره في قلـوبهم، فلا ينسـوه بحكم العلاقـة العاطفيـة والآصرة الروحية التي تشـدّهم إليه، ولذلك تجدهم دائماً يذكـرونه ويجدّدون ذكراه، وبما أنّ الموت يفصل بينهم وبينه جسديّاً إلاّ أنّهم يعوضون ذلك باللقاء الروحي والمعنوي، سـواء كان ذلـك بصورة فـرديـة أو جماعية فيجتمعـون على قبره ويقيمـون المراسم ويهدون لروحه ثواب الفاتحة، وغيرها من الأعمال التي يهدون ثوابها إليه.

إذاً الحزن على فقد العـزيز وإقامـة مراسم العزاء أو التأبين لفقـده أمرٌ رائج بين عامّـة الناس، وفي جميع إرجاء المعمـورة، ومن هنا يمكن القـول إنّ القضية لها جذور في فطرة الإنســان، وبمعنى آخر: انّ نفس القوّة التي تدفـع الإنسان وتجذبه

١. مروج الذهب: ٤/ ٩٣.

نحو الميل إلى الأهل والأحبة في حال حياتهم هي نفسها تدفعه وترغبه للحضور على قبورهم والالتقاء بهم لقاءً روحيّاً ومعنوياً، وتتّضح تلك الظاهرة بصورة أجلى إذا انطلقنا من الرؤية الإسلامية التي تقطع بأنّ الروح لا تفنى بفناء الجسد ولا تنعدم بانعدامه، من هنا يتّضح أمامنا أُفق جديد يحدونا إلى زيارة قبور الأحبّة وتلاوة القرآن الكريم و إهداء الثواب إلى أرواحهم.

لهذا ليس من اللائق نهي الناس وردعهم عن هذا الأمر الفطري وحثّهم على التمرّد عليه، بل الجدير بنا حثّهم ودفعهم إلى السعي لإقامة هذه المراسم و إظهار الودّ والمحبّة لفقيدهم. نعم لابدّ أن نكون حذرين أن لا ينجر الأمر إلى أن تختلط تلك الأعمال والمراسم بنوع من الأفعال غير المحمودة والقبيحة والمذمومة شرعاً.

زيارة قبور العلماء

كان الكلام في النقطة السابقة حول زيارة قبور الأحبّة الذين تربطهم بالإنسان آصرة الدم والقرابة، وتشدّهم إليه عاطفة روحية خاصة، فيتحرك من هذا المنطلق لزيارة قبورهم وقراءة القرآن و إهداء ثواب بعض الأعمال الصالحة إلى أرواحهم والسعي إلى عدم اندراس قبورهم ونسيان ذكرهم.

وهناك طائفة أُخرى من الناس تربطهم بالإنسان رابطة روحية ومعنوية لا تقلّ فاعلية عن الرابطة الأُسرية إن لم تزد عليها،وهؤلاء هم العلماء والمفكّرون الذين أحرقوا كيانهم وأذابوا وجودهم لينيروا للإنسان ظلمات الطريق الحالكة، فهم كالشمعة التي تذوب ليستنير طريق الآخرين، نعم لقد ضحّى العلماء والمفكّرون بكلّ حياتهم ــ رغم العسر والحاجة وقلّة ذات اليد ـ ليتركوا للأجيال

المعاصرة لهم والآتيـة فيما بعد الكم الهائل والمخـزون الكبير من المعـارف والعلوم التي تأخذ بيد الإنسان للرقي الروحي والمعنوي والتطوّر المادي والاجتماعي و ....، وعلى رأس هـؤلاء العلماء والمفكّرون الإسـلاميـون الذيـن ينتهجون منهج القـرآن الكريم والسنّة المطهرة.

من هنا يُعدّ الحضـور إلى جنب قبور هؤلاء العلماء وإقامـة مراسم التكريم وإهداء الثـواب إلى أرواحهم الطاهـرة، نوع تكريـم، وردّاً للجميل، ووفاءً لحقّهم الكبير على الأُمّـة، كما يعتبر في نفس الـوقت تـرويجاً للعلم والمعـرفـة وتشجيعـاً للآخرين لمواصلة طريق كسب العلم والمعرفة.

ولا ريب أنّ الأُمّة التي تبجّل علماءها وتحترم شخصياتها العلمية والفكرية وتكنّ لهم وافـر الاحترام أحياءً وأمـواتـاً، أُمّـة حيّة تجري في عـروقهـا دماء الحيـاة النـابضة، ولا يمكن لمثل هكـذا أُمّـة أن تصاب بـالفقر العلمي والجدب المعـرفي أبداً.

زيارة مراقد الشهداء وقبورهم

إنّ هنا طائفة أُخرى من الناس لهم منزلتهم الخاصة في المجتمع، وذلك من خلال الدور الفاعل الذي قاموا فيه في إحياء الأُمّة وإعادة كرامتها المهدورة، وهي طبقـة الثائرين والمجـاهـدين الذين ضـاقـوا ذرعاً بما يعيشـه المجتمع من الظلم وهضم الحقوق وسحق الكرامة.

والتمييز العنصري والقـومي، فثاروا أمام الظلـم والطغيان، وطالبـوا بإعادة الحقوق المهدورة، والكـرامة المسحوقة إلى الأُمّـة، وبذلوا في هذا الطـريق أثمن ما يملكـون، وجـادوا بأغلى شيء لـديهم، ألا وهـو نفـوسهم الكـريمـة، ودمـاؤهم

الطاهرة.

نعم انّ لهذه الطبقة من أفراد المجتمع منزلة خاصة ومكانة متميّزة، تقتضي أن يؤدّي إليها الجمهور حقّها ـ على أقلّ تقدير بعد رحيلها من هذه الدنيا ـ وذلك من خلال الوقوف على تربتهم الزكية و إحياء ذكراهم، أضف إلى ما في ذلك العمل من المردودات التربوية والروحية السامية. فإنّ الزائر حينما يقف على قبور هؤلاء الأبطال يجدّد بهذا الوقوف العهد معهم للمضي على نهجهم والسير على طريقهم، والوفاء للمبادئ التي ضحّىٰ من أجلها الشهداء، والحفاظ على الراية التي رفعوها خفاقة في ربوع المجتمع، إذ لا ريب أنّ كلّ ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدّر له النجاح، إلاّ بدفع الثمن الباهض، وانّ ثمن الثورة ضد الظالمين وتقويض أركان حكمهم هو دماء الشهداء الزاكية ونفوس الأحرار الأبيّة، ولا شكّ أنّ هذا الطريق يحتاج إلى ديمومة واستمرار، وأنّ من الطرق المهمّة لهذه الديمومة والاستمرار وقوف الشباب على قبور هؤلاء الأبطال والتزوّد من معنوياتهم، والاستلهام من بطولاتهم وأفعالهم الخالدة.

وبعبارة أُخرى: انّ زيارة مراقد هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير لتضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

ولننطلق هنا إلى ذكر مثال حي يعيشه المسلمون، وهو:

إنّ زائري بيت الله الحرام يقبّلون الحجر الأسود ويمسحون أكفّهم به قبل الطواف، وهذا في حقيقته تجديد للبيعة مع إبراهيم عليه السلام في الثبات على القيم والأهداف السامية التي وقف إبراهيم عليه السلام مدافعاً عنها، وعلى رأس تلك الأهداف «كلمة التوحيد» فيبايع الحاج إبراهيم عليه السلام بأن يبقى وفياً لهذا المبدأ، مدافعاً عنه

ساعياً إلى نشره في بقاع المعمورة. وبما أنّ الحاج لا تصل يده إلى يد إبراهيم عليه السلام ليبايعه، يجعل من الأثر الذي تركه إبراهيم عليه السلام وهو الحجر الأسود رمزاً لهذه البيعة والعهد على السير على نفس النهج واعتماد نفس الطريق.

ولقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلى هذا المفهوم العظيم والمعنى السامي حيث ورد أنّ الحاج حينما يستلم الحجر الأسود يردّد تلك الكلمات التي يفوح منها شذى الوفاء والاستقامة على طريق الحق فيقول: «أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة».[1]

والنموذج الحي الآخر زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام وقبور الشهداء الأوفياء الذين سقوا بدمائهم الزاكية شجرة الإسلام التي أراد أعداء الدين عامّة وبنو أُميّة خاصة اجتثاثها من الأرض والقضاء عليها. من هنا يقف الزائر أمام تلك القبور الزاكية مجدّداً العهد مع أصحابها بأن يبقى وفيّاً للمبادئ، محافظاً على الأمانة، حارساً لحدود الدين والشريعة، رافعاً لنفس الراية محافظاً عليها من السقوط.

من هنا تكتسب الزيارة أهميتها الاجتماعية والتربوية والسياسية في حركة الفرد والمجتمع، فإنّ الأُمّة التي تحافظ على مبادئها وتبقىٰ وفية لرجالاتها وعظمائها وراعية للمسيرة التي ساروا عليها، أُمّة حيّة لا يمكن أن تفنى على مرّ القرون والأيام.

زيارة مرقد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ الوقوف على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ـ بالإضافة إلى الشكر والثناء والامتنان للجهود الكبيرة والدور العظيم الذي لعبه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأهل

---

١. وسائل الشيعة: ١٠/ ٤٠٠، الباب ١٢ من أبواب الطواف، الحديث ١.

بيته في هداية الأُمّة، وإنقاذها من الضلال والانحراف، والأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان في بحر الظلمات المتلاطم ـ بيعة وعهد معهم للسير على نفس النهج والثبات على المبادئ والقيم التي جاءوا بها.

يقول الإمام الرضا عليه السلام في معرض حديثة عن زيارة مراقد المعصومين عليهم السلام:

«إنّ لكلّ إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد زيارة قبورهم».(١)

إذاً الزيارة تمثّل في الحقيقة ميثاقاً وتعهداً يبرمه الزائر مع النبيّ الأكرم والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، بأن يبقى على العهد ويسير على النهج ويحتفظ بالمبادئ ويراعي القيم التي جاء بها هؤلاء العظام.

وكأنّ الزائر يردّد في زيارته للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الكلمات التالية: يا رسول الله يا نبي الإنسانية ويا أعظم إنسان وطأت قدماه هذا الكوكب، إن كان المهاجرون والأنصار قد بايعوك في الحديبية ووضعوا أكفّهم في كفّك المبارك(٢)، وإذا كانت النسوّة المؤمنات قد بايعنك في مكة المكرمة على أن لا يشركن ولا يزنين(٣)، وإذا كان المؤمنون ـ الذين قد زلّت بهم قدمهم واقترفوا بعض الذنوب وارتكبوا بعض المعاصي ـ قد جاءوك طالبين منك الاستغفار لهم وحطّ ذنوبهم ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً**﴾(٤)، فها أنا أقف بين يديك وإلى جوار قبرك الطاهر مجدداً البيعة التي

---

١. وسائل الشيعة: ١٠/ ٣٤٦، الباب ٤٤ من أبواب المزار، الحديث ٢.

٢. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشَّجرة**﴾(الفتح: ١٨).

٣. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله**﴾(الممتحنه: ١٢).

٤. النساء: ٦٤.

بايعوك عليها، ومعاهـداً لك على أن أبقىٰ وفيّاً للمبادئ، ومحامياً عن حريم القيم التي جئت بها، متجنّبـاً السيئات والمعاصي طـالباً منك أن تـدعو الله لي بـالتوفيق والسداد، وأن يأخـذ الله بيدي لما فيه الخير والصلاح، وأن يتجاوز عمّـا بدر مني من الذنوب والمعاصي.

نعم هـذا هو لسـان حـال الزائر، وهـذه هي المفـاهيم التي تنطوي عليهـا الزيارة.

وهناك نكتة جـديرة بالاهتمام، وهي أنّنا لابـدّ أن نفرّق تفريقاً جـوهرياً بين زيارة المسلم المؤمن لتلك المراقد الطاهرة وما يقوم به بعض السوّاح (Tourism) من الأقطـار الأُخرى، أو بعض المسلمين الـذين لا يـدركـون معنى الزيـارة، فإنّ هـدف هـؤلاء السـوّاح هـو الاطّلاع على المعـالم والتعـرّف على الآثـار التـاريخيـة والنتاجات الهندسية والمعمارية، ومـا تنطوي عليه تلك الأماكن من لذّات وفوائد مادية. ولا ريب أنّ هذه الأُمور إذا تجرّدت عن المحرمات الثانوية كاللعب واللهو وما شابه ذلك، تعدّ في حدّ ذاتها أُموراً مباحة، بل قد تُعدّ أُموراً ممدوحة، فممّـا لا ريب فيه أنّ الإسـلام قد حثّ على العلم والمعرفـة، وهذه السياحـة والتعرّف على تلك الشخصيات العظيمة ومعـرفة آثارهم ممّا له دوره في زيـادة معارف الإنسان، بل قـد يكـون ذلك سببـاً لهداية الإنسـان، ولكن يبقى الفـرق بينهـا و بين زيـارة المؤمنين جوهرياً. فهؤلاء يتحرّكون في تلبية وإشباع الحاجات والغرائز المادية، وانّ حـركتهم وتعاملهم المادّي مـع البناء والآثـار فحسب، وأمّـا المؤمن فهدفـه أكبر وغايته أسمى، لأنّهم انّما يشدّون الرحال للقـاء الأرواح الزكية، والنفوس الطاهرة، والمبادئ العـالية، والقيم الساميـة، وتجديد البيعـة للسير على ذلك الطريق المهيع والمنهج القويم. إنّ الـزائر المؤمن يبحث عن معشوقه في تلك الديـار والآثار فلا

يهمّه إلاّ اللقاء بها، ولا يروي غليله إلاّ وصال الحبيب ولسان حاله يردّد:

أمرّ على الديار ديار ليلىٰ   أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حبُّ من سكن الديارا[١]

ولقد نقل لنا المؤرّخون قصص الزيارة والزائرين بعد رحيل الرسول الأكرمﷺ، فقد روى سفيان بن عنبر عن العتبي ـ و كلاهما من مشايخ الشافعي ـ أنّه قال: كنت جالساً عند قبر رسول اللهﷺ فجاء أعرابي ـ من خارج المدينة ووقف على قبره الشريفﷺ ـ فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً**﴾[٢] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي. ثمّ بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثمّ استغفر وانصرف.[٣]

إنّ هذا الأعرابي قد أدرك بذهنه الوقّاد، وسريرته الصافية، وفطرته السليمة ما تنطوي عليه زيارة النبي الأكرم من فوائد جمّة، فجاءه زائراً لقبره الشريف.

نعم انّ الزيارة لقبور ذوي الرحم والصالحين والشهداء والعلماء، وزيارة المراقد الطاهرة لأعظم خلق الله الرسول الأكرمﷺ وأهل بيته الطاهرينعليهم السلام،

١. شعر عربي مشهور منسوب إلى مجنون ليلىٰ.
٢. النساء:٦٤.
٣. وفاء الوفا:٤/ ١٣٦١؛ الدرر السنيّة:٧٥.

تنطوي على فوائد جمّة، ومنافع وافرة: اجتماعية وتربوية وأخلاقيةو ...، ومن هنا لابدّ من تسليط الضوء على موضوع الزيارة وبحثه من زوايا مختلفة، فلنعالج الموضوع من خلال الأُمور التالية:

١. زيارة قبور المؤمنين في الكتاب والسنّة.

٢. النساء وزيارة القبور.

٣. أعلام الأُمّة (الفقهاء والمتكلّمون) وزيارة قبر النبي الأكرمﷺ.

٤. زيارة مرقد النبي الأكرمﷺ في الكتاب والسنّة.

١

زيارة قبور المؤمنين في الكتاب والسنّة

لقد ذكرنا في البحوث السابقة أنّ زيارة الإنسان لقبر أحبته وأهله ومن تربطه به صلة رحم أو قرابة يُعدّ سجية إنسانية وطبيعة فطرية تدعو إليها جميع النفوس السليمة في كافة بقاع المعمورة، وأنّها من الأُمور التي أطبق الجميع على العمل بها، أو على أقلّ تقدير عدم رفضها والوقوف في وجهها، ويمكن استنتاج ذلك من الآية المباركة التالية:

﴿وَلاٰ تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبداً وَلاَ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فَاسِقُون﴾.[١]

إنّ الآية المباركة تنطوي على أمرين موجّهين للنبي الأكرم ﷺ هما:

١. **﴿لاٰ تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبداً﴾**.

٢. **﴿وَلاَ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ﴾**.

ولابدّ من تركيز البحث على النهي الثاني الوارد في الآية لنرى ماذا يراد من قوله تعالى:

---

١. التوبة: ٨٤.

﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وما هو معناه؟

فهل معناه أنّها تنهى النبيﷺ عن الوقوف على قبره حال الدفن فقط، فلا يجوز ذلك في حقّ المنافق ويستحب في حقّ المؤمن؟ أو معناها أعمّ من وقت الدفن وغيره؟

إنّ بعض المفسّرين خصّوا القيام نفياً وإثباتاً بوقت الدفن فقط، ولكن البعض الآخر من المفسّرين من ذهب إلى إطلاق الآية وفسّر النهي في كلا المجالين الأعم من حال الدفن وغيره، وها نحن ننقل بعضاً من كلماتهم في هذا المجال:

فممّن ذهب إلى الإطلاق البيضاوي في تفسيره حيث قال: ولا تقف على قبره للدفن أو الزيارة.(١)

وقد تبنّى هذه النظرية جلال الدين السيوطي في «تفسير الجلالين» حيث قال: ولا تقم على قبره لدفن أو زيارة.(٢)

وكذلك الشيخ إسماعيل حقّي البروسوي فقد جاء في تفسيره: **﴿ولا تقم على قبره﴾**: أي لا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة.(٣)

والحقّ مع من أخذ بإطلاق الآية المباركة، ومن هنا يتّضح انّ الله سبحانه قد نهى نبيّه الأكرمﷺ عن كلّ أنواع الوقوف على قبر المنافق، سواء كان ذلك حال الدفن، أو بعد ذلك. وهذا يحكي أنّ للرسول الأكرمﷺ أن يقف على قبور المؤمنين والصالحين وأن يدعو لهم في حال دفنهم، أو بعد ذلك، وإلاّ لكان النهي

---

١. تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل):١/ ٤١٦.

٢. تفسير الجلالين: سورةالتوبة،تفسير الآية.

٣. روح البيان:٣/ ٣٧٨.

الموجّه إلى النبي عن الوقوف على قبور المنافقين لغواً لا طائل فيه.

وعلى هذا الأساس ندرك أنّ الآية المباركة أرادت أن تهدم شخصية المنافق، وأن تحرمه من الفيض الإلهي الوارد عن طريق دعاء النبيﷺ واستغفاره، وأن يختص هذا اللطف وتلك الرحمة بالمؤمنين الصالحين، فللرسول أن يقف على قبورهم في حال دفنهم أو بعد ذلك، وأن يطلب من ربّه أن ينزل فيض رحمته وغفرانه على تلك الأرواح المؤمنة.

زيارة القبور في السنّة المطهّرة

بالإضافة إلى الروايات التي ذكرناها في مجال تحليل المفهوم الفلسفي والاجتماعي والتربوي للزيارة، قام الرسول الأكرمﷺ بنفسه وبصورة عملية بزيارة القبور، فقد حدّثنا التاريخ أنّه ﷺ كان يزور قبور المؤمنين في البقيع ويدعو لهم، وهانحن نذكر بعضاً من هذه الروايات في هذا المجال:

١. روى مسلم عن عائشة أنّها قالت: كان رسول اللهﷺ كلّما كان ليلتها من رسول اللهﷺ يخرج آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجّلون، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».[١]

٢. وعن عائشة في حديث طويل أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «أتاني جبرئيل فقال: إنّ ربّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم». قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ فقال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين

١. صحيح مسلم:٣/ ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، من كتاب الجنائز.

والمسلمين،ورحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون».[١]

٣. وروى مسلم أيضاً عن بريدة أنّ الرسول الأكرمﷺ علّم أصحابه كيفية زيارة القبور فقال: قولوا: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية».[٢]

١. صحيح مسلم:٣/ ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز؛ سنن النسائي:٤/ ٩١.
٢. صحيح مسلم:٣/ ٦٥.

٢

النساء وزيارة القبور

إنّ المرأة تشارك الرجل في زيارة قبور الأهل والأحبّة والصالحين من أولياء الله سبحانه، ولا فرق بين الرجل والمرأة في هذه المسألة، وذلك لأنّ الأحكام الإلهية والمفاهيم الإسلامية شاملة وعامّة للرجال والنساء، إلاّ إذا دلّ الدليل على الاختصاص بأحدهما.

ونحن إذا أمعنّا النظر في خطاب الرسول الأكرمﷺ للمجتمع الإسلامي في هذا المجال نجده عامّاً وموجّهاً للجنسين الذكور والإناث، حيث قالﷺ:

«زوروا القبور فإنّها تذكّركم الآخرة».(١)

وفي رواية أُخرى:

«زوروا القبور فإنّ لكم فيها عبرة».(٢)

صحيح أنّ الخطاب في هذين الحديثين موجّه إلى الرجال بشهادة تذكير الضمير، ولكن وكما قلنا: إنّ جميع الخطابات القرآنية والحديثية التي يوجّه فيها

---

١. سنن ابن ماجه: ١/ ٥٠٠، الحديث ١٥٦٩.

٢. كنز العمال: ١٥/ ٦٤٧، الحديث ٤٢٥٥٨.

الخطاب إلى الـرجال تعمّ في نفس الوقـت النساء، إلاّ إذا كان هنـاك دليل خاص يدلّ على عدم الشمـول واختصاص الحكم بالرجال فقط. ومن هنـا نجد الآيات التي تأمر بالصـلاة أو الزكاة أو الحجّ أو الصيام قد جاء الخطـاب فيها موجّهاً إلى جنس الرجال، ومع ذلك لا يوجد عـالم أو متعلّم يقول باختصاص تلك الأحكام بالـرجال، بل أطبق الجميع على شمـولية الخطاب للـرجال والنســاء على السواء، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُـوا الزَّكاةَ وَمَا تُقَـدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾.[١]

صحيح انّ الخطاب حسب قواعد اللغة العربية متوجّه إلى الرجال، ولكن الحكم عام يشمل الجنسين، كما هو واضح.

ومن هنا نعرف أنّ الخطاب في الأحاديث الماضية «زوروا» وإن كان موجّهاً إلى الرجال حسب القواعد، إلاّ أنّه لا توجد دلالة على الانحصار، بل الحكم يعمّ الجميع.

ثمّ بالإضافة إلى الروايات السابقـة هناك روايات أُخرى، تبيح للنساء زيارة القبور، ومن هذه الروايات:

١. روى مسلم في صحيحه عن عـائشة قالت: «لمّا كـانت ليلتي التي كان النبيﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه... فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح البـاب، فخرج، ثمّ أجافه رويـداً، فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت أزراري، ثمّ انطلقت على أثره حتّى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثمّ رفع

---

١. البقرة:١١٠.

يديه ثلاث مرات... إلى أن قالت: قال ﷺ: «فإنّ جبرئيل أتاني فقال: إنّ ربّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم».

قالت عائشة: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله...؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون».(١)

ومحور الاستدلال يقوم على الفقرة الأخيرة من الحديث حيث نجد السيدة عائشة تطلب من الرسول ﷺ أن يعلّمها كيفية الزيارة وماذا تقول إذا زارت، ولو كانت الزيارة محرّمة على النساء، فكيف يقوم الرسول الأكرم ﷺ بتعليم زوجته أمراً محرّماً ويقول لها ﷺ: «قولي...».

أضف إلى ذلك انّ السيدة عائشة حينما نقلت هذه الحادثة إلى نساء المسلمين تلقّين القضية على أنّه مباح للنساء زيارة القبور، وأنّه لا فرق بينهنّ وبين الرجال في هذه القضية أبداً.

٢. وهذه فاطمة الزهراء بنت الرسول الأكرم وسيدة نساء العالمين وأحد أصحاب الكساء عليها السلام كانت تخرج إلى زيارة قبر عمّها حمزة كلّ جمعة، فتصلّي وتبكي عنده.

قال الحاكم النيسابوري بعد نقل هذا الحديث: هذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات. ثمّ قال: وقد استقصيت في الحث على زيارة القبور تحرّياً للمشاركة في الترغيب، وليعلم الشحيح بذنبه انّها سنّة مسنونة وصلى الله على محمد وآله أجمعين.(٢)

---

١. صحيح مسلم: ٣/ ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها من كتاب الجنائز.

٢. مستدرك الحاكم: ١/ ٣٧٧.

٣. روى الترمذي عن عبد الله بن أبي مليكة قال: إنّه لمّا مات عبد الرحمان ابن أبي بكر ـ شقيق عائشة ـ في «الجُنتى» حملوا جثمانه إلى مكة ودفنوه فيها، ولمّا جاءت عائشة إلى مكة ـ من المدينة ـ خرجت لزيارة قبر أخيها وأنشدت بيتين من الشعر».[١]

٤. روى البخاري عن أنس أنّه قال:

مرّ النبيّ ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال ﷺ: «اتّق الله واصبري».[٢]

ولم ينقل البخاري تتمة الحديث، إلاّ أنّ أبا داود نقل ذلك في سننه بالصورة التالية:

فقالت المرأة للرسول ﷺ: إليك عنّي فإنّك لم تُصب ولم تعرفه.

فقيل لها: إنّه النبي! فأتت باب النبي ﷺ فقالت: لم أعرفك!

فقال ﷺ: «إنّما الصبر عند الصدمة الأُولى».[٣]

فلو كانت زيارة القبور محرّمة على النساء لنهاها رسول الله ﷺ ولما اكتفى بالموعظة والحثّ على الصبر وتحمّل المصاب، ولكنّنا نجده ﷺ اكتفى بالوصية بالتقوى والصبر عند المصيبة فقط دون أن يتعرّض لذكر الحكم الشرعي فيها.

سؤال وإجابة

لقد تمسّك المانعون للنساء عن زيارة القبور بالحديثين التاليين:

---

١. سنن الترمذي: ٣/ ٣٧١، ح ١٠٥٥.

٢. صحيح البخاري: ٢/ ٩٣، باب قول الرجل للمرأة عند القبر اصبري، من كتاب الجنائز.

٣. سنن أبي داود: ٣/ ١٩٢، الحديث ٣١٢٣.

الحديث الأوّل: «لعن الله زوّارات القبور».[١] متذرّعين بأنّ ذلك صريح في المنع، لأنّ اللعن لا يجتمع مع الإباحة.

وجوابه

إنّ هـذا الحديث لا يصح مستنـداً للمنع، لأنّـه لا تتـوفر فيـه شروط الاستدلال، وذلك لأنّه منسوخ وفقاً للأدلّة السابقة، والملاحظ أنّ بعض المحدّثين من أهل السنّة ذهبوا إلى أنّ الحديث منسوخ، منهم: الترمذي ـ ناقل الحديث ـ حيث يقول: وقد رأى بعض أهل العلم أنّ هـذا كان قبل أن يرخّص النبيّ ﷺ في زيارة القبور، فلمّا رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء.[٢]

قال القرطبي: هـذا اللعن إنّما هو للمكثرات من الزيـارة لما تقتضيه الصفة من المبالغة، ولعلّ السبب ما يفضي إليـه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرّج، وما ينشأ منهنّ من الصياح ونحو ذلك.[٣]

الحديث الثاني:

روى ابن ماجة عن عليّ عليه السلام: قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا نسوةٌ جُلُوس. فقال: «مـا يجلسكنّ؟» قلنَ: ننتظر الجنـازة. قال: «هل تغسِلنَ؟» قُلْـنَ: لا. قال: «هَلْ تَحْمِلنَ؟» قُلْنَ: لا. قـال: «هل تدلين فيمن يُـدلي؟» قلن: لا. قال: فَـارْجعنَ

---

١. سنن ابن مـاجـة: ١/ ٥٠٣، الحديـث١٥٧٦؛ سنن أبي داود:٣/ ٢١٨، الحديث٣٢٣٦وفيـه بـدل «زوارات» : «زائرات».

٢. سنن الترمذي:٣/ ٣٧١ـ ٣٧٢، باب ما جاء من الرخصة في زيارة القبور.

٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني:٣/ ١٤٩.

مأزورات، غير مأجورات». [١]

الجواب

إنّ هذا الحديث لا يمكن الاستدلال به لوجود المناقشة فيه سنداً ودلالة.

أمّا السند فهو ضعيف لوجود عمرو بن دينار في سلسلة السند، وقد وصفه أصحاب الجرح والتعديل بالصفات التالية: مجهول، كذّاب، متروك، يخطأ!!!

ومع كلّ هذه النعوت الذامّة للرجل كيف يركن لحديث يمثّل هو أحد حلقات سنده؟!

وأمّا الدلالة: لو سلمنا بصحّة السند وأغمضنا النظر عن ضعفه، فإنّ الحديث من ناحية الدلالة فيه مناقشة واضحة، وذلك لأنّ الحديث وارد في خصوص النساء المتجمعات للتفرّج على الجنازة ومن دون أن يكون لهنّ مهمة تذكر في خدمة الجنازة. وهذا لا علاقة له بمسألة زيارة القبور، فإنّ التفرّج على الجنازة شيء وزيارة القبور شيء آخر، ولا يمكن إسراء حكم أحدهما إلى الآخر، لوجود الفارق الجوهري بين المسألتين.

وهنا نكتة جديرة بالاهتمام، وهي أنّ الدين الإسلامي هو دين الفطرة، والشريعة الإسلامية هي الشريعة السهلة السمحة كما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ وهو الدين القائم على الرفق والرأفة والرحمة، فلو فرضنا أنّ امرأة مؤمنة فقدت ولدها العزيز، فإنّ الشيء الوحيد الذي يسلّي هذه المرأة ويخفّف من حزنها وآلامها هو أن تأتي إلى قبر عزيزها وتذرف الدموع الساخنة عليه، وتدعو الله له بالرحمة والمغفرة، وتهدي إلى روحه أنواع الثواب من قراءة القرآن أو الإطعام وما شاكل

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠٢ـ٥٠٣.

ذلك، فلـو فرضنـا أنّ الإسلام يقف أمـام هذه المرأة في عملها ــ الذي هـو عمل عقلائي ـ فـلا ريب أنّه سيوجّه إليها ضربة روحيـة، ويحمّل هذه المرأة الثكلىٰ أمراً يصعب تحمّله، فهل يـاترى يجتمع هذا النهي بما فيه من القسـوة والشدّة مع كون الرسالة سهلة وسمحة؟!

ثمّ إنّنا قد عـرفنا من خلال البحوث السابقة أنّ في زيـارة القبور منافع جمّة تربوية وروحية، وفيهـا من العبر والدروس الشيء الكثير، وانّها «تذكّر الآخرة» كما ورد في الحديث، وانّها تعتبر الوسيلة للارتبـاط الروحي بين الميت وأهله وذويه من خلال قراءة القرآن والفاتحة و....

فكيف يمكن أن نتصـوّر أنّ الإسـلام الحنيـف يحرم المرأة من هـذه المنـافع الكبيرة والفيض الإلهي العظيم؟!

وبعبـارة أُخرى: انّ فلسفـة زيارة القبـور والتي تذكّـر الآخرة وتعتبر سببـاً أساسياً للاتّعاظ والاعتبار، غير قابلة للتخصيص أبداً.

نعم لابدّ أن تكون هـذه الزيارة منزّهـة عن كلّ ما يشين الإنسان أو يجرّه إلى ارتكاب الإثم والمعصية، ولعلّ النهي الذي ادّعي وجـوده في هذا المجال ناظر إلى النساء اللواتي لا يلتـزمن بمراعاة تلك الشروط التي ينبغي الالتـزام بها عند زيارة القبور.

٣

أعلام الأُمّة وزيارة قبر النبي الأكرم ﷺ

إنّ علماء الأُمّة ــ الفقهاء منهم والمحدّثون ــ أولوا مسألة الزيارة اهتماماً كبيراً، وبالخصوص زيارة النبي الأكرم ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين وبذل في طريق هداية الأُمّة الغالي والنفيس وتحمّل جميع أنواع العناء والعذاب، ولذلك نجدهم قد أفتوا باستحباب زيارة قبره الشريف، ودعوا الناس إلى زيارته والتزوّد من بركة ونعم هذه الزيارة، والتعرض للفيض الإلهي عند قبره الشريف ﷺ. ومن هؤلاء الأعلام الذين أولوا الزيارة أهمية خاصة:

١. الإمام تقي الدين السبكي الشافعي (المتوفّى عام ٧٥٦هـ) تغمّده الله بالرحمة والرضوان، فقد ألّف في هذا المجال كتاباً تحت عنوان «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» حقّق فيه جميع الأبعاد والزوايا التي تتعلّق ببحث الزيارة، وأثبت فيه بالدليل القاطع والبرهان الساطع استحباب زيارة قبر النبي الأكرم ﷺ، وأنّها من مسلّمات الفقه الإسلامي، أضف إلى ذلك أنّه عقد باباً خاصاً نقل فيه نصوص كبار العلماء المسلمين على استحباب زيارة قبر سيدنا

ومولانا الرسول الأكرم ﷺ، وقد بيّن أنّ الاستحباب أمر مجمع عليه بين المسلمين.[١]

٢. الشخصية الأُخرى التي خاضت غمار هذا البحث العلاّمة الكبير والمحقّق البارع آية الله الأميني(١٣٢٠ـ ١٣٩٠هـ) في موسوعته القيّمة «الغدير» فقد جاء بكلمات أعلام المذاهب الأربعة من الفقهاء والمحدّثين، فذكر ما يتجاوز الأربعين كلمة من كلمات هؤلاء الأعلام والتي فات العلاّمة السبكي الوقوف عليها.[٢]

ولقد كانت لنا في هذا المضمار جولة استدركنا فيها ما فات العلمين المذكورين من الكلمات في هذا الخصوص، وقد أوردنا الجميع في رسالة خاصة ألّفناها في هذا الخصوص تحت عنوان «الزيارة في الكتاب والسنّة» .

ومن الواضح أنّ استعراض جميع الكلمات يعد إطناباً لا طائل من ورائه، لذلك سنكتفي بذكر بعض تلك الكلمات، وهي:

١. قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملي الشافعي (المتوفّى ٤٢٥هـ): ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبيﷺ.[٣]

٢. وأمّا أبو الحسن الماوردي (المتوفّى ٤٥٠هـ) فقد قال: فإذا عاد (ولي الحاج) سار بهم إلى طريق المدينة لزيارة قبر رسول اللهﷺ، ليجمع لهم بين حج بيت الله عزّ وجلّ وزيارة قبر رسول اللهﷺ، رعاية لحرمته، وقياماً بحقوق طاعته،

---

١. شفاء السقام:٦٥ـ٧٩.

٢. الغدير:٥/ ١٠٩ـ١٢٥.

٣. شفاء السقام:٦٥، نقلاً عن المنهاج في شعب الإيمان.

وذلك وإن لم يكن من فروض الحجّ، فهو من مندوبات الشرع المستحبة وعبادات الجميع المستحسنة.[١]

٣. وممّن بسط الكلام في زيارة قبر النبي الأكرمﷺ الإمام الغزّالي(المتوفّى ٥٠٥هـ) في كتاب الحجّ من كتاب «إحياء العلوم» حيث قال:

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها.

قال ﷺ: «من زارني بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي».

وقال ﷺ: «من وجد سعةولم يفد إليّ فقد جفاني» .

إلى أن قال: فمن قصد زيارة المدينة فليصلّ على رسول اللهﷺ في طريقه كثيراً، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللّهمّ هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار، وأماناً من العذاب وسوء الحساب. ثمّ ذكر آداب الزيارة وصيغتها، كما ذكر زيارة الشيخين وزيارة البقيع بمن فيها،كزيارة قبر عثمان وقبر الحسن بن علي.

ثمّ قال: ويصلّي في مسجد فاطمة رضي الله عنها،ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله، وقبر صفيّة عمّة رسول اللهﷺ، فذلك كلّه بالبقيع، ويستحبّ له أن يأتي مسجد قباء في كلّ سبت ويصلّي فيه، لما روي أنّ رسول اللهﷺ قال: «من خرج من بيته حتّى يأتي مسجد قباء ويصلّي فيه كان له عدل عمرة».[٢]

٤. وقال القاضي عياض المالكي (المتوفّى ٥٤٤هـ): وزيارة قبره ﷺ سنّة مجمع عليها وفضيلة مرغّب فيها، ثمّ ذكر عدّة من أحاديث الباب فقال: قال

---

١. الأحكام السلطانية:١٠٩.

٢.إحياء علوم الدين:١/ ٣٠٥ـ٣٠٦.

إسحاق بن إبراهيم الفقيه: ومما لم يزل من شأن من حج المزور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرّك برؤية روضته ومنبره وقبره وملامس يديه ومواطن قدميه والعمود الذي استند إليه، ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه.[١]

٥. قال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي (المتوفّى ٧٣٨هـ) بعد أن ذكر لزوم وكيفية زيارة الأنبياء والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) والتوسّل بهم إلى الله تعالى وطلب الحوائج منهم قال: وأمّا في زيارة سيّد الأوّلين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه فكلّ ليزيد عليه أضعافه، أعني: في الانكسار والذّل والمسكنة؛ لأنّه الشافع المشفّع الذي لا تردّ شفاعته، ولا يخيب من قصده، ولا من نزل بساحته، ولا من استعان أو استغاث به، إذ إنّه عليه الصلاة والسلام قطب دائرة الكمال وعروس المملكة ـ إلى أن قال ـ: فمن توسّل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يردّ ولا يخيب، لما شهدت به المعالية والآثار، ويحتاج إلى الأدب الكلّي، إلى زيارته عليه الصلاة والسلام.

إلى أن قال: وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنّ الزائر يشعر بنفسه بأنّه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته.[٢]

٦. قال ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي (المتوفّى ٩٧٣هـ) بعدما استدلّ على مشروعية زيارة قبر النبي ﷺ بعدّة أدلّة منها الإجماع.

فإن قلت: كيف تحكي الإجماع على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها وابن تيميّة من متأخّري الحنابلة منكر لمشروعية ذلك كلّه كما رآه السبكي في

١. الشفاء: ٢/ ١٩٤ـ ١٩٧.

٢. المدخل: ١/ ٢٥٧.

خطّه؟

قلت: من هو ابن تيمية؟! حتى ينظر إليه، أو يعوّل في شيء من مورد الدين عليه؟!! وهل هو إلاّ كما قال جماعة من الأئمّة ـ الذين تعقبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه، وغلطاته كالعزّ بن جماعة ـ : عبدٌ أضلّه الله تعالى وأغواه،وألبسه رداء الخزي وأرداه،وبوّأه من قوّة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان. وأوجب له الحرمان،ولقد تصدّى شيخ الإسلام التقي السبكي رحمه الله المجتمع على اجتهاده وصلاحه و إمامته للردّ عليه في تصنيف مستقل أفاد فيه وأجاد، وأصاب وأوضح بباهر حججه طريق الصواب.[1]

٧. قال محمد بن عبد الوهاب: تسنّ زيارة النبي ﷺ إلاّ أنّه لا يشدّ الرحال إلاّ لزيارة المسجد والصلاة فيه.[2]

٨. قال الشيخ عبد الرحمن الجزيري في كتابه «الفقه على المذاهب الأربعة» الذي جمع فيه فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة وفقهائهم: زيارة قبر النبي ﷺ أفضل المندوبات،وقد ورد فيها أحاديث، ثمّ ذكر أحاديث ستة، وجملة من أدب الزائر وزيارةالنبي ﷺ.[3]

ولم نجد من الفقهاء المعاصرين من أهل السنّة من تصدّى للرد على دعوى الجزيري و إبطالها بالرغم من أهمية هذه الدعوى وحسّاسيتها، ممّا يعرب عن مقبوليتها عند الجميع، و إلاّ لتصدّوا للرد عليه و إبطال ما نسبه إلى أئمّتهم.

٩. ومن الذين التحقوا بركب القائلين الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز

١. الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم:٢٢.

٢. الهدية السنية: الرسالة الثانية.

٣. الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٥٩٠.

عند إجابته عن الأسئلة حول زيارة المسجد النبوي: الزيارة للمسجد النبوي سنّةوليست واجبة ـ إلى أن قال: ـ و إذا زار المسجد النبوي شرع له أن يصلّي في الروضة ركعتين، ثمّ يسلّم على النبيﷺ كما شرع له زيارة البقيع والشهداء، بالسلام على المدفونين هناك من الصحابة وغيرهم.[١]

نكتفي بهذا المقدار من كلمات العلماء في هذا المجال، ومن أراد المزيد من التفصيل، فعليه بمراجعة الرسالة التي أفردناها في هذا البحث.[٢]

١. جريدة الجزيرة: العدد٦٨٢٦، ٢٤/ ذي القعدة ـ١٤١١هـ.

٢. انظر «الزيارة في الكتاب والسنّة»:٢٢ـ ٤٢.

٤

زيارة النبي الأكرم ﷺ في الكتاب والسنّة

ألف: زيارة النبي الأكرم ﷺ في القرآن الكريم

أمر القرآن الكريم المسلمين بالحضور عند رسول الله ﷺ ليستغفروا الله ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم، لأنّ دعاءه مستجاب فيهم، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾.(١)

وفي آية أُخرى نجد القرآن الكريم يذمّ المنافقين، لأنّهم طُلب منهم أن يحضروا عند الرسول ﷺ ليستغفر لهم لكنّهم تمرّدوا على هذا الطلب واستكبروا ولم يعيروا له أيّة أهمية. قال تعالى:

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.(٢)

---

١. النساء: ٦٤.

٢. المنافقون: ٥.

وقد بسط المحقّق تقي الدين السبكي ـ أحد كبار محقّقي أهل السنّة ـ الكلام في هذه الآية وذهب إلى أنّ حكمها يشمل المسلمين في الوقت الحاضر أيضاً،ولا تختص الآية بعصر الرسولﷺ فقط، إذ بإمكان المسلمين أن يأتوا إليهﷺ ويطلبوا منه أن يستغفر الله لهم. ومن كلامه في هذا المجال قوله: «دلّت الآية على الحثّ على المجيء إلى الرسولﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم،وذلك و إن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له ولا تنقطع بموته تعظيماً له».[١]

قد يقال: صحيح انّ الآية المذكورة والآيات الأُخرى نازلة في حقّ الرسول ﷺ لبيان عظمته ومنزلته السامية،ولكن من الناحية الواقعية والعملية أنّ الإتيان إلى الرسولﷺ والاستغفار عنده وطلب الاستغفار منه ممكن في حال حياته، وأمّا بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى أصبح هذا الأمر من الأُمور المتعذّرة التي لا يمكن القيام بها حتّى إذا أراد الإنسان ذلك.

والجواب: انّ الإشكال غير وارد وانّ الحقّ مع العلاّمة السبكي، وذلك لأنّ الدليل على شمولية الآية لحياته ومماتهﷺ لا ينحصر في هذه الآية فقط، بل هناك أدلّة كثيرة تدلّ على أنّ حياته و مماته ﷺعلى السواء، ومن هذه الأدلّة:

الأوّل: انّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الموت ليس نهاية الحياة وانعدام الإنسان، بل هو في الواقع نافذة تطل على حياة أُخرى أوسع وأشمل وأفضل من هذه الحياة الدنيا، وانّ الإنسان في ذلك العالم حيّ يسمع ويرىٰ، وخاصة الشهداء الذين ما تسقط منهم قطرة من دمائهم حتّى تتلقّاهم الملائكة بالبشرىٰ والنعيم الدائم واللّذات الروحية التي لا يحصيها إلاّ واهبها، وقد ورد في هذا المجال

---

١. شفاء السقام:٨١.

العديد من آيات الذكر الحكيم.[١] وهذا ما نبحثه تحت عنوان «الحياة البرزخية» إن شاء الله تعالى.

الثاني: انّ الأحاديث الشريفة تصرّح بأنّ الملائكة تبلّغ خاتم الأنبياءﷺ سلام من يسلّم عليه، فقد جاء في الصحاح: «ما من أحد يسلّم عليّ إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتّى أردّ عليه السلام».[٢]

وفي رواية أُخرى: «صلّوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنت».[٣]

الثالث: لقد أطبق المسلمون ـ وعلى مرّ العصور ـ على السلام على النبيﷺ في صلاتهم بقولهم: «السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته» وليس هذا السلام في واقعه أمراً تشريفياً اعتبارياً، بل هو حقيقة واقعية من الحيّ إلى الحيّ الذي يسمع ويجيب.

إنّ هذه الأدلّة التي ذكرناها تحكي بما لا ريب فيه أنّ الرسول الأكرمﷺ حي يرزق، ويعيش الآن حياة برزخية، ولم تنقطع صلته بهذا العالم، وهو على ارتباط به يسمع كلامنا ويلبّي طلبتنا مع توفّر بعض الشروط الخاصة.

من هنا يمكن القول: إنّ الآيتين المذكورتين تدلاّن على مفهوم أوسع، ومعنى أشمل، حيث تطلب تلك الآيات من المؤمنين فعلاً الحضور عند رسول الله، وتأمرهم بالاستغفار في حرمه الشريف، وأن يطلبوا منهﷺ أن يستغفر الله لهم. ولذلك ورد في زيارة النبيﷺ ـ و التي يقرأها الجميع في حرمه الطاهرﷺ ـ الالتفات إلى هذه الآية المباركة، حيث نجد الزائرين يتوجّهون إليهﷺ ويطلبون

١. انظر آل عمران: ١٦٩، البقرة: ١٥٤، يس: ٢٦ـ ٢٧، وغير ذلك.

٢. سنن أبي داود: ١/ ٤٧٠ـ ٤٧١، كتاب الحجّ، باب زيارة القبور.

٣. التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسولﷺ: ٢/ ١٨٩.

منه الاستغفار لهم ونزول الرحمة عليهم، والتجاوز عمّا صدر عنهم.

وفي الواقع ليست الزيارة إلاّ الحضور عند المزور، وإهداء التحيّة والسلام إليه، وطلب الدعاء منه لا أكثر.

من هنا يمكن أن يستدلّ بالآيتين الشريفتين على استحباب زيارة مرقد النبي الأكرم ﷺ.

والشاهد على ذلك ما رواه المحدّثون من أنّه وبعد رحيل الرسول ﷺ جاء أعرابي من خارج المدينة،وبعد أن قرأ الآية المباركة[١]، خاطب رسول الله بقوله: «وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي».[٢]

ولقد أشار السبكي في كلامه السابق إلى نكتة مهمة، وهي: انّ دعوة المسلمين وحثّهم على الحضور عند رسول الله وطلب الاستغفار منه، يُعدّ تعظيماً وتكريماً وتبجيلاً له ﷺ، ولا ريب أنّ هذا التكريم والتعظيم والتبجيل من قبل المسلمين لا يختص بحياة الرسول الأكرم ﷺ الدنيوية فقط، بل أنّ ذلك يجري مطلقاً في حياته وبعد رحيله ﷺ.

ومن هذا المنطلق نجد المفسّرين يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأنّ احترام الرسول ﷺ لا يختص بزمن حياته ﷺ فقط، بل لابدّ أن يحفظ ذلك حتى بعد وفاته ورحيله ﷺ.

بل نجد انّ الآية التي تنهىٰ المسلمين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ باقية على حيويتها واستمراريتها وقوّتها، حيث يقول سبحانه:

---

١. النساء:٦٤.

٢. وفاء الوفا:٤/ ١٣٦١؛ الدرر السنيّة:٢١.

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.[١]

لذلك نجد المسلمين ملتزمين بهذا الأمر الإلهي، فلا يرفعون صوتهم حينما يتشرّفون بالدخول إلى حضرته المباركة. والملاحظ أنّ هذه الآية المباركة كتبت ـ و بحق ـ فوق ضريحه المبارك أمام أعين الزائرين جميعاً، وهذا العمل له دلالته الواضحة بأنّ هذه الآية باقية على حيويتها وفاعليتها ولم يؤثر على إطلاقها رحيل الرسول ﷺ، لأنّه حيّ يرزق،ولابدّ أن يحترم حيّاً أو ميتاً.

ب: زيارة النبي الأكرم ﷺ في السنّة المطهّرة

لقد تعرّفنا على حكم القرآن الكريم في مسألة زيارة قبر النبي الأكرم ﷺ، وحان الوقت لعطف عنان القلم على السنّة المطهّرة لنرى حكمها في هذه المسألة أيضاً.

لقد تضافرت الروايات الشريفة على استحباب زيارة قبر الرسول الأكرم ﷺ التي رواها أئمّة المذاهب الأربعة وأصحاب السنن والمسانيد في كتبهم. وقد شمّر عدد من علماء المسلمين عن ساعد الجد للبحث في تلك الروايات وتصحيح أسانيدها وإثبات طرقها حينما ظهرت بدعة التشكيك في زيارة النبي ﷺ، ومن هؤلاء الأعلام:

١. تقي الدين السبكي (المتوفّى ٧٥٦هـ) في كتابه «شفاء السقام» فقد أورد خمس عشرة رواية مع ذكر أسانيدها، وقد صحّح كثيراً من أسانيدها.[٢]

---

١. الحجرات:٢.

٢. شفاء السقام:٥ـ٣٩.

٢. وقد قام بنفس المهمّة الحافظ نور الدين علي بن أحمد السمهودي (المتوفّى ٩١١هـ) في كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» حيث أحصىٰ سبعة عشر حديثاً من غير ما ورد في ذلك المجال، ولم يشتمل على لفظ «الزيارة».[١]

ثمّ إنّه قام بنفس ما قام به الإمام السبكي من تصحيح للأسناد، وذكر لمصادر الروايات على وجه بديع.

٣. كذلك قام الكاتب الإسلامي الشيخ محمد الفقي ــ من علماء الأزهر الشريف ــ بجمع ما ورد من الأحاديث في خصوص زيارة النبيﷺ، فأورد اثنين وعشرين حديثاً من دون تحقيق للأسناد.[٢]

٤. كما بذل العلاّمة الأميني جهوداً مشكورة في هذا المجال في متابعة المصادر الحديثية وغيرها وتتبّع الروايات في مظانّها في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، وربّما نقل الأحاديث، كالحديث الأوّل عن واحد وأربعين مصدراً.[٣]

ونكتفي هنا بنقل بعض الأحاديث التي أوردها ﷺ، لأنّ استقصاء جميع تلك الروايات لا ينسجم مع حجم هذا الكتاب، ومن أراد التفصيل عليه بمراجعة المصدر المذكور.

الحديث الأوّل

روى الدارقطني في سننه بسنده إلى ابن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».[٤]

---

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٣٦ـ١٣٤٨.

٢. التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية: ٤٨ـ ٥٠.

٣. الغدير: ٥/ ٩٣ـ٩٦.

٤. سنن الدارقطني: ٢/ ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٤.

الحديث الثاني

روى الطبراني في «المعجم الكبير» والغزالي في «إحياء العلوم» عن عبد الله ابن عمر مرفوعاً عن النبي ﷺ: «من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلاّ زيارتي، كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».[١]

الحديث الثالث: أخرج الدارقطني عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي، فكأنّما زارني في حياتي».[٢]

الحديث الرابع: وأخرج الدارقطني أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد موتي فكأنّما زارني في حياتي».[٣]

نكتفي بهذا القبس من الروايات والأحاديث الكثيرة الواردة عن الرسول ﷺ ونعطف عنان القلم لنقل بعض الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة في هذا المجال.

زيارة النبي الأكرم ﷺ على لسان العترة الطاهرة عليهم السلام

تضافر الحديث عن العترة الطاهرة حول زيارة قبر النبي ﷺ، نقتبس منه ما يلي:

---

١. إحياء العلوم: ١/ ٣٠٦. وفيه: «لا يهمّه إلاّ زيارتي».

٢. سنن الدارقطني: ٢/ ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٢. ورواه البيهقي في السنن: ٥/ ٢٤٦؛ والسبكي في شفاء السقام: ٢١؛ والسمهودي في وفاء الوفا: ٤/ ١٣٤٠؛ كما أخرجه العلاّمة الأميني عن ٢٥ مصدراً، في الغدير: ٥/ ٩٨.

٣. سنن الدارقطني: ٢/ ٢٨٧، الحديث ١٩٣؛ شفاء السقام: ٢٣؛ وفاء الوفا: ٤/ ١٣٤٤؛ الغدير: ٥/ ١٠١، أخرجه الأميني عن ١٣ مصدراً.

١ . روى الحميري (المتوفّى ٢٩٩هـ) ... عـن الإمام الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من زارني حيّاً وميّتاً ، كنت له شفيعاً يوم القيامة» .(١)

٢ . روى الصدوق(٣٠٦ـ٣٨١هـ) بسنده عن الإمام علي عليه السلام قال : «أتمّوا برسـول الله حجّكم إذا خرجتم إلـى بيت الله ؛ فإنّ تركـه جفاء ، وبذلك أُمـرتم ، وأتمّوا بالقبور التي ألزمكم الله زيارتها وحقّها» .(٢)

٣ . وروى الصـدوق أيضاً عن إبـراهيم بن أبي حجـر الأسلمي ، عن أبي عبد الله عليه السلام قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أتى مكـة حـاجّـاً ولم يـزرني إلى المـدينة ، جفـوته يـوم القيامـة ؛ ومن جـاءني زائراً ، وجبت له شفـاعتي ، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنّة» .(٣)

٤ . روى ابن قـولـويه بسنـده عن الإمـام الصـادق عليه السلام قـال : قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة».(٤)

ومن أمعن النظر في هـذه الروايـات يجد اتّفاق الفـريقين على استحباب زيارة قبر النبيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم ، بل يجد انّ الاتّفاق بلغ حدّاً انّهـا اتحدت في بعض الأحيان مضموناً ولفظاً ، منها :

ألف : من حجّ البيت ولم يزر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقد جفاه .

ب : من زار قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجبت له شفاعته .

نكتفي بذكر هذه الروايات الثمانية : أربعة منها من طرق العامّة ، والأربعة

---

١ . قرب الاسناد:٣١؛ البحار:٩٧/ ١٣٩ .

٢ . الخصال:٢/ ٤٠٦؛ البحار:٩٧/ ١٣٩ .

٣ . علل الشرائع:٤٦٠؛ البحار:٩٧/ ١٤٠ .

٤ . كامل الزيارات:١٢؛ البحار:٩٧/ ١٤٢ .

الثانية عن طريق العترة الطاهرة، ومن رام التفصيل فعليه بمراجعة المصادر التي جمعت تلك الروايات الكثيرة.

مناظرة الإمام مالك مع المنصور الدوانيقي

نقل القاضي عياض المناظرة التي جرت بين أبي جعفر المنصور الدوانيقي والإمام مالك فقال: حدّثنا ابن حميد، قال: ناظر أبو جعفر ـ يعني المنصور ـ مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإنّ الله تعالى أدّب قوماً فقال:

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.(١)

ومدح قوماً فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾.(٢)

وذم قوماً فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.(٣)

ثمّ أضاف الإمام مالك:

وإنّ حرمته ميّتاً كحرمته حيّاً. فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله ﷺ؟

---

١. الحجرات: ٢.

٢. الحجرات: ٣.

٣. الحجرات: ٤.

فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله، قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُول﴾[١]. [٢]

زيارة القبور وحفظ الأصالة والقيم

لقد ركّزنا في بحوثنا السابقة على اعتماد الروايات الواردة عن طريق أهل السنّة وأغمضنا النظر عن الروايات الواردة عن طريق أهل بيت العصمة والطهارة رغم كثرتها، وذلك لأغراض منهجّية وإلزاماً للخصم باعتماد مصادره وما يسلّم به ليكون في ذلك دحضاً لحجته، وإبطالاً لمدّعاه.

ونحن إذا راجعنا المصادر الحديثية الشيعية يتّضح لنا وبجلاء أنّ مسألة زيارة القبور عامّة وزيارة قبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من مسلّمات المذهب الشيعي، بل قد صنّف بعض علماء الإمامية كتباً كثيرة تحت عنوان «المزار»، ومن أبرز هذه المصنّفات كتاب «كامل الزيارات» للشيخ جعفر بن محمد بن قولويه (المتوفّى ٣٦٧هـ).

من هنا نؤكّد على نقطة مهمة وهي: انّ حفظ القيم والأصالة الإسلامية هي إحدى مهامّنا الأساسية، ونقصد بذلك الأُمور التي تحكي عن الواقع الإسلامي وتؤمّن استمراريته على مرّ العصور.

فمن المعروف أنّ الدين الإسلامي هو خاتم الأديان السماوية، وهو أكمل

---

١. النساء: ٦٤.

٢. الشفاء: ٢/ ٤١، الفصل التاسع.

دين وأفضل تشريع نزل إلى الأرض، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تكون هذه الشريعة هي الحلقة الأخيرة التي تتصل بقيام الساعة ونهاية العالم. وبما أنّ الفاصلة الزمنية بين نزول الرسالة المحمدية وقيام الساعة فاصلة طويلة ولا يعلم مداها إلاّ الله سبحانه وتعالى، وانّ الكثير من الأجيال التي سوف تأتي تقع بيننا و بين قيام الساعة، الأمر الذي يفرض علينا أن ننقل تلك الأمانة إلى الأجيال القادمة بدقة، وأن نحفظها من كلّ ما يشينها، أو يؤثر عليها من عوامل التحريف والتلاعب.

ولا ريب انّ زيارة قبر الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة عليهم السلام والصالحين من عباده يُعدّ نوعاً من أنواع الحفاظ على الأصالة والقيم. وفي تركها سوف تحرم الأُمّة وعلى مرور الأيام من البركات والنعم الكثيرة الناتجة من ذلك العمل، إلى درجة قد يصل الأمر أن تأتي بعض الأجيال تعتبر تلك الشخصيات العظيمة شخصيات وهمية لا أساس لوجودها أبداً.

والشاهد الحي على هذا الادّعاء هو أنّ المسلمين ـ وتبعاً للقرآن الكريم ـ يجدون أنّ شخصية السيد المسيح عليه السلام شخصية حقيقية ولها دورها الفاعل في حقبة من الزمن، وأنّه كان يمثّل حلقة مهمّة من حلقات سلسلة الرسالات السماوية. ولكن ـ و للأسف ـ نجد الكثير من الشباب الغربي ينظر إلى هذه الشخصية بارتياب وشك، ويعتبرها شخصية أُسطورية صنعتها يد الإنسان، وممّا لا ريب فيه أنّ العامل الأساسي الذي أدّىٰ إلى ظهور هذه الحالة المؤلمة في أوساط الشباب الغربي، هو أنّ هذا الشباب قد جال ببصره وحرّك ذهنه وتحرّى آثار هذه الشخصية فلم يجد لها أثراً ملموساً: فلا أثر لكتابه السماوي الحقيقي الذي نزل عليه، ولا أثر له أو لأُمّه أو لحوارييه من قبر أو مسجد أو....

ومن هنا نقول: إنّ تعطيل الزيارة، وعدم الاهتمام بالآثار المحسوسة، وعدم الاهتمام بصيانتها في أوساط المجتمع الإسلامي، سوف تؤدي بالشباب المسلم إلى نفس النتيجة التي وصل إليها الشباب الغربي. وهذا أمرٌ خطير جداً لا تحمد عقباه أبداً.

من هنا ينبغي على جميع المسلمين التصدّي إلى هذا الخطر، والوقوف أمام هذا الانحراف من خلال المحافظة على جميع الآثار وصيانتها من عوادي الدهر وأيدي العابثين والمنحرفين، والحفاظ على تلك المراقد الطاهرة والآثار الشريفة حيّة شامخة على مرّ العصور والأيام، لتكون بمثابة الباب الذي تدخل من خلاله سحب الرحمة الإلهية والنافذة التي تعرج من خلالها الأرواح المؤمنة من أجل الالتقاء بالأرواح الطاهرة للرسول الأكرم والأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين، وأرواح الصالحين من عباد الله المخلصين.

وسيأتي إن شاء الله الحديث عن ذلك بصورة مفصّلة في بحث «صيانة الآثار الإسلامية».

الفصل السابع

شدّ الرحال إلى زيارة

مرقد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

لقد أثبتنا في البحث السابق أنّ زيارة قبور المسلمين مطلقاً وزيارة القبر الطاهر للرسول الأكرم ﷺ من المستحبّات المؤكّدة في الشريعةالإسلامية، حيث روى المحدّثون ــ الشيعة والسنّة ـ روايات كثيرة في استحباب زيارة قبره ﷺ، وقد نقلنا قسماً منها في الفصل السابق. ثمّ إنّ علماء الإسلام قد تسالموا على استحباب زيارة مرقد النبي ﷺ، ولم يشك في ذلك أحدٌ أبداً، بل حتى محمد بن عبد الوهاب ـ الذي يمثّل محور إثارة الشبهات في العقائد الإسلامية ـ نجده هو الآخر لم يختر الصمت في هذه القضية الحسّاسة، بل صرّح باستحباب زيارة الرسول الأكرم ﷺ.[1]

ومع الالتفات إلى هذا الاستحباب يمكن تقسيم المسلمين بالنسبة إلى هذه الهبة الإلهية إلى طائفتين، هما:

١ . سكان المدينة المنوّرة

من الواضح أنّ سكّان المدينة المنوّرة ينهلون من هذا النبع الإلهي ، ويغرفون من هذا البحر الزاخر، ويتزوّدون بأنواع النعم والآثار المعنوية والفيض الإلهي النازل على تلك الروضة المطهّرة لقبره الشريف ﷺ من دون بذل عناء أو جهد، ويؤدّون هذا العمل المستحب من دون مشقّة أو تعب وعناء.

---

١ . انظر كلمته التي نقلناها في ص ١٦٤ .

٢. سكّان سائر البلاد الإسلامية

أمّا سكّان البلاد والمدن الإسلامية الأُخرى فعليهم إذا أرادوا التوجّه إلى قبلة نفوسهم وحبيب قلوبهم ومهوى أفئدتهم، والسلام عليه، أن يقطعوا الفيافي، ويعانوا المتاعب، ويتحمّلوا وعثاء السفر، ومصاعب الطريق خاصة في العصور القديمة التي كانت فيها وسائط النقل بدائية أو معدومة أساساً.

ومن هنا يطرح التساؤل التالي نفسه: ما هو حكم هذا السفر وشدّ الرحال من وجهة النظر الشرعية؟

والجواب: إذا كانت زيارة النبي الأكرمﷺ أمراً مطلوباً وعملاً مستحبّاً كما دلّت عليه الروايات المتضافرة والسيرة القطعية، يكون شدّ الرحال الذي هو بمنزلة المقدّمة أمراً مستحبّاً، بناءً على الملازمة بين استحباب الشيء واستحباب مقدّمته[١] كما عليه أكثر الأُصوليين.

نعم، ذهب بعض الأُصوليين إلى عدم الملازمة، ولكنّهم متّفقون على لزوم كون المقدّمة مباحة لا محرّمة، لاستلزامه التناقض في التشريع، حيث لا يعقل البعث إلى أمر، مع المنع عمّا يوصل المكلّف إليه، وعلى كلّ تقدير لا يصحّ تحريم السفر مع افتراض كون الزيارة أمراً راجحاً، وفعلاً مستحباً، فلا محيص من القول باستحبابه، أو إباحته، ولا تجتمع حرمة المقدّمة مع استحباب ذيها.

ولقد حدّثنا التاريخ الإسلامي أنّ سيرة المسلمين كانت قائمة ـ بعد رحيل الرسول ﷺ ـ من عصر الصحابة إلى يومنا هذا على شدّ الرحال، والتوجّه إلى زيارة

---

١. ذهب بعض المحقّقين إلى أنّ مقدّمة الأمر المستحب مستحبة أيضاً، وقد استدلّوا على ذلك بالآية ١٠٠ من سورة النساء، والآيات ١٢٠ ـ ١٢١ من سورة التوبة.

النبي الأكرم ﷺ كما ذكر لنا التاريخ نماذج من تلك الزيارات والتي قام بها الصحابة وغيرهم، نذكر القليل منها:

١ . بلال مؤذّن الرسول ﷺ يشدّ الرحال للزيارة

روى ابن عساكر باسناده عن أبي الدرداء، قال: لمّا فرغ عمر بن الخطاب من فتح بيت المقدس فصار إلى الجابيّة، سأله بلال أن يقرّه بالشام ففعل ذلك ـ إلى أن قال ـ : ثمّ إنّ بلالاً رأىٰ في منامه رسول الله وهو يقول: «ما هذه الجفوة يا بلال، أمّا آن لك أن تزورني يا بلال»، فانتبه حزيناً خائفاً، فركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ، فجعل يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين (رضي الله عنهما) فجعل يُضمّهما ويقبّلهما، فقالا له: «نشتهي أذانك الذي كنت تؤذّن به لرسول الله ﷺ في المسجد»، ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلمّا أن قال: اللهُ أكبر، اللهُ أكبر ارتجّت المدينة ... ، فلمّا أن قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، خرجت العواتق من خدورهنّ، وقالوا: بُعِثَ رسول الله. فما رُئي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم.[١]

٢ . عمر بن عبد العزيز يبعث البريد للسلام على النبيّ ﷺ

استفاض الخبر أنّ عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرئ النبي السلام ثمّ يرجع وقال ابن الجوزي: وكان عمر بن

---

١ . مختصر تاريخ دمشق: ٥/ ٢٦٥؛ تهذيب الكمال: ٤/ ٢٨٩.

عبد العزيز يبرد البريد من الشام يقول: سلّم لي على رسول الله ﷺ.[١]

٣. عمر بن الخطاب يطلب من كعب الأحبار السفر للزيارة

روى الواقدي في «فتوح الشام»: انّ عمر لمّا صالح أهل بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معي إلى المدينة، وتزور قبر النبي وتتمتّع بزيارته؟ فقال لعمر: يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك. ولمّا قدم عمر المدينة، أوّل ما بدأ بالمسجد وسلّم على رسول الله.[٢]

وفي الحقيقة نحن لسنا بحاجة إلى ذكر هذه النماذج الجزئية بعد أن أطبق المسلمون على طول القرون الأربعة عشر الماضية على جواز السفر، وأثبتوا صحّة ذلك، وقاموا بذلك بصورة عملية حيث كانت ولا تزال تسير الوفود والقوافل الكبيرة منطلقة من أقصى المناطق ومن كلّ فج عميق باتجاه المدينة المنوّرة للتشرّف بزيارة النبي الأكرم والانتهال من نمير فيضه ﷺ وتجديد العهد معه.

وهذا هو الإمام السبكي يذكر سيرة المسلمين في أيام الحجّ، ويقول: إنّ الناس لم يزالوا في كلّ عام إذا قضوا الحجّ يتوجّهون إلى زيارته ﷺ، ومنهم من يفعل ذلك قبل الحجّ، هكذا شاهدنا وشاهده مَن قبلنا، وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وذلك أمر لا يرتاب فيه، وكلّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه، وإن لم يكن في طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال،

---

١. مثير الغرم الساكن إلى أشرف الأماكن: ٢/ ٢٩٧.
٢. فتوح الشام: ١/ ٢٤٤.

ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مرّ السّنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم، يستحيل أن يكون خطأ، وكلّهم يفعلون ذلك على وجه التقرّب به إلى الله عزّ وجلّ، ومن تأخّر عنه من المسلمين فإنّما يتأخّر بعجز أو تعويق المقادير، مع تأسّفه ووده لو تيسّر له. ومن ادّعىٰ أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ.

ومن نازع في ذلك وقال: فإنّهم يقصدون من سفرهم زيارة المسجد، لا زيارة الرسول الأكرمﷺ، فلم ينصف وكابر في أمر بديهي. فإنّ الناس من حين يعرجون إلى طريق المدينة، لا يخطر ببالهم غير الزيارة من القربات إلاّ قليلاً منهم، وغرضهم الأعظم هو الزيارة، ولو لم يكن ربّما لم يسافروا، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسر إتيانه، وليس الصلاة فيه بأقل ثواباً من الصلاة في مسجد النبي.[1]

أدلّة القائلين بحرمة شدّ الرحال

كان هذا هو الموقف من الزيارة وشدّ الرحال إليها إلى نهاية القرن السابع حيث كان العلماء مطبقون على إباحة النفر وشدّ الرحال إلى الزيارة، وإن لم يكن ذلك أمراً مستحباً فهو على أقل تقدير أمر مباح ولا يمكن تطرّق الحرمة إليه، ولكن في أوائل القرن الثامن تمسّك ابن تيمية بحديث مروي عن أبي هريرة عن النبيﷺ واعتمده دليلاً على الحرمة، مخالفاً بذلك إجماع علماء المسلمين.

---

١. شفاء السقام: ١٠٠ـ ١٠١.

إنّ الرواية التي تمسّك بها ابن تيميّة نقلت بثلاث صور، والمناسب لما يرومه ابن تيمية في التحريم الصورتان التاليتان:

١. «لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى».(١)

٢. «إنّما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيليا».(٢)

ولقد تمسّك ابن تيمية بهذا الحديث مدّعياً أنّه يجوز السفر إلى هذه المساجد الثلاثة فقط لأداء المراسم العبادية، وأمّا زيارة قبر الرسول الأكرمﷺ فغير داخلة تحت هذه الموارد الثلاثة.

وهذا الاستدلال من الوهن بمكان، بحيث إنّ أدنى تأمّل فيه يهدمه من الأساس، ومن هنا سنحاول تحليل الحديث ودراسته لبيان مدى وهن هذا الاستدلال وضعفه فنقول:

إنّ تحليل الحديث يتوقف على تعيين المستثنى منه، وهو لا يخلو من إحدى صورتين:

١. لا تشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلاّ إلى ثلاثة مساجد....

٢. لا تُشدّ الرحال إلى مكان من الأمكنة إلاّ إلى ثلاثة مساجد....

فلو كان المراد الصورة الأُولى كما هو الظاهر، كان معنى الحديث النهي عن

١و٢. صحيح مسلم:٤/ ١٢٦، باب لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، من كتاب الحجّ، والصورة الثالثة للحديث: «تشدّ الرحال إلى ثلاثة مساجد» صحيح مسلم:٤/ ١٢٦. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الصيغة الثالثة لا تدعم ما يرومه ابن تيمية، وذلك لأنّ إثبات جواز السفر إلى هذه المساجد الثلاثة، لا يلازم تحريم السفر إلى غيرها.

شدّ الرحال إلى أيّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شدّ الرحال إلى أيّ مكان من الأمكنة إذا لم يكن المقصود مسجداً، فالحديث يكون غير متعرض لشدّ الرحال لزيارة الأنبياء والأئمّة الطاهرين والصالحين،لأنّ موضوع الحديث إثباتاً ونفياً هو المساجد، وأمّا غير ذلك فليس داخلاً فيه، فالاستدلال به على تحريم شدّ الرحال إلى غير المساجد باطل.

وأمّا الصورة الثانية: فلا يمكن الأخذ بها،إذ يلزم منها كون جميع السفرات محرّمة، سواء كان السفر لأجل زيارة المسجد أو غيره من الأمكنة، وهذا ممّا لا يلتزم به أحد من الفقهاء.

ثمّ إنّ النهي عن شدّ الرحال إلى أيّ مسجد غير المساجد الثلاثة ليس نهياً تحريمياً، وإنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في سفر كهذا، وذلك لأنّ المساجد الأُخرى لا تختلف من حيث الفضيلة، فالمساجد الجامعة كلّها متساوية في الفضيلة، فمن العبث ترك الصلاة في جامع هذا البلد والسفر إلى جامع بلد آخر مع أنّهما متماثلان.

وفي هذا الصدد يقول الغزالي: القسم الثاني وهو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحجّ أو جهاد... ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء. وكلّ من يُتبرك بمشاهدته في حياته يُتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ» لأنّ ذلك في المساجد؛ فإنّها متماثلة(في الفضيلة)بعد هذه المساجد، وإلاّ فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان

يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله.[١]

يقول الدكتور عبد الملك السعدي: إنّ النهي عن شدّ الرحال إلى المساجد الأُخرى، لأجل أنّ فيه إتعاب النفس دون جدوى، أو زيادة ثواب؛ لأنّها في الثواب سواء بخلاف الثلاثة، لأنّ العبادة في المسجد الحرام بمائة ألف، وفي مسجد النبوي بألف، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة، فزيادة الثواب تُحبِّب السفر إليها،وهي غير موجودة في بقية المساجد.[٢]

والدليل على أنّ السفر لغير هذه المساجد ليس أمراً محرّماً، ما رواه أصحاب الصحاح والسنن: «كان رسول الله يأتي مسجد قبا راكباً وماشياً فيصلّي فيه ركعتين».[٣]

ولعلّ استمرار النبيّ على هذا العمل كان مقترناً بمصلحة تدفعه إلى السفر إلى قبا والصلاة فيه مع كون الصلاة فيه أقل ثواباً من الصلاة في مسجده.

زيارة المساجد السبعة

تتوزّع في المدينة المنورة مجموعة من المساجد يطلق عليها«المساجد السبعة» وإذا أضفنا إليها كلاً من «مسجد ردّ الشمس» و «مسجد بلال» و«مسجد الإجابة» يزداد العدد إلى أكثر من ذلك، وهذه المساجد يقصدها الحاج لزيارتها والصلاة فيها وخاصة «مسجد الإمام علي عليه السلام»، وحينئذٍ يطرح السؤال

---

١. إحياء علوم الدين٢/ ٢٤٧، كتاب آداب السفر.

٢. البدعة: ٦٠.

٣. صحيح مسلم: ٤/ ١٢٧؛ صحيح البخاري: ٢/ ٧٦؛ سنن النسائي: ٢/ ١٣٧، المطبوع مع شرح السيوطي.

التالي نفسه وهو: إذا كان ثواب الصلاة في هذه المساجد لا يزيد على الصلاة في المساجد الأُخرى المتوزعة في البلاد الإسلامية، فلماذا يقصد الحاج تلك المساجد للزيارة والصلاة فيها؟!

ثمّ إنّه إذا لم يكن قد ورد أمر من الشارع المقدّس بالتوجّه إلى تلك المساجد والصلاة فيها ألا يُعدّ ذلك «بدعة» يجب الاجتناب عنها؟

والجواب: في الحقيقة أنّ الهدف من السفر إلى هذه المساجد لا ينطلق من كون الشارع المقدّس قد أمر بالتوجّه إليها، أو أنّ الصلاة فيها أكثر ثواباً من غيرها، بل الهدف منه أحد أمرين، هما:

١. إحياء ذكرى مسلمي صدر الإسلام الذين شيّدوا هذه المساجد في أحلك الظروف وأقساها،و أسّسوها في الوقت الذي كانت معركة الأحزاب «الخندق» قائمة بين المسلمين والأحزاب، بل أنّ بعض هذه المساجد بُني في مواقع النزال بين المسلمين وبين مشركي مكة من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أُخرى، وفي تلك الظروف الحالكة التي تمكّن فيها المسلمون من قتل بطل جيش الأحزاب وقائدهم المشهور «عمرو بن عبدود» على يد علي بن أبي طالب عليه السلام الأمر الذي سجّل منعطفاً تاريخياً مهماً في القضاء على حكومة الشرك والطغيان واجتثاث جذور شجرة الشرك والوثنية.

ولا ريب أنّ الحضور في هذه المساجد يُعيد إلى الأذهان تلك المواقف البطولية المشرّفة والباسلة التي سطّرها رجال الإسلام وعلى رأسهم سيّد الوصيين عليه السلام، كما يعتبر ذلك تجديداً للعهد مع أُولئك الرجال العظام ومع مبادئهم السامية التي دافعوا عنها بكلّ قوّة وبذلوا من أجلها الغالي والنفيس.

٢. يمكن أن تكون الزيارة بقصد التبرّك بتلك البقاع المقدّسة التي أُريقت

عليها دماء رجال التوحيد وشهدائه. كما أنّ هذه البقاع قد شهدت أجمل صور البطولة والفداء والثبات على المبادئ، الصور التي رسمتها ريشة شهداء الحق وأبطال التوحيد، بالإضافة إلى ذلك أنّ هذه المساجد المقدّسة كانت مأوى النفوس الزكية والأرواح الطاهرة للرسول الأكرم ﷺ وسيّد الوصيين والصحابة الميامين.

إنّ هذين الأمرين هما اللّذان يجذبان الحاج إلى تلك المساجد المقدّسة للزيارة والصلاة فيها، وهكذا الأمر يجري في زيارة أرض «خيبر» و «فدك» وغيرها من المناطق المشرّفة.

وأمّا ما يتعلّق بالصلاة فيها فلا ريب أنّه يُعدّ امتثالاً لأمر عام صادر من الشارع المقدّس باستحباب الصلاة ركعتين عند دخول أيّ مسجد، ويطلق على هاتين الركعتين عنوان «تحيّة المسجد»، ومن الواضح أنّ هذه المساجد غير مستثناة من هذا الاستحباب العام. من هنا نعلم أنّ الحاج لا ينطلق من زيارته لتلك المساجد من الاعتقاد بوجود أمر خاص باستحباب الصلاة فيها بالخصوص، بل إنّما ينطلق إليها بسبب أحد العاملين السابقين، وأمّا الصلاة فإنّه يأتي بها امتثالاً للاستحباب العام الوارد في مطلق المساجد، فلا يُعدّ ذلك العمل بدعة أبداً.

الفصل الثامن

صيانة الآثار الإسلامية وقبور الصالحين

الأُمم الحيّة المهتمة بتاريخها تسعى وبكلّ جهد إلى صيانة آثارها التاريخية ـ التي لها صلة بماضيها ـ من عوادي الدهر وتقلّبات الزمن، ليكون ذلك آية لأصالتها وعراقتها في العلوم والفنون، ودليلاً على جذورها التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ البشري.

وقد دعت تلك الغاية السامية الأُمم والشعوب إلى تأسيس دوائر ومؤسّسات خاصة تتكفّل بحفظ التراث و الآثار، يعمل فيها كبار المتخصّصين والمهرة في هذا الفن، فلا يفرّطون في أيّ أثر مهما كان حجمه، سواء كان ورقة مخطوطة، أو إناءً مزخرفاً، أو أثراً منقوشاً على الحجر، أو منارة، أو بناية، أو حصناً ، أو قبراً لأحد شخصياتهم وأبطالهم الذين لعبوا دوراً في بناء هذا التراث و إدارة الأُمّة، إلى حد ينفقون في سبيل ذلك أموالاً طائلة وجهوداً حثيثة، أضف إلى ذلك أنّهم ينظرون إلى رجالهم وشخصياتهم وأسلافهم بأنّها تمثّل «التاريخ المجسّم» للأُمّة، وأنّهم بمنزلة «الهوية الشعبية» لتلك الأُمة، لأنّ الأُمّة التي تنفصل عن جذورها التاريخية ورجالها العظام كالطفل الذي يفقد أبويه فلا يدري إلى أيّ أصل يعود.

ولا ريب أنّ الحضارة الإسلامية حضارة واسعة لها جذورها التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ، ولقد كانت هذه الحضارة ـ في فترات تاريخية ـ صاحبة الكلمة الأُولى بين شعوب العالم حيث استطاع المسلمون ـ اقتداءً بالتعاليم والقيم

الإسلامية الـراقية ـ أن يشيّدوا أُسس حضارة عمـلاقة لا مثيل لها بلغت أوجها في القرنين الرابع والخامس الهجريّين، وامتدت ذراعها شرق الأرض وغربها. والشاهد الحي على تلك الحضـارة العملاقـة «تاج محل» في الهنـد، والعمارات العملاقـة في «إسبانيا» و قد استطاعت هذه المدنيـة أن تهيمن ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ على الكثير من البقاع والشعوب في العالم.

يعتقد المحقّقـون الغربيـون أنّ الحضارة والمدنيـة الإسلاميـة قد نفـذت إلى أُوروبا عن طـريق الأندلس والحروب الصليبيـة، وكان لهذا النفوذ أثـره الفاعل في النهضة الأُوروبية والتطوّر الغربي.

ثمّ إنّ الحضارة الإسلامية بدأت مع بعثة الرسول الأكرمﷺ ـ بل مع ولادته الشريفة باعتبـار ما ـ واستمرت هـذه الحضارة والمدنية على يد أتبـاعه والسائرين على نهجـه المبارك الـذين بذلـوا جهوداً جبـارة في هذا المجـال على طول القـرون الماضية.

إنّ الآثــار والأبنيـة المتعلّقــة بشخص الــرسـول الأكــرمﷺ وأصحابـه الأوفياء،هي جزء من التراث العام للحضارة الإسلامية الكبرى، وليست هي ملكاً لشخص أو فئة بحيث يحق لـه التصرّف في هذا التراث كما يحلـو له، بل هي ملك العالم الإسلامـي بأسره ـ بل هي ملك للإنسانيـة عامّة ـ فـلا يحق لأيّ حكومة أن تتصرف في هذا التراث العظيم بمعزل عن بـاقي المسلمين فتقوم بهدم وإزالة هذه الآثار المهمة تحت ذريعة الحفاظ على التوحيد الخالص!!

ولقد نقل لنا التاريخ الإسلامي وقـائع ومنعطفات حياة الرسول الأكرمﷺ وتـابع ذلك بدقـة وإمعـان، فولادتـه كـانت في عام ٥٧٠م، وبعث وهـو في سن الأربعين من عمره الشريف وبعـد أن قضى ١٣ عامـاً في مكة المكـرمة في التبليغ

والدعوة، شدّ الرحال مهاجراً إلى المدينة المنوّرة حيث قضى فيها عشر سنين من عمره المبارك جاهد خلالها المشركين وعبدة الأوثان، وقدّم خلال هذه النهضة والحركة خيرة القرابين، وسفكت في سبيل إعلاء كلمة التوحيد أزكى الدماء حتى تمكّن في النهاية أن ينشر راية الإسلام خفاقة على ربوع الجزيرة العربية، وفي السنة الحادية عشرة التحق بالرفيق الأعلى ملبّياً نداء ربّه، إلاّ أنّ برحيله ﷺ لم تسقط راية الإسلام، بل استمرت خفاقة وانتشرت الرسالة الإسلامية خارج الجزيرة العربية في شتّى بلاد العالم.

إنّ الآثار التي تتعلّق بحياة الرسول الأكرم ﷺ وجهاده هو وأهل بيته وأصحابه الميامين تمثّل اللبنة الأساسية للحضارة الإسلامية، ولابدّ أن ينظر إليها بأنّها رمز الأصالة الإسلامية، التي ينبغي بذل الجهود في الحفاظ عليها وصيانتها من كلّ خطر يحيق بها.

قبور الصالحين رمز أصالة التاريخ الإسلامي

ينبغي التنبيه إلى نقطة جديرة بالاهتمام وهي: انّ كلّ واقعة أو أي حادثة من الحوادث تُعدّ في الأيام الأُولى لوقوعها من الحقائق القطعية لدى المعاصرين لها، ولكنّها مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال تفقد تلك الواقعة قطعيتها، بصورة تدريجيّة بنحو يلقي الشك والترديد ظلاله عليها إلى درجة قد تصل الحالة إلى أن تعتبر أُسطورة خيالية في نظر بعض الأجيال.

ولا شكّ انّ الحوادث والوقائع التاريخية غير مستثناة من هذه الحالة، فبالرغم من قطعيتها ووضوحها في الأيام الأُولى، ولكنّها قد تصل إذا أُهملت ولم تلق عناية خاصة إلى أن تصبح أُسطورة تاريخية في نظر الأجيال القادمة.

بل انّ تكرار هـذا الخطر وتلك الفاجعـة في الحضارة الإسلاميـة أخطر من غيرها، وذلك باعتبـار أنّ الرسالة الإسلاميـة هي خاتمة الرسالات، وهي الـرسالة الخالـدة التي تسير مع الإنسان وتـرسم لـه طريقـه إلى يـوم القيامـة، ولا شكّ أنّ الأجيال القادمـة انّما تتبع هذه الرسالة، وتنهل من نميرهـا العذب إذا كانت تلك الأجيال على يقين من أحقية تلك الـرسالة وعلى علم بواقعيتها وأصـالتها، وممّا لا ريب فيه أنّ أحد العوامل الفـاعلة والمهمة في ثبوت «قطعية» الرسـالة وأصالتها، وتحكيم جذورها التـاريخية، تكمن في الحفاظ على الآثار المتعلّقة بتـاريخ الرسول الأكرمﷺوجهاده وقيادته وحركته في المجتمع.

فصيـانة هـذه الآثار على وجـه الإطـلاق تضفي على الشريعة في نظـر غير معتنقيهـا واقعية وحقيقـة، وتـزيل عن وجههـا أيّ ريب أو شك في صحّة البعثـة والدعوة، وجهاد الأُمّة ونضال المؤمنين.

ولقد بذل علماؤنا وسلفنا الصالح رحمهم الله جهوداً جبارة ومساعي مشكورة في مجال الحفاظ على ذلك التراث المهم، وأوصلوا الأمانـة سالمة إلى الأجيال اللاحقة، وبذلك قدّموا خدمات عظيمة للأجيال من خلال ذلك العمل الرائع المتمثّل في صيانة الآثار وحفظها، ممّا كان لـه أثره الفاعل في النظر إلى الدين الإسلامي نظرة واقعية، وإلى الشخصيات الإسلامية نظرة قطعية لا ريب ولا تردّد فيها أبداً.

من هنا يستطيع المسلمون أن يتحـدّثوا عن دينهم ويدعو النـاس إليه بقوّة واطمئنان تامّين، فهـم يواجهون العالم مرفـوعي الرأس ويقولـون: أيّها الناس لقد بعث رجل في أرض الحجـاز قبل ١٤٠٠ سنـة لقيادة المجتمع البشري، وقـد حقّق نجاحاً باهراً في مهمته التي استمرت ٢٣ عاماً موزّعة على مرحلتين: ١٣ عاماً منها في مكة، وعشرة منها في المدينـة، وهذه آثار حياتـه محفوظة تماماً في مكـة والمدينة،

فهذه الدار التي ولد فيها، وهذا مسجده، وهذا البيت الذي دفن فيه، وهذه بيوت زوجاته، وهذا غار حراء الذي كان يتعبّد به والذي هبط الوحي عليه فيه وهو في سن الأربعين من عمره الشريف، ومنه بدأت حركة الرسالة الإسلامية، فآمنت به طائفة وكفرت أُخرى، وقد واجه في طريق الدعوة أشدّ المصاعب في مكة ممّا اضطره للهجرة إلى المدينة، وفي طريق هجرته لجأ إلى «غار ثور» في جنوب مكة، وبعد أن أمن الطلب توجّه صوب المدينة مهاجراً ليستقبله الأوس والخزرج، ويؤسّس هناك نواة الحكومة الإسلامية الجديدة.

وقد خاض صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الفترة من حياته الشريفة معارك ضارية مع المشركين واليهود، قدّم خلالها قافلة من الشهداء في بدر وأُحد وخيبر وحنين، كما قام صلى الله عليه وآله وسلم بإرسال المبلّغين إلى سائر أراضي الجزيرة العربية داعين الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك والوثنية، وبعد أن أتمّ رسالته وأدّى مهمته على أحسن وجه، لبّى نداء ربّه في السنة الحادية عشرة من هجرته الشريفة، وقد استلم الراية التي رفعها أهل بيته وأنصاره وأصحابه، وساروا على النهج الذي سار عليه ونشروا مفاهيم القرآن وقيمه في أرجاء المعمورة.

والآن، إذا قضينا على هذه الآثار، فقد قضينا على معالم وجوده صلى الله عليه وآله وسلم ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيل لأعداء الإسلام ليقولوا ما يريدون.

إنّ هدم آثار النبوة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة لا يُعد إساءة إليهم عليهم السلام وهتكاً لحرمتهم فقط، بل هو اعتداء سافر على أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم. إنّ رسالة الإسلام رسالة خالدة أبدية وسوف يبقى الإسلام ديناً للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة، ولابدّ للأجيال القادمة ـ على طول الزمن ـ أن

تعترف بأصالتها وتؤمن بقداستها. ولأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ ـ دائماً ـ على آثار صاحب الرسالة المحمدية ﷺ لكي نكون قد خطونا خطوة في سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه على مدى العصور القادمة، حتّى لا يشكّك أحد في وجود نبيّ الإسلام ﷺ كما شكّكوا في وجود النبي عيسى عليه السلام.

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبي محمد ﷺ وسيرته وسلوكه، حتّى أنّهم سجّلوا دقائق أُموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيته، وكلّ ما يرتبط به كخاتمه، وحذائه، وسواكه، وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده، وإبله، وغلامه، حتّى الآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي أوقفها لوجه الله سبحانه، والطعام المفضّل لديه، بل وكيفية مشيته وأكله وشربه، ومايرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية إلى يومنا هذا. [١]

الاتّعاظ بالتاريخ

إنّ الإنسان يسعى دائماً إلى النظر إلى الأُمور من نافذة الحسّ، وذلك لأنّه يطمئن إلى العلوم الناتجة من الأُمور المحسوسة أكثر من غيرها، وإنّ من أفضل التجارب والمختبرات التي يمكن الركون إليها في مجال القضايا التاريخية والاجتماعية هو الانطلاق من بوتقة التجارب التاريخية، وقد أكّد القرآن الكريم هذا المعنى في سورة يوسف حيث قال تعالى:

﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ ما كانَ حديثاً يُفْترىٰ

١. حول هذا الموضوع راجع الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٣٦٠ـ٥٠٣.

وَلَٰكِنْ تَصدِيقَ الّذي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .[١]

هـذا، وإذا استعـرضنـا تـاريخ الشرائع السماويـة نجـد في تـاريخ السيـد المسيح عليه السلام خير شاهـد على ما نـذهب إليه، فمن المسلّم بـه أنّ الإنسان المسلم ـ وتبعاً للقرآن الكـريم والسنّة المطهّرة ـ يذعن بـوجود السيد المسيح عليه السلام ، ويعتقد اعتقاداً راسخـاً بأنّ هذه الشخصية تمثّل حلقـة من سلسلة الرسـالات والنبوّات الطويلة، وأنّ للسيـد المسيح وجوداً حقيقياً و دوراً فاعلاً في تاريخ البشريـة عامّة وتاريخ الـرسالات خـاصة، حيث جاء بتعـاليم و إرشادات ودسـاتير سماوية من خلال كتابه «الإنجيل».

ولكن ـ وللأسف الشديد ـ نجد الشباب الغربيّين لعدم معرفتهم بالمعارف القرآنية الحقّة وعدم اعتقادهم بالديـن الإسلامي الذي جاء به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والذي يعتبر أفضل طريق وأصفى مرآة لإثبات حقيقة السيد المسيح عليه السلام، نجدهم ينظرون اليوم إلى شخصية السيد المسيح عليه السلام نظرة ارتياب وشك وتردد، وذلك لأنّ الشباب الغـربي قد جـال ببصره وتتبع التاريخ الأثـري، فلم يجد لهذه الشخصية العملاقة أثراً ملموساً لكي يركن إليه، فلم يجد له قبراً[٢]، أو لأُمّه مريم، أو لأحد حواريّيه، كما لم يجد لـه كتاباً متّفقاً عليه، وإنّما نسبت إليه أنـاجيل كثيرة مضطربة مختلفة فيما بينها لا يمكن تمييز الحق من الباطل منها بسهولة.

وخلاصـة الأمر: انّ الشاب الغـربي لم يعثر على شيء ملموس يـؤدّي به إلى

١. يوسف:١١١.

٢. هذا الكلام يصدق وفقـاً للتفكير المسيحي المنحرف الذي يذهب إلى أنّ المسيح عليه السلام صلب فعلاً. وأمّا حسب النظرية الإسلامية فلا يصح.

الاطمئنان بأصالة هذه الشخصية والركون إلى أنّها واقعة حقيقة لا يمكن التردّد فيها.

ومن هنا ينبغي علينا نحن المسلمين أن نأخذ العبر والدروس من التاريخ المسيحي، وأن نسعى بكلّ ما أُوتينا من قوّة وجهد في سبيل صيانة الآثار الإسلامية عامّة، وآثار الرسول الأكرم ﷺ خاصة مهما كانت صغيرة، وذلك لأنّها تمثّل الشاهد الحي على أصالتنا وأحقيّة دعوتنا،وأن نتجنّب تدميرها بمعول محاربة الشرك الذي اتّخذه البعض ـ و للأسف الشديد ـ ذريعة للقضاء على هذا التاريخ الأثري الملموس والمعلَم الإسلامي المهم، كي لا يصيب أجيالنا القادمة ما أصاب الشباب الغربي من داء الترديد والشك في شخصية السيد المسيح عليه السلام.

القرآن الكريم وحفظ الآثار

لقد أكّد القرآن الكريم انّ الأُمم السالفة كانت تحتفظ بآثار أنبيائها وتحافظ عليها وتصونها و تتبرّك بها، وكانت تحملها معها في الحروب، ليتسنّى لها من خلال التبرّك بها التغلّب والانتصار على عدوهم .

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم في هذا المجال صندوق بني إسرائيل الذي كانت فيه مواريث آل موسى وهارون، قال تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسىٰ وآل هارون تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنين﴾.[1]

١. البقرة:٢٤٨.

ولا ريب انّ هـذا الصنـدوق عظيم البركـة بشهـادة أنّ الملائكـة هي التي تحمله، فلو كان حفظ الآثار وصيانتها بصورة عامّة وحفظ هذا الصندوق الأثري بصورة خاصة غير لائق وغير جدير بـالاهتمام، فلماذا يتحدّث عنه القرآن الكريم بهذا اللحن من الخطـاب الإيجابي الذي يظهـر منه تأييـد الفكرة واستحسـانها؟! ولماذا تتصـدى الملائكـة على عظمتهـا وقداستهـا لحملـه؟! ولماذا تكـون عمليـة استرجاعه من أيدي العمالقة آية على حقّانية قائد الجيش في وقته؟!

نعم انّ الجهلـة و ذوي العقـول الصبيـانيـة هم الـذي يعبثـون بتراثهم ولا يعيرون له أهمية تذكر، ولا يرون لـه ذلك الأثر الفاعل في حركتهم المستقبلية، وأمّا الـوارث العاقل واللبيب فإنّـه يتعامـل مع ذلك الموروث بطريقـة أُخرى وبنحـو يختلف اختلافاً جـوهرياً عن الطريقـة السالفة، وذلك لأنّه يعي جيـداً ما تنطوي عليه تلك الآثار من تـراث معنوي واجتماعي، وما يعكسه هـذاالتراث من أصالة وحقّانيـة و إثبات للهويـة، لذلك تجده يعض عليهـا بالنواجـذ، ويبذل في سبيل صيانتها الغالي والنفيس.

ومن حسن الحظ أنّ الأُمّة الإسلامية ومنذ الأيام الأُولى قد التفتت إلى أهمية هذاالتراث الإسلامي المهم، فحافظت عليه كما حـدّثنا التاريخ الإسلامي بذلك، حيث كـانوا يحتفظـون بكلّ ما يمتّ إلى الـرسول الأكـرمﷺ بصلة، مـن: ثياب، وسلاح، ودار، وكتاب، و غير ذلك من الحاجات الشخصية التي كان يستعملها، بل حتى «شعره» كانوا يحتفظون به في صندوق خاص.

إذا اتّضح ذلك نعطف عنان القلم لـدراسة مجموعـة من البحوث التي لها ارتباط وثيق با لموضوع، وهي:

١

مكانة بيوت الأنبياء في القرآن الكريم

لقد أولى القرآن الكريم عناية خاصّة لبيوت الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وليس ذلك الاهتمام منطلقاً من العناية المادية بتلك البيوت، وامتيازها من حيث طراز البناء وشكل الزخرفة، أو نوعية المواد التي أُنشئت منها ، بل انّ هذا الاهتمام منطلق من كون تلك البيوت كانت تضم في جنباتها ويعيش فيها أُناس من الطراز الأوّل في المعرفة والرقي والتكامل الروحي والمعنوي، ومن هنا نجد القرآن الكريم يصف نور الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كأَنها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴾.[١]

ثمّ بعد ذلك مباشرة يتعرض لبيان مركز وموقع هذا الكوكب الدرّي والمصباح المنير، حيث يقول تعالى:

﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ وَالآصالِ﴾.[٢]

---

١. النور:٣٥. ٢. النور:٣٦.

إنّ جملة﴿يسبّح له فيها بـالغدوّ والآصال﴾ تبيّن السبب والعلّـة في رفعـة وعظمة تلك البيوت التي وصفت بقوله تعالى: ﴿أَذِنَ الله أَن ترفع﴾.

ثمّ تتعرض الآية الأُخـرى للحديث عن صفات وسمات الرجـال العابدين الذين يسكنونها ويعيشون فيها، حيث قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقام الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصارُ﴾.[1]

لقد تحدّثت الآيات المباركة عن تلك البيوت بلحن خاص يشعر بالتعظيم والتحسين، وأشـارت إلى سمات الـرجـال الإلهيين الـذين يسكنـونها بأنّ دأبهم التسبيح والتمجيـد و التهليل والتكبير. ومن هنـا لابـدّ من تسليط الأضـواء على مسألتين أساسيتين، هما:

١. ما المقصود من البيوت في الآية؟

٢. في تفسير قوله تعالى: ﴿أَذِنَ الله أَن ترفع﴾.

أمّا المسألة الأُولى: فقد اختلف المفسّرون في تفسير «البيـوت» حيث اختار كلّ واحد منهم أحد المعاني التالية:

الف: المقصود بها المساجد الأربعة خاصّة.

ب: المقصود بها مطلق المساجد في العالم.

ج: المقصود بها بيوت النبي الأكرمﷺ خاصّة.

د: المقصود بها المساجد وبيوت النبيﷺ.

والـذي يظهـر انّ الاحتمال الثـالـث هـو الاحتمال الصحيح من بين جميع

---

١. النور:٣٧.

الاحتمالات، والشاهد على صحّته:

١. ورد في المجامع اللغوية أنّ «بيوت » جمع «بيت» بمعنى المنزل والمسكن.

قال ابن منظور: بيت الرجل، وبيته قصره.[١]

وقال الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل.[٢]

وعلى هذا يكون تفسير «البيوت» الوارد في الآية «بالمساجد» التي هي أماكن العبادة العامّة لا محل إقامة الرجل ليلاً، غير صحيح. وعلى فرض صحّة هذاالتفسير يكون المفهوم بعيداً جداً لا يمكن أن يسبق إلى الذهن بدون قرينة تدلّ على ذلك.

وبعبارة أوضح: انّ كلمة «بيت» مشتقة من «البيتوتة» بمعنى «الإقامة في المكان ليلاً».

قال في المنجد: بات و بيتوتة في المكان: أقام فيه الليل.[٣] وإذا ما أُطلق لفظ «البيت» على «مسكن الرجل ومنزله»فبسبب انّ الرجل يقضي ليله عادة في ذلك المكان حتى يصبح.

ومع الأخذ بعين الاعتبار المعنى اللغوي لهذا المصطلح، فمن غير الصحيح تفسيره حينئذٍ بالمسجد أو المساجد من دون نصب قرينة تدلّ على ذلك.

٢. انّ من يمعن النظر في آيات الذكر الحكيم يجد انّها إذا أرادت التعبير عن دور العبادة العامة للمسلمين تأتي بمصطلح «مسجد» أو «المساجد»، ومن

---

١. لسان العرب: ٢/ ١٤، مادة «بيت».

٢. مفردات الراغب: ٦٤ مادة «بيت».

٣. المنجد في اللغة: مادة« بيت».

هنا نجد أنّ هذه المصطلحات قد تكرّر ذكرها في القرآن الكريم٢٨مرة .

وأمّـــا إذا أرادت التعبير عن «المسكن» أو «المأوى» فتستعمـل مصطلح «بيت» أو «البيوت».

ومن هنا نجـد انّ هذه المصطلحات قـد جاءت في الذكـر الحكيم ٦٦ مرّة بهذا المعنى .

من هنـا نصل إلى النتيجـة التـاليـة: وهي أنّ القـرآن الكـريم لم يستعمل مصطلح «البيت» و مصطلح «المسجـد» بمعنى واحـد، وكلّ من يحاول أن يَعـدّ المصطلحين مصطلحاً واحداً، فقد جاء عن غير طريق، وقال من دون دليل.

نعم، قـد يقـال: انّ القرآن الكـريم أطلق لفظ البيت على الكعبـة المشرّفـة حيث قال تعالى:

﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَـةَ الْبَيْتَ الحَرامَ قِيـامـاً لِلنّـاسِ وَالشَّهْـرَ الحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالقَلائِد...﴾.[1]

والجواب: انّ هـذه التسمية لم تنطلق مـن كون الكعبـة المشرفـة بيتاً لعبـادة الموحّدين، وذلـك لأنّنا نعلم أنّ الكعبة هـي «قبلة» الموحّدين لا بيـت عبادتهم، ومن هنا تكون هذه الإضافـة والنسبة من باب التعظيم والتقديس لهذه البقعة من الأرض، وكأنّها بيت لله حقيقة، وبيت الله تعالى يستحقّ التعظيم والتقديس.

٣. انّه يوجـد بين «البيت» و «المسجد» فرق وتفاوت جـوهري، وذلك لأنّ البيت يطلق على البناء المكوّن من الجدران الأربعـة والمسقّفة،والحال أنّه يكفي في إطلاق المسجد على المكان الذي يحاط بجـدران أربعة فقط ولا يشترط فيه وجود

---

١. المائدة:٩٧.

السقف.

ويشهد على حاجة البيت إلى السقف قوله تعالى:

﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النّـاسُ أُمّةً واحِدةً لَجَعلْنا لِمَنْ يَكْفُـرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فضَّةٍ ومعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ .[١]

ومن الواضح أنّ الآية تشير إلى أنّ مفهوم البيت يتقوّم ــ خلافاً للمسجد ـ بوجود السقف، وأنّه من الممكن أن يميّـز الله الكافرين من المؤمنين بأن يمكّن الله الكافرين من الأُمـور المادية بنحو يجعل لبيوتهم سقفاً من فضة،ولكنّـه سبحانه لم يفعل ذلك لمصالح اقتضت ذلك.

٤. روى الحافظ السيـوطي قال: أخـرج ابن مـردويه، عن أنس بن مـالك وبريدة: أنّ رسول الله ﷺ قرأ هـذه الآية: ﴿في بُيُوتٍ أَذن الله أَن تـرفع﴾ فقام إليه رجل، قال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر، وقال: يا رسول الله، وهذا البيت منها؟ ـ مشيراً إلى بيت علي وفاطمة ـ فقال رسول الله ﷺ: «نعم ومن أفاضلها».[٢]

وقد روي عن الإمام أبي جعفـر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام: أنّ المقصود بيوت الأنبياء، وبيوت علي عليه السلام.[٣]

فهذه القـرائن لو أمعن المفسّـر النظر فيهـا لأذعن بأنّ المراد من مصطلح «البيـوت» الوارد في سـورة النـور هـو بيوت الأنبيـاء،وبيت النبي الأكـرم، وبيت علي عليه السلام، وبيوت الأولياء والصـالحين التي امتازت بفضيلة ومنزلـة خاصّة بسبب

١. الزخرف:٣٣.

٢. الدر المنثور:٦/ ٢٠٣.

٣. البرهان في تفسير القرآن:٣/ ١٣٧.

ظاهـرة التحميد والتسبيح والتهليل التي يقوم بها أصحابها الـذين وصفتهـم الآية بقولها: ﴿لا تُلْهيهِمْ تِجـارةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْـرِ الله﴾ الأمـر الـذي أدّى إلى أن يأذن سبحانه وتعالى برفعتها وتشريفها، فقال: ﴿أَذن أَن ترفع﴾.

وهناك شاهد واضح يشهد على أنّ المراد من البيوت في الآية المباركة بيوت العترة الطاهرةعليهم السلام، وهذا الشاهد يتمثّل في الآيتين المباركتين التاليتين:

الف: قال تعالى مخاطباً آل إبراهيمعليه السلام:

﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ﴾.(١)

ب: قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.(٢)

ولكن قد يقـال: إنّ ذيل الآية الذي جـاء فيه قولـه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوّ والآصال﴾ قـرينـة على أنّ المراد من البيوت هي المسـاجـد، لأنّ مسلمي صدر الإسـلام كانـوا جميعاً يؤدّون صلـواتهم في المسجد، ومن الطبيعي أنّ إقـامة الصلاة ملازمة للتسبيح والتهليل والتكبير.

ويرد على هذا الرأي: انّه تصوّر خاطئ،وذلك لأنّ الصلاة التي كانت تقام في المسجد هـي الصلوات الـواجبة، وأمّا الصـلاة المستحبة فقـد كانـت تؤدّى في البيوت، حيث وردت الروايات الكثيرة التي تحثّ المسلمين على تقسيم صلاتهم إلى طـائفتين: طائفـة تُصلّى في المسجـد وهي الصـلاة الـواجبة،وأُخـرى تصلّى في البيـوت، وهي الصـلاة النـافلـة (المستحبـة). ثمّ إنّ المستشكل غفل عن نكتـة

---

١. هود:٧٣.

٢.الأحزاب:٣٣.

أساسية ومهمة وهي أنّ بيوت الأنبياء والأئمّة والصالحين لا تقلّ عن المساجد في التسبيح والتهليل، فإنّهم عليهم السلام فيها بين قائم وراكع وساجد، وذاكر وقارئ للقرآن آناء الليل وأطراف النّهار.

ولكي نرفع الشك والوهم عن أذهان البعض حول الرأي الذي ذكرناه، نذكر نماذج من الروايات التي وردت في هذا المجال.

فقد عقد مسلم في صحيحه باباً لاستحباب إقامة النافلة في البيت، روى فيه الأحاديث التالية:

أ. عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً».

ب: عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صلّوا في بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً».

ج: عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، فإنّ الله جاعل في بيته من صلاته خيراً».

د: عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحيّ والميت».

هـ: وعن زيد بن ثابت في حديث: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنّ خير صلاة المرء في بيته، إلاّ الصلاة المكتوبة».[1]

و: روى أحمد أنّ عبد الله بن سعد سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أيّما أفضل: الصلاة في بيتي أو الصلاة في المسجد؟ فقال: «فقد ترى ما أقرب بيتي من

١. صحيح مسلم: ٢/ ١٨٧ـ ١٨٨، باب استحباب صلاة النافلة في البيت.

المسجد، ولئن أُصلّي في بيتي أحبّ إليّ من أن أُصلّي في المسجد إلاّ أن تكون صلاة مكتوبة».[١]

فهذه القرائن المؤكّدة ترفع الستـار عن وجه المعنى؛ فإنّ المراد من الآية هو بيوت الأنبياء وبيوت النبي الأكرم ﷺ وبيت علي عليه السلام وماضاهاها، فهذه البيوت لها شأنها الخاص؛ لأنّها تخصُّ رجالاً يُسبّحونه ليلاً و نهاراً، غُدُوّاً وآصالاً، يَعيش فيها رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكـر الله و إقام الصـلاة و إيتاء الزكـاة وقلوبهم مليئة بالخوف من يوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

ما هو المراد من الرفع الوارد في الآية؟

قـد تعرفنـا على المقصود من مفهـوم «البيوت» المذكـور في الآية الشريفـة، وحان الوقت لتسليط الضوء على المفهوم الثاني الوارد فيها أيضاً، لنرى ما هو المراد منه؟

لقد ذكر المفسّرون للرفع المعنيين التاليين:

الأوّل: انّ المراد من «الرفع» هـو «البناء» بشهـادة قولـه تعالى: ﴿**ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها* رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها**﴾.[٢]

الثاني: المراد هو تعظيمها والرفع من قدرها.

قال الزمخشري: ترفعها: إمّا بنـاؤها، لقوله تعالى: ﴿**رَفَعَ سَمْكَها فَسواها**﴾، و﴿**إِذْ يَـرْفَعُ إِبراهيمُ القَـواعِـدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسماعيلُ**﴾ [٣]، أمـر الله أن تبنى؛ وإمّـا

١. مسند أحمد: ٤/ ٣٤٢.

٢. النازعات: ٢٧ـ٢٨.

٣. البقرة: ١٢٧.

تعظيمها، والرفع من قدرها.[١]

ولقد اختار الكثير من المفسّرين المعنى الثاني للرفع.[٢]

ومن الواضح: انّ المراد من رفع البيوت ليس إنشاءها، وذلك لأنّ المفروض أنّ الآية المباركة تتحدّث عن بيوت مبنيّة ومعدّة مسبقاً، بل المراد هو الرفع المعنوي، والحفاظ على مكانة ومنزلة تلك البيوت وقداستها، وصيانتها من الاندثار، وذلك إكراماً منه سبحانه لأصحابها الذين أضفوا عليها تلك القداسة ومنحوها تلك المنزلة الرفيعة، من خلال تهجّدهم آناء الليل وأطراف النهار، وتلاوتهم لكتاب الله سبحانه وتعالى، وتسبيحهم وتحميدهم وتهليلهم.

والكلّ منّا يعلم أنّ الرسول الأكرم قد دفن في نفس تلك البقعة التي طالما ناجى فيها ربّه وتهجّد فيها وقام راكعاً وساجداً يخشى الله واليوم الآخر، ومن هذا المنطلق الذي جاءت به الآية الكريمة، تكون تلك الدار ذات قداسة ومنزلة خاصّتين يفرضان على المسلم احترامها والمحافظة على رفعتها وقداستها وتعظيمها والرفع من قدرها، بالإضافة إلى صيانتها عمّا يشينها من الدمار والتخريب والإهمال و....

بل انّ قسماً من بيوت المدينة المنوّرة كانت مراقد وقبوراً لكبار الصحابة والشخصيات الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء يمكن الإشارة إلى الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها فإنّها ـ وحسب رواية الكليني[٣] ـ قد دفنت في دارها التي مازالت قائمة حتى الآن.

١و٢. الكشاف:٢/ ٣٩٠بتصرف. وانظر : جامع الأحكام:٢/ ٢٢٦؛ و روح البيان:٦/ ١٥٨.

٣. انظر الكافي:١/ ٤٦١.

وإذا خرجنا من المدينة إلى العراق واتّجهنا صوب سامراء نجد الإمامين العسكريين: الهادي والعسكري عليهما السلام هما أيضاً دفنا في نفس الدار التي كانا يعبدان الله فيها تالين لكتابه، مبتهلين إليه سبحانه بالدعاء والتضرّع، قائمين الليل وصائمين النهار، من هنا تكتسب تلك الدار نفس المنزلة التي جاءت في الآية المباركة، فلا يحق بحال من الأحوال ـ وتحت أيّ ذريعة كانت ـ التجاوز على تلك الدار المقدّسة وهدمها أو الاعتداء عليها بما يتنافى ومضمون الآية الشريفة.

وهكذا الأمر في محلّة بني هاشم في المدينة المنوّرة التي كانت تضم بيوت كلّ من الحسن والحسين عليهما السلام ومدرسة الإمام الصادق عليه السلام. ولقد وفّق الله كاتب هذه السطور للتشرّف بزيارة تلك البيوت الشريفة، ولكن ولشديد الأسف ـ تحت ذريعة توسيع المسجد النبوي ـ تعرّضت تلك البيوت الطاهرة للهدم والاندثار والمحو من الخارطة، في الوقت الذي كان بإمكان المسؤولين هناك توسيع المسجد النبوي مع المحافظة على تلك الآثار المهمّة وصيانتها.

٢

مودّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

لا ريب أنّ مودّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من الأُصول المؤكّدة في الشريعة الإسلامية، وقد وردت في هذا المجال الكثير من الآيات والروايات التي أكّدت ذلك المفهوم ورسّخته في أوساط المسلمين. بل نجد القرآن الكريم يذهب إلى أبعد من ذلك بحيث يعتبر الإيمان المنجي في الآخرة والباعث على الفوز بالجنة والرضوان، هو الإيمان المقرون بحب الله سبحانه وحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وموالاتهما والجهاد في سبيله، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَموالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الفاسِقِينَ﴾ .[١]

فقد أشارت الآية المباركة إلى ثلاثة موضوعات أساسية تربط الإنسان بها

---

١. التوبة: ٢٤.

رابطة خاصّة وتشدّه إليها آصرة قوية، وهذه الأُمور الثلاثة عبارة عن:

أ. الأهل والأرحام.

ب. الأموال والعقارات.

ج. التجارة والمعاملات.

ثمّ تشير الآية إلى مفهوم أساسي ومعيار دقيق وهو: انّ المؤمن الحقيقي الذي عجن الإيمان بدمه ولحمه وجميع مشاعره هو الذي يقدّم مودة الله وحبه وحب رسولهﷺوالجهاد في سبيله على جميع تلك العلاقات والروابط مهما كانت شدّتها وقوّتها، وحينئذٍ ترسم الآية للمؤمنين الطريق وتبينّ لهم الميزان الذي على أساسه تقاس درجة الإيمان والإخلاص لله سبحانه.

ثمّ إذا ألقينا بنظرنا على القرآن الكريم تصادفنا تلك الآية المباركة التي تعلمنا الطريقة التي نرد بها الجميل إلى الرسول الأكرمﷺحيث تحصر ذلك في وسيلة واحدة، وهي موالاة آل الرسولﷺوحبهم واحترامهم، قال تعالى:

﴿قُلْ لاٰ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾.[1]

وقد أشار الرسول الأكرم إلى نفس المعنى، وأكّد ذلك المفهوم بقولهﷺ:

«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما...».[2]

ثمّ إنّ الروايات الحاثّة على محبّة أهل البيتعليهم السلام وموالاتهم كثيرة لا يسع المجال هنا لذكرها جميعاً، ولذلك سنكتفي بذكر نموذجين من تلك الروايات

---

١. الشورى:٢٣.

٢. جامع الأُصول:١/ ٣٧، الحديث ٢٢. وانظر الحديثين ٢٠ و ٢١.

التي تـؤكّـد على بيـان المنهجية والطـريقـة التي يمكن من خـلالها امتثـال هـذه الفريضة الإلهية المتمثّلة في مودة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ الإنسـان المسلم إذا أراد الوصـول إلى تحقيق ذلك الأمر الإلهي وامتثـال تلك الفريضة السماوية يوجد أمامه طريقان ينبغي عليه سلوكهما، هما:

الطريق الأوّل: أن يسعى إلى أن يكـون ذا شخصية متـوازنـة قولاً وعمـلاً، بمعنى أنّه يعتمد في منهج حياته السير وفقاً لأوامـر الله سبحانه ونواهيه التي جاء بها الرسول الأكرم. وأن يكون قوله مطابقاً لعمله، بنحو لا يكون هناك انفصام في شخصيته وتنـاقض في سلوكـه من خلال مخالفة فعلـه لقولـه، فإذا كان ينطلق في سلوكه من حبّ الله ورسوله، فلابدّ أن يجسّد جميع التعاليم والإرشادات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله في حركته وبرنامج حيـاته، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، إذ من المستحيل الجمع بين المودة والحب والمخـالفـة والعصيـان، ومن هنـا قيل: «الحبّ الاتّباع» بمعنى أنّ الحب يلازم الانقياد والاتّباع للمحبوب.

ولقد استشهد الإمام الصادق عليه السلام ـ لتأكيد هذا المفهـوم الإسلامي الدقيق و الفصل بين الحبّ الـواقعي والمودة الحقيقيـة، وبين التظاهـر بـالحب والموالاة ـ بالأبيات التالية:

تعصي الإله وأنت تُظهر حُبّه؟! ‏ ‏ ‏ هـذا محـال فـي الفعال بديعٌ!
لو كان حبّك صـادقـاً لأطعتـه ‏ ‏ ‏ إنّ المحـبّ لمن أحـبّ مطيـع[١]

الطريق الثاني: إظهار الحب وإبراز المودة في المناسبات المختلفة، وذلك من خلال:

ألف: الفرح لفرح المحبوب، والحزن لحزنه.

---

١. سفينة البحار: مادة« حبب».

ب: إقامة مجالس السرور والفرح، كالاحتفال بمناسبة ولادة الرسول الأكرم ﷺ أو بعثته، أو... .

ج: نشر أفكاره ﷺ وتعاليمه وخطبه وأحاديثه في أوساط الأُمّة.

د: صيانة آثاره ومعالمه وكلّ ما يمّت إليه ﷺ من الاندثار والإبادة.

هـ: الاهتمام بمشهده المقدّس ﷺ والبناء على قبره الشريف بنحو يكون رمزاً ومعلماً إسلامياً بارزاً.

ولا ريب أنّ القيام بتلك الأفعال ونظائرها من الأُمور المشروعة والجائزة، تجاه الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته، يُعَدّ نوعاً من أنواع إظهار الولاء والحبّ له ﷺ ولأهل بيته ﵈.

وقد روى الترمذي في سننه الرواية التالية:

«انّ النبي ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين، وقال: من أحبّني وأحبّ هذين الغلامين وأباهما وأُمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة».[١]

والكلّ يعلم أنّ السبط الأكبر للرسول الأكرم الحسن المجتبى ؑ قد دفن في المدينة المنوّرة في مقبرة «البقيع»، وأمّا السبط الشهيد الحسين ؑ فقد دفن في كربلاء المقدّسة حيث موقع شهادته وأهل بيته وأصحابه الميامين الذين سقوا بدمائهم الزكية شجرة الإسلام النامية وحفظوها من الذبول والموت.

ومن الجلي لكلّ منصف ـ بعيداً عن التعصب والأحكام المسبقة ـ انّ بناء القباب على تلك القبور التي ضمّت جسدي ريحانتي الرسول الأكرم وأحبّ الخلق إليه بعد أُمّهما وأبيهما، يُعدّ نوعاً من إظهار الولاء والحب وإبراز المودة

١. جامع الأُصول:٩/ ١٥٧، الحديث٦٧٠٦.

للسبطين عليهما السلام، وفي نفس الوقت امتثالاً لقوله تعالى:

﴿قُلْ لاٰ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُربىٰ﴾.[1]

وممّا لا ريب فيه أبداً انّ من يقوم بهذا العمل المبارك سيحظى بالثواب الذي وعد به جدهما الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «...كان معي في درجتي يوم القيامة».

إنّ الشعوب الحيّة والأُمم المتطورة في العالم تسعى إلى الحفاظ على كلّ ما يمتّ إلى شخصياتهم الوطنية ورموزهم (العسكرية،والسياسية، وروّاد الإصلاح في الحقول الثقافية وغيرها) وتستفيد من كلّ السبل والوسائل كي تبقى تلك الشخصيات حيّة ماثلة للعيان أمام أنظار العالم.

ومن هنا تراهم يقومون بأداء أفضل مراسم التشييع والتوديع لتلك الشخصيات، ويدعون إليها ساسة العالم والشخصيات الثقافية والعلمية وغيرها، كما أنّهم يسعون وبجد لاختيار أفضل الأماكن لدفن تلك الشخصيات فيها ثمّ القيام بتشييد البناء عليها ووضع النصب التذكارية لها، ليكون ذلك وسيلة لاستمرار تواجد تلك الشخصيات الوطنية وحضورها بين أوساط الأجيال القادمة.

ومن هنا ينبغي علينا نحن المسلمين، الذين تضرب جذورنا في إعماق التاريخ الإسلامي أن نكون مثالاً للأُمّة الحيّة والشعوب المتطوّرة في الحفاظ على تراثنا واحترام شخصياتنا التاريخية على جميع المستويات، وأن نسعى بكلّ الطرق والوسائل إلى الحفاظ عليها حيّة فاعلة في أوساطنا الحاضرة وأجيالنا القادمة من خلال بناء القباب الشاهقة والمنائر الرفيعة وسائر وسائل التكريم والإحياء.

---

١. الشورى:٢٢.

٣

مشاهد الأنبياء عليهم السلام وسيرة الموحّدين عبر القرون

لقد ازدهـرت ظاهرة السيـاحة والسفر في أوساط الشعـوب كافّة وخـاصّة بالنسبة إلى الأمـاكن التي تضم قبور الأنبياء والصالحين من أبنـائهم، الأمر الذي يعكس الأهميـة الخاصة التي يـوليها أتبـاع الرسل والأنبيـاء لتلك الآثار والمراقـد المشرّفة، والاهتمام الجاد والسعي المتواصل لصيانتها وحفظها من عوامل التخريب والاندثار،وذلـك من خلال بناء القباب الشـاهقة والأبنية المزيّنة بأنـواع الزخارف والنقوش الجميلة.

ولا زالت تلك المشـاهد عـامرة ومـاثلة للعيـان بعمارتها الجميلة وزخـرفتها الـزاهيـة أمـام أعين الجميع في كـلّ من: العـراق، وسـوريـة، والأردن، وفلسطين المحتلة، ومصر، وإيـران، والتي مازالت يقصـدها الكثير من الـزوّار والسوّاح من جميع أقطار المعمورة.

ولقد حدّثنا التاريخ أنّ الجيوش الإسلامية المحررة حينما فتحت بلاد الشام لم تتعرض إلى تلك القبور المشرّفة للأنبياء بأيّ سوء، ولم ينقل لنا التاريخ أيّة محاولة إساءة أو اعتداء على تلك البقاع الشريفة، بـل لم يُبدِ المسلمون أيّة ردّة فعل سلبية

اتجاهها، فأقرّوا خدمتها والمشرفين عليها على ما هم عليه، وأوصوهم بالحفاظ عليها وصيانتها،فلو كان البناء على قبور الأنبياء والأولياء حراماً ومنافياً للتوحيد وشركاً به سبحانه لسعى المسلمون الفاتحون ـ و بأمر من الخلفاء ـ لتخريبها وإزالتها من الوجود ولم يتركوا لها أثراً يذكر،والحال أنّنا نجد المسلمين لم يتعرّضوا لها ولو بأدنى تعرّض أو تصرّف، فأبقوها كما هي عليه من دون أيّ تغيير. ولقد بقيت تلك القباب الشاهقة والمنائر المزيّنة عامرة إلى هذه اللحظة حيث تحظىٰ باهتمام خاص وعناية فائقة من الموحّدين في جميع أقطار العالم.

أضف إلى ذلك: أنّ المسلمين قد واروا الجسد الطاهر للرسول الأكرمﷺ في بيته المسقف ولم يخطر ببال واحد من الصحابة الكرام أنّ البناء على القبر أمرٌ محرم ينبغي الاجتناب عنه والتصدّي له! بل نجد سيرتهم قائمة على الاعتناء بتلك الحجرة الشريفة بشتّى الأساليب والطرق.

ثمّ إنّ كتب التاريخ والرحلات التي قام بها بعض علماء المسلمين والتي دوّنوا فيها مشاهداتهم، نقلت لنا صورة بهيّة لمئات المراقد و الأضرحة المجلّلة الموزعة في أرض الوحي وباقي البلاد الإسلامية، نكتفي بذكر بعض تلك المشاهدات، لأنّ ذكر الجميع يحتاج إلى تصنيف مفرد.

١ . كلمة المسعودي في حقّ قبور أئمّة أهل البيت عليهم السلام

هذا هو المسعودي الذي توفّي عام (٣٤٥هـ)، وقد أدرك خير القرون كما يقولون، وولد في أواخره ـ إذا كان خير القرون هو القرون الثلاثة الأُولى ـ يقول:

وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة مكتوب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأُمم ومحيي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول

الله ﷺ سيدة نساء العالمين وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد.[١]

وبالرغم من أنّ المسعودي كان من رجال القرون التي تعدّها السلفية المتعصبة من خير القرون، وانّ الأعمال التي راجت بين المسلمين في تلك القرون تكتسب مشروعيتها من كونها وقعت في تلك البرهة التي وصفت بأنّها خير القرون، مع ذلك كلّه ـ وللأسف الشديد ـ نجد أنّ تلك الرخامة التي تحدّث عنها المسعودي قد دفنت تحت أطنان التراب بسبب النهج الوهابي الخاطئ، فلا تجد لها اليوم أثراً في أوساط المسلمين.

٢. الرحّالة ابن جبير والأبنية على المشاهد

هذا هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الشاطبي، أحد علماء الأندلس الأكابر في الفقه والحديث يحكي لنا في رحلته عن الأبنية الرفيعة والقباب العالية في المشاهد والمزارات المعروفة يومذاك للأنبياء والصالحين والنبي الأكرم ﷺ وأهل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان.

فقد قام برحلات ثلاث، أهمّها استغرقت أكثر من ثلاث سنوات ، حيث بدأها يوم الاثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨هـ، وختمها في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٥٨١ هـ، وقد وصف في هذه الرحلة ما مرّ به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان.

كما وعنى عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الأنبياء والأولياء وأهل البيت والصحابة والتابعين، وصفاً دقيقاً، يعرب عن أنّ

---

١. مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢/ ٢٨٨.

هـذه القبـاب والأبنيةالـرفيعـة شُيّـدت من قبل قرون تتصل إلى عصر الصحـابـة والتابعين.

ولم يكن يومذاك أيّ معترض على بنائها فوق قبور هؤلاء، ولم يدر بخُلد أحد أنّ هـذه القباب والأبنيـة ستبعدنـا عن التـوحيد، بل كـانوا يتبرّكـون بهذا العمل ويبدون ما في مشاعرهم من ودّ وحبّ لأصحابها.

وكان التبرّك والتقبيل سنّـة رائجة بين المسلمين، وهم لم يكونوا يقبّلـون باباً ويتبرّكون بجدار،بل يتبرّكون بمن حوتهم، على حدّ قول مجنون بني عامر:

أمـرُّ على الـديـار ديـار ليلـىٰ ... أقبّل ذا الجـدار وذا الجـدارا

ومـا حبّ الـديار شغفـن قلبي ... ولكن حبّ من سكن الديارا

وفيما يلي نشير بشكل مقتضب إلى مجمل كلامه.

مشهد رأس الحسين بالقاهرة

يقول ابن جبير في ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة: فأوّل ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهـد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عزّوجلّ، فمن ذلك المشهد العظيـم الشأن الذي بمدينـة القاهـرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالـب، رضي الله عنهما، وهـو في تابوت فضـة مدفون تحت الأرض، قـد بُني عليه بنيان جميل يقصر الوصف عنه، ولا يحيط الإدراك به....

إلى أن يقول: ومن أعجب ما شـاهدناه في دخولنا إلى هـذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلّها، كأنّه المرآة الهندية الحديثة الصقل.

وشاهدنـا من استلام الناس للقبر المبارك،وإحداقهم بـه، وانكبابهم عليه،

وتمسّحهم بالكسوة التي عليه،وطوافهم حوله، مزدحمين داعين باكين متوسّلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدّسة،ومتضرّعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم، ومرأىٰ الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم.(١)

القباب الرفيعة لأهل البيت في مكة المكرمة

وعن مشاهد مكة المكرمة يقول ابن جبير: فمن مشاهدها التي عايّناها قبّة الوحي، وهي في دار خديجة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها،وبها كان ابتناء النبيﷺ بها، وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفيها أيضاً وَلَدَتْ سيدي شباب أهل الجنة،الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهذه المواضع المقدّسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبيﷺ والتربة الطاهرة التي هي أوّل تربة مسّت جسمه الطاهر بُني عليها مسجد لم يُر أحفل بناءً منه،أكثره ذهب منزّل به،والموضع المقدّس الذي سقط فيهﷺساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأُمّة أجمعين محفوف بالفضة.

ثمّ يعد بعض المشاهد فيقول: دار الخيزران،وهي الدار التي كان النبيﷺ يعبد الله فيها سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم.(٢)

ولو أردنا استعراض كلّ ما ذكره ابن جبير في رحلته حول مقامات ومشاهد

---

١. رحلة ابن جبير:١٨ـ١٩.

٢. رحلة ابن جبير: ٨١ـ ٨٢.

العلماء والصالحين والشهداء في العراق والشام، لطال بنا المقام ولذلك نكتفي بما نقلناه، ومن أراد التفصيل فعليه بمراجعة المصدر.[١]

٣. كلام الحافظ محمد بن محمود بن النجار(٥٧٨ـ ٦٤٣هـ)[٢]

وللرحالة المعروف ابن النجار كلام في هذا المجال منه ما يلي:

والقبران (أي قبر العباس بن عبد المطلب وقبر الحسن بن علي ومعه السجاد والباقر والصادق عليهم السلام) في قبّة كبيرة عالية قديمة البناء في أوّل البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما للزيارة رضي الله عنهم.[٣]

هذه مجموعة من النماذج التي اخترناها من بعض كتب التاريخ والرحلات،ومن يراجع كتب الرحلات يصل إلى نتيجة قطعية بأنّ البناء على قبور الأنبياء والأولياء والصالحين كانت سنّة رائجة في أوساط الموحّدين من أبناء الأُمّة الإسلامية.

٤. ابن الحجاج والقبة البيضاء على قبر الإمام علي عليه السلام

إنّ الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بابن الحجاج البغدادي أحد الشعراء

---

١. ما يتعلّق بالمشاهد في مصر انظر الصفحات: ١٩ـ ٢٤، وفي مكّة المكرمة الصفحات: ٨٧، ١٤١، ١٤٢، وراجع ما يخص المدينة المنورة الصفحات: ١٧٣ـ ١٧٤، وأمّا الكوفة ففي الصفحات: ١٨٧ـ ١٩٨،وأمّا مشاهد بغداد ففي ٢٠٢، وأمّا مشاهداته في الشام ففي الصفحات: ٢٤٦ـ ٢٤٩ و ٢٥٣ـ ٢٥٤، من كتابه «رحلة ابن جبير».

٢. ولد الرحّالة المعروف ابن النجار في بغداد، وبدأ رحلته التي استغرقت سبعة وعشرين عاماً من العراق مرّ خلالها بالشام ومصر والحجاز وبلاد فارس.

٣. أخبار مدينة الرسول:١٥٣.

المفلقين في القرنين الثالث والرابع(المتوفّى ٣٩١هـ) أنشأ قصيدته الفائيّة في مدح الإمام أمير المؤمنين،وأنشدها في الحضرة العلوية عندما زارها يقول في مستهلّها:

يا صاحب القبّة البيضاء على النجف

من زار قبرك واستشفى لديك شُفي

زوروا أبا الحسن الهادي لعلّكم

تحظون بالأجر والإقبال والزُّلفِ[1]

والقصيدة تعرب عن وجود البناء والقبّة البيضاء على القبر، والتفاف الزائرين حوله في عصره، ومع ذلك يدّعي بعض الوهّابيين، أنّ البناء على القبور لم يكن في خير القرون وأنّه من البدع المستحدثة.

والعجيب هنا، هو أنّ من النظريات المطروحة في «علم أُصول الفقه» انّ اتّفاق الأُمّة وفي أيّ قرن كان على حكم من الأحكام، علامة على صحّة ذلك الحكم واعتباره الشرعي، وقد أطلقوا على هذا الاتفاق مصطلح «الإجماع» ولكن مع هذا كلّه نجد أنّ هناك حركة نشأت في أوساط الأُمّة الإسلامية لا تُعير أيّ أهمية لإجماع الأُمّة الإسلامية، لا في قرن واحد فحسب، بل على طول قرون متمادية من تاريخ الإسلام.

والأعجب من ذلك انّ أصحاب هذه الحركة لم يقدّموا دليلاً قوياً وبرهاناً محكماً على رفضهم لهذا الإجماع وخروجهم عن الخط العام لكافّة المسلمين!!

---

١. اقرأ ترجمته في يتيمة الدهر:٣/ ٣٥، معجم الأُدباء:٤/ ٦، المنتظم:٧/ ٢١٦؛ تاريخ بغداد:٨/ ١٤؛ وفيات الأعيان:١/ ١٦٨؛ الكامل لابن الأثير:٩/ ٦٣ إلى غير ذلك من مصادر الترجمة.

٤

البناء على القبور ومنطق المخالفين

لقد استعرضنا الأدلّة المحكمة من الكتاب والسنّة والسيرة العملية للمسلمين والتي تؤكد جميعها شرعية البناء على القبور وصيانتها من الاندثار، والاهتمام بها بشتّى الوسائل، وقد حان الوقت لعطف عنان القلم للحديث عن أدلّة المخالفين لهذا العمل.

إنّ من أهمّ الأدلّة التي تمسّك بها المخالفون للبناء ـ الوهابيون ـ هو رواية أبي الهياج الأسدي، ومن هنا اقتضت الضرورة أن نسلّط الضوء على هذه الرواية بالبحث والتحقيق سنداً ودلالة، لنرىٰ مدىٰ مقاومتها أمام النقد العلمي والبحث الموضوعي.

رواية أبي الهياج الأسدي

لقد تمسّك بها المخالفون للبناء على القبور، واعتبروا ذلك عملاً محرّماً منافياً للتوحيد، وقاموا على أثر ذلك بالاعتداء على مقبرة البقيع بهدم قبور أئمّة الهدى في شوال عام ١٣٤٤هـ، وبعدما نفذوا ما أمرهم به مشايخهم، نشروا بياناً في جريدة

«أُمّ القرىٰ»، و فتوى بوجوب هدم القبور مستدلّين بالرواية المذكورة.

وها نحن نـذكر الرواية أوّلاً ثمّ نتعـرض لدراستها سنداً ودلالـة إن شاء الله تعالى.

نصّ الحديث

روى مسلم في صحيحه قـال: حدّثنا يحيى بن يحيى وأبو بكـر بن أبي شيبة وزهير بن الحرب،قال يحيى: أخبرنـا وقال الآخران: حدّثنـا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثـابت، عن أبي وائل، عن أبي الهياج الأسـدي قال: قـال لي عليّ بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسـول الله أن لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته.[1]

زعم المستدل أنّ معناه: ولا قبراً عالياً إلاّ سوّيته بالأرض.

أقول:الاستدلال بـالحديث فرع صحّة سنـده،وتماميّة دلالته،ولكنّه مـوهون من كلا الجانبين.

سند الرواية وأقوال العلماء فيه

أمّا السند، فيكفي أنّ علماء الرجال تحدّثوا في رجال الحديث ونقلوا تصريح الأئمّة بضعفهم،وهم عبارة عن :

١. وكيع.

٢. سفيان الثوري.

---

١. صحيح مسلم:٣/ ٦١، كتاب الجنائز؛سنن الترمذي:٢/ ٢٥٦، باب ما جاء في تسوية القبور؛ سنن النسائي:٤/ ٨٨، باب تسوية القبر.

٣. حبيب بن أبي ثابت.

٤. أبو وائل الأسدي.

وإليك أقوال العلماء في حقّهم:

١. وكيع

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي الكوفي، روى عن عدّة، منهم: سفيان الثوري، وروى عنه جماعة منهم: يحيى بن يحيى، وهو كما ورد في حقّه المدح، ورد في حقّه الجرح كثيراً،وهذا ابن حجر يعرّفه في «تهذيب التهذيب»، بالنحو التالي:

عن الإمام ابن حنبل: كان وكيع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدي كثيراً.

وقال في موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيفاً من وكيع،ووكيع أكثر خطأً منه.

وقال عليّ بن المديني: كان وكيع يلحن،ولو حدّث بألفاظه لكان عَجَباً.

وقال محمد بن نصر المروزي: كان يُحدّث بآخره من حفظه، فيغيّر ألفاظ الحديث كأنّه يحدّث با لمعنى،ولم يكن من أهل اللسان.[١]

وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» بعدما مدحه: قال ابن المديني، كان وكيع يلحن، ولو حدّث بألفاظه كان عجباً.[٢]

---

١. تهذيب التهذيب:١١/ ١٢٣.

٢. ميزان الاعتدال:٤/ ٣٣٦.

٢. سفيان الثوري

هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، فقد مدحوه، ولكن الذهبي يقول: إنّه كان يدلّس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال يدلِّس ويكتب عن الكذّابين.[١]

وقال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدّث سفيان بحديث فجئته وهو يدلِّس،فلمّا رآني استحيا وقال: نرويه عليك؟[٢]

وقال في ترجمة يحيى بن سعيد بن فروخ: قال أبو بكر وسمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلِّس عليَّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه.[٣]

والتدليس هو أن يروي عن رجل لم يلقه وبينهما واسطة فلا يذكر الواسطة.

وقال أيضاً في ترجمة سفيان: قال ابن المديني، عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص ولا حيان بن إياس،ولم يسمع من سعيد بن أبي البردة،وقال البغوي: لم يسمع من يزيد الرقاشي، وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث المسائية[٤] يضع ماله حيث يشاء، ولم يسمع من خالد بن سلمة بتاتاً ولا من ابن عون إلّا حديثاً واحداً.[٥]

وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلّساً، ربّما يروي عن أُناس يوهم أنّه لقيهم ولم يلقهم ولم يسمع منهم.

---

١. ميزان الاعتدال:٢/ ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

٢. تهذيب التهذيب:٤/ ١٥ في ترجمة سفيان.

٣. تهذيب التهذيب:١١/ ٢١٨.

٤. العبد المعتق.

٥. تهذيب التهذيب:٤/ ١١٥.

٣. حبيب بن أبي ثابت

هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، وثّقه بعض، ولكن قال ابن حبّان في الثّقات: كان مدلّساً، وقال العقيلي: غمزه ابن عون، وقال القطّان: له غير حديث عن عطاء، لا يُتابع عليه وليست محفوظة.

وقال ابن خزيمة في صحيحه: كان مُدلّساً.[١]

وقال ابن حجر أيضـاً في موضع آخر: كان كثير الإرسـال والتدليس، مات سنة ١١٩هـ.

ونقل عن كتاب الموضوعات لابن الجوزي من نسخة بخطّ المنذري أنّه نقل فيه حديثاً عن أُبيّ بن كعب في قول جبرئيل: لو جلست معك مثلما جلس نوح في قـومـه مـا بلغت فضائل عمـر، وقـال: لم يُعِلْـه ابن الجوزي إلاّ بعبـد الله بن عمّار الأسلمي شيخ حبيب بن ثابت.[٢]

٤. أبو وائل الأسدي

هو شقيق بن سلمة الكوفي، كان منحـرفاً عن علي بن أبي طالـب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيّهما أحبُّ إليك عليّ أو عثمان؟ قال: كان عليّ أحبّ إليّ ثمّ صار عثمان؟[٣]

ويكفي في قدحه أنّـه كان من ولاة عبيد الله بن زياد، قـال ابن أبي الحديد:

---

١. تهذيب التهذيب:٢/ ١٧٩.
٢. تهذيب التهذيب:١/ ١٤٨.
٣. تهذيب التهذيب:٤/ ٣٦٢.

قال أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة.

هذا كلّه حول سند الرواية وهؤلاء رواتها، ولو ورد فيهم مدح فقد ورد فيهم الذم، وعند التعارض يقدم الجارح على المادح، فيسقط الحديث عن الاستدلال.

ويكفي أيضاً في ضعف الحديث أنّه ليس لراويه ــ أعني: أباالهياج ـ في الصحاح حديث غير هذا، فكيف يستدلّ بحديث يشتمل على المدلّسين والمضعّفين؟ وكيف يُعدَل بهذا الحديث عن السيرة المستمرة بين المسلمين؟!

والآن إليك بيان عدم دلالة الحديث على الموضوع بتاتاً:

ضعف دلالة الحديث

إنّ توضيح ضعف دلالة الحديث يتوقّف على بيان معنى اللفظين الواردين فيه:

١. قبراً مشرفاً.

٢. إلاّ سوّيته.

أمّا الأوّل: فقال صاحب القاموس: والشرف ـ محركة ــ العلو، ومن البعير سنامه، وعلى ذلك يحتمل المراد منه مطلق العلوّ، أو العلوّ الخاص كسنام البعير الذي يعبّر عنه بالمسنَّم، و لا يتعيّن أحد المعنيين إلاّ بالقرينة.

أمّا الثاني: فهو تارة يُستخدم في بيان مساواة شيء بشيء في الطول أو العرض، فيقال: هذا القماش يساوى بهذا الآخر في الطول.

وأُخرى في التسوية، أي كون الشيء مسطحاً لا انحناء ولا تعرّج فيه.

والفرق بين المعنيين واضح؛ فإنّ التسوية في الأوّل وصف للشيء بمقايسته

مع شيء آخر، وفي الثاني وصف لنفس الشيء ولا علاقة له بشيء آخر.

فلو استعمل في المعنى الأوّل لتعدّى إلى مفعولين: أحدهما بلا واسطة، والآخر بمعونة حرف الجرّ قال تعالى حاكياً عن لسان المشركين وأنّهم يخاطبون آلهتهم بقولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِين﴾(١)، أي نعدّ الآلهة الكاذبة مساوية لربّ العالمين في العبادة أو في الاعتقاد بالتدبير.

وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾.(٢)

أي يودّون أن يكونوا تراباً أوميتاً مدفوناً تحت الأرض، ويكونون كذلك والأرض متساوية.

ترى أنّ تلك المادة تعدّت إلى مفعولين، وأُدخل حرف الجر على المفعول الثاني. وأمّا إذااستعمل في المعنى الثاني أي فيما يكون وصفاً للشيء بلا علاقة له بشيء آخر فيكتفي بمفعول واحد، قال سبحانه: ﴿الَّذي خَلَقَ فَسَوّىٰ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿بَلَى قادِرينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقعُوا لَهُ ساجِدين﴾(٥)، ففي جميع هذه الموارد يراد من التسوية كونها وصفاً للشيء بما هوهو، وهو فيها كناية عن كمال الخلقة وأنّها بعيدة عن النقص والإعوجاج.

هذا هو مفهوم اللفظ لغة. وهلمّ معي ندرس الحديث ولنرىٰ أنّه على أيّ

---

١. الشعراء:٩٨.

٢. النساء:٤٢.

٣. الأعلى:٢.

٤. القيامة:٤.

٥. الحجر:٢٩.

من المعنيين ينطبق.

تلاحظ أنّه تعـدّىٰ إلى مفعول واحد، ولم يقترن بالباء، فهـو آية أنّ المراد هو المعنى الثاني، وهو تسطيح القبر في مقابل تسنيمه، وبسطه في مقابل إعوجاجه لا مساواته مع الأرض، وإلاّ كان عليه ﷺ أن يقول: سوّيته بالأرض ولم يكتف بقوله سوّيته.

أضف إلى ذلك: أنّ ما ذكـرناه هـو الذي فهمـه شرّاح الحديث، وهو دليل على أنّ التسطيح سنّـة والتسنيم بـدعة، وأمـر عليّ عليه السلام أن تكافح هـذه البدعة ويسطّح كلّ قبر مسنّم، وإليك ذكر نصوصهم:

١. قال القرطبي في تفسير الحديث: قال علماؤنـا: ظاهر حديث أبي الهياج منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون واطئة.[١]

أقول: إنّ دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهر، وأمّا دلالتها على عدم ارتفاعهـا كما هو ظاهـر قوله: «ومنع رفعهـا» فغير ظاهـر، بل مردود باتّفـاق أئمّة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر.[٢]

٢. قال ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخاري ما هذا نصّه:

مُسنّماً ـ بضمّ الميم وتشـديد النون المفتـوحة ـ أي: مرتفعـاً، زاد أبو نعيم في مستخـرجـه: وقبر أبي بكر وعمـر كـذلك، واستـدلّ بـه على أنّ المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية.

وقال أكثـر الشافعيـة ونصّ عليه الشـافعي: التسطيح أفضل من التسنيم؛

---

١. تفسير القرطبي: ٢/ ٣٨٠ تفسير سورة الكهف.

٢. الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٤٢.

لأنّه ﷺ سطّح قبر إبراهيم، وفعله حجّة لا فعل غيره، وقول سفيان التمّار: رأى قبر النبي مسنّماً في زمان معاوية، لا حجة فيه، كما قال البيهقي؛ لاحتمال أنّ قبره ﷺ وقبري صاحبيه لم تكن في الأزمنة الماضية مسنّمة ـ إلى أن قال: ـ ولا يخالف ذلك قول علي عليه السلام ، أمرني رسول الله أن لا أدع قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته، لأنّه لم يرد تسويته بالأرض، وإنّما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار،ونقله في المجموع عن الأصحاب.[1]

٣. وقال النووي في شرح صحيح مسلم: إنّ السنّة أنّ القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنَّم بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه؛ ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أنّ الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك.[2]

ويؤيّد ذلك أنّ صاحب الصحيح(مسلم) عنون الباب بـ«باب تسوية القبور» ثمّ روى بسنده إلى تمامه، قال: كنّا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفّي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيدة بقبره فسوّي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها، ثمّ أورد بعده في نفس الباب حديث أبي الهياج المتقدّم.[3]

وفي الختام نذكر أُموراً:

١. القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتفقت عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وكلّهم متّفقون على أنّه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر.[4]

---

١. إرشاد الساري:٢/ ٤٦٨.

٢و٣. صحيح مسلم بشرح النووي:٧/ ٣٦.

٤. الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٤٢.

ولو أخذنا بالتفسير الذي يرومه الوهابيّون من حديث أبي الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لاطئاً مساوياً معه.

٢. لو افترضنا صحّة حديث أبي الهياج سنداً ودلالة، فغاية ما يدلّ عليه هو تخريب القبر ومساواته بالأرض، ولا يدلّ على هدم البناء الواقع عليه، فتخريب القباب المشيّدة التي هي مظاهر الودّ لأصحابها استناداً إلى هذا الحديث، عجيب جدّاً.

٣. إنّ الصحابة دفنوا النبيّ الأكرم ﷺ في بيته من أوّل يوم، وقد وصّى الخليفتان بأن يُدفنا تحت البناء جنب النبيّ الأكرم تبرّكاً بالقبر وصاحبه، فلو كان البناء على القبور أمراً محرّماً ومن مظاهر الشرك؛ فلماذا وارت الصحابة جثمانه الطاهر ﷺ تحت البناء؟! ولماذا أوصى الخليفتان بالدفن تحته؟!

ولمّا واجهت الوهابية عمل الصحابة في مواراة النبيّ قامت بالتفريق وقالت: إنّ الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبيّ تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئاً.[1]

ونترك هذا الجواب بلا تعليق، إذ هو في غاية السقوط، إذ أيّ فرق بين الأمرين؟! فإنّ البناء على القبر مَدْعاة للإقبال إليه والتضرع إليه، ففيه فتح لباب الشرك ـ حسب قولهم ـ وتوسّل إليه بأقرب وسيلة....[2]

فإذا كان البناء على وجه الإطلاق ذريعة للشرك وتوجّهاً إلى المخلوق، فلماذا يُرخّص في بعض صوره ويُحرّم بعضها الآخر؟! وماهذا إلاّ لأنّ الوهابية وإن كانوا ينسبون أنفسهم إلى السلفية، إلاّ أنّ السلفية بعيدون عنهم بُعد المشرقين.

---

١. رياض الجنّة، لعقيل بن الهادي.

٢. محاسن التأويل: ٧/ ٣٠.

الفصل التاسع

الحياة البرزخيّة

الحياة بعد الموت

لم تزل مسألة الحياة ونشأتها وما تؤول إليه بعد الموت من المسائل الحيّة على طول القرون، بل من المسائل التي لازمت الإنسان منذ أن وطأت قدماه هذا الكوكب، حيث تراه يسعى وبكلّ جهد للوقوف على معالم تلك النشأة وكيفية حدوثها والتعرّف على حقيقة الموت وفلسفته، فهل الموت يمثل نهاية الحياة كسكون العاصفة الذي يعني انعدامها، أو كالمصباح الذي يخمد ضوؤه. فلم يبق من نوره وضيائه شيء بل تعقبها الظلمة الدامسة؟! أو أنّ الموت في حقيقته يمثل النافذة التي يطل منها الإنسان على محيط واسع، وفضاء رحب،وعالم ملؤه النور؟

وبعبارة أُخرى: انّ الموت يمثّل القنطرة التي يعبرها الإنسان للعيش في حياة أُخرى.

من المسلّم به أنّ المسائل والقضايا الفلسفية يمكن تصنيفها إلى صنفين، هما:

١. المسائل والقضايا التي تتوفّر على جنبة تخصّصية ، فلا يتمكّن من الخوض فيها إلاّ طائفة من ذوي الاختصاص في المباحث العقلية العليا والذين يعبّر عنهم (بالفلاسفة).

٢. المسائل والقضايا العامّة والتي عجنت في فطرة الإنسان، وهذه القضايا

يتسنّى للجميع البحث فيها والخوض في غمارها والتفكير بها.

ومن الواضح انّ قضيّة الحياة بعد الموت من مسائل الصنف الثاني، حالها حال مسألة المصير والقدر، فإنّها بالرغم من كونها من المسائل الفلسفية التخصّصية، إلاّ أنّه مع ذلك نرى أنّ الجميع يلج باب التفكير فيها وإن كان تفكيرهم وتأمّلهم في هذه الأُمور لم يوصلهم إلى نتيجة ملموسة ونظرية واضحة المعالم، وإنّما الذي يقوم بذلك الخاصة من المفكّرين من ذوي الاختصاص في البحوث العقلية والروحية، فإنّ هؤلاء هم الذي يستطيعون وببركة فكرهم الثاقب إزاحة الغبار عن الواقع، وكشف الحقيقة، ومعرفة أبعادها.

ثمّ إنّ معرفة مصير الإنسان بعد الموت رهن البحث والتحقيق في ثلاثة أُصول أساسية تتعلّق بالإنسان، هي:

١. ما هي حقيقة الإنسان وواقعه؟ فهل هو عبارة عن هيكل مادي يتكوّن من عروق وأعصاب وعظام وغيرها من الأعضاء والمكوّنات المادية، أم أنّ هناك وراء هذا المظهر المادي جوهراً آخر هو الذي يشكّل حقيقة الإنسان ويشيّد واقعه،وبه يكون الإنسان إنساناً؟

٢. ما هي حقيقة الموت؟ فهل الموت يعني انعدام الإنسان وفناءه؟ أم انّ الموت في الحقيقة يمثّل نافذة تطل بالإنسان على عالم أرحب وفضاء أوسع؟

٣. ثمّ على فرض بقاء الإنسان بعد الموت، يأتي البحث عن النقطة الثالثة وهي: هل توجد علاقة بين الحياتين (الدنيا والآخرة)؟ وماهي نوعية العلاقة بينهما، وما هي الكيفية التي تستمر على أساسها تلك العلاقة؟

وهانحن نشرع في البحث عن الأُصول الثلاثة تباعاً إن شاء الله تعالى.

الأصل الأوّل

ما هي حقيقة الإنسان وواقعه؟

هذا هو الأصل الأوّل من الأُصول الثلاثة والتي ينبغي تسليط الضوء عليها لتنجلي الحقيقة وينكشف لنا الواقع فنقول: هل انّ حقيقة الإنسان تنحصر في وجوده المادي فقط؟ أو أنّ هذا الوجود المادي يمثّل في واقعه اللباس الذي يغطي حقيقة أُخرى هي التي تشكّل واقع الإنسان وجوهره؟

وبعبارة أُخرى: هل الإنسان وجود مادّي بحت،وانّ الروح والنفس في الواقع هي انعكاس للتفاعلات المادية لا غير؟ أم أنّ للإنسان وراء الوجود المادي عالماً آخر وحقيقة وواقعية أُخرى، ويكون البدن المادّي بمثابة الآلة لتلك الحقيقة؟

ذهب الماديّون ـ الذين يرون أنّ الوجود مساو للمادة والطاقة، ولا شيء وراءه ـ إلى النظرية الأُولى وبهذا فسّروا الروح بأنّها نتاج خاص للتفاعلات المادية المتناسقة.

وبعبارة أُخرى: ذهبوا إلى أنّ الإنسان موجود آلي مركّب من عروق وعصب ولحم وعظم،وما الشعور والإحساس والعواطف ـ كالحزن والفرح والسرور

والانشراح والكآبـة وغيرها من الحالات النفسيـة ـ إلاّ نتيجـة تفاعل هـذه الأجزاء المادية بعضهـا مع البعض الآخر، وليس وراء هذا التركيب المادي أيّ وجـود آخر باسم الروح أو النفس. وقد مثّلوا ترشيـح تلك الإحساسات والمشاعر والعواطف بترشّح المواد الكيمياوية من الكبد أو الغدة الصفراء أو ترشّح اللعاب من الغدد.

ومن هنا تكون الروح ـ وفقاً لهذه النظرية ـ أثراً كيمياوياً وانعكاساً للتفاعل المادي بين أعضاء البدن، وليس للروح جوهر مستقل وحقيقة مستقلة.

أمّا النظرية الثانية ـ التي يتبنّاها الفلاسفة والمتكلّمون الإلهيّون ـ فقد ذهبت إلى أنّ الإنسان في الواقع يتكوّن من عنصرين أساسيّين: عنصر مادي،وعنصر غير مادي؛ وأنّ الذي يمثّل حقيقة الإنسان وواقعه هو البعد غير المادي فيه (أي روحه ونفسه)، وأنّ الروح جوهر مستقل ووجود منفرد، نعم تربطها بالبدن علاقة وآصرة خاصة، وذلك باعتبار انّ البدن المادي يمثّل الأداة والآلة والجهاز الذي تستخدمه الـروح للعمل والحركـة في هـذا العالم المادي. وهـذا لا يعني أنّ حقيقـة الإنسـان مكوّنـة من جسم وروح، بل أنّ الواقع فـوق ذلك، فالإنسان هـو الروح، والجسم بمنزلة الكسوة واللباس فقط.

ونحن لسنا هنـا بصدد استعراض أدلّـة أصحاب النظرية الماديـة وتحليلها ونقـدها، لأنّ ذلك خـارج عن الهدف المنشود وراء تـدوين هـذه الرسـالة، ولقـد فصّلنا البحث في هـذه المسألة وأشبعنـاها بحثـاً وتحقيقاً ونقداً في كتـابنا «أصـالة الروح في القرآن الكريم».

نعم نحـاول هنـا الإشـارة إلى بعض الأدلّـة التي أقامهـا الإلهيّـون لإثبـات نظريتهم في إثبات وجود الـروح، وأنّها هي التي تمثّل الحقيقة الإنسانية، علماً أنّهم قـد سلّطوا الأضـواء على جميع أبعاد القضيـة وأشبعوهـا بحثاً، وأقـاموا لإثبـات

مدّعاهم عشرة براهين عقلية. ولكننّا سنكتفي هنا بذكر البعض من هذه الأدلّة التي تتّصف بالشمولية والوضوح والاشتمال على الخصوصية التجريبية.

١. الشخصية الإنسانية المعبّر عنها بالـ«أنا»

كلّ إنسان على وجه المعمورة ينسب أفعاله وما يصدر منه من حركات وسكنات وانفعالات إلى موجود يُعبر عنه بالـ«أنا»، ويقول: «أنا فعلت»، «أنا كتبت»، «أنا رأيت»، «أنا سافرت» و غير ذلك، ولم يكتف الإنسان بذلك، بل تراه ينسب أعضاء جسمه إلى ذلك الموجود الذي يقع وراء المادة فيقول: «رأسي» و «قلبي» و «يدي» و «فكري» و غير ذلك.

بل يتجاوز إلى أكثر من ذلك فينسب نفس البدن بأكمله إلى ذلك الشيء غير المادي، فيقول: «بدني».

ومن هنا يطرح السؤال التالي نفسه: ما هذا المضاف إليه في جميع هذه الانتسابات من انتساب الأفعال والأعضاء والبدن بأكمله؟

وللإجابة عن هذا التساؤل المطروح نقول: إنّ كلّ قضية تتركّب من موضوع ومحمول، فبداهة العقل تحكم بأنّ لهذه المحمولات موضوعاً، وإن لم يكن مرئياً، إلاّ أنّنا ندركه من خلال تلك المحمولات، فالأفعال البشرية رغم صدورها من أعضاء مختلفة، كالإبصار بالعين، والرفع باليد، والمشي بالرجل و...، إلاّ أنّ الإنسان ينسبها جميعاً إلى مصدر واحد، هو الـ«أنا» فيقول: «أنا شاهدت» و «أنا سمعت» و....

من هنا ندرك انّ هذه المحمولات تتطلّب موضوعاً واحداً لنفسها، حتّى لا تكون تلك القضايا مجرّد انتسابات بلا موضوع، وعندئذٍ يكون هذا الموضوع

الواحد هو الشخصية الواقعية للإنسان والتي يُعبر عنها «بروحه ونفسه».

٢. ثبات الشخصية الإنسانية في دوّامة التغيّرات المادية

الشاهد الثاني والدليل الآخر على وجود الروح واستقلاليتها عن النظام المادّي، هو: انّ الإنسان يشعر ـ و في خضّم التغيرّات والتحوّلات المادية التي تطرأ على جسمه خلال مسيرته المادية ـ انّ هناك وجوداً باقياً لم يتغيّر ولم يتحوّل بالرغم من كلّ تلك التحوّلات التي طرأت على جسمه.

وبعبارة أُخرى: انّ الإنسان يمرّ في مسيرة حياته الطويلة بمراحل متعدّدة بدءاً بمرحلة الطفولة، ثمّ الصبا، والشباب، والكهولة والشيخوخة،ولكنّه مع ذلك كلّه يدرك أنّ هناك شيئاً ثابتاً وباقياً وراء ذلك كلّه لم يتغير بالرغم من جميع تلك التحوّلات، فينسب إليه التحوّلات المذكورة والمراحل المتعدّدة فيقول: أنا حينما كنت طفلاً، وأنا حينما كنت يافعاً، وأنا حينما كنت شاباً، وهكذا. فيدرك انّ هناك حقيقة ثابتة وباقية رغم التحوّلات والأطوار المتعدّدة التي مرّ بها الجسم.

فلو كانت حقيقة الإنسان تكمن في وجوده المادّي المتمثّل في الجسم، فمن المستحيل حينئذٍ الوصول إلى إدراك حقيقة الإنسان في إطار تلك التحوّلات والتغيّرات،وذلك لأنّ البدن عرضة للتحوّلات المتكرّرة والمتغيّرة، فلابدّ حينئذٍ من البحث عن حقيقة الإنسان وراء ذلك العنصر المادّي المتحوّل، ولا شكّ انّ الإنسان يدرك بوجدانه انّ هناك شيئاً وراء المادّة لم يتغيّر ولم يتحوّل، وقد انطلق معه في جميع تلك المراحل المتعدّدة،وهذا الوجود هو الذي يشكّل حقيقته وتكمن فيه ذاته.

وإذا أردنا أن نصيغ ذلك الدليل بصياغة برهانية منطقية نقول:

١. يدرك الإنسـان انّ له وجوداً ثابتـاً في خضم التحوّلات والتغيّرات يطلق عليه مصطلح الـ«أنا».

٢. انّ العنصر المادي للإنسـان عرضـة للتحوّلات والتقلّبـات عبر السنين والأيـام، وانّ جميع خلايـاه في تحوّل وتبـدّل دائمين بنحـو يستبدل الإنسـان جميع خلاياه كلّ ثمان سنين، كما أثبتت ذلك النظريات العلمية.

النتيجة: انّ «الأنـا» لا تمثّل القسم المادي من وجـود الإنسـان أبـداً، وانّما تحمل هويـة غير ماديـة ووجوداً مستقلاً، وذلك لأنّـه إذا كانت حقيقـة الإنسان كامنـة في عنصري المادة والطاقـة، فلا يمكن حينئذٍ أن تكـون للإنسـان شخصية ثابتة وحقيقة باقيـة، وذلك لأنّ عنصري المادة والطاقة في تحوّل وتغيّر دائمين، فلا يحق لأيّ محكمة في العـالم أن تقاضي إنسانـاً في سن الأربعين على جرم قـد اقترفه وهـو في سن العشرين، لأنّ الشخصية التـي اقترفت الجريمة وارتكبت الجرم قـد انـدثرت وانتهت بـالكامل ، وهـو الآن يعيش بشخصيـة أُخرى، هي شخصيـة الإنسان في سن الأربعين. والحال انّ الجميع يدركون بالوجدان انّ هناك شيئاً ثابتاً هو الـذي توجّه إليه نسبـة الجريمة واقتراف المخالفة، سـواءً كان في العشرين من العمر، أو الأربعين أو المائة، وهـذا الشيء هو الذي يمثّـل الحقيقة الثابتـة والأمر الواقعي للإنسان والذي يعبّر عنه بالروح.

٣. علم الإنسان بنفسه مع غفلته عن بدنه

أقام الفيلسوف الإسـلامي الكبير ابن سينا برهاناً على هـذه القضية نأتي به مع التصرّف في العبارة بنحو ينسجم مع أُسلوب هذا الكتاب، والبرهان يقوم على الفكرة التالية: لنفـرض إنساناً ما يعيش في حديقة غنّـاء وفضاء طلق لا يشعر فيه

بحر أو برد، ولا يوجد طائر أو حيوان أو ما شابه ذلك يعكّر عليه هدوءه، فلا طائر يصدح، ولا غراب ينعب، ولا حيوان يصيح،ولا حفيف شجر ولا تساقط ورق، ولا...، فلا يلامس أعضاءه شيء أبداً.

فإنّ الإنسان في الحالة المذكورة يغفل عن كلّ أعضائه الظاهرة والباطنة، وكونه جسماً ذا أبعاد، وحواسّه وقواه، والأشياء الخارجة عنه جميعاً، كلّ ذلك يغفل عنه،ولكنّه لا يغفل عن شيء واحد رغم ذلك كلّه، وهذا الشيء هو ثبوت ذاته، فإذاً أوّل الإدراكات على الإطلاق وأوضحها هو إدراك الإنسان نفسه، وظاهر انّ مثل هذاالإدراك لا يمكن أن يكتسب بحد أو رسم(أي من خلال التعريف)، أو يثبت بحجة أو برهان.[1]

والحقيقة انّ هذا البرهان لا يحتاج في تقريره إلى كلّ هذه المقدّمات الواسعة، بل يمكن إثباته بصورة مختصرة، فأنت ترى الإنسان قد يغرق أحياناً في التفكير والتأمّل بنحو يغفل عن كلّ شيء إلى درجة قد لا يلتفت ولا ينتبه إلى حوادث مهمة جداً تقع إلى جانبه، ولكنّه مع كلّ ذلك لا يغفل عن شيء واحد، وهو شخصيته العلمية وتفكيره وانّه إنسان مفكّر وهذه المسألة تحكي أنّ حقيقة الإنسان وواقعه شيء وراء البدن والأعضاء المادية، التي طالما يغفل عنها ولا يلتفت إليها.

٤. الروح من وجهة الدراسات والبحوث العلمية الحديثة

إلى هنا تعرّفنا على وجود حقيقة تكمن وراء البدن يطلق عليها مفهوم «الروح».

---

١. الإشارات والتنبيهات:٢/ ٢٩٢ـ ٢٩٣، بتصرّف في العبارة؛ وانظر الشفاء قسم الطبيعيات:٢٨٢.

وما ذكرناه إلى هنا مجموعة من البراهين العقلية والتجريبية، عامّة الفهم والتي يدرك الجميع من خلالها حقيقة تجرّد الروح، وهانحن نعطف عنان القلم إكمالاً للبحث و إتماماً للفائدة للحديث عن النهضة العلمية المعاصرة والتي سلّطت الأضواء على جميع أبعاد الإنسان تحت عنوان «معرفة الإنسان»، ليتّضح لنا موقف العلوم التجريبية والفلسفية في هذه القضية ثمّ نعرّج على الموقف القرآني وحكمه فيها.

تشكّلت في عام ١٨٨٢م جمعية تحت عنوان «جمعية البحوث الروحية» برئاسة المفكّر الإنجليزي الأُستاذ «جوميك» أُستاذ جامعة «كامبريج».

وقد ضمّت الجمعية كلاً من العالم «أُوليوردلوچ» و المعروف بـ «داروِن العلوم الطبيعية»[1]، والكيمياوي الإنجليزي المعروف «وليام كروكس» وكلاً من الأُستاذين: «فردريك ميرس»، و «هورسن» الأساتذة في جامعة «هاروارد» الإمريكية، و «هيزلوپ» الأُستاذ في جامعة «كلومبيا»، و غير هؤلاء من العلماء والباحثين الكبار، أمثال: «عارمي» و «باربت» و «بورمو» و «شارل پيشيه» الأُستاذ في كلية الطب، والرياضي المعروف و الفلكي الفرنسي المعروف «كاميل فلاماريون» و....

وقد عمل هذا الفريق العلمي الكبير وعلى مدى ٤٥ عاماً بجهود حثيثة، فكانت ثمرة ذلك العمل إصدار موسوعة كبيرة تتألف من خمسين كتاباً، سلّطوا فيها الأضواء على جميع الموضوعات التي تتعلّق بالروح والنفس، ولقد كان لهذا العمل دوره البارز في حلّ الكثير من الإشكالات والتساؤلات المطروحة في هذا

١. في مقابل العالم المشهور «دارون» أُستاذ التاريخ الطبيعي.

المجال.

وفي الحقيقة انّ الله سبحانه وتعالى فتح على الإنسان في هذا العصر نافذة من العلم، ثبت من خلالها انّ للإنسان روحاً تستطيع الحياة بصورة مستقلة عن البدن، وهي قادرة على القيام ببعض الأعمال بدون أن تستعين بالبدن المادي.[١]

ثمّ إنّ علم تحضير الأرواح(spritisme) والذي أُقيمت أُسسه في القرن الماضي هو الآخر أزاح الستار عن العالم الآخر وبنحو وفّر للإنسان إمكانية الاتّصال والارتباط بذلك العالم (عالم الروح).

ثمّ إنّ العلوم والحقائق التي اكتشفها العلماء وشاهدوها من خلال جلسات إحضار الأرواح، يمكنها هي الأُخرى أن توصلنا إلى النتيجة التالية، وهي: انّ الإنسان يمتلك ـ بالإضافة إلى البدن المادي ـ روحاً مستقلة لم يتطرّق إليها الفناء بموت الجسد وانعدامه، وانّ العلاقة بين الأموات والأحياء هي خير دليل على استقلال الروح وبقائها، وقدرتها على القيام بالكثير من الأعمال الصعبة بإذنه تعالى.[٢]

ولا زالت هذه الحركة قائمة في البلاد الغربيّة، ويمكنها أن تكون عاملاً مهماً في حصول الاطمئنان لدىٰ بعض الناس المعجبين بالنتاجات والنظريات التي هي وليدة البيئة الغربية، أو الناس الذين لا يذعنون للأُمور بسرعة.

بعد هذه الجولة السريعة في البراهين الفلسفية والأدلّة العقلية والإشارة إلى

---

١. لمزيد الاطّلاع انظر: دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي، مادتي: «روح» و «وحي».

٢. انظر «عالم ما بعد الموت» تأليف لئون دني ص ٧٨ـ ٨٢. ثمّ إنّنا إنّما ذكرنا ذلك باعتباره مؤيّداً لأصل الموضوع، ولسنا بصدد تصديق كلّ المدعيات التي صدرت من هؤلاء العلماء وحكمهم في مسألة تحضير الأرواح والارتباط بها.

النتاجات والتحقيقات العلمية المعاصرة، نعطف عنان القلم إلى القرآن الكريم لنعرف موقفه من هذه القضية الحسّاسة.

القرآن وحقيقة الشخصية الإنسانية

إذا استعرضنا آيات الذكر الحكيم نقف على أنّها تدلّ على أنّ حقيقة الإنسان وشخصيته غير جسمه المادي، وهذه الآيات قد توزّعت على عناوين مختلفة، كلّها تشير إلى هذه الحقيقة، ومن هذه العناوين التي يمكن اقتناصها من آيات الذكر الحكيم:

القرآن وتجرّد الروح

لقد أشار الكثير من آيات الذكر الحكيم إلى تجرّد الروح عن المادة وآثارها، وهذا شاهد واضح وجليّ على أنّ حقيقة الإنسان لا تنحصر في هذا البدن المادي، بل انّ البدن في حقيقته ليس إلاّ آلة ووسيلة تستخدمها الروح لتنفيذ أغراضها، وانّ واقع الإنسان وحقيقته يتمثّل في روحه ونفسه، وقد وردت في هذا المجال الكثير من الآيات الكريمة نشير إلى بعضها:

١. توفّي الأنفس حين موتها

لقد أكّد القرآن الكريم بما لا ريب فيه أنّ الله تعالى يتوفّى الأنفس حين موتها، وكذلك حين منامها، فيمسك سبحانه النفس التي قضى عليها الموت ويعيد الأُخرى إلى بدنها إلى أجل آخر، قال تعالى:

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتها وَالّتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها

فَيُمْسِكُ الّتي قَضىٰ عَلَيْها الْمَوتَ وَيُرسِلُ الأُخرى إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّى إِنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُون﴾.(١)

إنّ لفظة «يتوفّى» و التي تعني الأخذ بصورة كاملة، وكذلك مصطلحي «الإمساك» و «الإرسال» تدلّ جميعها على أنّ هناك جوهراً ووجوداً غير البدن المادي في الكيان الإنساني يتعلّق به «التوفّي» و «الإمساك» و «الإرسال»،وليس المراد من التوفّي في الآية إلاّ أخذ الأنفس وقبضها،ومعنى ذلك أنّه سبحانه يقبض الأنفس إليه، وقت موتها وفي منامها، بيد أنّ من قضى عليه با لموت يمسك روحه إلى يوم القيامة ولا يسمح لها بالعودة إلى الحياة الدنيا،ومن لم يقض عليه به يرسل روحه إلى الدنيا إلى أجل مسمّى.

ومن البديهي انّ شخصية الإنسان لو كانت تتمثّل في جسمه وبدنه المادي، لما كان استعمال هذه المصطلحات والمفاهيم ــ من قبيل: «التوفّي»، «الإمساك»، «الإرسال» ـ استعمالاً صحيحاً، لأنّ هذه المصطلحات إنّما تصدق في مجال الحديث عن الروح لا البدن، وفي هذا دلالة واضحة على وجود الروح واستقلاليتها، لأنّه من المستحيل إمساك المعدوم أو غير الموجود. وبما أنّه سبحانه عبّر بالإمساك، وعرفنا أنّ هذا الإمساك لم يتعلّق بالبدن فلابدّ من الإذعان أنّه يتعلّق بالروح، وهذا خير دليل على وجودها وتجرّدها.

٢. حقيقة الإنسان وواقعه عند الله سبحانه

لقد تعرّض القرآن الكريم لبيان الإشكال الذي أثاره المشركون حول معاد الإنسان، فقال سبحانه حاكياً شبهتهم: ﴿ءَإِذا ضَلَلْنا فِي الأَرْضِ ءَإِنّا لَفِي خَلْقٍ

---

١. الزمر:٤٢.

جَدِيد﴾.[١]

وفي الحقيقة انّ أساس إشكالهم مبني على الفكرة التالية: انّهم اعتقدوا انّ الموت يمثل بطلان الشخصية الإنسانية وانعدامها، لأنّهم تصوّروا أنّ حقيقة الإنسان قائمة ببدنه، وبما أنّ هذا البدن المادي سوف يتفسّخ وينحل إلى جزيئات و ذرّات تتبعثر في الأرض﴿**ضللنا في الأرض**﴾ وتختلط بالتراب، فمن المستحيل إعادة تلك الذرّات المتناثرة هنا وهناك مرّة أُخرى لتعود إلى ما كانت عليه قبل الموت إنساناً كاملاً سوّياً!!

ولقد أجاب القرآن الكريم عن هذه الشبهة ببيان بطلان أساسها، حيث بيّن سبحانه وتعالى للمشركين أنّ اعتقادهم بأنّ حقيقة الإنسان تنحصر في العنصر المادّي منه اعتقاد باطل، وتفكير ساذج، لأنّ الإنسان يتكوّن من عنصرين:

أحدهما: البدن المادي، وهذا هو الذي يطرأ عليه الفناء والضلال والتبعثر في الأرض.

وهناك عنصر آخر في الإنسان لا يتطرّق إليه الفناء ولا الضلال في الأرض، وهو الذي يمثّل حقيقة الإنسان وواقعيته، وهذا الشيء الثابت يقبضه ملك الموت بصورة كاملة من دون أيّ نقص أو انعدام، قال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوتِ الَّذِي وُكِّلِ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.[٢]

---

١. السجدة:١٠.

٢. السجدة:١١.

فكما ثبت في الآية الأُولى أنّ «التوفّي» ليس بمعنى الإماتة، بل بمعنى الأخذ والقبض والاستيفاء حيث قال تعالى:﴿اللهُ يَتَوفَّى الأَنْفُس حينَ مَوتِها﴾، فهكذا الكلام في الآية الثانية حيث إنّها أشارت إلى أنّ الإنسان في واقعه يتكوّن من قسمين أساسيين، هما:

الف: البدن والجسم الظاهري، وهذا هو الذي يضل في التراب بعد الموت، وهو الذي يتحوّل إلى ذرّات متناثرة هنا وهناك، بل قد يتحوّل إلى مواد أُخرى أثر التفاعلات الكيمياوية وغيرها من العوامل.

ب: القسم الثاني والذي يمثّل حقيقة الإنسان وبه قوام شخصيته، والذي عبّر عنه في الآية الكريمة بلفظ «كم» الوارد في قوله: ﴿يتوفاكم﴾، فهذا هو جوهر شخصية الإنسان وحقيقته، وانّ الذي يتوفّاه ملك الموت ويأخذه وينتزعه من الجسد، ليس إلّا الجانب الأصيل الذي به تناط شخصيته وتتقوّم به حقيقته، وهو محفوظ عند الله تعالى.

وفي الحقيقة انّ الآية المباركة قد أشارت في مقام الجواب إلى برهان علمي وهو: انّ الذي يضل في التراب من الإنسان ـ بسبب الموت ـ هو القشر والبدن، وأمّا حقيقته وهي الروح الإنسانية التي بها قوام شخصيته، فلا يطالها الفناء ولا ينالها الاندثار.

وهذا البيان يثبت وبجلاء انّ للإنسان ـ وراء بدنه الذي يفنى ـ واقعاً لا تطرأ عليه آثار المادة من الانعدام والضلال في الأرض أبداً.

إلى هنا وصلنا إلى هذه الحقيقة، وهي: أنّ الرؤية القرآنية متطابقة مع الحقائق التي أثبتتها البراهين الفلسفية والأدلّة العقلية والعلوم المعاصرة، والتي تتمثّل في أنّ حقيقة الإنسان وشخصيته تتقوّم في روحه ونفسه، لا في بدنه المادي.

الأصل الثاني

ما هي حقيقة الموت؟

قد تعرّفنا في الأصل الأوّل على أنّ واقع الإنسان يكمن في روحه ونفسه لا في بدنه المادّي، وانّ هذه النفس لتجرّدها وصيانتها من الآثار والتفاعلات المادية من قبيل: (الانحلال، الفناء،الفساد، والاندثار و...) تكون في قبضته سبحانه خالدة إلى يوم القيامة.

من هذا المنطلق تتضّح حقيقة الموت بصورة واضحة، وذلك لأنّه إذا كانت حقيقة الإنسان وواقعه تتمثّل في روحه ونفسه الخالدة، فحينئذٍ يكون الموت عبارة عن فصل «الروح» عن «البدن» ونزعها عنه بسبب بعض العوامل والتغيّرات التي تطرأ على البدن ممّا تجعل استمرار عملية الارتباط بينهما غير ممكنة.

وبعبارة أُخرى: انّ الروح الإنسانية تصل إلى درجة من الكمال تنتفي معه الحاجة إلى البدن المادي، وتصل النفس وتحت شروط معينة إلى درجة من الرقي بحيث تستطيع الانتقال إلى الحياة الأُخرى المناسبة لها من دون أن تستصحب معها لباسها المادّي.

ثمّ إنّ بقاء الروح بعد الموت من الحقائق الفلسفية والعلمية التي أثبتها كبار فلاسفة اليونان، أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، وابن سينا وشيخ الإشراق وصدر المتألّهين من الفلاسفة الإسلاميين، حيث أقاموا عليها البراهين الفلسفية الدقيقة والأدلّة العقلية المحكمة. وأخيراً وصلت القضية إلى مستوى الحقيقة العلمية بفضل سلسلة من التجارب والجهود العلمية التي قام بها العلماء الغربيون وعلى مدىٰ أعوام طويلة من البحث والمتابعة.

نعم، لقد أصابت العالم في القرن التاسع عشر حُمّىٰ النظرية المادية التي أنكرت قضايا ماوراء الطبيعة من قبيل: الله، الملائكة، الروح المجرّدة، وغيرها من العوالم الغيبية، إلاّ أنّه ومع إطلالة القرن العشرين وخاصة النصف الثاني منه عادت عجلة الحركة الفكرية إلى مجراها الطبيعي بصورة ما، بسبب الجهود والمساعي المشكورة التي بذلها الإلهيّون حيث فتحوا أمام العالم نافذة تطل على عالم ماوراء الطبيعة، أثبتوا من خلالها أصالة الروح وبقاءها بعد الموت، وهذا ما تمّت الإشارة إليه حينما تعرضنا للبحث عن الأصل الأوّل.

وفي هذا الأصل نحاول السير مع آيات الذكر الحكيم، لنتعرف على الرؤية القرآنية لمسألة الموت،وكذلك نحاول اقتناص موقف السنّة النبوية الشريفة وسيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام أيضاً.

القرآن الكريم وبقاء الروح

بما أنّ مستندنا في هذا الأصل سيكون آيات الذكر الحكيم والروايات الصادرة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فلابدّ من استقراء تلك الآيات والروايات ولو بصورة مختصرة، لبيان موقفها من تجرّد الروح وبقائها بعد الموت.

ومن حسن الحظ انّ هنـاك الكثير من آيـات الـذكـر الحكيم التي دلّت وبصراحة على استمرار الحياة الإنسانية بعد الموت،وبما أنّ تلك الآيات من الكثرة بحيث لا يتسنّى نقلها جميعـاً مع ذكر التفاسير الواردة فيها، ضمـن هذا الكتاب، من هنا نكتفي بذكر نماذج منها:

١. الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون

لقد ورد العديـد من آيات الذكر الحكيم التي تؤكّـد على أنّ شهداء طريق الحقّ أحياء عند ربّهم يرزقون، نكتفي بذكر ثلاثة موارد منها:

الف: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلٰكِنْ لاتَشْعُرُونَ**﴾.[1]

قـد يتصـوّر البعض أنّ الآيـة المباركـة تشير إلى انّ المراد من حيـاة شهـداء الفضيلة وطريق الحق، هو حياتهم وخلودهـم الاجتماعي، باعتبار انّ هذه الطائفة المضحّية والتـي قد أقـدمت على بذل نفـوسها في سبيل العقيـدة والمبدأ، خـالدة وحـاضرة دائماً في ضمير الأُمّـة وفي فكـرهـا ووعيهـا وفي قلـوب المؤمنين، وانّ تضحيـاتهم قـد رسخت في ذهن الأُمّـة بنحـو لا يتسنّى لها محو تلك البطـولات الرائعة والتضحيـات العظيمة، بل انّ الأُمّة قد خطّت مـواقفهم بماء الذهب على صفحات تـاريخها بحيث أصبحوا يمثّلـون عنصراً مهماً ورافداً أساسيـاً من روافد تاريخها الذي تفتخر به.

ولكن التأمّل في نفس الآية المبـاركة يثبت ضعف هذه النظريـة ووهن هذه

---

١. البقرة:١٥٤.

الفكرة، وذلك لأنّ المتمعّن في الآية المباركة يجد في ذيلها الفقرة التالية: ﴿**ولكن لا تشعرون**﴾، وهذا يعني أنّ الحياة التي تتحدّث عنها الآية المباركة للشهداء حياة لا يشعر بها الإنسان. ولا يمكن له الإحساس بها . والحال انّ المعنى الذي ذكره أصحاب تلك النظرية معلوم، إن لم يكن للجميع ، فعلى أقل تقدير أنّه معلوم لطائفة كبيرة منهم، حيث إنّ هناك الكثير ممّن يشعرون بهذا المعنى والمفهوم الاجتماعي للحياة، وحينئذٍ لو كان هذا هو المقصود من الآية المباركة لكان قوله تعالى: ﴿**ولكن لا تشعرون**﴾ لغواً لا طائل فيه، وبما أنّ كلامه سبحانه وتعالى منزّه عن اللغو والعبث، فلابدّ من الإذعان بأنّ الآية المباركة تتحدّث عن حياة أُخرى يعيشها الشهداء عند ربّهم سبحانه وتعالى تنسجم مع قوله سبحانه: ﴿**ولكن لا تشعرون**﴾.

ب: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾.[1]

ج: قوله تعالى: ﴿**فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ .[2]

ثمّ تردف الآية المباركة ذلك بقوله سبحانه:﴿**يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنينَ**﴾.[3]

فهذه الباقة من آيات الذكر الحكيم تدلّ وبصراحة وقاطعية على الدرجة الرفيعة والمنزلة السامية التي ينالها شهداء الفضيلة،ولم تكتفِ الآيات الكريمة بذلك، بل أثبتت أنّ هؤلاء الشهداء لا انّهم أحياء عند ربّهم فحسب، بل يتمتّعون

١، ٢و ٣. آل عمران:١٦٩ـ ١٧١ .

بالإضافة إلى ذلك بالآثار الجسمانية والمعنوية للحياة، لأنّ الرزق والفرح والاستبشار من الآثار الجسمية والروحية للإنسان الحي.

٢. قصة مؤمن سورة «يس» وكلامه بعد قتله

اتّفق المفسّرون على أنّ النبي عيسى عليه السلام قد أرسل ثلاثة من الرسل إلى أنطاكية داعين أهلها إلى التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه، فعارضهم أهل أنطاكية ولم ينصاعوا إلى الدعوة المباركة.

فبينما كان القوم والرسل يتحاجّون، إذ جاء رجل من أقصى المدينة يسعى داعياً الناس إلى تصديق الرسل والإيمان بهم، ومبيّناً لهم الأدلّة المنطقية والعقلية التي تحتم عليهم الإذعان للمرسلين والانصياع لدعوتهم، وقد فصل القرآن الكريم تلك الأدلّة في سورة يس[1]. وبعد أن بيّن الوجوه والأدلّة التي تحثّ على الإيمان وتلزم بالانقياد لرسالة التوحيد، أعلن عن موقفه موجهاً كلامه إلى القوم أو إلى الرسل حيث قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[2]، وما أن انتهى من إعلان موقفه وبيان إيمانه بالرسالة حتى انثال عليه القوم بالضرب والرجم حتى أردوه قتيلاً مضرّجاً بدمائه، ولكنّه سبحانه جزاه على موقفه هذا بدخول الجنة قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، فلمّا دخل الجنة ورأى النعيم الإلهي قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.[3]

ولا ريب أنّ المراد من الجنة هنا الجنة البرزخية لا الحياة الأُخروية، بدليل

١. يس: ٢٠ـ٢٩.

٢. يس: ٢٥.

٣. يس: ٢٦ـ٢٧.

تمنّيه الوارد في الآية: ﴿يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ﴾، إذ من الواضح أنّ الحجب في الحياة الأُخروية مرفوعة وانّ قومه المشركين يعلمون، بل يرون النعم الإلهية التي ينعم الله تعالى بها على المؤمنين، وإنّما الحجب موجودة بينهم و بين الحياة البرزخية،ومن هنا يكون تمنّيه أمراً معقولاً ومنطقياً، بخلاف ما لو كان المراد من الحياة هي الحياة الأُخروية، فلا معنى حينئذٍ لهذا التمنّي مع رفع الحجب والأستار وانكشاف الأُمور إلى درجة تصفه الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾.[١]

ثمّ إنّه سبحانه لم يمهل القاتلين طويلاً ولم يرسل جنداً من السماء لإهلاكهم، بل أهلكهم سبحانه وأطفأ نور حياتهم بصيحة سماوية كانت فيها نهايتهم، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنّا مُنْزِلينَ* إِنْ كانَتْ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾.[٢]

وخلاصة الكلام: انّ الآيات السابقة تدلّ بوضوح على بقاء الروح وإدراكها وشعورها وتلقّيها الخطابات ﴿قيل ادخل الجنة﴾، وتمنّيها أن يرى قومها ما أنعم الله عليها ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾، وهلاك قومه بالصيحة بعد قتله مباشرة، كلّ ذلك يراد به الحياة البرزخية والجنة البرزخية لا الأُخروية.

٣. عرض آل فرعون على النار

قال تعالى في وصف حال آل فرعون: ﴿النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً

---

١. ق:٢٢.

٢. يس:٢٨ـ٢٩.

وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾.[١]

ومن يمعن النظـر في الآية المبـاركة يجدهـا تتألّف من شقين أو قسمين، أو أنّها تشير إلى مرحلتين:

المرحلة الأُولى: عرض آل فرعون غدواً وعشياً على النار.

الثانية: قيام الساعة و إدخال آل فرعون أشدّ العذاب.

يتّضح وبجـلاء مـن هـذين المقطعين أو من خـلال هـذين المرحلتين انّ المرحلة الأُولى نـاظرة إلى الحياة البرزخية التي يعيشهـا آل فرعون، والتي يعـرضون فيها على النار غـدواً وعشياً، وستستمر هذه المرحلـة إلى قيام الساعة، ولـولا قوله: **﴿ويوم تقوم الساعة﴾**، لما اتّضح لنا هذا المعنى الذي ذكرناه من الآية المباركة.

٤. قصة أُمّة النبي نوح عليه السلام بعد غرقهم ودخولهم النار

قال تعالى مشيراً إلى عاقبة قوم نوح عليه السلام: **﴿مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً﴾**.[٢]

ذهب البعض من المفسّرين إلى تفسير الجملـة الثـانيـة بنـار الآخـرة، لأنّها وردت بصيغة الماضي فقال: **﴿فأُدْخُلُوا ناراً﴾** بصيغة الماضي لكون تحقّقه قطعياً.[٣]

ولكن هذا التأويل ـ بالإضافة إلى عدم وجود شاهد يعضده ـ مخالف لظاهر الآية المباركة، لأنّ ظـاهرها أنّ دخولهم النار كان ملاصقـاً لغرقهم ومتصلاً به من دون أن تتخلّل بين الأمـرين (الإغراق والـدخـول) فاصلـة زمنيـة طويلـة، وذلك

---

١. غافر:٤٦.

٢. نوح:٢٥.

٣. مجمع البيان:٥/ ٣٦٤.

بدلالة حرف «الفاء» الوارد في الآية.

فلو كان المراد من الآية نفس ما ورد في التفسير المذكور، لكان من اللازم أن يأتي بدل قوله: ﴿فادخلوا﴾ جملة (ثم ادخلوا)، لأنّه بناءً على هذا الاحتمال، لابدّ من وجود الفاصلة الزمنية الطويلة بين الإغراق والدخول في النار، والذي يناسبه عطف الجملة الثانية على الأُولى بحرف (ثم).

نكتفي هنا بهذا المقدار من آيات الذكر الحكيم الدالة على الحياة البرزخية،ومن أراد المزيد من التفصيل فعليه مراجعة كتابنا «في ظلال التوحيد»، وكتابنا الآخر «الحياة البرزخية».

السنّة الشريفة والحياة البرزخية

كان الكلام في بيان الرؤية القرآنية للحياة البرزخية،وقد حان الوقت لعطف عنان القلم لبيان موقف الرسول الأكرمﷺ والأئمّة الطاهرين من أهل بيته عليهم السلام في هذه المسألة.

لقد أولى الرسول الأكرمﷺ وأهل بيته عليهم السلام هذه المسألة الحسّاسة أهمية خاصّة، وسلّطوا الأضواء على جميع أبعادها من خلال أحاديثهم والروايات الكثيرة التي وردت عنهم عليهم السلام، حتّى أنّ أصحاب الكتب الحديثية والعقائدية أفردوا أبواباً خاصةً ذكروا فيها تلك الأحاديث الشريفة، ونحن نقتطف بعض النماذج من تلك الروايات:

١. روى مسلم عن عائشة أنّها قالت: كان رسول اللهﷺ كلّما كان ليلتها من رسول اللهﷺ يخرج آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون، غداً مؤجّلون،وانّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل

بقيع الغرقد».[١]

فلو كان الأموات لا يسمعون كالجماد يكون السلام عليهم عندئذٍ عبثاً، وأين منزلة نبي الحكمة من العبث؟!

٢. الرسول الأكرم ﷺ يعلّم عائشة كيفية السلام على الموتىٰ.

قالت عائشة، قال ﷺ: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين وانّا إن شاء الله بكم لاحقون».[٢]

---

١. صحيح مسلم: ٧/ ٤١.

٢. صحيح مسلم: ٣/ ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز؛ سنن النسائي: ٤/ ٩١.

الأصل الثالث

وجود الصلة بين الحياتين الدنيوية والبرزخية

إلى هنا تمّ البحث عن إثبات الأصلين السابقين:

١. انّ حقيقة الإنسان تكمن في روحه المجرّدة ونفسه الخالدة.

٢. انّ الموت يمثّل عملية انتقال من مرحلـة إلى أُخرى، ومن حياة إلى حياة أُخرى، ولا يعني بحال من الأحوال أنّه فناء وانعدام للإنسان بالكامل.

وهانحن ننتقل إلى دراسة الأصل الثالث، الذي يحظى بأهمية كبيرة في مجال الدراسـات العقيدية، إذ قد يتصـوّر البعض أنّ بين الحياتين توجد مـوانع وأستار وحجب، تمنع من المشاهدة والسماع بين الدارين.

ومن النـاحية المنهجية نحـاول في هذاالأصل أن نصرف النظـر عن تجارب الغربيين وآرائهم في هـذاالمجال، ونكتفي بدراسـة المسألة من الزاويتين القـرآنية والحديثية فقط، بالإضافة إلى بعض كلمات علماء المسلمين في هذا الصدد.

القرآن الكريم والصلة بين الحياتين

لقد سلّطت آيات الذكر الحكيم الضـوء على هذه المسألة وأزاحت الستار

عنها، وأثبتت بما لا شكّ ولا ريب فيه وجود الصلة بين الحياتين،وانّ الذين عبروا قنطرة الموت لازالت صلة البعض منهم ـ على أقلّ تقدير ـ باقية مع الحياة الدنيا، وهـانحن نشير إلى بعض النماذج من تلك الآيـات لتنجلي حقيقـة الأمـر وتتّضح الحقيقة لمن يرومها.

١. النبي صالح عليه السلام يكلّم قومه بعد هلاكهم

من الآيـات التي تؤكّـد وجـود الصلة بين الحيـاتين مجمـوعة الآيـات التي وردت في قصة النبي صالح عليه السلام حيث أكّد القرآن الكـريم أنّه عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله وتـرك التعرّض لمعجزتـه «الناقة» بسـوء، ولكنّهم عقروها وعتـوا عن أمر ربّهم، وقد جاء بيان القصة في الآيات الثلاث التالية:

قوله تعالى: ﴿**فَعَقَرُوا النّـاقَةَ وعَتَوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَـالُوا يا صالِحُ ائْتِنـا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلينَ**﴾ .

وقوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ**﴾ .

وقوله تعالى: ﴿**فَتَوَلّىٰ عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لاٰ تُحِبُّونَ الناصِحينَ**﴾ .[1]

وإذا أمعنا النظر في الآيات الثلاث نجد:

إنّ الآية الأُولى أشارت إلى أنّ قـوم صالح عليه السلام طلبوا العـذاب الإلهي الذي وعدهم به النبي صالح عليه السلام.

وأمّا الآيـة الثانية فتـؤكّد نـزول ذلك العذاب عليهم ﴿**فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ**

---

١. الأعراف:٧٧ـ٧٩.

جاثِمين﴾.

وأمّا الآية الثالثة فقد نقلت الحديث إلى كلام صالحعليه السلام مع قومه بعد نزول العذاب عليهم وهلاكهم،وكيف أنّهعليه السلام أخذ يخاطبهم بقوله:﴿يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لاْ تُحِبُّونَ الناصِحينَ﴾.

والشاهد على أنّهعليه السلام تحدّث معهم بعد هلاكهم ونزول العذاب بهم، هو:

١. نظم الآيات بالشكل الذي ذكرناه.

٢. حرف «الفاء» الوارد في قوله تعالى: ﴿فَتولّىٰ﴾المشعر بالترتيب بين الهلاك والخطاب، بمعنى أنّ خطابهعليه السلام لهم جاء عقيب هلاكهم مباشرة.

٣. جملة ﴿وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحينَ﴾ وهذا المقطع من الآية يفيد بأنّهم بلغت بهم العنجهية أن كانوا لا يحبون الناصحين حتى بعد هلاكهم!!!

وظاهر الآية أنّه عليه السلام كان يتحدث مع أرواح قومه بصورة جدّية ويخاطبهم بصورة مباشرة مبيّناً لهم عنادهم وعنجهيتهم حتى بعد موتهم بقوله: ﴿وَلكِنْ لاْ تُحِبُّونَ الناصِحينَ﴾.

وهنا قد يطرح السؤال التالي وهو: من المحتمل أن يكون خطاب صالحعليه السلام لقومه لا على نحو الجد، بل من قبيل تغزّل العاشقين وخطابهم للدور وجدران المنازل التي يقطنها الحبيب.

وجواب ذلك: انّ حمل الآية المباركة على لسان الحال والقول بأنّها من قبيل غزل العاشقين وخطابهم للدور و جدران المنازل لهو من أبرز مصاديق التفسير بالرأي، وانّه تفسير وحكم خاطئ لا يقوم على دليل.

ومن الواضح أنّ حقيقة التفسير بالرأي تنبع من اتّخاذ الموقف أوّلاً والاعتقاد

مسبقاً، ثمّ محاولة تفسير الآيات وفقاً لهذا الرأي وانسجاماً مع هذا المعتقد بشتّى أنواع التأويل والتحريف، وبما أنّ صاحب هذا التفسير قد أنكر مسبقاً وجود الصّلة بين الحياتين الدنيوية والبرزخية، حينئذٍ لجأ إلى هذا التأويل البارد للفرار من الحرج الذي وقع فيه أمام هذه الآيات وأمثالها التي تثبت وجود هذه الصلة والعلاقة.

يقول الرسول الأكرم ﷺ في حقّ هؤلاء:

«من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار».[1]

السؤال الثاني: وهناك سؤال آخر يمكن أن يطرح وهو: يمكن القول بأنّه عليه السلام كان يخاطب من بقي من قومه على قيد الحياة، أي أنّه كان يخاطب الثلّة المؤمنة من قومه التي بقيت معه والتي لم يمسّها العذاب الإلهي الذي أصاب الكافرين، وحينئذٍ لا دلالة للآية على وجود الصلة بين الحياتين.

والجواب: انّ هذا الاحتمال هو الآخر ضعيف جداً، بل لا أساس له من الصحّة، إذ لو كان المراد من الآية المباركة نفس ما ورد في متن السؤال وانّ الخطاب كان موجّهاً للمؤمنين من قوم صالح، فلماذا ورد في ذيل الآية قوله تعالى: ﴿**وَلكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَاصِحِينَ**﴾؟! فهل يوجد عاقل يحتمل أنّ هذا الوصف ينطبق على ثلّة من المؤمنين آمنت بربها وأذعنت لدعوة رسوله وانصاعت لأوامره ونواهيه؟!

إذاً المخاطب بالآية على نحو القطع والبت،هم قوم صالح الذين عمّهم العذاب وشملهم الهلاك.

١. انظر كشف القناع للبهوتي:١/ ٥٢٥؛ وتوحيد الصدوق:٩١.

٢. النبي شعيب عليه السلام يخاطب قومه الهالكين

لقد استعرض لنا القرآن الكريم وفي آيات أُخرى قصة نبي آخر خاطب قومه بعد أن عمّهم الهلاك، وذلك النبي هو شعيب عليه السلام، فقد جاءت القصة بالنحو التالي:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمين﴾.[١]

ثمّ قال سبحانه في آية أُخرى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها الَّذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرين﴾.[٢]

ثم أردفها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلى قَوْمٍ كافِرين﴾.[٣]

ووجه الاستدلال بهذه الآيات هو نفس الاستدلال الذي ذكرناه في قصة النبي صالح عليه السلام وخطابه مع قومه.

٣. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يؤمر بالتكلّم مع الأنبياء

جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.[٤]

والظاهر من الآية الشريفة أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان باستطاعته الاتّصال مع الأنبياء الذين بعثوا قبله وسؤالهم عن ذلك، وما لم يرد دليل عقلي قاطع على

---

١. الأعراف: ٩١.

٢. الأعراف: ٩٢.

٣. الأعراف: ٩٣.

٤. الزخرف: ٤٥.

استحالة ذلك ومنعه، لا يحق لنا رفع اليد عن هذا الظهور أبداً.

وقد يثار التساؤل التالي: أليس من الممكن تأويل الآية بإرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى استظهاراً من قوله تعالى: **﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾**[١]، وحينئذٍ لا يكون في الآية السابقة أيّة دلالة على إمكانية الاتّصال بالعالم الآخر فضلاً عن وقوعه.

والجواب:انّ هذا الاحتمال باطل جداً،والدليل على بطلانه هو:

أوّلاً:انّ تفسير آية بآية أُخرى إنّما يصحّ إذا كانت الآية الأُولى مبهمة وتحتاج إلى نوع من البيان والتوضيح، فحينئذٍ تكون الاستعانة بآية أُخرى لرفع هذا الإبهام أمراً ضرورياً وموضوعياً، وأمّا إذا كانت الآية الأُولىٰ خالية من الإبهام والتعقيد فلا معنى لرفع اليد عن ظهورها وتأويلها بنحو ينسجم مع آية أُخرى، إذ لا منافاة بين الآيتين فمن الممكن للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل كلا الطائفتين، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار انّ هذه الآية الواردة في سورة يونس راجعة إلى سؤال الأُمّة من علماء بني إسرائيل وقرّاء كتبهم،وهذا بخلاف قوله تعالى: **﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلنا﴾** فإنّها خطاب للنبي حقيقة.

وأمّا الآية الأُولى فهي وإن كان الخطاب فيها موجّهاً إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنّ الخطاب موجّه إلى الأُمّة لتسأل هي بدورها علماء بني إسرائيل.

والشاهد على هذا المدّعىٰ وانّه سبحانه قد وضع تحت اختيار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم طريقين، هو قوله تعالى في الآية التالية:

---

١. يونس:٩٤.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَاسْأَل بَني إِسرائيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنَ إِنّي لأظُنُّكَ يا موسى مَسْحُوراً﴾.(١)

فقد جاء الحديث في هذه الآية عن بني إسرائيل لا العلماء منهم والذين يقرأون الكتاب، ومن هنا لا يحق لنا تأويل الآية الثالثة بلا دليل أو برهان.

ثانياً: انّ الآية الأُولى تحكي عن أنّ المراد من السؤال هو سؤال النبي ﷺ جميع الأنبياء الذين بعثوا قبله مثل: نوح وإبراهيم و...، والحال أن الآية الثانية يراد منها السؤال من علماء بني إسرائيل عن خصوص المفاهيم والأحكام الواردة في «العهدين» وما أنزله الله تعالى على أنبيائهم فقط ووضعه تحت اختيار الأُمّة الإسلامية.

ومن الواضح أنّه لا وجه لتضييق وتحديد المفهوم الواسع للآية الأُولى وحصره في علماء بني إسرائيل من اليهود والنصارى.

ثالثاً: أطبق المفسّرون على أنّ الآية مورد البحث ـ آية سورة الزخرف ـ من الآيات المكّية، ومن الواضح للجميع أنّه لا يوجد في المجتمع المكي أيّ أثر يذكر ووجود بارز لعلماء أهل الكتاب ومن اتّبعهم من اليهود والنصارىٰ حتى يؤمر الرسول بسؤالهم.

السنّة الشريفة والصلة بين الحياتين

بعد أن تبيّنت لنا الرؤية القرآنية بخصوص الصلة بين الحياتين، وأثبتنا بما لا مزيد عليه أنّ القرآن الكريم يؤكّد هذه الصلة وتلك العلاقة بأدلّة محكمة

---

١. الإسراء:١٠١.

وشواهد قوية، وأنّ الأنبياء كانوا يتكلّمون مع البرزخيين،فقد حان الوقت لنسلّط الأضواء على السنّة الشريفة لنرى موقفها من هذه المسألة.

ومن حسن الحظّ انّ هناك الكثير من الروايات الواردة في هذا المجال والتي تؤكّد وجود الصلة بين الحياتين، نكتفي بذكر نماذج منها:

١. النبيّ الأكرمﷺ يكلّم أهل القليب

حينما وضعت معركة بدر الكبرى أوزارها وانهزم المشركون مخلّفين وراءهم سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم ومثلهم من الأسرى، أمر رسول اللهﷺ بإلقاء القتلىٰ في إحدى الآبار،ثمّ وقف ﷺ يخاطب القتلى واحداً واحداً ويقول:

«يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، و يا أُميّة بن خلف، و يا أبا جهل ـ وهكذا عدّد من كان منهم في القليب ـ هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً فإنّي وجدت ما وعدني ربّي حقّاً ؟ ».

فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادي قوماً موتىٰ؟!

فقالﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم،ولكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وكتب ابن هشام يقول: إنّ رسول اللهﷺ أضاف بعد هذه المقالة وقال: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم،كذبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس».

ثمّ قال: «هل وجدتم ما وعدكم ربّي حقّاً».[١]

---

١. السيرة النبوية:١/ ٦٤٩؛ السيرة الحلبية:٢/ ١٧٩ و ١٨٠ وغيرهما.

الشعر يضفي على القضية طابعاً خالداً

تعد قصة حديث الرسول الأكرمﷺ مع قتلى معركة بدر من المسلّمات الحديثية والتاريخية، حيث رواها المؤرّخون والمحدّثون من العامّة والخاصّة. وقد أدلى الشعراء بدلوهم في هذه الواقعة حيث سجّلتها الدواوين الشعرية.

وكان في طليعة الشعراء الشاعر حسان بن ثابت شاعر عصر الرسالة، إذ أنشد قصيدة بائية رائعة سجّل فيها أحداث تلك الواقعة، ومن حسن الحظّ أنّ ديوان حسان بن ثابت عامّة وهذه القصيدة خاصة من الدواوين التي استطاعت أن تفلت من يد الدهر وتبقى حيّة ماثلة أمام الجميع، ولم تتعرض كغيرها إلى الضياع والاندثار والتلف، نقتطف من تلك القصيدة بعض الأبيات والتي جاء فيها:

يناديهم رسول الله لمّا ... قذفناهم كباكب[1] في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقاً؟! ... وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأي مصيب[2]

على أنّه لا توجد عبارة أشدّ صراحة ممّا قاله رسول اللهﷺ في المقام حيث قال: «ما أنتم بأسمع منهم» وهل ثمة بيان أكثر إيضاحاً وأشدّ تقريراً لهذه الحقيقة من مخاطبتهﷺ لواحد واحد من أهل القليب، ومناداتهم بأسمائهم وتكليمهم كما لو كانوا على قيد الحياة؟!

فلا يحق لأيّ مسلم مؤمن بالرسالة والرسول أن يسارع إلى إنكار هذه

١. الكباكب: الجماعات.

٢. ديوان حسان:١٣ـ١٤.

القضية التاريخية الإسلامية المسلّمـة ويبادر قبل التحقيق ويقول: إنّ هذه القضية غير صحيحة،ومن أنكـر هذه الواقعة فليس إنكـاره إلاّ لأنّها لا تنطبق مع عقليته المادية المحدودة.

وقد نقلنا هنا نص الخطاب، لكي يرى المسلمـون الناطقون باللغة العربية، كيف أنّ حديث النبيﷺ يصرّح بهذه الحقيقـة بحيث لا يوجـد فـوق عبارتـه في الصراحة والدلالة على هذه الحقيقة عبارة.

ومن أراد الـوقـوف على مصـادر هـذه القصـة فعليـه أن يـراجع المصـادر التالية.[1]

٢. مراسم تلقين الميت

إنّ مراسم التلقين التي يـؤدّيها المسلمون عنـد الدفن تدلّ ــ بالإضـافة إلى خلـود الروح ودوامهـا ــ على وجـود الصلة بين النشـأتين والارتباط بين الأمـوات والأحياء،ولقد كانت هذه القضية بـدرجة من الوضوح في أوساط المسلمين حيث ينقل البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أنّه حدّثهم عن رسول اللهﷺ قال: «إنّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه حتّى أنّه يسمع قرع نعالهم...».[2]

فإذا كان الميت يسمع قـرع النعال كما ورد في حـديثهﷺ، فلابدّ أنّه يسمع الكلام من باب أولى.

---

١. صحيح البخاري:٥/ ٩٧ــ ٩٨ و ١١٠ معـركة بـدر؛ صحيح مسلم:٤/ ٧٧، كتـاب الجنـة؛ سنن النسائي:٤/ ٨٩ ـ ٩٠؛ مسند أحمد:٢/ ١٣١؛ سيرة ابن هشـام:١/ ٦٣٩؛ مغازي الواقدي: الجزء الأوّل، معركة بدر؛ بحار الأنوار:١٩/ ٣٤٦.

٢. صحيح البخاري:٢/ ٩٠، باب الميت يسمع خفق النعال.

وقد تعرّض الفقـه السنّي هو الآخر لمسألة التلقين فقال الجزيـري في كتابه «الفقه على المذاهب الأربعة»: ويستحب تلقينه أيضاً بعد الفراغ من دفنه وتسوية التراب عليه، والتلقين هنا هـو أن يقول الملقّن مخاطباً للميت: يا فـلان ابن فلانة، إن كان يعرفـه، وإلاّ نسبه إلى حواءعليها السلام، ثمّ يقول بعـد ذلك: اذكر العهـد الذي خرجت عليه من الـدنيا، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّـداً رسول الله، وأنّ الجنة حق، وأنّ النار حق، وأنّ البعث حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها،وأنّ الله يبعث من في القبور، وانّك رضيت بالله ربّاً،وبـالإسلام ديناً، وبمحمدصلى الله عليه وآله وسلم نبياً، وبالقرآن إماماً، وبـالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخـواناً. وهذا التلقين مستحب عنـد الشافعية والحنابلة، وخالف المالكية والحنفيـة، حيث قالت الحنفية: التلقين بعد الفراغ من الدفن لا ينهى عنه ولا يؤمر به، وظاهر الرواية يقضي النهي عنه.

وقـالت المالكيـة: التلقين بعـد الـدفن وحـاله مكـروه،وإنّما ينـدب حـال الاحتضار فقط.[1]

روى الغزالي في «إحياء علوم الدين» والشوكاني في «نيل الأوطار» بعد قولهم «ويستحب التلقين»: قال سعد بن عبد الله: لما احتضر أبو أُمامة الباهلي، قال لي: لقني بالنحو الـذي أمر به رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وقال: «أُذكر ما خـرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إلـه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، وانّك رضيـتَ بالله ربّاً، وبـالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبيّاً،وبالقرآن إماماً».[2]

---

١. الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٥٠١.

٢. إحياء العلوم:٤/ ٤٧٦؛ نيل الأوطار:٤/ ١٣٩.

٣. أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله حين غسله

إنّ من يطالع كتاب «نهج البلاغة» لسيد الفصاحة وإمام البيان علي بن أبي طالب عليه السلام يجد فيه أنّه عليه السلام حينما كان يتولّى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله خاطبه بقوله عليه السلام: «بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مُسلياً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناسُ فيك سواء. ولولا أنّك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداءُ مماطلاً، والكمدُ محالفاً، وقلاّ لك! ولكنّه ما لا يملك ردُّه، ولا يُستطاع دفعه! بأبي أنت وأُمّي! اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك». [1]

وأيّ عبارة أبلغ وأصرح وأدلّ على المطلوب من قوله عليه السلام:

«اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك».

٤. أبو بكر يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد موته

قال ابن هشام في سيرته: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ـ خبر وفاة الرسول ـ حتّى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله صلى الله عليه وآله مسجّى في ناحية البيت عليه بُرد حبراً، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال:

بأبي أنت وأُمّي أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً. [2]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥، ط صبحي الصالح.

٢. سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٥٦.

هـذه الأحـاديث والعشرات من نظـائرها تـدلّ بها لا ريب فيـه على وجـود الصلة بين الحياتين، فمن أراد المزيد من التفصيل عليه مراجعة تلك الأحاديث في مظانّها.

الحياة البرزخية في كلمات العلماء

إنّ وجـود الحيـاة البرزخيـة من الأُصـول المسلّمـة لـدى جميع المسلمين في العـالم، حيث صرّح بها كبـار العلماء والشخصيـات المعـروفـة في الأوسـاط الإسلاميـة،وأدرجوهـا في رسائلهم ومدوّنـاتهم التي بيّنوا فيهـا العقائد الإسـلامية وعدّوها من ضمن معتقداتهم المسلّمة،وها نحن نكتفي هنا بذكر بعض الكلمات لبعض علماء أهل السنّة، منهم:

١ . الإمام أحمد بن حنبل (المتوفّى ٢٤١هـ)

قال: والأعـور الدجّـال خارج لا شكّ في ذلـك ولا ارتياب، وهـو أكذب الكذّابين،وعـذاب القبر حقّ،ويسأل العبد عن دينـه وعن ربّه ويـرى مقعده من النار والجنة، ومنكر ونكير حق، وهما فتّانا القبور، نسأل الله تعالى الثبات.[١]

٢ . أبو جعفر الطحاوي(المتوفّى ٣٢١هـ)

قال: (نؤمن) بعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربّه ودينه ونبيّه،على ما جاءت بـه الأخبار عن رسول الله وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.[٢]

---

١ . السنّة: ٥٠.

٢ . شرح الرسالة الطحاوية لابن أبي العز، قسم المتن: ٣٩٦.

٣. الإمام الأشعري: (٢٦٠ـ ٣٢٤هـ)

قال: ونؤمن بعذاب القبر، وبالحوض،وأنّ الميزان حق، والصراط حق،والبعث بعد الموت حق، وأنّ الله عزّ وجلّ يُوقِفُ العباد في الموقف يحاسب المؤمنين.[1]

٤. البغدادي

قال: أنكرت الجهميّة والضرارية سؤال القبر، وزعم بعض القدرية أنّ سؤال الملكين في القبر إنّما يكون بين النفختين في الصور وحينئذٍ يكون عذاب قوم في القبر.

وقالت السالمية بالبصرة: إنّ الكفّار لا يحاسبون في الآخرة.

وزعم قوم يقال لهم الوزنية: أن لا حساب ولا ميزان.

وأقرّت الكرامية بكلّ ذلك كما أقرّ به أصحابنا، غير أنّهم زعموا أنّ منكراً ونكيراً هما الملكان اللّذان وكّلا بكلّ إنسان في حياته، وعلى هذا القول يكون منكر ونكير كلّ إنسان غير منكر ونكير صاحبه.

وقال أصحابنا: إنّهما ملكان غير الحافظين على كلّ إنسان.[2]

٥. أبو اليسر محمد البزدوي (٤٢١ـ ٤٩٣هـ) (و هو من الماتريدية)

قال: سؤال منكر ونكير في القبر حقّ عند «أهل السنّة والجماعة»، وهما ملكان يسألان من مات بعد ما حُيِّي: مَن ربّك،وما دينُك،ومَن نبيّك؟ فيقدر المؤمن على الجواب ولا يقدر الكافر.

---

١. الإبانة:٢٦.

٢. أُصول الدين:٢٤٥.

وفيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في هذا البـاب أنّ الملكين يجيئان في القبر إلى الميت ويحيي الله تعالى الميت فيسألان عمّا ذكرنا.[١]

٦. ابن تيمية

قال ابن قيم الجوزيـة ناقلاً عن ابن تيميـة: الأحاديث الصحيحة المتـواترة تدلّ على عـود الروح إلى البـدن وقت السؤال، وسـؤال البدن بـلا روح قول قـاله طائفـة من الناس، وأنكره الجمهور، قـابلهم آخرون بأنّ السؤال للروح بـلا بدن، وهذا ما قـاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحـة تردّه، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص.[٢]

٧. التفتازاني

قال: ويدلّ على الحياة بعـد الموت قوله تعالى: ﴿**النارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً**﴾[٣]، وقوله: ﴿**أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً**﴾[٤]، وقوله: ﴿**رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ**﴾.[٥]

وليست الثانية إلاّ في القبر، وقوله: ﴿**يُرْزَقُونَ * فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ**﴾.[٦]

وقوله ﷺ: «القبر روضـة من ريـاض الجنـة، أو حفـرة من حفـر النيران» والأحاديث في هذا الباب متواترة المعنى.

---

١. أُصول الدين: ١٦٥، المسألة ٤٩.

٢. الروح: ٥٠ معبّراً عن ابن تيمية بـ«شيخ الإسلام».

٣. غافر: ٤٦.

٤. نوح: ٢٥.

٥. غافر: ١١.

٦. آل عمران: ١٦٩ـ ١٧٠.

وقال في موضع آخر:

اتّفق الإسلاميون على حقية سؤال منكر ونكير في القبر،وعذاب الكفّار وبعض العصاة فيه، ونسب خلافه إلى بعض المعتزلة. قال بعض المتأخرين منهم: حُكي إنكار ذلك عن ضرار بن عمرو، وإنّما نسب إلى المعتزلة، وهم براء منه لمخالطة ضرار إيّاهم،وتبعه قوم من السفهاء المعاندين للحق.

لنا: الآيات، كقوله تعالى في آل فرعون: ﴿**النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيها غُدُوّاً وَعَشِيّاً**﴾[١]، أي قبل القيامة، وذلك في القبر، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذابِ**﴾[٢]. وكقوله تعالى في قوم نوح: ﴿**أُغرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً**﴾[٣]، والفاء للتعقيب، وكقوله تعالى:﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا ٱثْنَتَيْنِ**﴾[٤] وإحدى الحياتين ليست إلاّ في القبر، ولا يكون إلاّ نموذج ثواب أو عقاب بالاتّفاق، وكقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِهِّمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ**﴾.[٥]

والأحاديث المتواترة المعنى كقولهﷺ: « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» وكما روي أنّه مرّ بقبرين فقال: «إنّهما ليعذبان».[٦]

وكالحديث المعروف في الملكين اللّذين يدخلان القبر ومعهما مرزبتان، فيسألان الميت عن ربّه وعن دينه وعن نبيه ... إلى غير ذلك من الأخبار والآثار

---

١. غافر:٤٦.

٢. غافر:٤٦.

٣. نوح: ٢٥.

٤. غافر:١١.

٥. آل عمران:١٦٩ـ ١٧٠.

٦. أخرجه الإمام البخاري في كتاب الوضوء: ١/ ٦١ وكتاب الجنائز: ص ٨٩.

المسطورة في الكتب المشهورة، وقد تواترت عن النبي ﷺ استعاذته من عذاب القبر، واستفاض ذلك في الأدعية المأثورة.[١]

هذه طائفة من كلمات علماء أهل السنّة، وأمّا علماء الشيعة فالقضية عندهم من المسلّمات ويكفي في ذلك أن يعدها كلّ من العلمين الكبيرين: الشيخ الصدوق والشيخ المفيد من عقائد المذهب الشيعي.[٢]

١. شرح المقاصد: ٥/ ١١٢ ـ ١١٤. والمرزبة: عصاة كبيرة من حديد تتخذ لتكسير المدر.

٢. انظر شرح عقائد الصدوق: ٤٤؛ و أوائل المقالات: ٤٩.

الفصل العاشر

التوسّل بالنبي ﷺ والأولياء الإلهيّين

لقـد أُرسيت قواعـد الخلق على أسـاس «قانـون العليّـة والمعلوليـة»: فكلّ ظاهـرة في هذا العـالم تنشأ من علّة وسبب خـاص، وفي الوقت نفسـه تكون تلك الظاهرة سبباً لنشوء ظاهـرة أُخرى،ولا ريب أنّ تأثير الأسباب في مسبباتها خاضع للإرادة والمشيئة الإلهية، فكلّ ظاهرة تعمل عملها وفقاً لإرادته سبحانه، لأنّه تعالى خلق العالم وجعله قـائماً على أساس هذا القانـون وجعل بين الأسباب والمسببات علاقة العلّة والمعلول.

فلا شكّ أنّ الشمس تمنح الطـاقة، والقمر يمنح النـور، والنار تمنح الحرارة و....

فكلّ واحدة من هـذه الظواهر والعلل المادية تـؤثر في ما يصدر عنهـا وانّه توجـد رابطة وعـلاقة بين الشمـس والطاقـة والنار والحرارة و... وانّ مجمـوع الأثر والمؤثـر هما من خلقه وإيجاده سبحـانه، فهـو الذي أوجـد تلك العلاقـة بينهما، ولـذلك نجد في بعـض الأحيان أنّـه تعـالى يلغي تلك السببيّـة والعلّية في الأُمـور الطبيعية فيجعل من النار التي أحاطت بإبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً ، ليتبيّن للجميع أنّ السبب الأصلي والحقيقي يكمن في إرادته سبحانه.

من هنا نصل إلى النتيجة التالية: انّ كلّ ظـاهرة أو حادثة في العالم صحيح انّ لها علّـة وسبباً مـاديـاً بحيث تنسب إلى تلك العلّـة وتلحق بها، ولكن في نفس الـوقت تكون تلك الظـاهرة هي من فعلـه سبحانـه، ولا توجـد أدنى منافـاة بين

الأمرين، لأنّه سبحانه وتعالى مـؤثر«مستقل» وفاعل ومبدع غني لا يحتاج في فعله وصنعه إلى غيره مهما كان ذلك الغير والحال انّ الظواهـر الأُخرى المؤثرة في العالم، يكون تأثيرها وفاعليتها بالتبع وانّها جميعـاً «غير مستقلة» ذاتاً وانّها تابعة في تأثيرها له سبحانه ومحتاجة إليه تعالى.

وفي حقيقة الأمر أنّ صـدور الظواهر الطبيعية منه سبحـانه، ولكن شاءت إرادته تعـالى أن يكون هذا الصـدور قائماً على أساس الأسبـاب والمسببات أي أن تجري الأُمور وفقاً لمجراها الطبيعي.

ثمّ إنّنا جميعاً نعلم أنّ من مراتب التوحيد «التوحيد في الخالقية» بمعنى أنّه لا يـوجد خـالق إلاّ الله سبحـانـه ولكن التوحيـد في الخالقيـة لا يعني نفي تأثير الأسباب والعلل الماديـة والطبيعية في العالم، بل المراد منـه هو: انّ الخالق المستقل والغني هـو الله سبحـانـه، وهـو الـذي يمنح الأسبـاب والعلل الأُخـرى تأثيرهـا وفاعليتها، بحيث تعمل ضمن إرادته وتؤثر في إطار مشيئته سبحانه وتعالى.

ولقد أشـارت آيات الـذكر الحكيم إلى كـلا النوعين مـن العلّية والفـاعلية والتأثير، فترى أنّ فعلاً واحـداً في الوقت الـذي ينسب إلى الإنسان ينسب إلى الله كذلك، والحال أنّ الفعل لا يحتـاج إلاّ إلى فاعل واحد، ولكن الـذي يصحّح هذا الاستعمال وتلك النسبـة هو الاختلاف بين الفـاعلين، فإنّ الفاعـل المادي هنا في طول الفاعلية الإلهية. وبعبارة أُخـرى: أحد الفاعلين أصيل بالذات، والآخر فقير وتابع في فـاعليته إلى فـاعلية الآخر. فـلا منافـاة في نسبة الفعل إلى كـلا الفاعلين بلحاظ الاعتبار الذي ذكرناه.

لقد خاطب القرآن الكريم النبي الأكرم ﷺ بقوله:

﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمىٰ﴾.[١]

فمن الملاحظ أنّ الآية تنسب الرمي إلى فاعلين في آن واحد.

١. تنسبه إلى الرسول الأكرم: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾.

٢. تنسبه إلى الله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّ اللهَ رَمىٰ﴾.

ولا ريب أنّ النسبتين صحيحتان وفي محلّهما، لأنّ فاعلية الرسول الأكرم ﷺ ورميه إنّما تكون بحول الله وقوته، ولذلك يكون الرمي فعل الرسول ﷺ وفعل الله في آن واحد.

وهناك آيات كثيرة وردت في هذا المعنى حيث نسبت الفعل تارة إلى الله وأُخرى إلى فاعل آخر، نكتفي بذكر نموذجين من تلك الآيات:

١. نجد القرآن الكريم ينسب كتابة الأعمال إلى الملائكة حيث يقول سبحانه: ﴿بَلىٰ وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[٢] وفي نفس الوقت ينسب ذلك العمل إليه سبحانه حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ﴾.[٣]

٢. وفي آية أُخرى ينسب سبحانه قبض الأرواح وتوفّي الأنفس إلى الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿حَتّىٰ إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾[٤] ولكن في آية أُخرى ينسب ذلك الفعل إليه تعالى حيث قال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾.[٥]

---

١. الأنفال:١٧.

٢. الزخرف:٨٠.

٣. النساء:٨١.

٤. الأنعام:٦١.

٥. الزمر:٤٢.

فهـذه الطـائفـة من الآيـات تحكي عن أنّ نظـام الخلق قـائم على أسـاس سلسلة من العلل والمعاليل، أو الأسباب والمسبّبات، وانّ الظواهر يؤثر بعضها في البعض الآخر ولكن في نفس الوقت يكـون مجموع هذا النظام مرتبطاً بـه سبحانه وانّه إنّما يعمل في إطار مشيئته و إرادتـه، وبعبارة أُخرى: انّ جميع العلل والأسباب هي جنود لله سبحـانه تمتثل أوامره وتعمل وفقاً لإرادتـه ومشيئته ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ﴾.[1]

ومع ملاحظة هذا البيان، يتّضح أنّه لا منافاة ولا تضاد بين صريح الوحي الإلهي الذي يحصر عـالم الخلق والإنشاء بالله سبحـانه، و بين النظريـات العلمية والنتاجات التجريبية، التي أثبتت أنّ للأسباب والعلل دورها في حدوث الظواهر الكونية، وانّ من ذهبوا إلى القول بـالتعارض بين العلم والوحي الإلهي، أمّا انّهم لم يفسّروا الوحـي الإلهي تفسيراً صحيحاً، أو أنّ فهمهم للنتـاجات العلميـة الحديثة غير صحيح.

وبعبارة أُخرى: انّ كلا الأصلين صحيح وثابت.

١. التوحيد في الخالقية، وانّـه لا مؤثر ولا فاعل ـ في عالم الـوجود الواسع ـ بالاستقلال إلاّ الله سبحانه وحده.

٢. انّ العلل المادية سبب لنشوء سلسلـة من المعاليل والمسببات، وانّها انّما تفعل فعلها وتؤثر أثرها بمشيئته و إرادته سبحانه ووفقاً لأوامره.

و إذا مـا وجـدنـا من يـــذهـب إلى وجـود التنـافي والتعـارض بين الأصلين المذكـورين، فإنّ ذلك في حقيقـة الأمـر نـاشئ من عـدم الفهم الصحيح لأصل

---

١. المدثر:٣١.

«التوحيد في الخالقية» حيث تصوّروا خطأ انّ المراد منه «انّه لا يوجد مؤثر وفاعل لا بالأصل ولا بالتبع إلاّ الله سبحانه» وانّ العلل الطبيعية والأسباب المادية لا تأثير لها أبداً، وهذا هو الرأي الذي تذهب إليه الأشاعرة.

أو الخطأ ناشئ من سبب آخر حيث تصوّر البعض خطأ انّ العلل المادية والأسباب الطبيعية مستقلة في فعلها وفي تأثيرها، وهذا ما ذهبت إليه النظرية المادية.

ولا ريب أنّ كلا الاتجاهين باطل وكلا التصوّرين من قبيل الإفراط والتفريط، وذلك لأنّ الاتجاه الثاني حصر العالم في إطار الرؤية المادية الضيقة، وبطلان هذا الاتجاه بدرجة من الوضوح بحيث لا يحتاج معها إلى ردّ. فلا نطيل الكلام مع أصحاب هذه النظرية، لأنّ بحثنا في حقيقة الأمر منصب على الكلام مع الإلهيّين الذين ينكرون الاتّجاه المادي ويقطعون ببطلانه.

ومن هنا نركز البحث على بطلان الاتّجاه الأوّل الذي أنكر تأثير العلل والأسباب الطبيعية، فبالإضافة إلى مخالفته للوجدان الذي يلمس بها لا شكّ فيه تأثير تلك العلل والأسباب .

نقول: كيف يمكن إنكار تأثير العلل والأسباب الطبيعية في معلولاتها ونحن نجده سبحانه يصرّح في تأثير الماء في إخراج الثمر مثل قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾.[1]

من هذا المنطلق نذعن بأنّ المشيئة الإلهية اقتضت بأنّه ينبغي على الإنسان ـ

---

١. البقرة:٢٢.

في نفس الوقت الذي يذعن فيه بأنّ الفاعل الحقيقي والمستقل هو الله سبحانه وتعالى ـ أن يتوسّل بالأسباب والعلل الطبيعية لتحصيل مآربه ونيل مراده، وهذا الأصل يجري حتى في الأُمور المعنوية كذلك، فالفيض الإلهي والهداية الربانية لا تفاض على الإنسان في الأعمّ الأغلب بصورة مباشرة بل تفاض عليه من خلال الوسائط والأسباب الأُخرى كالفطرة، والعقل، والأنبياء والرسل والعلماء و... ففي الوقت الذي نرى فيه القرآن الكريم ـ و في موارد متعدّدة ـ يعد الهداية من فعله سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾[1] نراه مع ذلك في آية أُخرى يعتبر النبي الأكرمﷺ من الهادين إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[2]

ولا منافاة بين الآيتين أبداً، فنسبة الهداية إليه سبحانه، لأنّه هو الأصل والمصدر المستقل الذي تصدر منه تلك الهداية بالاستقلال ومن دون الاتّكاء على شيء آخر، وكذلك تنسب الهداية إلى النبي باعتباره الواسطة والوسيلة لهذا الفيض الإلهي.

ثمّ إنّ الموقف الذي يتّخذه البعض من ذوي الرؤية القاصرة تجاه المسلمين الذين يعتمدون الأسباب والسبل التي أباحها سبحانه وأجاز التوسّل بها للوصول إلى نيل مرضاته والفوز بنعيم الدنيا والآخرة، معتبرين انّ ذلك التوسّل واعتماد الأسباب أمراً منافياً لمفهوم التوكّل أو الرازقية!! لا ريب أنّه موقف نابع من الجهل بالمفاهيم الإسلامية والمعارف القرآنية الدقيقة وقصر باعهم في حقل التفسير وبيان المعارف التي جاء بها الرسول الأكرمﷺ.

---

١. فاطر:٨.

٢. الشورى:٥٢.

فإنّ طرق باب الأسباب والسعي والمثابرة على تحصيلها لا يُنافي التوحيد والتوكل عليه سبحانه طرفة عين أبداً، لأنّ الموحّد حينما يطرق باب الأسباب الطبيعية أو غيرها إنّما يطرقها وهو يعلم علم اليقين انّها أسباب وعلل تبعية، كلّ ما يصدر منها إنّما هو تجليات ومظهر للإرادة الفاعلة المطلقة المتمثّلة به سبحانه.

وبالطبع لا فرق هنا بين الطلبات التي يبغيها المتوسل، مادية كانت أم معنوية.

من هنا نجد القرآن الكريم يحثّ المؤمنين الموحّدين على طلب الوسيلة واعتماد طريق الأسباب والوسائط حيث يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[1]

وينبغي هنا أن نتعرف على المراد من «تحصيل الوسيلة» الوارد في الآية، وما المقصود منه؟

لقد ذكر أصحاب المعاجم اللغوية ثلاثة استعمالات أو معان للوسيلة هما:

١. المقام والمنزلة:

قال في «مجمع البيان»: وقيل الوسيلة أفضل درجات الجنة، وروي عن النبي ﷺ أنّه قال:

«سلوا الله لي الوسيلة فإنّها درجة في الجنة...».[2]

٢. الوسيلة: القربة، ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرّب به

---

١. المائدة:٣٥.

٢. مجمع البيان:٣/ ٢٩٣.

إليه.[١]

٣. تحصيل أسباب التقرّب:

قال في «النهاية»: الوسيلـة هي في الأصل،ما يتوصّل به إلى الشيء ويتقرّب به.[٢]

ومن المسلم به أنّ المعنى الأوّل ليس هو المراد، لأنّه ــ وطبقاً للروايات ـ انّ مقام النبي الأكرم ومنزلتـه لدى الله سبحانه وتعالى لايدانيه فيهـا أحد ولا يشاركه فيها غيره مهما كان.

فلابدّ من تفسير الآية بأحد المعنيين الأخيرين، والظاهر انّ المراد من الآية هو المعنى الثالث، بشهادة انّه سبحانه بعـد أن أمر بتحصيل الوسيلة أردفه بالأمر بالجهاد الذي هو أحد مصاديق وسائل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

ويظهر ذلك أيضاً من كـلام سيّد الوصيينعليه السلام حيث فسّر الوسيلة بمعنى تحصيل أسباب التقـرّب إليه سبحانـه، حيث قالعليه السلام: «إنّ أفضل مـا توسّل بـه المتوسّلون إلى الله تعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله... وإقام الصلاة فإنّها الملّة، و إيتاء الزكاة».[٣]

ومن الواضح أنّهعليه السلام قد ذكر في خطبته مجموعة من الفرائض الشرعية التي هي وسيلة وسبب للتقرّب إلى الله سبحانه.

فالآية الكريمة ترشدنا ـ وبحكم العقل ـ وتبين لنا الطريق حيث تقول: إنّ على الإنسان إذا أراد تحصيل غاياته ومقاصده المعنـوية كالتقرّب من الله سبحانه،

---

١. لسان العرب: ١١/ ٧٢٤، مادة «وسل».

٢. النهاية:٥/ ١٨٥، مادة «وسل».

٣. نهج البلاغة: الخطبة١١٠.

أن يسلك طريق التوسّل المشروع لنيل ذلك، فمن ابتغى رضا الله تبارك وتعالى عليه أن يتوسّل بالأعمال الصالحة التي يكتسب بها رضاه،ومن طلب استجابة دعائه يتوسّل بشيء جُعل في الشريعة وسيلة لها،ومن أراد زيارة بيت الله الحرام يتوسّل بما يوصله إليه، وفي الحقيقة أنّ المسألة تشبه التوسّل بالأسباب والعلل لتحصيل المقاصد الدنيوية.

نعم هناك نكتة مهمة ينبغي الالتفات إليها وهي: انّ الوسيلة في الأُمور المعنوية ينبغي أن تحدّد من قبل الشارع نفسه، لأنّ العقل البشري أقصر من أن يدرك أو يحدد وسائل التقرّب ونيل المغفرة التي يتوخّاها الإنسان.

كما أنّه لا يظن البعض أنّ هذه الآية المباركة هي كافية بوحدها لإثبات مشروعية التوسّل بالأنبياء والأولياء، بل الآية تثبت أصلاً كلّياً يدعمه العقل السليم. وأمّا ما هي مصاديق تلك الوسائل والوسائط التي ينبغي اعتمادها للتقرب منه سبحانه ونيل رضاه والزلفى إليه وتأمين الحاجات المعنوية، فالعقل قاصر عن تحديدها وبيانها، ولابدّ من الرجوع إلى الشارع نفسه ليعينه لنا، كما شاهدنا ذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث أشار إلى مجموعة من مصاديق ووسائل التقرب التي منها: الإيمان بالله والرسول ﷺ والجهاد في سبيل الله، والصلاة، والزكاة.

بعد أن عرفنا ذلك، حان الوقت لتسليط الضوء على أقسام التوسّلات المشروعة التي ندب إليها الشارع المقدس، وحثّ عليها النبي الأكرم ﷺ وخلفاؤه عليهم السلام، ومن هذه الوسائل:

١. التوسّل بأسمائه وصفاته سبحانه

من الوسائل التي حثّ الشارع المقدّس على اعتمادها والتوسّل بها: التوسّل بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، ولقد ركّزت الروايات الكثيرة على إبراز هذا النحو من الوسيلة وخاصّة الروايات والأدعية الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة، نكتفي بذكر حديثين فقط:

١. اخرج الترمذي عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، أنّ رسول الله سمع رجلاً يقول: اللّهمّ إنّي أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال النبي ﷺ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى».[1]

٢. روى الشيخ الطوسي في مصباحه عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، دعاءً باسم دعاء السمات ورد في مستهلّه:

«اللّهم إنّي أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعزّ الأجلّ الأكرم، الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة، انفتحت، وإذا دعيت به على مضايق أبواب الأرض للفرج، انفرجت، وإذا دعيت به على العسير لليسر تيسّرت...».[2]

ولا يفوتنا التذكير بدعاء الجوشن الكبير الذي يمثّل نموذجاً بارزاً لهذا النوع من التوسّل، الذي يقرأه الجميع في ليالي القدر المباركة.

---

١. سنن الترمذي: ٥/ ٥١٥، الحديث ٣٤٧٥، الباب ٦٥ من كتاب الدعوات.

٢. مصباح المتهجد: ٣٧٤.

إنّ ثناء الله وتقديسه ووصفه بما وصف به نفسه في كتابه وسنّة نبيّه، يوجد أرضية صالحة لاستجابة الدعاء ويكشف عن استحقاق الداعي لرحمته وعفوه وكرمه.

ثمّ إنّ هذا القسم من التوسّل ممّا اتّفقت عليه الأُمّة سلفها وخلفها ولم يذكر فيه أيّ خلاف.

٢. التوسّل بالقرآن الكريم

من الوسائل التي حثّت الشريعة على اعتمادها كوسيلة للتقرّب منه سبحانه ونيل مرضاته ومغفرته: التوسّل بتلاوة القرآن وقراءته، وفي الحقيقة أنّ هذا النوع من التوسّل يمثّل في واقعه التوسّل بفعل الله سبحانه وتعالى، فالتوسّل بالقرآن والسؤال به، توسّل بفعله سبحانه ورحمته التي وسعت كلّ شيء، لأنّ القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على قلب نبيه ﷺ.

ومع ذلك كلّه ينبغي على الإنسان المسلم التحقّق من وجود الدليل على جواز هذا النوع من التوسّل، لأنّ كلّ ما يقوم به الإنسان المسلم ـ من التوسّلات ـ ينبغي أن لا تخدش أصل التوحيد، وحرمة التشريع. ومن حسن الحظ أنّنا نجد الكثير من الروايات التي تؤكّد مشروعية هذه الوسيلة، منها:

روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين أنّه مرّ على رجل يقصّ، فقال عمران: إنّا لله و إنّا إليه راجعون، سمعت رسول الله يقول: «اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى من قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس».[1]

والإمعان في الحديث يرشدنا إلى حقيقة ناصعة وهي جواز السؤال بكلّ

١. مسند أحمد: ٤/ ٤٤٥. ورواه في كنز العمال عن الطبراني في الكبير،والبيهقي في شعب الايمان لاحظ ج١، ص ٦٠٨ برقم ٢٧٨٨.

شيء له عند الله منـزلة وكرامة وما وجه السـؤال بالقرآن إلاّ لكونه عـزيزاً عند الله، مكرّماً لديه، وهو كلامه وفعله، ولذلك ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام: انّه يستحبّ في ليلة القـدر أن يفتح الإنسان القرآن ويقول: «اللّهمّ إنّي أسألك بكتـابك المنزل وما فيـه، وفيه اسمك الأكبر، وأسماؤك الحسنى، ومـا يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار».[1]

٣. التوسّل بالأعمال الصالحة

لقد ذكرنا في صدر البحث انّ تحديـد السبل والوسائط في تحقيق الأهداف المادية والأغـراض الدنيوية هـو من وظائف ومهام العقل، فهـو الذي يحدد ومن خلال التجربة، الـوسائل النافعة والحلول الناجعة التي تحقّق للإنسـان ما يرومه، كما يحدد الوقت المنـاسب والظرف المواتي لكلّ ذلك، فلـرفع العطش أو الجوع أو المرض، أو تحصيل وسائل الـرفاه ومـا شابـه ذلك من الأُمور الماديـة يكون للعقل والفكـر دوره البارز في تحديـد ما ينفع ومـا يضرّ من الوسـائل فيها،وأمّـا في مجال الأُمور والأهداف المعنوية فالعقل قـاصر عن تحديد الوسائل التي يمكن اعتمادها لتحقيق تلك الأغراض ونيل الأهـداف المرجوة بـالنحو الأكمل، فلابـدّ من طرق بـاب الغيب والاستعانـة به ليحـدده لنا وانّـه من دون الاعتماد على عنصر الغيب وتحديـده للـوسائل التي ينبغي التـوسّل بها، لا يمكن وصف الأُمـور بأنّها وسيلـة للتقرب إلى الله تعالى، بل يـدخل ذلك في «البدعة» المحرمـة. ومن هنا ينبغي على الإنسان المسلم أن يتـوسّل لتحديـد الوسـائل المعنوية بـالكتاب والسنّـة المطهرة ليحددان له تلك الوسائل التي يجوز له اعتمادها.

---

١. إقبال الأعمال: ٤١.

وإذا نظرنا إلى هـذه الوسيلة الثالثة «العمل الصـالح» نقول: صحيح أنّه لا يوجـد تصريح في آيات الذكر الحكيـم باعتمادها، إلاّ أنّنا نجـد في بعض الآيات تلميحاً إليه، أضف إلى ذلك انّ السنّـة النبويـة صرّحت بـذلك بصورة واضحـة وجليّة.

ولا شكّ أنّ العمل الصالح أحسـن شيء يتقرب به الإنسـان إلى الله تعالى، وأفضل وسيلـة يتمسّك بها فتكـون نتيجة التقـرب هي نـزول الـرحمة الإلهية عليـه وإجابة دعائه.

وهانحن نشير إلى بعض الآيـات والروايات الواردة في هـذا المجال، والتي منها:

١. قولـه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَـعُ إبراهيمُ الْقَواعِـدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعيـلُ رَبّنا تَقَبَّلْ مِنّـا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنـا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَـكَ وَمِنْ ذُرِّيّتنا أُمَّـةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحيم﴾.[١]

ترى أنّ إبـراهيم وولدهعليهما السلام يقدمـان إلى الله تبارك وتعـالى وسيلة وهـي بناء البيت، فعند ذلك طلبا من الله سبحانه عدّة أُمور، هي:

أ. طلب قبول العمل منهما: ﴿تقبّل منّا﴾.

ب. التوسّل إليه سبحانه أن يهبهما روح التسليم والخضوع له: ﴿واجعَلْنا مُسلمين لك﴾.

ج. طلبا منه سبحانه أن يعلمهما مناسك الحجّ: ﴿وَأَرِنا مناسكنا﴾.

د. المنّ عليهما بالرحمة والتوبة﴿وتُبْ عَلَينا﴾.

---

١. البقرة: ١٢٧ـ١٢٨.

٢ . قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .[١]

ترى أنّه عطف طلب الغفران بالفاء على قوله : ﴿رَبّنا إِنّنا آمنّا﴾ ، وهذا يعرب عن وجود الصلة بين الإيمان وطلب المغفرة .

وأنت إذا سبرت الآيات الكريمة تقف على نظير ذلك ، لكنّها جميعاً من قبيل التلميح لا التصريح . غير أنّ السنّة النبوية الشريفة قد تكفّلت بالتصريح بأنّ العمل الصالح الذي يقوم به الإنسان هو أحد مصادر نزول الرحمة الإلهية ، فيه تنزل الرحمة ويستجاب الدعاء ، وبالنتيجة هو أحد أسباب ووسائط التوسّل إليه سبحانه .

فلقد روى الفريقان القصة التالية :

روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «بينما ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر . فآووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنّه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلاّ الصدق ، فليدع كلُّ رجل منكم بما يعلم أنّه قد صدق فيه .

فقال واحد منهم : اللّهمّ إن كنت تعلم أنّه كان لي أجير عملَ لي على فرق من أرُز ، فذهب وتركه ، وانّي عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أنّي اشتريت منه بقراً ، وأنّه أتاني يطلب أجره ، فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسقها ، فقال لي : إنّما لي عندك فرق من أرُز ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنّها من ذلك الفرَق ، فساقها ، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ،

---

١ . آل عمران:١٦ .

ففرج عنّا، فانساحت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللّهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كلّ ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنّا لشربتهما، فلم أزل انتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنّا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللّهمّ إن كنت تعلم أنّه كان لي ابنة عم من أحبّ الناس إليّ وإنّي رواودتها عن نفسها فأبت إلاّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها... إلى أن قال: فتركتها وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم، فخرجوا». [1]

وقد روى المحدّث البرقي أحمد بن خالد(المتوفّى ٢٧٤هـ) القصة في محاسنه بالنحو التالي:

عن عبد الرحمن بن أبي نجران، عن المفضل بن صالح، عن جابر الجعفي، يرفعه قال: قال رسول الله ﷺ: «خرج ثلاثة نفر يسيحون في الأرض فبينما هم يعبدون الله في كهف في قلّة جبل حتّى بدت صخرة من أعلى الجبل حتّى التقمت باب الكهف، فقال بعضهم لبعض: عباد الله، والله ما ينجيكم ممّا وقعتم إلاّ أن تصدّقوا الله، فهلمّوا ما عملتم لله خالصاً، فإنّما اسلمتم بالذنوب.

١. صحيح البخاري:٤/ ١٧٣، كتاب الأنبياء، الباب٥٣؛ ورواه أيضاً في ج٣/ ٦٩، في كتاب البيوع الباب٩٨.

فقال أحدهم: اللّهمّ إن كنت تعلم أنّي طلبت امرأة لحسنها وجمالها، فأعطيت فيها مالاً ضخماً، حتّى إذا قدرت عليها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة وذكرت النار، فقمت عنها فزعاً منك، اللّهم فارفع عنا هذه الصخرة، فانصدعت حتى نظروا إلى الصدع. ثمّ ذكر البرقي باقي القصة باختلاف يسير.(١)

ومن الواضح من هذه الرواية التي رواها الفريقان باختلاف في اللفظ انّ الهدف والغاية من تحديث النبي ﷺ بما ذكر هو تعليم أُمّته حتّى يتّخذوا ذكر العمل الصالح وسيلة لاستجابة دعوتهم ولو كان ذلك من خصائص الأُمم الماضية لصرّح به.

٤. التوسّل بدعاء الرسول الأكرم ﷺ

إنّ النبي الأكرم ﷺ هو سيد الخلق على الإطلاق، وأنّه أشرف مخلوق وطأت قدماه هذا الكوكب، وأنّ له منزلة مرموقة عند ربّه لا يدانيه فيها أحد، ولقد بلغت عناية القرآن الكريم ببيان نواح من مناقبه وخصاله وسجاياه إلى حدّ لا ترىٰ مثل ذلك إلاّ في حقّ القليل من أنبيائه، ولقد كانت تلك الآيات بحد من الكثرة بحيث لا يسع المقام لذكرها جميعاً هنا.

فلقد بلغت منزلته ومقامه ﷺ درجة عدّه فيها القرآن الكريم أحد الأمانين في الأرض من نزول العذاب، فقال عزّ من قائل:

﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

---

١. نور الثقلين: الجزء الثالث في تفسير قوله: ﴿**أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾(الكهف:٩)، نقلاً عن محاسن البرقي في تفسير الآية.

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .[١]

كما بلغت كرامـة الرسول ـ عند الله ـ إلى حدّ قرنت طاعتـهﷺ بطاعة الله سبحانه حيث قال تعالى :

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ .[٢]

فهذه الآية وغيرها من الآيات تحكي جميعاً كرامته ومنزلته العالية لدى الله سبحانـه المنزلة التي لا يـدانيه فيها أحد على صفحـة الوجود ولا نظيـر لها في عالم الخلـق، ومن له هذا المقـام السامي لا يـرد دعاؤه، لـذلك أمر المـذنبون بالمجيء إلى الرسول الأكرمﷺ والاستغفار لديه والطلب منه أن يستغفر الله لهم كما قال تعالى :

﴿وَمَـا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُـولٍ إلاّ لِيُطاعَ بِـإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَـرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَـوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ .[٣]

ثمّ إنّ هناك آيات أُخرى تؤكّد أنّ التوسّل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجاً في الرسالات السـابقة فنرى أنّ أبناء يعقوب بعدمـا انكشف أمرهم وبان ظلمهم توسّلوا بدعاء أبيهم وقالوا له :

﴿يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنـا إِنّا كُنّا خاطِئِين * قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم﴾ .[٤]

---

١. الأنفال:٣٣.

٢. الأحزاب:٧١.

٣. النساء:٦٤.

٤. يوسف:٩٧ـ٩٨.

ولا ريب ولا شكّ في جواز هذا النوع من التوسّل بحيث لم يناقش فيه أحد ولا يوجد فيه مخالف، ولكن المهم معرفة السبب والاطلاع على العلة التي جعلت دعاء الأنبياء مستجاباً، فما هي هذه العلّة والسبب؟

إنّ السبب الواقعي لاستجابة دعائهم عليهم السلام انّما يكمن في روحهم الطاهرة ونفوسهم الزكية، وقربهم من الله سبحانه، فهي التي تضفي على الدعاء أثراً وتجعله صاعداً ومدعماً لدعاء الغير، وممّا لا ر يب فيه أنّ الدعاء النابع من النفوس الزاكية والأرواح الطاهرة والقلوب التي ملؤها الحب لله والرحمة لعباد الله، لا يوجد أمامه أي مانع من موانع قبوله، فلذلك يقبل من دون ترديد.

نعم هناك بحث وكلام في اختصاص ذلك الأمر ـ قبول الدعاء والتوسّل ـ بحياة النبي الجسمانية، أو يعمّ حياته البرزخية التي فيها يُرزق ويفرح ويستبشر، فهناك من يخص الآية بحياته الجسمانية بحجة ورود ذلك فيها، ولكن الأدلّة التي سقناها في بحث الزيارة تثبت عدم وجود الفرق بين الحياتين، وأنّه صلى الله عليه وآله وسلم قادر في الحياتين على طلب المغفرة من الله سبحانه لمن توسّل به وجعله واسطة بينه و بين ربّه، وسيأتي المزيد من التفصيل في النقطة السادسة.

٥. التوسّل بدعاء الأخ المؤمن

من الأسباب التي جعلها الله تعالى وسيلة لاستجابة الدعاء هو التوسّل بدعاء الأخ المؤمن.

وقد دلّت الآيات على أنّ الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، وأنّ المؤمنين اللاحقين يستغفرون للسابقين، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ .[١]

وقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .[٢]

يظهر من الآيات المذكورة أنّ دعاء حملة العرش واللاحقين من المؤمنين سبب صالح لاستجابة الدعاء، فينبغي على المسلم الواعي التمسّك بهذا الحبل وهذا السبب وطلب الدعاء منهم، ليكون ذلك سبباً لفوزه برضى الله وغفرانه .

ويكفي في الدلالة على استحباب طلب دعاء الأخ المؤمن، ما رواه مسلم في صحيحه من أنّ النبيّ الأكرم ﷺ مع علو شأنه وعظم منزلته ورفيع مقامه يطلب من أُمّته أن تدعو له، فقال ﷺ :

«اسألوا الله لي الوسيلة فإنّها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة» .[٣]

فهذا الحديث يدلّ بظاهره على أنّ الرسول ﷺ يتوسّل إلى الله تعالى بدعاء أُمّته له، أن يؤتيه الوسيلة والمقام المحمود في الجنة، ويكون جزاؤه شفاعته في

١. غافر:٧.

٢. الحشر:١٠.

٣. صحيح مسلم:٢/ ٤، كتاب الصلاة، الباب٦؛ سنن الترمذي:٥/ ٢٤٨ برقم٣٦٩٤، كتاب المناقب، الباب الأوّل.

حقّهم. فإذا كان هـذا حال النبي فنحن من باب أولى يحق لنـا أن نتمسّك بهذه الوسيلة.

وبمـا أنّ هـذا النوع من التـوسّل من الأُمـور المتّفق عليهـا بين المسلمين لذلك نمسك عنان القلم مكتفين بهذا المقدار من الكلام.

٦. التوسّل بدعاء النبي الأكرم ﷺ بعد رحيله

أثبتت البحـوث السابقـة أنّ سيرة المسلمين كـانت قـائمة على التـوسّل بدعاء النبي ﷺ في حـال حياته وانّه كـانت أبواب الرحمة مفتحـة أمام المذنبين والعاصين منهم انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾.[١]

فقـد كـانت السبيل أمـامهم مشـرعـة للمجيء إلى الـرسـول ﷺ وطلب الاستغفار منه.

ولقد ذمّ القرآن الكريم المنافقين لعدم استفادتهم من بحر الرحمة الإلهية الزاخر، وعـدم استغلال وانتهاز تلك الفرصة الـذهبية والولوج من نافـذة الرحمة التي فتحها الله أمام المذنبين حيث قال تعالى في وصفهم:

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾.[٢]

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: صحيح أنّ باب الرحمة والفيض الإلهي

---

١. النساء:٦٤.

٢. المنافقون:٥.

كان مفتوحاً في حياة الرسول الأكرمﷺ ولكن بعد رحيلهﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى هل بقي هذا الباب على ما هو عليه، بحيث يحقّ للمسلمين التوسّل بدعائه والوقوف في حضرته وطلب الاستغفار منه﴿**ولو انّهم إذ ظلموا أنفسهم**﴾ أم أنّ الباب أوصد برحيلهﷺ؟

والجواب: لا ريب أنّ سيرة المسلمين قاطبة من عصر الصحابة والتابعين وحتى عصرنا الحاضر قائمة على التوسّل بدعائهﷺ بعد رحيله ولحوقه بالرفيق الأعلى وماكانوا يرون فرقاً بين الحياتين، فمن تصفح سيرة المسلمين ورجع إلى غضون الكتب وشاهد عملهم في المسجد النبوي قرب مزاره الشريف، يلمس بسهولة استقرار سيرتهم على التوسّل بدعائه من غير فرق بين حياته الدنيوية وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فبالإضافة إلى السيرة المذكورة نجد انّ نفس متن الزيارة التي نقلها الشيعة والسنّة على السواء تتضمن الطلب المذكور، ولكي يطمئن القارئ الكريم نأتي ببعض الكلمات التي رواها كبار العلماء من أهل السنّة في هذا المجال وليتّضح أنّ منهج السلف في الزيارة هو نفس المنهج القائم الآن بين أوساط المسلمين، ومن هذه الكلمات:

١. قال زكريا محيي الدين النووي(٦٣١ـ٦٧٦هـ): ثمّ يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر... ثمّ يسلّم ولا يرفع صوته، بل يقصد فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خيرة خلق الله ... ثمّ يقول: جزاك الله يا رسول الله عنّا أفضل ما جزى نبيّاً ورسولاً عن أُمّته، وصلّى عليك كلّما ذكرك ذاكر وغفل عن ذكرك غافل، ... إلى أن يقول: اللّهمّ آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، و آته نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون.

ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال: وكنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿**وَلَو انهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسهُمْ جاءُوكَ فَاستَغْفَروا اللهَ واستَغْفَر لَهُمُ الرَّسُول لَوَجَدُوا الله تَوابّاً رَحيماً**﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربّي ثمّ أنشأ يقول:

يا خير من دفنت في القاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم[1]

ولا يتصوّر أحد أنّ القول بصحّة طلب الدعاء من النبي ﷺ يختص بالنووي وبعض أساتذته، بل روى ذلك النحو من الزيارة محدّثون وفقهاء آخرون في كتبهم أيضاً.

٢. نقل ابن قدامة الحنبلي (المتوفّى ٦٢٠هـ) في باب آداب زيارة النبي ﷺ ـ بعد أن ذهب إلى استحباب زيارة قبر النبي ﷺ ـ عن أبي هريرة أنّه قال:

ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ لما روى الدارقطني باسناده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي».

وفي رواية: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

وعن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «ما من أحد سلّم عليّ عند قبري إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام».

---

١. كتاب المجموع (شرح المذهب للشيرازي):٨/ ٢٥٨، ط مكتبة الإرشاد.

ثمّ نقل عن العتبي قصة الأعرابي المذكورة آنفاً. (١)

٣. نقل السمهودي عن كتاب «المستوعب» لمحمد بن عبد الله السامري الحنبلي زيارة الرسول الأكرم بالصورة التالية: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله... اللّهمّ إنّك قلت في كتابك لنبيّك ﷺ: ﴿**ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك**﴾ وانّي قد أتيت نبيّك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللّهم إنّي أتوجّه إليك بنبيّك ﷺ. (٢)

٤. نقل الغزالي (المتوفّى ٥٠٥هـ): في باب زيارة المدينة وآدابها، الزيارة بصورة مفصّلة، فبعد أن ذكر الآداب وطريقة الوقوف والخطاب ثمّ التوجه إلى الرسول الأكرم بالتحية والسلام؛ قال: ثمّ يرجع ـ الزائر ـ فيقف عند رأس رسول الله ﷺ ـ بين القبر والاسطوانة اليوم ـ ويستقبل القبلة وليحمد الله عزّ وجلّ وليمجّده، وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، ثمّ يقول: اللّهمّ إنّك قد قلت وقولك الحقّ ﴿**ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رَحيماً**﴾، اللّهم إنّا قد سمعنا قولك، وأطعنا أمرك وقصدنا نبيّك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللّهم علينا، وشفّع نبيّك هذا فينا، وارفعنا بمنزلته عندك وحقّه عليك. (٣)

٥. ونقل الشيخ حسن بن عمار الشرنبلاني في كتاب «مراقي الفلاح» زيارة النبي ﷺ بالشكل التالي: «السلام عليك يا سيّدي يا رسول الله، السلام

---

١. المغني لابن قدامة: ٣/ ٥٨٨، مع الشرح الكبير.

٢. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٧٦.

٣. إحياء علوم الدين: ١/ ٢٢٩ـ ٢٣٠.

عليك يا نبي الله ... انّ الخطايا قد قصمت ظهورنا، والأوزار قد أثقلت كواهلنا وأنت الشافع المشفّع، الموعود بالشفاعة العظمى والمقام المحمود والوسيلة، وقد قال الله تعالى: **﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رَحيماً﴾**، وقد جئناك ظالمين لأنفسنا، مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا إلى ربّك». [١]

هذه بعض النماذج أوردناها من كتب الإخوة أهل السنّة، والمراجع للمصادر الشيعية يجد أنّ الآية التي ذكرها علماء أهل السنّة في الزيارة قد أوردها أيضاً علماء الشيعة، منهم:

٦. السيد ابن طاووس (المتوفّى ٦٦٤هـ) حيث نقل عن الإمام الصادق عليه السلام كيفية الزيارة بالصورة التالية: «اللّهمّ إنّك قلت لنبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رَحيماً﴾**، ولم أحضر زمان رسولك، وقد زرته راغباً تائباً من سيّئ عملي، ومستغفراً لك من ذنوبي ومقرّاً لك بها». [٢]

إنّ هذه النماذج التي نقلناها من آداب الزيارة تتّفق جميعها على الاستشهاد بالآية، وإنّ على زائر المدينة على صاحبها آلاف التحية والسلام أن يتلو الآية المذكورة. وفي الحقيقة أنّ الإمعان في الآية يكشف عن أنّها تضع تكليفاً على كاهل المكلّف وآخر على كاهل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أمّا التكليف الذي يقع على كاهل المكلّف فهو أن يأتي إلى حضرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ويستغفر الله لديه ويطلب منه الاستغفار.

---

١. الغدير: ٥/ ١٣٩ نقلاً عن مراقي الفلاح.

٢. إقبال الأعمال: ٦٠٦.

وأمّا التكليف الذي يقع على عاتق الرسول ﷺ فيتمثّل بالاستغفار للزائر إذا جاء إلى حضرته وطلب ذلك منه.

ثمّ إنّ الملاحظ من مجموع الآداب والسنن الخاصة بالزيارة انّها تعتبر التوسّل بعد رحيله ﷺ كالتوسّل به في حال حياته ﷺ، وانّه لا فرق أبداً بين الحالتين في اعتماد هذه الوسيلة للتقرّب إلى الله وطلب المغفرة منه.

ابن تيميّة وأتباعه

ذهب ابن تيمية وأتباعه إلى التفريق بين طلب الدعاء في حال الحياة فقالوا بجواز ذلك و بين طلبه بعد وفاته فقالوا بحرمته، قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿**وابْتَغُوا إِليهِ الوَسِيلَةَ**﴾: وتحقيق الكلام في المقام أنّ الاستغاثة بمخلوق وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شكّ في جوازه إن كان المطلوب منه حيّاً، وأمّا إذا كان المطلوب منه ميّتاً أو غائباً فلا يستريب عالم أنّه غير جائز وانّه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف.[1]

وفي مقام الرد على هذا الكلام لابدّ من تحديد منزلة الرسول الأكرم ﷺ لدى الله سبحانه، تلك المنزلة التي دعت إلى أن يحضر المذنبون لديه ﷺ والاستغفار عنده وطلب الاستغفار منه، فهل هذه المنزلة وذلك المقام نابعان من الوضع الجسماني والعنصر المادي للرسول ﷺ بحيث بمجرد انتهاء هذا العنصر بسبب الموت تنتهي جميع لوازمه وتوابعه، أو أنّ تلك المنزلة والمقام يرتبطان بالعنصر الروحي والنفس الزكية والطهر المعنوي له ﷺ؟

---

١. روح المعاني:٦/ ١٢٥ والآية ٣٥ من سورة المائدة.

لا ريب أنّ الفرض الأوّل مخالف لحكم العقل والشرع معاً، لأنّنا قد أثبتنا في موضوع الحياة البرزخية انّ واقع الإنسان وسموه وتكامله يكمن في روحه لا في بدنه، وأثبتنا أيضاً انّ للروح حياة أُخرى مستمرة وخالدة وانّ الموت لا يُمثل نهاية الحياة وانعدامها، بل هو في الحقيقة يمثّل بداية حياة جديدة أُخرى، وعلى هذا الأساس تكون جذور منزلة الرسول الأكرم ومقامه ممتدة في عظمة روحه وكرامتها المعنوية، وانّ هذه المنزلة وتلك العظمة والكرامة باقية بعد رحيله ﷺ عن هذه الدنيا.

كما أثبتنا أيضاً في البحوث السابقة انّ العلاقة والصلة بين الحياتين المادية والبرزخية قائمة ولم تنقطع، وأثبتنا بالأدلّة القطعية انّ الأموات يسمعون كلامنا كما كانوا في الحياة الدنيا.

من هذا المنطلق يكون تخصيص مفاد الآية ﴿**ولو انّهم إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جاءُوك ...**﴾ بالحياة الدنيوية فقط، تخصيص لا أساس له من الصحّة ولا يقوم على قواعد علمية ولا يدعمه الدليل.

وبعبارة أُخرى: نسأل المنكرين للتوسّل بدعاء النبي ﷺ بعد رحيله، لماذا لا تجوّزون ذلك؟

هل لأنّ جميع فضائله ﷺ ترتبط بالعنصر المادي من حياته والتي تفنىٰ بعروض الموت عليه ومع فناء ذلك العنصر تفنى جميع تلك الكرامات والفضائل؟!

أم لأنّ الموت في الحقيقة يمثّل نهاية حياة البشر عامة والرسول ﷺ خاصة بحيث لا توجد حياة أُخرى أبداً، وأنّه ﷺ ليس بحي يرزق عند ربّه سبحانه؟!

وهل ـ على فرض الإذعان بوجود حياة أُخرى ـ انّ العلاقة بينه و بيننا

انقطعت بالكامل، ولا توجد الآن أية صلة تربط بيننا؟

ولا شكّ أنّه لا يمكن قبول الفروض الثلاثة، وحينئذٍ لابدّ من الإذعان ببقاء التوسّل بدعائه ﷺ في الحياتين (الدنيوية والبرزخية) على حدّ سواء.

والجدير بالذكر أنّ الشيخ خليل بن أحمد السهارنپوري قد جمع فتاوى ٧٥ عالماً من علماء أهل السنّة، في جواز التوسّل بالرسول الأكرم ﷺ، وقد ترجمها عبد الرحمن السربازي تحت عنوان «عقيدة أهل السنّة والجماعة في ردّ الوهابية» ونشرت الرسالة عام ١٣٧٠هـ ش. وممّا جاء فيها: عقيدتنا ـ كما هي عقيدة مشايخنا ـ انّ زيارة قبر سيد المرسلين من أكبر الطرق للتقرب إلى الله سبحانه، وانّها تنطوي على ثواب جم، وهي من أفضل الوسائل لنيل الدرجات السامية والمقامات الرفيعة، وانّه يجوز التوسّل بالرسول ﷺ والأولياء والصالحين والشهداء والصديقين في حال حياتهم ومماتهم على السواء.[1]

شبهات وردود

إلى هنا اتّضح وبصورة جلية جواز التوسّل بدعاء الرسول الأكرم ﷺ بعد رحيله، ولكن توجد في المقام مجموعة من الشبهات التي ينبغي طرحها والرد عليها لتتضح جميع أبعاد المسألة، ومن تلك الشبهات:

الشبهة الأُولى: طلب الدعاء من الميت يُعدّ شركاً بالله

يعتقد البعض أنّ طلب الدعاء من الإنسان الحي القادر على القيام بالدعاء أمرٌ جائز، ولكن طلب الدعاء من الميت شرك ينبغي التحرز منه

---

١. «عقائد أهل سنت و جماعت در وهابيت و بدعت»: ٨٦.

والاجتناب عنه.

وحينئذٍ لابدّ من بحث القضية لمعرفة هل انّ هذا التصوّر صحيح أم لا؟

جواب الشبهة

إنّ الشبهة المذكورة قائمة على اعتبار انّ طلب الدعاء من الميت يُعدّ نوعاً من العبادة له، وحينئذٍ يكون من قبيل الشرك في العبادة.

ولا ريب أنّ هذا التوهّم باطل، وذلك:

أوّلاً: إذا كان طلب الدعاء من الميت عبادة له فلا ريب يكون طلب الدعاء من الحي عبادة أيضاً، وذلك لأنّ ماهية العمل واحدة في الحالتين، لأنّها في الحقيقة«طلب من الغير مقترن بالخضوع» فعلى المستشكل إمّا أن يقبل بأنّ الحالتين من الشرك المحرّم، أو ينفي الشرك عن الحالتين على السواء، وأمّا التفريق بينهما بأن يقبل إحداهما وينفي الأُخرى فهو تفريق لا أساس له من الصحّة ولا يقوم على الدليل والبرهان.

ثانياً: انّنا قد فسّرنا العبادة في الفصل الرابع من هذا الكتاب بصورة منطقية، وقلنا هناك إنّه ليس كلّ خضوع أو دعاء أو نداء أو طلب هو عبادة، بل العبادة هو الخضوع المقترن باعتقاد خاص.

وبعبارة أُخرى: الخضوع أمام من يعتقد كونه ــ و العياذ بالله ــ ربّاً، أو الاعتقاد بأنّه مخلوق ولكن فوّض إليه فعل الربّ كما يعتقد ذلك الوثنيون وعبدة الأصنام.

وأمّا الخضوع المجرّد عن هذه المعتقدات الباطلة والواهية فليس بشرك.

وبعبارة أوضح: انّ الدعاء المقترن باعتقاد كون الطرف المدعو إنساناً ذا

شأن ومقام ومنزلة لدى الله سبحانـه، ومن هنا ينطلق الداعي ليتوسّل به ويطلب منه الدعاء له عند ربّه كما كان يفعل المسلمون في حياة الرسول الأكرمﷺ وبعد وفاته، فلا يُعدّ ذلك العمل مخالفاً للتوحيد والوحدانية أبداً.

الشبهة الثانية: لا جدوىٰ في طلب الدعاء من الميت

قد يقال: إنّ طلب الدعاء من الميت العـاجز عن استجابة دعاء الإنسان أمرٌ لا يجدي نفعاً ولا طائل فيه، وحينئذٍ يكون طلب الدعاء منه أمراً عبثياً وحالة لغوية لا فائدة فيها.

جواب الشبهة

إنّ هذه الشبهـة تنطلق من الـرؤية المـادية للأُمـور والتي تـرى أنّ الموت يمثل نهايـة الحياة وليس وراء هذه الحيـاة الدنيا شيء، ومن هنـا فإنّ الأموات ـ وفقـاً لهذه النظـرية ــ يعدمـون ويفنون بـالكامل، ولا معنى حينئـذٍ للطلب من المعدوم أو مخاطبته لأنّها أُمور لغوية وعبثية لا طائل فيها.

ويتّضح جواب هذه الشبهة من الأُصول المسلّمـة التي تعرضنا لبيانها في البحوث السابقـة وأثبتنا فيها انّ الموت لا يمثل نهاية الحيـاة، بل هو في الواقع مرحلـة انتقال من حياة إلى حيـاة أُخرى، وانّ الـذي يتعرض للفناء هـو العنصر المادي من الإنسان، وأمّـا العنصر الروحي فيبقى خالداً يحيـا حياة أُخرى يطلق عليها اسم الحياة البرزخية، فإذا كان موجوداً وحيّاً فحينئذٍ تصح مخاطبته وطلب الدعاء منه، وانّه قادر بإذن الله تعالى أن يلبّي طلبنا ويستجيب دعاءنا.

الشبهة الثالثة: وجود الحائل والمانع بين الأموات والأحياء

إنّ أصحاب هذه الشبهة يسلمون أنّ الموت لا يمثل نهاية الحياة وفناء الإنسان بالكامل، بل هناك عنصر مهم من الإنسان وهو الروح ينطلق إلى عالم آخر ليعيش فيه، ولكنّهم يرون في نفس الوقت انّ هناك حائلاً ومانعاً بين الأموات والأحياء أطلق عليه القرآن الكريم عنوان «البرزخ» حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١] وعلى هذا الأساس لا يتسنّىٰ للموتى أن يسمعوا دعاء الأحياء، وإذا لم يسمعوه فما الفائدة من مخاطبة موجود لا يسمع الكلام؟!

جواب الشبهة

صحيح انّ البرزخ لغة معناه الحائل والمانع، ولكن المقصود من المانع والحائل هنا، هو المانع والحائل من العودة إلى الحياةالدنيا، لا بمعنى الحائل والمانع من الارتباط والاتصال بهم، وانّ الإمعان في الآية المباركة يوضح لنا وبجلاء المعنى المقصود من البرزخ حيث يقول تعالى:

﴿حَتّىٰ إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاّ إِنّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾.[٢]

ومن الواضح أنّ الآية تشير إلى حقيقة جلية، وهي انّ المذنبين والمجرمين حينما يأتي أحدهم الموت ويواجه المصير المحتوم الذي طالما

---

١. المؤمنون: ١٠٠.

٢. المؤمنون: ٩٩ـ ١٠٠.

حاول التمـرّد عليه والفرار منـه، حينئذٍ يعـود إلى نفسه ويدرك الحقيقـة ويعرف قيمة العمل الصالـح في الدنيا، فيطلب من الله تعالى أن يسمح لـه بالعودة وأن يرجعه إلى الحياة الـدنيا ليتدارك ما فات ﴿ولاتَ حينَ مَناصٍ﴾[١]، وعندئذٍ جاء الـرد الإلهي بقولـه: ﴿كَـلاّ إِنَّهـا كَلِمَـةٌ هُوَ قـائِلُهـا وَمِنْ وَارئِهِمْ بَـرْزَخٌ إِلىٰ يَـوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[٢]

إذاً المراد من الحائل والمـانع هنا هو الحائل والمانع عن العـودة والرجوع إلى الحياة الدنيا، ولا علاقة لـلآية، بالمنع عن الارتباط ونفي الصلة بين الأحياء والأموات أبـداً، وبالنتيجـة تكون هـذه الشبهة واهيـة كسابقاتهـا ولا تبتني على أساس محكم ودليل قوي.

الشبهة الرابعة: النبي لا يسمع خطابنا ودعاءنا

تنطلق هـذه الشبهـة من الفكـرة التـاليـة: انّ القـرآن الكـريم حينمـا ذم المشركين في عـدم تأثرهـم بكلام الـرسولﷺ ودعوته وعـدم انصياعهم للحق، وصفهم بأنّهم كـالموتى، فقال تعـالى مخاطبـاً النبي الأكرم: ﴿إِنّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوتىٰ﴾[٣]، وفي آية أُخرى: ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.[٤]

وهذا تصريح واضح من القـرآن الكريم بأنّ الأصل المسلّم في أنّ الموتى لا يسمعون الخطاب، ولذلك شبه القـرآن الكريم المشركين بهم، ومن المعلوم أنّ الآيـات مطلقة تشمل جميع المـوتى بما فيهم الـرسولﷺ، ومن هنـا يمكن

---

١. ص:٣.

٢. المؤمنون:١٠٠.

٣. النمل:٨٠.

٤. فاطر:٢٢.

القول إنّ الرسول ﷺ بعد رحيله عن هذه الدنيا هو أيضاً لا يسمع الخطاب الموجّه إليه من الإنسان الحي، وفقاً لإطلاق الآيات المذكورة.

فإذا كان الرسول ﷺ لا يسمع دعاءنا وخطابنا فما هي الفائدة والثمرة من خطابه وطلب الدعاء منه؟!

جواب الشبهة

لا شكّ أنّه يوجد في كلّ عملية تمثيل أو تشبيه «وجه شبه» يدور حوله التشبيه أو التمثيل المذكور، فحينما نشبه: زيداً بالأسد ونقول: «زيد كالأسد»، أو «زيد أسد» فإنّ وجه الشبه هنا هو «الشجاعة» الموجود في المشبه والمشبه به.

وحينئذٍ لابدّ من التركيز على هذه النقطة لنرى ما هو وجه الشبه بين المشركين والأموات، أو بين المشبه والمشبه به في الآية؟

من المستحيل القول بأنّ وجه الشبه بينهما هو نفي السماع بصورة مطلقة، وذلك لأنّه على فرض صحّة ذلك في الميت وانّ الميت لا يسمع مطلقاً وانّه يفتقد للقوّة السامعة، ولكن ذلك لا يصحّ في حقّ المشركين، لأنّ المشركين يسمعون كلام الرسول ﷺ وكلام غيره ممّن يخاطبونهم ويتكلّمون معهم، وهذا أمر ثابت بالوجدان.

إذاً لابدّ من القول بأنّ وجه الشبه شيء آخر وهو: نفي السماع النافع والمفيد، بمعنى أنّه كما أنّ خطاب الميت ودعوته للقيام بالعمل الصالح لا تجدي له نفعاً، لأنّه قد انقضى زمان العمل، كذلك دعوة المشركين إلى الإيمان والعمل الصالح دعوة لا فائدة فيها ولا طائل وراءها، لأنّ المشرك يفتقد

كلّ المقومات الروحية التي توفر لـه أرضية قبول الدعوة والإذعان لها، وحينئذٍ لا فائدة من مخاطبته أبداً.

وتتّضح هذه الحقيقـة من خلال الآيات والروايـات الكثيرة التي وردت في إطار الحديث عن الحياة البرزخية للمؤمنين والمشركين.

وبعبارة مختصرة: انّ دعوة المشركين إلى العمل الصالح كدعوة الموتى، لا يجني صاحبها أية ثمرة من خطابه لهم، لأنّ الميت وإن كان يسمع الخطاب ولكنّـه لا يستجيب للقيام بـالعمل الصـالح، لأنّه قـد انقضى زمن ذلك، وأمّـا المشرك فإنّه هو الآخر لا يقوم بالعمل الصالح لا لأنّه لا يسمع، بل لأنّه لا تتوفر فيه الأرضية المناسبة للقيام بالعمل.

والجدير بـالذكر أنّ ابن قيم الجوزيـة تلميذ ابن تيمية فسّر الآيـة في كتابه «الروح» بنفس ما فسّرناها به[1]، ولا ريب أنّ تفسيره للآية بهذا النحو يعني عدوله عن نظرية أُستاذه ومخالفته له فيها.

هذه مجموعـة من الشبهات التي قد أُثيرت أو تثار حول النقطـة السادسة أي التوسل بدعاء الرسولﷺ بعد رحيله.

٧. التوسّل بذات الأنبياء والصالحين

كان الكـلام في التوسّل بدعـاء الأنبياء والصـالحين، بمعنى أنّ الإنسان المحتـاج يتوسّل إلى الله بـدعائهم ويطلـب منهم أن يدعـوا له بقضـاء حاجتـه وإنجاح طلبته، وفي الحقيقة يجعل دعاءهم وسيلته للتقرّب إلى الله تعالى.

---

١. انظر كتاب الروح: ٤٥ـ٤٦.

وأمّا البحث في هـذه النقطـة فيقـوم على أسـاس التـوسّل بنفس ذوات الأنبياء والصالحين وجعلهم وسيلة لاستجابة الدعاء، والاعتماد على ما لهم من المقام والمنزلة الرفيعة عند الله سبحانه.

وبعبارة أُخرى: انّ المتوسّل يجعل تلك الذوات الطاهرة والنفوس الزكية والشخصيات المثالية واسطة بينـه و بين ربّه ويتقرّب إلى الله بحرمتهم ومقامهم المعنوي، لأنّه يعلم أنّ لهم منزلة ومقاماً عند ربّهم، ولهذا التوسّل صور، منها:

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بخاصة أوليائك.

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بمقام ومنزلة أوليائك.

اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بنبيّك الأكرم وأهل بيته الطاهرين.

ففي هذه التوسّلات يجعل المتوسّل الواسطة للتقرّب بينه و بين ربّه نفس النبيﷺ والأوليـاء والصالحين، وهـذا النـوع من التوسّل بـالإضـافة إلى رواجـه وشيوعه في الأوساط العلمية، توجـد هناك رواية صحيحة تحت عنوان «حديث الضرير» رواها المخالفون وأذعنوا بصحّتها.

توسّل الضرير بنبي الرحمة

عن عثمان بن حنيف أنّـه قال: إنّ رجلاً ضريـراً أتى النبيّ فقال: أُدع الله أن يعافيني فقالﷺ: «إن شئت دعوتُ و إن شئت صبرت وهو خير».

قـال: فـادعه، قـال: فأمـره أن يتـوضّأ فيُحسن وضـوءه ويصلّي ركعتين ويـدعـو بهـذا الـدعـاء: «اللّهمّ إنّي أسألـك وأتـوجّـه إليك بنبيّك محمّـد نبيّ الرحمـة، يا محمـد إنّي أتوجّـه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللّهـم شفعه فيَّ».

قال ابن حنيف: فوالله مـا تفرقنا وطال بنا الحـديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرّ.[١]

إنّ الاستدلال بالرواية مبني على صحّتها سنداً وتمامية دلالتها مضموناً.

أمّا الأوّل: فلم يناقش في صحّتها إلاّ الجاهل بعلم الرجال، حتّى أنّ ابن تيمية[٢] اعترف بصحّـة الحديث حيث قال: قـد روى الترمذي حديثـاً صحيحاً عن النبي أنّه علّم رجلاً أن يدعو فيقول: اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك.

وروى النسائي نحو هذا الدعاء.

وقال التـرمذي: هذا حـديث حق حسن صحيح، وقال ابن ماجـة: هذا حديث صحيح.

وقال الرفاعي: لا شكّ أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور.[٣]

وبعد ذلك فلم يبق لأحـد التشكيك في صحّة سند الحديث إنّمـا الكلام في دلالته، وإليك البيان:

إنّ الحـديث يـدلّ بـوضـوح على أنّ الأعمـى تـوسّل بـذات النبي بتعليم منهﷺ، والأعمى وإن طلب الدعاء من النبـي الأكرم في بدء الأمر، إلاّ أنّ النبي علّمـه دعــاءً تضمّن التـوسّل بــذات النبي، وهـذا هـو المهـم في تبيين معنى الحديث.

وبعبارة ثانية: أنّ الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأوّل: أنّ الرجل طلب مـن النبيﷺ الدعاء ولم يظهـر منه تـوسّل بذات

١. سنن الترمذي: ٥/ ٢٢٩، كتاب الـدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٦٥٩؛ سنن ابـن ماجة: ١/ ٤٤١، برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد: ٤/ ١٣٨، إلى غير ذلك من المصادر.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ١/ ١٣.

٣. التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ١٥٨.

النبي.

الثاني: أنّ الدعاء الذي علّمه النبي، تضمّن التوسّل بذات النبي بالصراحة التامّة، فيكون ذلك دليلاً على جواز التوسّل بالذات.

وإليك الجمل والعبارات التي هي صريحة في المقصود:

١. اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك

إنّ كلمة «نبيّك» متعلّقة بفعلين، هما: «أسألك» و«أتوجّه إليك»، والمراد من النبي ﷺ نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاؤه.

وتقدير كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» حتّى يكون المراد هو «أسألك بدعاء نبيّك، أو أتوجّه إليك بدعاء نبيّك» تحكّم وتقدير بلا دليل، وتأويل بدون مبرّر، ولو أنّ محدثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدريّة.

٢. محمد نبي الرحمة

لكي يتّضح أنّ المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي ﷺ وشخصيته فقد جاءت بعد كلمة «نبيك» جملة «محمد نبي الرحمة» لكي يتّضح نوع التوسّل والمتوسّل به بأكثر ما يمكن.

٣. يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي

إنّ جملة «يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي» تدلّ على أنّ الرجل الضرير ـ حسب تعليم الرسول ـ اتّخذ النبي نفسه، وسيلة في دعائه أي أنّه توسّل بذات النبي لا بدعائه ﷺ.

٤. وشفّعه فيّ

إنّ قولـه: «وشفّعه فيّ» معناه يا رب اجعل النبي شفيعي، وتقبّل شفـاعته في حقّي، وليس معناه تقبل دعاءه في حقّي، فإنّـه لم يرد في الحديث أنّ النبي دعا بنفسه حتّى يكـون معنى هذه الجملة: استجب دعاءه فـي حقّي، ولو كان هناك دعـاء من النبي لذكـره الراوي؛ إذ ليس دعـاؤهﷺ من الأمور غيـر المهمة حتّى يتسامح الراوي في حقّه. وحتّى لو فرضنا أنّ معناه «تقبّل دعاءه في حقّي» فلا يضر ذلك بالمقصود أيضاً، إذ يكـون على هذا الفرض هناك دعاءان: دعاء الرسـول ولم يُنقل لفظه، والـدعاء الـذي علّمه الرسـول للضريـر، وقد جـاء فيه التصريح بالتوسّل بذات النبي وشخصه وصفـاته، وليس لنا التصرّف في الدعاء الذي علّمه الرسول للضرير، بحجّة أنّه كان هناك للرسول دعاء.

لقد أورد هذا الحديث النسائي والبيهقي والطبراني والترمذي والحاكم في مستدركه، ولكن التـرمذي والحاكم ذكرا جملة «اللّهمّ شفّعه فيـه» بدل «وشفّعه فيّ».

التوسّل بذات النبي بعد رحيله

إنّ الصحـابي الجليل عثمـان بن حنيف فهم من الحـديـث السـابق أنّ التوسّل بذات النبي وشخصـه يعمّ حياته ومماته، فلأجل ذلك عنـدما رجع إليه بعض أصحـاب الحاجـة علّمـه نفس الدعـاء الذي علّمـه الـرسول الأكـرمﷺ للضرير، ولحسن الحظ كان ما توصّل إليه ناجحاً.

روى الحـافظ سليمـان بن أحمد بن أيـوب اللخمي الطبـراني (المتـوفّى ٣٦٠هـ) عن أبي أُمامـة بن سهل بن حنيف، عـن عمّه عثمـان بن حنيف، أنّ

رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقىٰ ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إئت الميضأة فتوضّأ، ثمّ إئت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّدﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي» فتذكر حاجتك ورح إليّ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثمّ أتى باب عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فجاء البوّاب حتّى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له ثمّ قال له: ما ذكرتُ حاجتك حتّى كانت الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتّى كلمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدت رسول اللهﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبيﷺ: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ عليّ. فقال النبيﷺ: إئت الميضأة فتوضأ ثمّ صلّ ركعتين، ثمّ ادع بهذه الدعوات، قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط.[1]

إنّ دلالة الحديث على جواز التوسّل بذوات الصالحين، وأخصّ منهم الأنبياء أمر لا سترة فيه.

نعم أنّ بعض مَن لا يروقه هذا النوع من التوسّل كابن تيمية والسائرين

---

١. المعجم الكبير:٩/ ١٦ـ١٧، باب ما أُسند إلى عثمان بن حنيف، برقم ٨٣١٠؛ والمعجم الصغير له أيضاً:١/ ١٨٣ـ١٨٤.

على منهجه حينما يواجهون تلك الروايات الصحيحة والصريحة، يحاولون الخدش في دلالتها ودلالة غيرها من الروايات الصريحة في التوسّل بذات الرسول ﷺ باعتماد تأويلات باردة، حيث يذهبون إلى وجود التقدير في الحديث، ويقولون: إنّ هناك كلمة مقدرة وهي [الدعاء]، فيكون المقصود ـ حسب رأيهم ـ من جملة: «أتوجّه إليك بنبيّك» يعني «أتوجّه إليك بدعاء نبيّك».

ولا ريب أنّ هذه التأويلات نابعة من الأحكام المسبقة والاعتقادات الراسخة في أذهانهم، لأنّ هذا التقدير لا ينسجم مع جميع الفقرات والجمل الواردة في الحديث.

ثمّ لو كان الضرير قد توسّل حقيقة بدعاء النبي ﷺ، فلماذا! يعلّمه الرسول الأكرم طريقة التوسّل بأن يقول: «محمد نبي الرحمة» ويعلّمه أيضاً بأن يقول: «يا محمد إنّي أتوجّه إليك»؟!

أضف إلى ذلك أنّ تقدير كلمة الدعاء يجعل الجملة ركيكة، وغير متّزنة أبداً.

ثمّ إنّ الآلوسي البغدادي(المتوفّى ١٢٧٠هـ) والذي يُعدّ من أقطاب الوهابية والمروّجين والداعين للمذهب الوهابي هو الآخر قد أذعن أمام هذا الحديث، وسلّم بالحق، واعترف بأنّه لا مانع من التوسّل بمقام ومنزلة الأفراد الصالحين الأعم من النبي الأكرم ﷺ وغيره، بشرط إحراز كون الفرد المتوسّل به ذا مقام عند ربّه.[1]

---

١. انظر روح المعاني:٦/ ١٢٨.

التوسّل بالصالحين في الأدب العربي

قد أنشد الأُستاذ محمد الفقي قصيدته المعروفة بالفيوضات الربانيّة في الزيارة والتوسل بخير البرية سنة ١٣٧٨هـ / سنة ١٩٥٩ م، نأتي بتمامها هنا، وهي:

حسب القوافي وحسبي حين أهديها
إلى المسامع أنّ الحب يمليها
سجلتُ من عبرات العين أسطرها
وصغت من مهجتي الحرّى معانيها
فعبَّرت عن أحاسيسي مقاطعها
وترجمت عن صباباتي قوافيها
وما تحلت بأوزان وقافية
لكنّها حكم تسمو بتاليها
أضفت على الكون فيضاً من أشعتها
وقد تجلّى جلال المصطفى فيها
تألّقت بسجاياه فرائدها
وأشرقت بمعانيه حواشيها
وأسفرت عن دراريه مباسمها
فافْتَرَّ ثغرُ الأماني عن دراريها

حـــوت من الحـب آيـــات مفصلـــة
تــوحي إلى النفـس روحـــاً من تنــاجيهــا
سمـــا بهـــا القلب في أسمى منـــازلـــه
ومـــاست الـــروح في أبهى مجـــاليهـــا
وفـــارت النفس بـــالأشـــواق هـــاتفـــة
يميتهـــا الشـــوق أحيـــانـــاً ويحييهـــا
لا تعـــذلـــوهـــا إذا لاقـت منيتهـــا
فـالمـــوت في الحب من أسمى أمـــانيهـا
(لا يعـــرف الشـــوق إلاّ من يكـــابـــده
ولا الصبـــابـــة إلاّ مـن يعـــانيهـــا)
يـــا راكبـي الـــريح بسـم الله مسبَحُهـــا
وراكبـي الفلك بسـم الله مجـــريهـــا
دعـــاكـم الله فـــاختـــرتم ضيـــافتـــه
وطـــابت الـــدعـــوة العظمى و داعيهـــا
وحسبكـم أن (إبـــراهيـم) وجههـــا
في ســـورة الحجّ للـــدنيـــا وأهليهـــا
فـــاستقبلـوا من ريـــاض الخلـد بهجتهـــا
ومتَّعُـــوا النفس فـي أبهى مغـــانيهـــا

لقــد قصـدتـم رحـابــاً طــاب مـوردهـــا
وقـــد جنيتم ثمــــاراً فــاز جـــانيهـــا
فنلتُمـــــو مــن رضـــاء الله منـــزلـــة
أنستكمُ الأهـل والــدنيــا ومـــا فيهـــا
ومـــا وصلتـم إلى ســـاحـــات كعبتكم
إلاّ ظفـــــرتم بفضـل الله حـــاميهـــــا
يـــا من نـــزلتـم بهـــذا الحـي حسبكمُ
أنّ السعـــــــادة حققتم دواعيهـــــــا
قلـــــوبكم في ريـــاض الأنس رائعـــة
تفيض بـــالشكــر تقـــديســاً لبـــاريهـــا
ومـــــا نظــــرتـم لهـــــا إلاّ وأعينكـم
من فـرحــة الشـوق قـد فـاضت مـآقيهـا
يــا حسنهـــا جنــة طــابت مــــواردهـــا
فليس فـي الكــون مـن روض يــدانيهـــا
تشــــرفت بنـــزول الــوحـي ســاحتهـــا
وأشـــرقت ببقــــاء المصطفى فيهـــا
يــا خـــاتم الــرسـل قــد يممت روضتكم
في لحظـــة من حيــاة العمـــر نبغيهـــا

فيهـــا المصــــافـــاة إلاّ أنّهـــا مـــدد
ومـــا المصـــافـــاة إلاّ فـي تنـــاجيهـــا
إنّـي لأطمع أن أحظـى ببــــــارقـــــة
مـن النبــــوة تفنيني معــــــانيهـــــا
يـــا مصــدر الخيـر والخيـرات تعـرفكم
بمصــدر الخيـــر للــدنيـــا وعـــافيهـــا
لـم يطمع الخلـق إلاّ فـي ضيـــــافتكـم
ويشتهي النـــاس إلاّ فيض أيــــديهـــا
وكيـف لا يخطـب الــــــزوار ودكـمُ
والـــود منكم حيـــاة جلَّ معطيهـــا
ومـــا وقفـت مع الحجـــاج منتظـــراً
ولا بسطـت يــــدي إلاّ لتعطيهـــا
فـأنت أدرىٰ بحـــــالـي حين تنفحنـي
وأرحم الخلـق بـــالــدنيـــا ومن فيهـــا
دعني أنـــاجي ودع روحـي منـــاجيـــة
فإنّ روحـي منـــاهـــا في تنـــاجيهـــا
وهل تقـــــوم بـــلا عطف ولا مـــدد
والعطف للـــروح مثـل الأنس يحييهـــا

يـا سيـد الخلق قـد جئنـا لنشهـدكم
والنفس تـرتع فـي مـرعى مـلاهيهـا
فـلا تكلنـا إليهـا إنّهـا رحلت
إلى الخطـايـا ومـا أخفت مسـاويهـا
والنفس أمـارة بـالسـوء جـامحـة
وقـد أطـاعت بليل أمـر غـاويهـا
فـلا تجـانب إلاّ من يُقـوِّمهـا
ولا تجـاوب إلاّ مـن يجـاريهـا
ولا تكـرّم إلاّ مـن يصـانعهـا
ولا تصـادق إلاّ مـن يعـاديهـا
لئن تـركت لكم نفسـي تطهـرهـا
فقـد وهبت لكم روحـي تـرقيهـا
فأنـت للـروح نـور فـي غيـابتهـا
وأنت للنفـس حصن مـن عـواديهـا
ونظـرة منـك لـلأيـام تسعـدهـا
ونفحـة منـك تـرضيني وتـرضيهـا
حسبي رضـاكم وحسبـي أنّـه أملي
من الحيـاة وحظي مـن أمـانيهـا

فمـا الحيـاة سـوى الـرضـوان تغـدقـه
على البـريـة فـي شتى نـواحيهـا

يـا مـوئل الفضل قـد لـذنـا بسـاحتكم
ومـا الـرعيـة إلاّ فضـل راعيهـا

إن لـم تكـن لجميـع الخلـق ملتجـأ
بعـد الإلـه ومعـوانـاً يـواليهـا

فمن يكـون ومن تـرجى معـونتـه
عنـد الشـدائد في أدجى ليـاليهـا

فأنـت أولى بنـا منـا وقـد نـزلت
بـذلك الآي تعظيمـاً و تنـويهـا

إليك جـاءت وفـود الأرض قـاطبـة
الـوجـد سـائقهـا والشـوق حـاديهـا

تمشي على نـورك الهـادي ومـا عهـدت
نـوراً لغيـرك يسعى بين أيـديهـا

تسـائل الله غفـرانـاً وتسألكـم
لهـا الشفـاعـة مـن شتى معـاصيهـا

ومن يجيب دعـاهـا عنـد حيـرتهـا
يـوم الحسـاب سـواكم أو ينجِّيهـا

وأنتم الـرحمـة الكبـرى لأُمتكم
دنيـا وأُخـرى وعنـد الهـول تحميهـا

شفـاعـــة أنت معطـاهـا وقـــد وجبت
للـــزّائرين وهـــذا القـــدر يكفيهـــا
يـا واهب القلـب عــرفـانـاً ومعـــرفـة
ومـــانح الـــروح أســـراراً تـــزكيهـــا
كيف السبيـل وقـــد بتنـــا على سفـــر
وأعين الخلـق قـــد جفَّت مـــآقيهـــا
إنّ الحجيج إذا مـــاودعـــوا تـــركـــوا
قلـــوبهم عنـــد هـــاديهـــا وكـــافيهـــا
ومـــا نـــودع إذ قمنـــا نـــودعكم
إلاّ الفضـــائل في أجلـى معـــانيهـــا
نفسي فـــداك وروحي في تحسُّـــرهـــا
من الفـــراق تعـــاني من مـــآسيهـــا
حيـــاتنـــا كلّهـــا فـي حبكم هبـــة
مبـــرورة حينمـــا جئنـــا لنهـــديهـــا
منّـــا إليك تحيـــات نقـــدمهـــا
من القلـــوب وفـــاء في قـــوافيهـــا
صلّى عليـك إلـــه الخلق مـــا بـــزغت
شمـوس فضلك فـي الـدنيـا ومـا فيهـا[1]

---

١. التوسل والزيارة: ١٩٩ـ ٢٠١.

سيرة الأُمم في توسّلهم بالذوات الطاهرة

إنّ من يطـالع التاريخ البشـري يجد أنّــه يشهد وبوضـوح تام بأنّ التـوسّل بالصـالحين والمعصومين والمخلصين من عبـاد الله كان شائعـاً في أوساط بني الإنسان قبل بزوغ شمس الإسـلام، وكان الموحّدون يدركـون بفطرتهم النقية أنّ التوسّل بالشخصيات الطاهرة والنفوس الزاكية أمرٌ مطلوب ومرغوب فيه، ولذلك تجدهم يعتمـدون هذه الوسيلـة للتقرّب إلى الله وطلب إجـابة الدعـاء وإنجاح الطلبات، ونحن نشير إلى قسم من هذه التـوسّلات ليكون القارئ على علم بأنّ الفطرة السليمة تدعـو الإنسان إلى التوسّل بالموجودات الطـاهرة لجلب رحمته تعالى.

١ . استسقاء عبد المطلب بالنبي وهو رضيع

يحدّثنـا التاريـخ أنّ مكة المكـرمة وأطرافهـا قد أصـابها قحـط وجفاف وجـدب كاد أن يهلك الحـرث والنسل ويقضي على كلّ شيء، فلم يجد عبـد المطلب بُدّاً إلاّ أن أمسك بيد حفيده المصطفى ﷺ ـ و هو يومذاك طفل رضيع ـ و استسقى بـالنبي ﷺ طالبـاً من الله أن ينـزل عليهم الغيث ويخلّصهم من تلك الشدة والعسر، حتّى قال ابن حجر: إنّ أبا طالب يشير بقوله:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه　　　ثمـال اليتـامى عصْمـةٌ للأرامـل

إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي معه غلام. [١]

٢. استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام

لقد تكرّرت الحالة في فترة زعامة أبي طالب رضي الله عنه حيث أُصيبت قريش مرّة أُخرى بقحط وجدب، فهرع القريشيون إلى أبي طالب طالبين منه الاستسقاء، فقرر أن يتوسّل بابن أخيه محمدﷺ ـ و كان حينذاك غلاماً ـ و قد نقل ابن عساكر تلك الحادثة عن أبي عرفة، قال:

قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام ـ يعني النبيﷺ ـ كأنّه شمس دجى تجلّت عن سحابة قتماء، وحوله أُغيلمة، فأخذ النبي أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذَ إلى الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق وأغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي. [٢]

وفي ذلك يقول أبو طالب:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل[٣]

٣. التوسّل بالأطفال والشيوخ في صلاة الاستسقاء

إنّ التوسّل بالأطفال في الاستسقاء أمرٌ ندب إليه الشارع، قال الدكتور

١و٢. فتح الباري:٢/ ٣٩٨؛ دلائل النبوة:٢/ ١٢٦.

٣. فتح الباري:٢/ ٤٩٤؛ السيرة الحلبية:١/ ١١٦.

عبد الملك السعدي: من السنّة أن نخرج معنا إلى الصحراء الشيوخ والصبيان والبهائم لعلّ الله يسقينا بسببهم. [١]

وهذا هو الإمام الشافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: «وأُحبّ أن يخرج الصبيان ويتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهنّ، ولا أُحبّ خروج ذات الهيبة». [٢]

ولا ريب أنّ الهدف من إخراج الصبية المطهّرين من الذنوب والشيوخ الذين أنهكهم الدهر، والحيوانات العجماء، يعني أنّ المستسقين يخاطبون الله تعالى بقولهم:

اللّهمّ إن كنّا ــ لذنوبنا وقسوتنا ــ غير جديرين بإنزال الرحمة، والغيث علينا، فارحمنا يا الله بهؤلاء.

أو يقولون: ربّنا وسيدنا!! الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وهما أحقّ بالرحمة والمرحمة، فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتّى تعمّنا في ظلهم.

هذه الحوادث وغيرها تعرب عن كون التوسّل بالموجودات الصالحة أمراً فطرياً، كان رائجاً قبل بزوغ فجر الإسلام، ولمّا بعث الرسول الأكرم ﷺ أقرّ تلك الوسيلة، وأمضاها.

٤. توسّل الخليفة بالعباس عمّ النبي ﷺ

روى البخاري في صحيحه قال: كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا

١. البدعة: ٤٩.
٢. كتاب الأُم: ١/ ٢٣٠.

استسقى بـالعباس بن عبـد المطلب رضي الله عنـه وقال: اللّهمّ إنّـا كنّا نتـوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا، قال: فيسقون.[١]

والحديث صحيح السند، فما ظنك بـرواية رواها الإمام البخاري؟! لكن من لا يروق له التوسّـل بالذوات الطاهرة أخذ يؤوّل الحـديث بأنّ الخليفة توسّل بدعاء العباس لا بشخصه ومنزلته عند الله، وأضاف على ذلك أنّه لو كان قصده ذات العبـاس لكـانت ذات النبيﷺ أفضل وأعظـم وأقـرب إلى الله من ذات العباس، بلا شكّ ولا ريب، فثبت أنّ القصد كان الدعاء.[٢]

لا أظنّ أنّ أحـداً يحمل شيئـاً مـن الإنصـاف. يسـوغ لنفسـه أن يفسـر الحديث بما ذكـره ـ أي التوسّل بالدعـاء ـ لأنّ في الموضوع نصـوصاً تردُّ ذلك، وإليك الإشارة إليها:

١. قول الخليفـة عند الدعاء ... قـال: «اللّهمّ إنّا كنّا نتـوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّـا نتوسل إليك بعمّ نبيّنـا فاسقنا». وهـذا ظاهر في أنّ الخليفـة قام بالدعاء في مقام الاستسقاء، وتوسّل بعـمّ الرسول في دعائه، ولو كان المقصود هو التـوسّل بدعائه كـان عليه أن يقول: يـا عمّ رسول الله كنّا نطلب الـدعاء من الرسول فيسقينا الله والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا.

٢. روى ابن الأثيـر كيفية الاستسقاء فقـال: استسقى عمر بـن الخطاب بالعباس عام الرمادة لمّا اشتدّ القحط فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه.

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ٣٢، باب صلاة الاستسقاء.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسّل: ٢٥٣.

وقال حسّان:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغُرة العباس

عمّ النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرّة الأجناب بعد الياس

ولما سُقي طفقوا يتمسّحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمين.[1]

أمعن النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيلة.

٣. ويظهر من شعر حسّان أنّ المستسقي كان هو نفس الخليفة وهو الداعي حيث قال: «سأل الإمام ...» وكان العباس وسيلته لاستجابةالدعاء.

قال الدكتور عبد الملك السعدي: وقد أوّلوا حديث العباس بأنّ عمر طلب من العباس أن يدعو، لأنّهم كانوا إذا أجدبوا طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم، فكذا هنا طلب الدعاء من العباس، وهذا التأويل غير مقبول لوجهين:

الوجه الأوّل: إنّ السنّة أن يدعو الإمام نفسه والقوم يؤمّنون، وهذا ما حصل حيث كان الداعي هو سيدنا عمر لا العباس.

الوجه الثاني: إنّ نص الحديث لا يدلّ على أنّ عمر طلب الدعاء من العباس، بل كان هو الداعي، بدليل قوله: «اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل ...» وهذا عين الدعاء، ولم يرد أيّ لفظ يشير إلى أنّه قال للعباس: ادع لنا بالسقيا. ومع ذلك

---

١. أُسد الغابة٣/ ١١١.

فأيّ خلل يحصل في الدين أو العقيدة إذا أجرينا النص على ظاهره وتركنا العناد والتعصّب؟

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ويستبين من قصة العباس استحباب الاستسقاء بأهل الخير و الصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس، وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقّه.[1]

وأظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحة لا تبقي شكّاً ولا ريباً يدور في خلد أحد حول جواز التوسّل بالصالحين.

وأمّا ما ذكره من أنّه لو كان المقصود التوسّل بذات العباس لكان النبي بذلك أفضل وأعلم، فيلاحظ عليه: أنّ الهدف من إخراج عمّ النبي إلى المصلّىٰ وضمّه إلى الناس هو استنزال الرحمة. فكأنّ المصلّين يقولون: ربّنا إذا لم نكن مستحقّين لنزول الرحمة، فإنّ عمّ النبي مستحقّ لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمة القحط و الغلاء وعندئذٍ تعمّ الرحمة غير العباس أيضاً، ومن المعلوم أنّ هذا لا يتحقّق إلاّ بالتوسّل بإنسان حيّ يكون شريكاً مع الجماعة في المصير وفي هناء العيش ورغده لا مثل النبي الراحل الخارج عن الدنيا والنازل في الآخرة، نعم يجوز التوسّل بشخصه أيضاً ولكن لا بهذا الملاك، بل بملاك آخر لم يكن مطروحاً للخليفة في المقام.

ولو افترضنا صحّة ما يُدعى من أنّ الخليفة توسّل بدعاء عمّ النبيﷺ فهو عبارة أُخرى عن التوسّل بذات النبيّ لبّاً، إذ لولا صلته به لما قُدِّم للدعاء.

---

١. البدعة:٤٦.

التوسّل بحقّ الصالحين في الأحاديث الإسلامية

هناك الكثير من الروايات التي رواها مشايخ أهل السنّة أنفسهم، والتي تشير إلى التوسّل إلى الله تعالى بحقّ الصالحين من عباده.

والعجيب أنّه بالرغم من كثرة هذه الروايات التي تملأ العين وفي مصادرهم المعتبرة نجد المخالفين للتوسّل يصرّون على المنع، وما ذلك إلاّ بسبب تقليدهم لابن تيمية وانصياعهم للأفكار التي أثارها، فكانوا ينظرون إلى الروايات بأحكام مسبقة وقناعات مبيّتة، ولم ينطلقوا في منعهم هذا ونهيهم من بحث وتحقيق و إمعان نظر.

وها نحن نشير إلى بعض تلك الروايات، وهي:

١. التوسّل بحقّ السائلين

روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: «اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاي هذا، فإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعة، إنّما خرجت اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أن تعيذني من النار وأن تغفر ذنوبي إنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت» إلاّ أقبل الله بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك».[1]

إنّ دلالة الحديث واضحة لا يمكن لأحد التشكيك فيها، وسند الحديث صحيح ورجاله كلّهم ثقات، نعم اشتمل السند على عطية العوفي وقد وثّقه

---

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٢٥٦ برقم ٧٨٧؛ مسند أحمد: ٣/ ٢١.

لفيف من أهل الجرح والتعديل.

قال أبو حاتم: يكتب حديثه. وقال ابن معين: صالح. وقال ابن حجر: عطية بن سعيد بن جنادة العوفي الجدلي الكوفي أبو الحسن، صدوق. قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، توفّي سنة إحدى عشرة ومائة. قال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجّاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبَّ علي ــ إلى أن قال: ـ كان ثقة، وله أحاديث صالحة، وكان أبو بكر البزاز يعدّه في التشيّع روى عن جلّة الناس.[1]

نعم هناك من ضعّفه لا لأنّه غير صدوق، بل لأنّه كان يتشيّع، وليس تشيّعه إلاّ ولاءه لعلي وأهل بيته، وهل هذا ذنب؟!

ثمّ إنّ إتقان الحديث يعرب عن كونه صادراً من مشكاة أهل بيت العصمة والطهارة، ويوجد مثل هذا الحديث الكثير من الأحاديث الإسلامية الأُخرى.

٢. التوسّل بحقّ النبي ﷺ وبحقّ من سبقه من الأنبياء

روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّه لمّا ماتت فاطمة بنت أسد أُمّ علي ـ رضي الله عنها ـ دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها، فقال: «رحمك الله يا أُمّي، كنتِ أُمّي بعد أُمّي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعمينني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة».

ثمّ أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلمّا بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله بيده، ثمّ خلع رسول الله قميصه فألبسها إيّاه وكفّنها ببرد فوقها، ثمّ دعا رسول

---

١. تقريب التهذيب: ٢/ ٢٤ برقم ٢١٦؛ تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٢٧ برقم ٤١٣.

الله أُسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمـر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلمّا بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخل رسـول الله فـاضطجع فيـه وقـال: «الله الـذي يحيي و يميت وهـو حي لا يموت اغفـر لأُمّي فاطمة بنت أسد ولقّنهـا حجتها، ووسّع عليها مـدخلها بحقّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحم الراحمين» وكبّـر عليها أربعاً وأدخلها اللحد.[1]

والاستدلال بالرواية يتوقّف على تمامية الرواية سنداً ومضموناً.

أمّا المضمون فلا مجال للخدشة فيه، وأمّا السند فصحيح، رجاله كلّهم ثقـات، لا يغمز في حقّ أحـد منهم، نعم فيـه روح بن صـلاح وثّقه ابن حبّـان والحاكم.[2]

نكتفي هنا بذكـر هذا المقدار من الروايات الـواردة في مصادر أهل السنّة بالرغم من كثرتها.

وأمّـا التوسل بحقّ الأوليـاء والشخصيـات الإلهيـة ففي أدعية أئمّـة أهل البيت عليهم السلام نمـاذج كثيرة مـوزّعـة في الصحيفـة العلـوية، ودعـاء عـرفـة للإمـام الحسين عليه السلام، والصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين عليهما السلام، وغير ذلك من كتب الدعاء. إليك مقتطفات من تلك الأدعية.

١. يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء له:

---

١. حلية الأوليـاء:٣/ ١٢١؛ المستدرك للحاكم:٣/ ١٠٨؛ الاستيعـاب في حاشية الإصـابة:٤/ ٣٨٢؛ سير أعـلام النبـلاء:٢/ ١١٨ بـرقم ٧؛ مجمـع الـزوائد:٩/ ٢٥٦؛ كنـز العمـال:١٣/ ٦٣٦ برقم ٣٧٦٠٨.

٢. لاحظ للوقوف على حال روح بن صلاح المصري، ميزان الاعتدال:٢/ ٨٥ برقم ٢٨٠١.

« ... بحقّ محمّد وآل محمد عليك ، وبحقّك العظيم عليهم أن تصلّي عليهم كما أنت أهله ، وأن تعطيني أفضل ما أعطيت السائلين من عبادك الماضين من المؤمنين وأفضل ما تعطي الباقين من المؤمنين ... » .[١]

٢ . ويقول الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام في دعاء عرفة :

« ... اللّهم إنّا نتوجه إليك ـ في هذه العشية التي فرضتها وعظمتها ـ بمحمد نبيك ورسولك وخيرتك من خلقك » .

٣ . ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان :

« ... اللّهم إنّي أسألك بحقّ هذا الشهر وبحقّ من تعبّد فيه » .[٢]

إلى هنا تمت الإشارة إلى بعض الأدلّة على جواز التوسّل بالشخصيات الطاهرة التي لها منزلة ومكانة .

نعم هناك بعض الإشكالات لابدّ من التعرّض إليها بصورة مختصرة في البحث التالي .

---

١ . الصحيفة العلوية : ٥١ .

٢ . الصحيفة السجادية : دعاء رقم ٤٤ .

شبهات وردود

الشبهة الأُولى: انّ هــذا النـوع من التـوسّل لم يكن معهــوداً في أوسـاط الصحابة

يقـول المستشكل: إنّ هذا النـوع من التوسّل لـو كان جـائزاً لاستفاد منـه الصحابة والتابعون، والحال أنّنا لم نعهد منهم الاستفادة منه.

جواب الشبهة

من القواعد الأُصولية الثابتة انّ فعل المعصوم دليل على الجواز، وأمّا ترك الفعل فلا دلالة فيه على الحرمة.

فلنفرض جدلاً انّ الصحابة والتـابعين مصونون من الخطأ والاشتباه وانّهم وصلوا إلى درجـة العصمة، مع ذلك لا يدلّ تركهم للفعل وعـدم استفادتهم من تلك الوسيلة للتوسّل إلى الله سبحانه على حرمة ذلك النوع من التوسّل.

أضف إلى ذلك انّ المعيار في تحـديد ومعرفة الجائز من غيـر الجائز هو كلام الرسول الأكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والأئمّـة المعصومين، ومن حسن الحظ انّ هناك الكثير من الـروايات الصـادرة عنهم ـ سواء التي فـي كتب الحديث أو كتب الأدعيـة ـ كلّها تدلّ على جواز التوسّل المذكور بصورة شفافة وجلية.

الشبهة الثانية: ليس لمخلوق ـ مهما كان ـ حقّ على الله تعالى

تقوم هذه الشبهة على أساس انّ هذا النوع من التوسّل يتضمن القسم على

الله تعالى بحقّ المخلوقين عليه سبحانه والحال أنّه لا يوجد لمخلوق ـ مهما كان ـ حقّ عليه سبحانه وتعالى، فكيف يدّعي المتوسّل وجود هذا الحق؟! وبعبارة أُخرى: كيف يكون للإنسان حقّ على الله؟!

جواب الشبهة

إنّ حقوق المخلوق على الخالق يمكن أن تتصوّر بصورتين، هما:

الف: ينشأ هذا الحقّ من خلال ما يقوم به الإنسان من أعمال حسان، وأفعال بر، ونحو ذلك، فيقع الحقّ بسبب تلك الأفعال الصادرة منه على الله تعالى كحقّ الدائن على المدين، ولا ريب انّه لا يمكن، بل يستحيل تصوّر مثل هذا الحقّ الذاتي للإنسان على الله تعالى، وذلك لأنّ العبد ـ مهما كان ـ لا يملك شيئاً حتّى يستطيع من خلاله أن يثبت له من خلاله حقّ على الله تعالى.

ب: انّ هذا الحقّ نابع في الحقيقة من لطفه وكرمه ومنّه سبحانه، فهو الذي تفضل على خيار عباده. فمنحهم المقام والمنزلة تكريماً لهم، وفي الحقيقة ليس لأحد على الله حقّ إلاّ ما جعله سبحانه حقاً على ذمّته تفضلاً وتكريماً.

ولا ريب انّ هذا النوع من الحقّ ـ بالإضافة إلى إمكان تصوّره ـ هناك آيات قرآنية تشير وترشد إليه.

بل نجد بعض الآيات تصفه سبحانه وتعالى بالمستلف والمقترض من عباده حيث يقول عزّ من قائل:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسناً﴾.[1]

---

١. البقرة:٢٤٥.

وهناك آيات كثيرة تشير إلى أنّه سبحانه بكرمه وفضله ولطفه قد جعل بعض عباده أصحاب حقوق عليه سبحانه، منها:

١. قوله تعالى: ﴿وَكانَ حَقّاً علَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ﴾.(١)

٢. وقوله تعالى: ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حقّاً في التَّوراةِ وَالإنْجِيلِ﴾.(٢)

٣. وقوله سبحانه: ﴿كَذلِكَ حَقّاً عَلَيْنا نُنجِ الْمُؤْمِنينَ﴾.(٣)

٤. وقوله تعالى: ﴿إِنّما التَّوبَةُ عَلى اللهِ للَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرْيبٍ﴾.(٤)

هذه بعض النماذج من آيات الذكر الحكيم، وهناك الكثير من الروايات والأحاديث الشريفة التي تدعم ذلك وتؤكّده، منها:

١. قال رسول الله ﷺ: «حقّ على الله عون من نكح التماس العفاف ممّا حرّم الله».(٥)

٢. روى مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدري ما حقّ الله على العباد؟!!»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنّ حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثمّ سار ساعة، قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟!!» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أن لا يعذبهم».(٦)

---

١. الروم:٤٧.
٢. التوبة:١١١.
٣. يونس:١٠٣.
٤. النساء:١٧.
٥. كنز العمال: ١٦/ ٢٧٦، رقم الحديث ٤٤٤٤٣، الجامع الصغير للسيوطي :١/ ٥٧٩.
٦. الترغيب والترهيب:٣/ ٤٣؛ وشرح النووي على صحيح مسلم:١/ ٢٣١.

الشبهة الثالثة: انّ هذا التوسّل يتضمن دعوة غير الله سبحانه

تقوم هذه الشبهة على أنّ هناك الكثير من الآيات التي تنهى الإنسان المسلم عن دعوة غير الله سبحانه، منها قوله تعالى: ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحداً**﴾[1]، وقوله عزّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ**﴾ .[2] وحينئذٍ كيف يجوز للإنسان المؤمن أن يدعو غيره سبحانه وأن يتوسّل بمقام ومنزلة غير الله سبحانه؟

جواب الشبهة

إنّ من أوهن الإشكالات التي أُثيرت حول التوسّل هو هذا الإشكال والذي تمسّك به المخالفون، وحاولوا تطبيق تلك الآيات ـ التي وردت في ذم عبدة الأوثان والمشركين ـ على المؤمنين الصالحين!! والحال انّ الإمعان في الآيات يكشف وبوضوح أنّ المشركين وعبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ أصنامهم آلهة مدبّرة للعالم ومتصرفة فيه، في الوقت الذي نرى فيه المؤمنين يرون أنّ الرسول الأكرم عبداً من عباد الله سبحانه وداعياً إلى توحيد الله والإيمان به وربط الناس به سبحانه وتعالى.

ومن هنا لابدّ من دراسة تلك الآيات وتسليط الضوء عليها، ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحداً**﴾ .[3]

---

١. الجن:١٨.

٢. الأعراف:١٩٤.

٣. الجن:١٨.

إنّ هذه الآيـة في الحقيقة فـي مقام النهي عن الـدعوة المقتـرنة بـالعبادة والخضوع للمدعـو، ولذلك نهت الآية عن هـذا النوع من الدعوة، وأمّـا الدعوة المجرّدة من الاعتقـاد بكون المدعـو إلهاً أو فوض إليـه فعل الإله فلا تـدل الآية على النهي عنه أبداً .

ولو كانت الآية في مقام النهي عن مطلق الدعاء حتى المجرّد من الاعتقاد المذكور لكانت مخالفة لأمره تعالى ، حيث أمر سبحانه المؤمنين بالحضور عند الرسـول الأكرم ﷺ وطلب الاستغفـار منه ، كمـا في قولـه تعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً**﴾ .[1]

وحينئذٍ يمكن للإنسـان أن يدعو الله ويطلب منه المغفـرة والتوبة ، وفي نفس الوقت يدعو الرسول ﷺ ويطلب منه أن يستغفر الله له .

وبالنتيجـة يكون قـوله تعـالى : ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ**﴾ النهـي عن جعـل الشريك له سبحـانه ودعوة ذلك الشريك على أنّه ربّ قـادر على القيام بالعمل وتلبية الطلب بصورة مستقلة ، أو أنّه قد فوّض إليه فعل الرب .

ونفس هذا الكـلام يجري في خصوص الآية الثـانية ، وهي قولـه تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمثالُكُم**﴾ بقـرينة قـوله تعـالى : ﴿**عِبادٌ أَمثالُكُم**﴾ فيكون معنى الآيـة : لا تعبدوا تلك الآلهـة المزيفة ولا تخضعـوا لها ، لأنّهم ﴿**عِبادٌ أَمثالُكُم**﴾ ليس لهم امتياز وتفـوّق عليكم فما هو المبـرر للخضوع لهم وعبادتهم ؟ !

وعلى هذا الأسـاس يكون الهدف من نفـي دعوة غير الله إلى جنبـه تعالى

---

١. النساء:٦٤.

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ﴾ أو دعوتهم بصورة مستقلة، هو نفي الدعوة المقترنة باعتقاد الإلوهية للمدعو، وأمّا الدعوة المجردة عن هذا الاعتقاد فلا بأس بها، بل انّها تشكّل الأساس لحركة الحياة البشرية، قال تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ .[١]

وفي آية أُخرى يقول سبحانه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ .[٢]

وعلى هذا الأساس لا يكون المراد من الآيات السابقة النهي عن مطلق الدعاء والنداء، بل المراد الدعاء الحاكي عن الخضوع والخشوع أمام من يعتقد أنّه الله، أو على أقلّ تقدير فوّض إليه فعل الله.

ومن هنا نعرف أنّه لا علاقة بين هاتين الآيتين ونظائرها من الآيات، وبين دعوة النبي ﷺ باعتباره عبداً من عباد الله المكرمين، ليس بإله ولا فوّض إليه فعل الإله.

ومع شديد الأسف نجد المخالفين لفكرة التوسّل قد جمعوا تلك الآيات الواردة في حقّ المشركين و الآلهة المزيفة من الأوثان والأصنام، وحاولوا تطبيقها على جميع المسلمين المتوسّلين بالأرواح المقدّسة. والحال انّ هذه الآيات خارجة عن محط النزاع من جهتين:

١. انّ مصبّها المشركون وليس الموحّدين.

٢. إنّما اتّسم فعل المشركين بالعبادة باعتبار أنّهم قد اعتقدوا بإلوهية الأوثان ودعوها وخضعوا لها من هذا المنطلق، والحال أنّ خضوع المسلمين

---

١. آل عمران: ٦١.

٢. النور: ٦٣.

منزّه من تلك الوسمة، بل هو نوع تكريم واحترام، وتوسّل بالسبب الذي جعله الله تعالى وسيلة للتقرب إليه.

فالخلاصة: انّ الدعوة المنهي عنها هي الدعوة بمعنى العبادة، أي المقترنة باعتقاد إلوهية المدعو، وأمّا الدعوة المجرّدة فلا يشملها النهي أبداً، ولكي تتضح مغالطة المخالفين ولفّهم ودورانهم وتحريفهم الموضوعي حيث جاءوا بالآيات الواردة في حقّ المشركين وعبدة الأوثان وطبقوها ـ زوراً وبهتاناً ـ على عمل المسلمين، ومن هذه الآيات:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.[2]

وفي آية أُخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾.[3]

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا﴾.[5]

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾.[6]

لقد استدلّ المخالفون للتوسّل ـ على منابرهم وفي رسائلهم وكتبهم ـ بهذه الآيات لإثبات حرمة التوسّل وكونه شركاً، وطبقوا تلك الآيات ـ بلا تورع ـ على عمل المسلمين. والحال أنّ هذه الآيات لا علاقة لها بعمل المسلمين لا من بعيد ولا من قريب أبداً، ومن أراد المزيد من التوضيح فعليه بمراجعة

١. الرعد:١٤.
٢. الأعراف:١٩٧.
٣. الأعراف:١٩٤.
٤. فاطر:١٣.
٥. الأنعام:٧١.
٦. يونس:١٠٦.

الموسوعات التفسيرية ليرىٰ وبوضوح ماذا يراد من تلك الآيات وما هو المقصود منها؟ وسوف يجد بما لا ريب فيه أنّ الآيات في صدد الرد على المشركين الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً انّ العزّ والذل، والنفع والضرر، والنصر والهزيمة في الحرب و... كلّ ذلك بيد آلهتهم المزيّفة والباطلة، ومن هنا يدعونهم لكسب العزّ والنفع والنصر و... وأين هذا من عمل المتوسّلين المؤمنين الّذين يعتقدون أنّ كلّ ذلك بيد الله سبحانه ومن خصائصه عزّ اسمه، وانّ أقصى ما يعتقدونه هو أنّ لهؤلاء الصالحين ــ الرسول الأكرمﷺ وسائر الأنبياء والأولياء ـ منزلة وكرامة عند الله، وأنّهم عباد مكرمون قد منحهم الله تعالى هذا المقام وأرشد المؤمنين إلى الاستفادة منه للتقرّب إليه سبحانه ونيل رحمته وغفرانه.

ونحن غالباً ما نردد في الدعاء قولنا: «اللّهم بجاه محمد وآل محمّد» والجاه هنا يعني المنزلة التي وهبها الله تعالى لهم، وقد ورد هذا الاصطلاح في بعض آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى: ﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾[1]، ويقول سبحانه في حقّ السيد المسيح عليه السلام: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالآخرة﴾.[2]

الشبهة الرابعة: انّ التوسّل يعني الاستعانة بغير الله

إنّ هذه الشبهة تقوم على فرضية كون المتوسّل يستعين بغير الله في الشدائد والمحن التي تحيط به، والمفروض أن يستعين بالله تعالى وحده، كما في قوله: ﴿وَإِيّاكَ نَسْتَعين﴾.

---

١. الأحزاب:٦٩.

٢. آل عمران:٤٥.

جواب الشبهة

إنّ هذه الشبهة يثيرها من لا علم له بألف باء القرآن الكريم، فقد أثبتنا في بحوثنا السابقة أنّه من الممكن جداً نسبة الفعل إلى الله تعالى وإلى العبد في آن واحد، وذكرنا لذلك نماذج متعددة من القرآن الكريم من قبيل: قبض الأرواح، كتابة الأعمال، وغير ذلك.

وذكرنا هناك أنّه لا منافاة بين النسبتين، لأنّ نسبة الفعل لله على نحو الاستقلال، ونسبته إلى العبد على نحو التبعية.

فإنّه تعالى يقوم بالفعل من دون حاجة إلى الاستعانة بغيره مهما كان ذلك الغير، والحال انّ غيره إنّما يقومون بالعمل في ظل قدرته وعونه سبحانه، ومن هنا يكون فعل العبد في الحقيقة هو فعل الله.

وعلى هذا الأساس لا مانع من حصر الاستعانة به سبحانه، لأنّه هو الغني والمطلق، وفي نفس الوقت نستعين بغيره بشرط أن لا تكون تلك الاستعانة في عرض الاستعانة به سبحانه، لأنّ غيره لا يملك حولاً ولا قوّة ليكون في عرض الله سبحانه، بل الحقيقة أنّ تلك الاستعانة تقع في طول الاستعانة به سبحانه وهي في المآل ترجع إليه عزّ وجل. وعلى أساس هذه الضابطة نجد القرآن الكريم الذي يحصر الاستعانة به تعالى في قوله ﴿وَإِيّاكَ نَسْتَعين﴾ هو نفسه يأمر بالاستعانةبغيره ويرشد إلى بعض الأُمور التي يمكن للإنسان الاستعانة بها، كقوله تعالى:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلى الخاشِعينَ﴾.[1]

---

١. البقرة:٤٥.

وفي قصة ذي القـرنين وبناء السـد في وجه هجـوم يأجوج ومأجـوج يقول سبحانه:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.[١]

فلا ريب أنّ عالم الخلق عامّة والحياة الإنسانية خاصة قائمة على أساس الاستعانة بالأشياء الأُخرى، وليس ذلك مخـالفة لأصل التوحيد في الاستعانة، وذلك لأنّ الاستعانة بغيره سبحانه تقع في شعـاع وفي ظل الاستعانة بحوله وقوته التي وضعها تحت اختيار البشر.

والعجيب أنّ بعض المخـالفين قـد فـرّق بين الأحيـاء والأمـوات، فأبـاح الاستعانة بالأحيـاء واعتبرها أمراً جائزاً، وأمّا الاستعانة بـالأموات فذهب إلى أنّها أمر محرّم، بل اعتبرها شركاً يجب الابتعاد عنه!!!

ويرد على ذلك أنّ العمل إذا كان شركاً في حقيقته وواقعه، فلا أثر حينئذٍ للحياة وعـدمها فيه أبـداً، ومن هنا لابدّ من القول: إنّ الاستعـانة بغيره سبحـانه جائزة بشـرط الاعتقاد بكون المعين إنّما يتحـرك ويفعل في إطار قدرتـه وتمكينه سبحانه وتعالى لـه، فلا تكون الاستعانة حينئذٍ شركـاً، سواء كان الطرف المعين حيّاً أو ميّتاً.

وفي الختام نشير إلى ثلاثة أُمور، هي:

١. تواتر روايات التوسّل

إنّ روايات التوسّل والتـي وردت في المصادر السنية متواترة أو قـريبة من التـواتـر، ومن هنـا لا يمكن الخدشـة في هـذه الـروايـات عن طـريق تضعيف

---

١. الكهف:٩٥.

أسانيدهـا، وذلك لأنّها تعرب بمجموعهـا عن كون التوسّل بـالأرواح المقدّسة كان أمراً رائجاً بين المسلمين، وإذا كان سند بعض تلك الروايات ـ التي أعرضنا عن ذكرهـا روماً للاختصار ـ ضعيفـاً فلا يضرّ بالمـدعىٰ ـ جواز التوسّـل ـ أبداً، لأنّ المنهج في الأخبار المتواترة هكذا.

٢. الكتب المصنّفة حول التوسّل

لقد نالت مسألـة التوسّل بالرسول الأكرم وأهل بيتـه والصالحين من عباد الله، اهتمامـاً خاصـاً من قبل كبـار علماء المسلمين، فقـد تعرض لهـا الفقهاء والمحـدّثون الـذين يعتمـد على أقـوالهم وآرائهم قبل أن يثيـر ابن تيمية شبهتـه وبعدها، ومن تلك المصنفات:

١. كتاب الوفا في فضائل المصطفى: لابن الجوزي (المتوفّى ٥٩٧هـ)، وقد أفرد باباً حول التوسّل بالنبيّ ﷺ وباباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢. مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنـام: تأليف محمد بن نعمان المالكي (المتوفّى سنة ٦٧٣هـ) وقـد نقل السمهودي في كتاب «وفاء الـوفا»، باب التوسّل بالنبيّ ﷺ عن هذا الكتاب نقلاً كثيراً.

٣. البيان والاختصار: لابن داود المـالكي الشاذلي، وقد ذكر فيـه توسل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم ﷺ في المحن والأزمات.

٤. شفاء السقام: لتقي الدين السبكي (المتـوفّى عام ٧٥٦هـ)، وقد تحدّث عن التوسّل بالنبيّ ﷺ بشكل تحليلي رائع من ص ١٢٠ـ ١٣٣.

٥. وفاء الـوفا لأخبار دار المصطفى: للسيـد نورالدين السمهـودي (المتوفّى

سنة ٩١١هـ) وقد بحث عن التوسّل بحثاً واسعاً في الجزء الرابع من ص ٤١٣ـ ٤١٩.

٦. المواهب اللدنية: لأبي العباس القسطلاني (المتوفّى سنة ٩٣٢هـ) وسيوافيك كلامه في التوسّل.

٧. شرح المواهب اللدنية: للزرقاني المالكي المصري (المتوفّى سنة ١١٢٢هـ) في الجزء الثامن ص ٣١٧.

٨. صلح الإخوان: للخالدي البغدادي (المتوفّى سنة ١٢٩٩هـ) وله أيضاً رسالة خاصة في الردّ على الآلوسي حول موضوع التوسّل بالنبيﷺ، وقد طبعت الرسالة في سنة (١٣٠٦هـ).

٩. كنز المطالب: للعدوي الحمزاوي(المتوفّى سنة ١٣٠٣هـ).

١٠. فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعي،وقد طبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في ١٤٠ صفحة.

أيّها القارئ الكريم: إنّ مطالعة هذه الكتب ـ و خاصة تلك التي تحدّثت بالتفصيل عن التوسّل، ويأتي كتاب صلح الاخوان و فرقان القرآن في طليعتها، تثبت جريان سيرة المسلمين ـ في كلّ عصر ومصر ـ على التوسّل بالنبيﷺ، ولنقتصر على هذا المقدار ففيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

٣. الاختلاف بين أتباع ابن تيمية وبين الفرق الإسلامية الأُخرى

لقد حاول بعض الكتّاب المتأخّرين الإيحاء إلى القارئ الكريم بأنّ الاختلاف في مسألة التوسّل بالصالحين هي من المسائل الخلافية بين السنّة والشيعة، قاصداً بذلك إيهام القارئ بأنّ علماء السنّة وجميع مذاهبهم مجمعين

على رأي واحد مقابل الرأي الشيعي، وهذا في الحقيقة إيحاء كاذب وإيهام تختفي وراءه أغراض وأهداف غير نزيهة، لأنّ الحقيقة أنّ المسألة ليست من المسائل الخلافية بين الشيعة والسنّة مطلقاً، بل المسألة في واقع الأمر هي من المسائل الخلافية بين أتباع ابن تيمية وتلميذ مدرسته محمد بن عبد الوهاب وبين المسلمين ـ شيعة وسنّة ـ و يكفي شاهداً على ما نقول المصنّفات التي ذكرناها آنفاً لكبار علماء أهل السنّة والتي ردّوا فيها على هذه المدرسة التي هي منشأ الشك والترديد في التوسّل، ولولا هذان الرجلان وأتباع مدرستهم لما وجدنا لهذا الاختلاف أثراً بين المدارس الإسلامية الأُخرىٰ.

الفصل الحادي عشر

الشفاعة وتطهير المذنبين

الشفاعة وتطهير المذنبين

إنّ الشفاعة من الأُصول التي أكّدتها وصرّحت بها الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية، وقد أطبقت جميع المذاهب والفرق الإسلامية على التسليم بها باعتبارها أصلاً من الأُصول الإسلامية المسلّمة والقطعية، وإنّ حقيقة الشفاعة هي: انّ أولياء الله الصالحين لمنزلتهم وقربهم من الله تعالى يطلبون منه سبحانه وتعالى ـ و تحت شروط خاصة ـ التجاوز عن ذنوب المذنبين وتقصيرهم.

ولا ريب انّ أولياء الله لا يشفعون لمطلق المذنبين، بل يشفعون لتلك الطائفة من المذنبين الذين حافظوا على الآصرة والعلاقة الإيمانية، ولم يقطعوا علاقتهم الإيمانية والروحية بالله تعالى من جهة وبالشفعاء من جهة أُخرى.

وبعبارة أُخرى: انّهم من ناحية الكمال الروحي لم يصلوا إلى حدّ السقوط الكامل، ولم يفقدوا طاقة الدفع والرفع الروحية، كما لم يفقدوا إمكانية التحوّل والتبدّل من إنسان مرتكب لبعض الذنوب إلى إنسان طاهر وزكي.

ولقد ترسّخت عقيدة الشفاعة في أوساط المسلمين إلى حدّ يدركها الجاهل فضلاً عن العالم والمفكّر، فلو سألت الجميع عنها لأجابوك بدون أيّ ترديد بأنّها من العقائد الإسلامية المسلّمة، بل تجد وبصورة دائمة انّ الجميع يشيرون في أدعيتهم ومناجاتهم إلى الشفعاء الحقيقيين، وعلى أقلّ تقدير تجد الجميع ينادون

ربّهم في خصوص النبي الأكرمﷺ: «اللّهمّ اجعله شافعاً ومشفّعاً»، أو قولهم: «وابعثه اللّهم المقام المحمود...».

جريان الفيض الإلهي عن طريق الشفعاء

إنّ نظام الخلق قائم على أساس قانون العلّية والمعلولية، وإنّ الحاجات والمتطلّبات المادية للإنسان إنّما تتوفر من خلال هذا الطريق حيث جعل الله سبحانه وتعالى في العلل والأسباب المادية القدرة على تلبية تلك المتطلّبات وسدّ تلك الحاجات، هذا في الأُمور المادية؛ وأمّا الفيض المعنوي فهو الآخر ليس بخارج عن هذا القانون الإلهي العام، فالهداية والإرشاد، والعفو والمغفرة من الفيوض الإلهية التي تخضع للقانون المذكور.

فعلى سبيل المثال: لقد تعلّقت الإرادة الإلهية بأن تكون إفاضة الهداية في العالم على الإنسان عن طريق الأنبياء، لأنّ الأنبياء هم الذين تنحصر فيهم الجدارة واللياقة في تلقّي الخطاب المباشر من قبله سبحانه.

وعلى هذا الأساس لا مانع من القول: إنّ المغفرة والرحمة الإلهية في عالم الآخرة هي الأُخرى خاضعة لنفس القانون، بمعنى إيصال الرحمة والعفو والمغفرة والتجاوز عن المذنبين ـ الذين يليق بهم أن يشملهم العفو والمغفرة الإلهية ـ عن طريق الأرواح الطاهرة، والنفوس الزكية، شبيه ما كان من أمر الهداية والإرشاد في الحياة الدنيا، فكما كانت الهداية تفاض عن طريق الأنبياء فهنا تفاض الرحمة عن طريقهم أيضاً.

صحيح انّ هذا الفيض من الممكن أن يفاض على المذنبين ـ في الآخرة ـ بصورة مباشرة ومن دون وساطة ولكن شاءت الإرادة الإلهية الحكيمة وتعلّقت بأن

يكون الفيض المعنوي في عالم الآخرة، مثل عالم الدنيا يمر عبر قانون الأسباب والمسببات وعلى يد أفراد خاصّين، لأنّ أولياء الله وعباده الصالحين والملائكة المقرّبين وحملة العرش، كلّ هؤلاء قد بذلوا عمراً في طاعته سبحانه، وخطوا خطوات واسعة في طريق العبودية والتذلّل والخشوع له سبحانه، استحقّوا خلالها التكريم والاحترام، ولا ريب أنّ إحدى مظاهر التكريم والاحترام لهم تتمثّل في قبول دعائهم ـ تحت شروط خاصة ـ في حقّ المذنبين والمقصرين من عباد الله.

ومن الواضح أنّ القول بالشفاعة لا يعني أنّ أولياء الله يشفعون من دون أيّ قيد أو شرط وبلا رعاية أيّة ضابطة أو قانون، وكذلك لا يعني القول بالشفاعة أنّ الشفعاء يملكون مقام الشفاعة بالذات، بل انّ زمام الأُمور يوم القيامة بيده سبحانه، ووصف ﴿**مالك يوم الدين**﴾ من مختصّاته سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه أحد مهما كانت منزلته.

نعم، انّ هذا المالك المطلق أذن لأوليائه من ذوي المنزلة والمقام والقرب منه بالقيام بذلك الفعل والتصرّف، أعني: الشفاعة.

الشفاعة نوع من التطهير والتنقية

اعتبر القرآن الكريم انّ الموت ليس نهاية الحياة، بل هو بمنزلة النافذة التي تطل بالإنسان على حياة أُخرى وعالم أوسع وأرحب هو عالم البرزخ، والذي تختلف فيه الحياة عن الحياة الدنيا بصورة تامّة، فهناك طائفة معذّبة، وطائفة تعيش في النعيم والرفاه الإلهي.

وهناك طائفة من المذنبين ممّن حافظوا على العلاقة الإيمانية بالله سبحانه من جهة، ولم يقطعوا تلك الرابطة وذلك الحبل، وكذلك حافظوا على علاقتهم المعنوية مع الشفعاء والصالحين، فإنّ هؤلاء يتعرّضون للعذاب في الحياة البرزخية

لينالوا إلى حدّ ما جزاء أعمالهم التي اقترفوها في الحياة الدنيا، وهذا الجزاء والعذاب هو في الحقيقة نوع تصفية وتطهير لنفوسهم من بعض تبعات الذنوب، ولكنّهم حينما يقفون على أعتاب المحشر، يقفون وقد طهرت نفوسهم نسبيّاً من الذنوب بسبب ما تعرضوا له من العذاب في الحياة البرزخية، ممّا يجعلهم جديرين بأن تشملهم المغفرة والرحمة الإلهية، ومن هنا يأتي دور الشفعاء والشفاعة لتطهّرهم ممّا بقي من آثار تلك الذنوب، وبذلك تكون حقيقة الشفاعة هي التطهير والتنقية الكاملة من تبعات وعوارض الذنوب وصقل الروح وتصفيتها من آثار الذنوب بصورة تامّة.

الفرق بين الشفاعة والوساطة الدنيوية

يتصوّر البعض ـ و تحت تأثير الدعايات المغرضة وتبليغ الجاهلين ـ انّ الشفاعة تشبه الوساطة الدنيوية، وبعبارة أُخرى: هي نوع وساطة حزبية، وانّها تعدّ نوعاً من أنواع مخالفة القانون والالتفاف عليه، ومن أجل قلع تلك الشبهة من الأذهان ينبغي التركيز على بيان الفوارق الأساسية بين الشفاعة وبين الوساطة الدنيوية.

فنقول: إنّ التفاوت بين الحالتين يكمن في ثلاث نقاط، هي:

١. في الشفاعة الأُخروية يكون زمام الأُمور بيد الله سبحانه، ولم تخرج الأُمور من يده، بل هو الذي ينتخب الشفعاء ممّن توفرت فيهم اللياقة والكمال بحيث وصلوا إلى درجة من التقوىٰ والمقام والمنزلة تجعلهم لائقين لهذا المنصب الإلهي، فحينئذ يمنحهم الله سبحانه وتعالى ذلك، ويجعل فيض رحمته وغفرانه يجري من خلال طريقهم ليفاض على بعض المذنبين والعاصين وتحت شروط خاصة،

والحال أنّ الوساطة والشفاعة في الحياة الدنيا تختلف مع ذلك اختلافاً أساسياً، وذلك لأنّ المذنب والمجرم هو الذي يتصدى لاختيار وانتخاب الشفيع والواسطة، ولو لم يتحرّك المجرم ويسعى لانتخاب الواسطة والشفيع لما خطر في بال الشفيع أن يتوسّط أو يشفع له عند خصومه، فإذا ما دعا القرآن الكريم المذنبين في هذه الدنيا بقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً**﴾[1]، فلا ريب أنّ هذا الأمر والدستور الإلهي صدر منه سبحانه بصورة مباشرة، ولولا أن يأذن هو بذلك لما توجّه المسلمون نحو الرسول ﷺ وطلبوا منه الاستغفار والتوبة، وعلى فرض أنّهم ذهبوا إليه ﷺ وطلبوا منه ذلك، لا شكّ أنّه لا أثر لذلك الذهاب ولتلك الدعوة مادام الله سبحانه وتعالى لم يأمر بها أو يأذن باستعمالها. وهكذا الكلام في الشفاعة في الدار الآخرة.

٢. في الشفاعة الصحيحة يكون الشفيع خاضعاً للأمر الإلهي وواقعاً تحت تأثير المقام الربوبي، وأمّا في الشفاعة الباطلة يكون صاحب القدرة والمقام الحكومي مثلاً واقعاً تحت تأثير كلام وإرادة الشفيع، كما أنّ الشفيع نفسه هو الآخر واقع تحت تأثير وإلحاح وإصرار المجرم، ومن الواضح أنّ هذا فرق أساسي بين الشفاعتين لا يمكن التغافل عنه.

٣. في الشفاعة الدنيوية يحدث تمييز في القانون بحيث يستطيع الشفيع أن يتغلب على إرادة المقنّن أو المنفذ للقانون، وبالنتيجة تنحصر سلطة المقنن وقدرته على الضعفاء والفقراء والعاجزين فقط، ممّن لاحول لهم ولا قوّة، والحال أنّ الأمر في الشفاعة الأُخروية يختلف عن ذلك اختلافاً جوهرياً فلا يوجد أحد

١. النساء:٦٤.

مهما كان يستطيع أن يفرض إرادته على إرادة الله سبحانه،أو يقف أمام القانون الإلهي، بل انّ حقيقة الشفاعة في الآخرة تستمد وجودها من الرحمة الإلهية الواسعة والمغفرة اللامحدودة والعطف اللامتناهي لله سبحانه ليشمل بذلك كلّه الأفراد الذين استحقوا التطهير والتنزيه من توابع الذنب والرجس.

وأمّا الّذين يحرمون من الفوز بتلك الرحمة الإلهية، فلا يعني ذلك الحرمان انّ هناك عملية تمييز في القانون وتفضيل لطائفة على طائفة من دون أيّة مبررات عقلائيّة، بل انّ حرمانهم ذلك نابع من كونهم غير جديرين بأن تشملهم الرحمة والمغفرة الإلهية بسبب فداحة المعاصي وعظم الذنوب وقطعهم للعلاقة الإيمانية مع الله من جهة و مع الشفعاء من جهة أُخرى.

وبعبارة أُخرى: ليست الرحمة الإلهية محدودة كخزانة التاجر أو البنك بحيث تنفد ولا يبقىٰ منها شيء ليعطى للآخرين رغم استحقاقهم لذلك، بل رحمته واسعة وغير محدودة فلا تنفد خزائن رحمته، ولكن المشكلة في أنّ المجرم نفسه لا يستحق أن تفاض عليه تلك الرحمة.

فإذا ما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، [1] فما ذلك إلّا لأنّ قلب المشرك كمثل الإناء المغلق بحيث لو ألقيته في سبعة أبحر لما نفذت فيه قطرة من الماء أبداً، أو مثله كمثل الأرض المالحة التي لا ينبت فيها إثر هطول الأمطار ـ مهما كثرت ـ إلّا الأشواك والنباتات غير النافعة للإنسان والحيوان.

وإذا ما وجدنا القرآن الكريم يؤكد أنّ الشفاعة لا تكون إلّا من نصيب من ارتضى الله شفاعته كما في قوله تعالى:

---

١. النساء:٤٨و ١١٦.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.[1]

فما ذلك إلاّ لأنّه سبحانه وتعالى يعلم من هو اللائق والجدير بأن تشمله الرحمة الإلهية ويعمّه هذا الفيض المعنوي الإلهي،ويعلم من هو غير الجدير بذلك.

ولا يختص الحرمان من تلك النعمة والفيض الإلهي بالمشركين فقط، بل هناك طائفة من العاصين الذين تلطّخت أيديهم بالجريمة وأُوغلوا في المعاصي والذنوب والخطايا، هؤلاء أيضاً لا يشملهم الفيض الإلهي والرحمة الإلهية الواسعة ولا يعمّهم لطفه سبحانه.

الشفاعة في القرآن الكريم

لقد وردت الشفاعة في القرآن الكريم في آيات كثيرة لا يمكن عرضها في هذا البحث المختصر، ومن هنا نكتفي بذكر بعض الآيات التي صرّحت بها مع تقييدها بشرط محدد وهو إذنه سبحانه وتعالى، وهذه الآيات تثبت أصلاً إسلامياً قطعيّاً، وإن كانت لا تشير إلى أسماء الشفعاء، واكتفت بالإشارة إلى بعض صفات وشروط الشافعين.

نشرع هنا بذكر خمس آيات يكفي الإمعان فيها لإثبات أمرين أساسيّين، هما:

الف: انّ الشفاعة يوم القيامة من الأُصول القرآنية المسلّمة.

ب: انّ هناك طائفة لها حقّ الشفاعة تتّصف بصفات خاصة.

أمّا الآيات المباركة فهي:

---

١. الأنبياء:٢٨.

١ .﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ﴾.(١)

والذي يظهـر من الآية المباركة أنّـه لا يحق لأحد أن يشفع من دون أن يأذن الله سبحـانه لـه، ولكنّهـا في نفس الوقت تلـوّح بأنّ في ذلك اليـوم الموعود هنـاك شفعاء يشفعون بإذنه تعالى.

٢. قوله تعالى: ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.(٢)

٣. وقولـه عزّ مـن قائل: ﴿لاَ يَمْلِكُـونَ الشَّفاعَـةَ إِلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الـرَّحْمنِ عَهْداً﴾.(٣)

أي أنّه لا يحقّ لأحـد أن يشفع إلاّ تلك الطائفـة التي قد وعـدها سبحـانه وتعالى بأن يمنحها مقام الشفاعة وقد أخذت منه سبحانه عهداً بذلك.

أضف إلى ذلك أنّ الآية تشير إلى مفهوم آخر، وهو أنّ جميع الآلهة الباطلة لا تمتلك حق الشفـاعـة، ولم يمنحها الله سبحـانـه وتعـالى ذلك، نعم هنـاك حالـة استثناها القرآن الكريم وهو السيد المسيح عليه السلام فبالرغم من أنّـه قد عُبد من قبل المسيحيّين، إلاّ أنّه تعالى قد منحه هـذا المقام، وما ذلك إلاّ لأنّه عليه السلام كان على خط التوحيد والوحدانية والخضوع والعبودية لله تعالى.

٤. وقوله سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَولاً﴾.(٤)

---

١. البقرة:٢٥٥.

٢. يونس:٣.

٣. مـريم:٨٧. والمراد من ﴿لا يملكون﴾ هـو الآلهة البـاطلـة التي وردت في الآيـة ٨١ من نفس السورة﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾.

٤. طه:١٠٩.

٥. قوله تعالى: ﴿وَلاٰ تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.(١)

هذه مجموعة من الآيات التي تصرّح بوجود شفعاء يوم القيامة يشفعون بشروط خاصة وإن لم تصرّح بأسمائهم وسائر صفاتهم، ولكن هناك طائفة أُخرى حدّدت أسماء بعض الشافعين، منها:

١. شفاعة الملائكة

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰواتِ لاٰ تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾.(٢)

فالآية تشير إلى أنّ الملائكة يشفعون شفاعة واقعية يوم القيامة تحت شروط خاصة.

٢. الشفاعة وصاحب المقام المحمود

لقد أكّد القرآن الكريم أنّ النبيّ الأكرم ﷺ يمتلك «المقام المحمود»، ولقد فسّرت الروايات الإسلامية هذا المقام بمقام الشفاعة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾.(٣)

قال الزمخشري: ومعنى المقام المحمود، المقام الذي يحمده القائم فيه، وكلّ من رآه وعرفه، وهو مطلق في كلّ ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل المراد الشفاعة، وهي نوع واحد ممّا يتناوله.(٤)

---

١. سبأ:٢٣.

٢. النجم:٢٦.

٣. الإسراء:٧٩.

٤. الكشاف:٢/ ٢٤٣.

وأمّا الشيخ الطبرسي فقد قال: وقد أجمع المفسّرون على أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطىٰ فيه لواء الحمد، فيوضع في كفه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون ﷺ أوّل شافع وأوّل مشفّع.[١]

وقد تواترت الروايات الإسلامية في تفسير «المقام المحمود» بمقام الشفاعة، فقد نقل السيوطي في «الدر المنثور»[٢] والبحراني في تفسير «البرهان»[٣] عشر روايات عن أئمّة الإسلام نعرض عن ذكرها روماً للاختصار.

٣. الرسول الأكرم وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوفَ يُعطيكَ ربّك فَتَرضىٰ﴾

هناك آية أُخرى تحكي أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يمنح نبيّه من النعم والعطاء حتّى يرضى حيث قال تعالى:

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ* وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضىٰ﴾.[٤]

ومن أمعن النظر في الآيتين يجد إبهاماً في الآية الثانية من جهتين:

أوّلاً: إنّ الآية لم تبينّ زمان ومكان ذلك العطاء الإلهي، فمن أين نعلم أنّ ظرف وزمان العطاء هو يوم القيامة؟

ثانياً: انّ الآية لم تبيّن نوع العطاء وماهيته، فلعل المراد منه غير الشفاعة.

---

١. مجمع البيان: ٣/ ٤٣٥.

٢. تفسير الدر المنثور: ٤/ ١٩٧.

٣. البرهان: ٤/ ٤٧٣.

٤. الضحى: ٥ـ٦.

أمّا الإبهام الأوّل فيرتفع بمجرّد الرجوع إلى الآية السابقة حيث كانت بصدد الحديث عن الآخرة والثناء عليها وتفضيلها على الدنيا، ثمّ بعد ذلك أعقبت الكلام بالحديث عن العطاء الإلهي ، فقالت: ﴿وَلَسَوفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتَرضىٰ﴾، وهذا الاتصال بين الآيتين شاهد صدق على أنّ زمان ومكان العطاء في عالم آخر وهو عالم الحياة الأُخرى.

ثمّ إنّ المقام السامي للرسول الأكرم والذي وصفه سبحانه به حيث قال: ﴿رحمة للعالمين﴾ يقتضي أن يكون الرسول ﷺ في ذلك اليوم العصيب والموقف المهول والمرعب في مقام التفكير في مصير أُمّته، وانّه ﷺ سيسر ويرتاح حينما يرى الكثير من أُمّته قد شملتهم الرحمة الإلهية والمغفرة الربانية، ومن هذا المنطلق واعتماداً على هذا الأصل سوف يرتفع الإبهام الثاني أيضاً، وانّ المقصود من العطاء الذي يرضيه ﷺ هو الشفاعة في أُمّته.

أضف إلى ذلك أنّ الروايات الإسلامية هي الأُخرى قد فسّرت الآية المذكورة بمقام الشفاعة.[1]

الشفاعة في السنّة

إلى هنا تمّ الحديث عن الشفاعة في القرآن الكريم، وأمّا الروايات فكثيرة جداً بحيث لا يمكن استيعابها في هذا الفصل، ومن هنا نكتفي بذكر بعض النماذج من تلك الروايات:

قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً: و أُعطيتُ الشفاعة، فادّخرتُها لأُمّتي،

---

١. انظر تفسير مجمع البيان:٥/ ٥٠٥؛ وتفسير البرهان٤/ ٤٧٣؛ و تفسير الدر المنثور. وقد نقل المحدّثون عن ابن عباس قوله في تفسير الآية: رضاه ان تدخل أُمّته الجنة.

فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً».[١]

وقال ﷺ أيضاً: «أنا أوّل شافع وأوّل مشفّع».[٢]

وفي رواية أُخرى قال أبوذر رضي الله عنه: صلّى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتّى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فلمّا أصبح، قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: إنّي سألت ربّي عزّ وجلّ الشفاعة لأُمّتي فأعطانيها، فهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً».[٣]

نكتفي بهذه الباقة العطرة من الروايات، ومن أراد المزيد من التفصيل فعليه بمراجعة موسوعتنا في التفسير الموضوعي «مفاهيم القرآن»[٤] حيث أوردنا هناك ما يقارب المائة من الروايات الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته تتحدّث وبوضوح عن أصل الشفاعة، وشروط الشفعاء، وشروط المشفوع لهم، ونتيجة الشفاعة.

فإذا كان أصل الشفاعة ـ كما أثبتنا ـ من الأُصول المسلّمة لدى الجميع حتى ابن عبد الوهاب[٥] وأُستاذه ابن تيمية[٦]، من هنا نمسك عنان القلم عن الخوض الزائد في هذا البحث لنعطف عنانه إلى مسألة أُخرى، وهي المسألة التي يحرّمها الوهابيون ألا وهي:

---

١. مسند أحمد: ١/ ٣٠١؛ سنن النسائي: ١/ ١٧٢؛ سنن الدارمي: ١/ ٣٢٣ وغير ذلك.

٢. سنن الترمذي: ٥/ ٢٤٨؛ سنن الدارمي: ١/ ٢٦.

٣. مسند أحمد: ٥/ ١٤٩.

٤. مفاهيم القرآن: ٤/ ٣١٥ـ ٣٣٧.

٥. كشف الشبهات: ١٦.

٦. مجموعة الرسائل الكبرى: ٣/ ٤٠٣.

الفصل الثاني عشر

طلب الشفاعة من المأذونين بالشفاعة

طلب الشفاعة من المأذونين بالشفاعة

إنّ طلب الشفاعة من المأذونين بها من الأُمور الرائجة في أوساط المسلمين منذ عصر الرسول الأكرمﷺ و إلى اليوم، ولم يخالف في ذلك من علماء الإسلام إلاّ اثنان، هما:

١. ابن تيمية في أوائل القرن الثامن.

٢. محمد بن عبد الوهاب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

فقد ذهب الرجلان إلى منع طلب الشفاعة من الشفعاء الحقيقيين في كتاب الهدية السنيّة ص ٤٢ حيث جاء فيه: ونثبت الشفاعة لنبيّنا محمدﷺ يوم القيامة ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد، ونسألها من المالك لها والآذن فيها بأن نقول: اللّهمّ شفّع نبيّنا محمداًﷺ فينا يوم القيامة، أو اللّهمّ شفّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك، أو نحو ذلك ممّا يطلب من الله لا منهم، فلا يقال: يا رسول الله، أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها....[١]

وقبل أن نتعرّض لبيان ومناقشة أدلّة المانعين لطلب الشفاعة من الصالحين، نشرع في بيان الأدلّة المجوّزة لذلك والواردة في الكتاب والسنّة:

---

١. كشف الارتياب:١٩٣؛ وانظر كشف الشبهات:١٦.

١. طلب الشفاعة يعني طلب الدعاء

إنّ طلب الشفاعة من النبي الأكرمﷺ ومن الشفعاء الصادقين لا يعدو عن طلب الدعاء منهم لا غير، ولا ريب أنّ دعاءهم مستجاب قطعاً بسبب قربهم المعنوي ومنزلتهم السامية ومقامهم الرفيع عند الله سبحانه، وإذا كان دعاؤهم مستجاباً قطعاً، فحينئذٍ ينعم المذنب بالمغفرة والرحمة الإلهية تحت ظل ذلك الدعاء المبارك،ومن المعلوم أنّه لا إشكال ولا ضير في طلب الدعاء من الأخ المؤمن فضلاً عن الرسول الأكرمﷺ فإذا ما قلنا: «يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» يعني: ادعو لنا عند الله ليغفر لنا ذنوبنا ويعفو عنها.

أضف إلى ذلك أنّه قد ورد كثيراً في الكتب الحديثية استعمال لفظ «الشفاعة» بمعنى الدعاء، حتّى أنّ الإمام البخاري في صحيحه قد استعمل لفظ «الشفاعة» بمعنى الدعاء في بابين من أبواب كتابه الصحيح، وهما:

أ. «إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردّهم».[١]

ب. «إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط».[٢]

والشاهد على أنّ الشفاعة بمعنى الدعاء، ما رواه ابن عباس عن النبي الأكرمﷺ حيث قالﷺ: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلاّ شفّعهم الله فيه».[٣]

من الواضح أنّ شفاعة هؤلاء الأربعين للميت ليس إلاّ لأنّهم حال أداء

---

١. صحيح البخاري:٢/ ٢٩ـ ٣٠.

٢. صحيح البخاري:٢/ ١٩.

٣. صحيح مسلم:٣/ ٥٤.

صلاة الميت عليه قد رفعوا أكفّهم بالدّعاء لله سبحانه طالبين منه العفو والرحمة والمغفرة له وقائلين: «اللّهمّ اغفر له».

وعلى هذا الأساس إذا كانت ماهية الشفاعة وحقيقتها هو الدعاء، فلماذا ياترى يكون طلب الدعاء أمراً محرماً؟!

٢. حديث أنس وطلب الشفاعة

روى الترمذي عن أنس بن مالك قال:

«سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل»، قلت: فأين أطلبك؟، فقال: «على الصراط».[١]

والحديث صريح بأنّ أنس بن مالك قد طلب اعتماداً على الفطرة السليمة من الرسول الأكرمﷺ أن يشفع له يوم القيامة، وفي الوقت نفسه نجد الرسول الأكرم يعده بتلبية طلبه ويعين له موعداً، ولم يخطر ببال أنس أبداً أنّ طلب الشفاعة من الرسول ﷺ نوع شرك لابدّ من الاجتناب عنه.

٣. سواد بن قارب وطلب الشفاعة

أنشد الصحابي سواد بن قارب قصيدة بحق الرسولﷺ طلب في بعض أبياتها من الرسول الأكرم أن يشفع له، وممّا جاء فيها:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب[٢]

١. سنن الترمذي: ٤/ ٦٢١ برقم ٢٤٣٣.

٢. الإصابة: ٢/ ٩٥ـ٩٦، رقم الترجمة ٣٥٨٣.

٤. علي بن أبي طالب عليه السلام وطلب الشفاعة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من غسل وتكفين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كشف عن وجهه ثمّ خاطبه قائلاً: «بأبي أنت وأُمّي طبت حيّاً وطبت ميّتاً، واذكرنا عند ربّك».[1]

فإنّ العرب تستعمل جملة «اذكرني عند ربّك» في طلب الشفاعة، وقد ورد ذلك في قصة النبي يوسف عليه السلام حيث طلب عليه السلام من صاحبه في السجن ـ ساقي الملك ـ قائلاً: ﴿**اذكرني عند ربّك**﴾.[2]

وفي الختام نشير إلى مسألة مهمة وهي أنّ جميع الآيات والروايات الكثيرة التي وردت في مجال التوسّل بالأنبياء والصالحين هي في حقيقتها طلب للشفاعة منهم، فلا حاجة إلى ذكرها مرّة أُخرى هنا.

أدلّة المانعين لطلب الشفاعة

تمسّك المانعون لطلب الشفاعة بسلسلة من الأدلّة زاعمين أنّها تدلّ على حرمة طلب الشفاعة من الشفيع مباشرة، وهانحن نستعرض تلك الأدلّة مع مناقشاتها، وهي:

١. طلب الشفاعة شرك

إنّ المانعين لطلب الشفاعة من الشفعاء يقولون: يجب أن نقول: «اللّهم

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠.

٢. يوسف: ٤٢.

اجعلنا ممّن تناله شفاعة محمد» ولا يجوز أبداً أن نقول: «يا محمد اشفع لنا عند الله».

ثمّ يقولون: صحيح انّ الله تعالى قد منح محمداً ﷺ مقام الشفاعة، ولكنّنا منعنا من طلبها منه مباشرة، وأمرنا بأن نطلبها من الله تعالى بأن يشفّع نبيّه فينا.

جواب الشبهة

إنّ الذكر الحكيم يشهد بأنّ هناك طائفة من المؤمنين الموحّدين من الذين ساروا خطوات واسعة على الطريق القويم والعبودية وشهدوا بالحق، يمتلكون مقام الشفاعة يوم القيامة ويشفعون للمذنبين بإذنه سبحانه وتعالى، ومن تلك الآيات قوله تعالى:

﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

ومن الواضح انّ أداة الاستثناء «إلاّ» الواردة في الآية تشهد بأنّ الشهداء بالحقّ يمتلكون الشفاعة.

علماً أنّ المراد من مالكية الشفاعة هنا هو المالكية المأذون بها من قبله سبحانه وتعالى، وحينئذٍ يطرح السؤال التالي: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد منح بعض عباده الصالحين هذا المقام ـ مقام الشفاعة ـ فما المانع في أن يطلب المذنبون من هؤلاء الشفاعة بصورة مباشرة؟

وبالطبع أنّ طلب الشفاعة لا يلازم قبول الدعاء واستجابته، بل أقصىٰ ما في الأمر أنّ المأذون بالشفاعة يشفع تحت شروط خاصة، وممّا يثير الانتباه دعوى

---

١. الزخرف:٨٦.

مؤسس الوهـابيّة حيث قال: ونثبت الشفاعـة لنبيّنا محمّدﷺ يوم القيامـة ولسائر الأنبياء و... ونسألها من المالك لها والآذن فيها... فلا يقال: يا رسول الله، أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها، لأنّنا نهينا عن ذلك.(١)

ويرد على كلامه هذا:

أوّلاً: في أيّة آية ورد النهي الـذي يدّعيه صاحب المقالـة المذكورة؟ هذا من جهـة، ومن جهة أُخـرى إذا كان مـراده أنّنـا نهينا عن طلبهـا منهم لأنّها شرك في العبادة، فيردّه أنّنـا أثبتنا في البحوث الماضيـة ـ في تعريف الشرك في العبـادة ـ أنّ هذا الطلب من الشفيـع لا ينبع من الاعتقاد بأنّ الشفيع ربٌّ، أو فـوّض إليه فعل الرب، بل ينبع من الاعتقـاد بكونه عبـداً من عباد الله قد منّ الله تعـالى عليه بهذا المقام، ومنحه تلك المنزلة، فأيّ شرك في هذا؟!

ثانياً: أنّ المقالة المذكورة تنطـوي على تناقض واضح، فكيف ياترىٰ يمكن للإنسان أن يتصوّر أنّ الله سبحانه وتعالى منح طائفة من عباده هذه المنزلة والمقام لكي يتسنّى لـلآخـرين الاستفادة منهـا وفي نفس الـوقت ينهى عن طلبهـا منهم وسؤالهم إيّاها؟!

٢. طلب المشركين الشفاعة من الأصنام

الدليل الثاني الذي تمسّك به القائلون بتحريم طلب الشفاعة من الشفعاء هو:

إنّ القـرآن الكـريم اعتبر علّـة شرك الوثنيّين في عصر الـرسـالـة تكمن في طلبهم الشفاعة من أصنامهم وأوثانهم، فقال تعالى:

---

١. كشف الشبهات:١٦.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ اللهِ﴾.[١]

وعلى هذا الأساس يكون طلب الشفاعة من الأنبياء أو الأولياء شركاً شبيه طلب الشفاعة من الأصنام.[٢]

ويرد على ذلك:

أوّلاً: أنّ هناك فرقاً جوهرياً بين طلب الشفاعة من الأصنام وطلبها من الأولياء الصالحين، لأنّ طلب المشركين الشفاعة من أصنامهم ينبع من الاعتقاد بأنّ أصنامهم آلهة أو فوّض إليها فعل الإله، والحال أنّ الموحّدين ينطلقون في طلبهم هذا من الاعتقاد بأنّ الشفعاء عباد لله أخلصوا له العبودية، فتفضّل عليهم سبحانه ووهبهم هذه المنزلة والمقام، فكيف ياترىٰ جاز اعتبار الطلبين يعودان إلى حقيقة مشتركة وجوهر واحد؟!

وثانياً: أنّ المشركين عبدوا الأصنام أوّلاً ثمّ طلبوا منها الشفاعة ثانياً، وهذا ما تحكي عنه الآية المذكورة حيث قال تعالى أوّلاً: ﴿وَيَعبُدُونَ مِنْ دُونِ الله﴾ ثمّ أردف ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هؤلاءِ شُفَعاؤُنا﴾، والحال أنّ الموحّدين لا يعبدون إلّا الله تعالى وحده لا شريك له، نعم بعد الخضوع له سبحانه والإيمان به، يطلبون الشفاعة من أوليائه الصالحين، انطلاقاً من إذنه سبحانه وتعالى في هذا الفعل.

اتّضح من هذا البيان أنّ عطف عمل المؤمنين على المشركين واعتبارهما أمراً واحداً، عطف لا أساس له من الصحّة، ولا يقوم على أيّ مستند علمي أو دليل برهاني.

---

١. يوسف:١٨.

٢. انظر كشف الشبهات:١٤.

٣. طلب الشفاعة من الميّت لغو

هـذا الدليل هـو آخر مـا تمسّك بـه المانعون لطلب الشفـاعة من الأوليـاء والصالحين.

ويرد عليه: انّنا أثبتنا في بحث الحيـاة البرزخية أنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون، فإذا كان الشهداء أحياءً عنـد ربّهم فنبيّ الشهداء من باب أولى يكون حيّاً عند ربّه، وحينئذٍ لا يكـون طلب الشفاعة منه لغواً، لأنّه حي يـرزق يسمع كلامنا ويرى مقامنا بإذنه سبحانه.

وعلى فرض التسليـم بأنّ الأنبياء والصـالحين والشهداء موتـى لا يسمعون كلامنا ولا يـرون مقامنا، فحينئذٍ أقصى مـا يستلزمه طلب الشفاعـة منهم أن يُعد أمراً لغواً، لا أنّه أمـرٌ محرم كما يدّعيه أصحاب الفكر الوهـابي، والشاهد على ذلك أنّ الغريق يتمسّك بكلّ قشة للنجاة والخلاص، ومن الـواضح أنّ عمله هذا لغو لا طائل وراءه، ومع ذلك كلّـه لا تجد متعلّماً ـ فضلاً عن العالم ـ يصف الغريق بالشرك أو بارتكاب الحرام.

الفصل الثالث عشر

مقامات وقدرات الأولياء

مقامات وقدرات الأولياء

لا شكّ أنّ الإنسان قد خلق وهو يحمل قدرات و إمكانات محدودة، وقد استطاع من خلال هذه القدرة المحدودة التي وهبها الله تعالى له التصرّف في عالم الكون واستغلال الأسباب والعلل الطبيعية والاستعانة بها لتحقيق أغراضه ونيل مآربه و إدارة شؤون حياته.

نعم إنّ هناك ثلّة من عباد الله المخلصين توفّروا على قدرات أوسع و إمكانيات أكثر بحيث استطاعوا من خلالها القيام بأعمال يعجز عنها أبناء النوع الإنساني. ولتحصيل هذا النوع من القدرات والإمكانات الواسعة والخارقة للعادة يوجد طريقان، هما:

١ . ممارسة الرياضات الصعبة

إنّ عدم الالتفات وعدم الاعتناء بالجسد عامل مهم في تنمية و إعداد القدرات الروحية الكامنة في الإنسان، وكأنّه يوجد تضاد بين الاعتناء والاهتمام الكامل بين (قوى الجسم وقوى الروح) بمعنى كلّما زاد اهتمام الإنسان بتنمية الجسم و إعداده، وغرق في بحر اللّذات الجسمية والشهوات المادية كلّما ابتعد عن العنصر المعنوي والروحي، فلم يبق مجال لإعداد و إنماء و إكمال القوىٰ الروحية

والمعنويـة، وعلى العكس من ذلك كلّما قلّل الاهتمام بـالعنصر المادي والتعلّقات الجسمانيّـة واللـذائذ والشهوات البـدنيـة والتفت إلى العمق الـروحي وغـاص في المعـاني الروحيـة والقيم المعنويـة، استطاع أن ينمي القـوى والطاقـات الباطنيـة الكامنة ويظهرهـا إلى العيان، واستطاع أن يضفي على قدراته وإمكـاناته قدرات وإمكانات أوسع وأشمل.

إنّ المرتاضين وتحت تأثير الرياضات الشديدة والأعمال الشاقة التي يقومون بها ـــ و المحـرمـة شرعـاً ـــ استطـاعـوا أن يحرروا أنفسهم من القيـود والتعلّقـات الجسمانيـة والمادية، ولا ريب أنّ تلك الـرياضـات بدرجـة من الشدّة والتعـذيب للروح بحيث يستحيل على الإنسان العادي تحملها والقيام بها، بل المرتاض نفسه يطوي طـريق الريـاضة بصورة تـدريجية ويخطـو خطوات متتـالية إلى أن يصل في نهاية المطاف إلى النتيجة التي يسعى إليها.

ولا شكّ أنّ هذا المنهج ـ الذي يقوم على قطع العلاقات والميول والشهوات الماديـة والتسلّط على القـوى الباطنيّـة والاستعـدادات الـروحية من خـلال هـذا الطريق الـوعر ـ يُعدّ أمـراً مخالفاً للفطرة الإنسـانية والقوانين الإسلاميـة المسلّمة، لأنّه نـوع اضرار وتعذيب للروح والبـدن وفي الحقيقة هو «رهبانيـة مسيحية» نهى عنها الإسلام ووقف في وجهها.

٢. سلوك طريق العبودية

إنّ الطريق الصحيح والأُسلوب الأمثل لتكامل الروح ورقي النفس يكمن في الالتـزام بالتعـاليم والإرشادات الإسـلامية وطي طـريق العبوديـة المستقيم لله سبحانه، والعمل وفقاً للأوامـر والتشريعات الإلهية التي عيّنتها وحدّدتها السماء ،

وذلك لأنّ العبادات والوظائف الظاهرية ليست هي المرادة والمقصودة بالذات للشارع المقدّس، و إذا ما أمر بها الإسلام وطالب بالقيام بها وتنفيذها، فإنّ غرضه هو تحقيق الفوائد والآثار التي تعود على الإنسان من خلالها، والتقرّب من الله والزلفى لديه سبحانه التي تنتج من خلال القيام بامتثالها، وكذلك التكامل الروحي الحاصل من ورائها، فالإنسان المؤمن ومنذ الخطوات الأُولىٰ التي يخطوها في طريق امتثال الأوامر والدساتير الإلهية يكون ـ و بصورة قهرية ـ قد وضع قدمه على طريق التكامل الروحي والاستعداد المعنوي وتنمية الفضائل والملكات الباطنية.

ولا ريب أنّه ليس كلّ من سلك ذلك الطريق قد وصل إلى ذروة الكمال الروحي والمعنوي فيه، بل الناس فيه مختلفون والمقامات متفاوتة، وذلك لأنّ القضية ترتبط طردياً بدرجة الانقطاع والعبودية والإخلاص لله سبحانه وتعالى ومن المسلّم به أنّ الناس ليسوا على وتيرة واحدة في الإيمان والطاعة والإخلاص قطعاً.

ولقد وصف الرسول الأكرمﷺ المقامات والمنازل العالية لسالكي طريق الحقّ والعبودية، فقالﷺ: «ما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، و إن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه».[1]

إنّ الإمعان في الحديث يكشف عن عمق العظمة والكمال المعنوي والروحي الذي يصل إليه الإنسان من خلال سلوك طريق العبودية لله سبحانه

١. صحيح البخاري:٨/ ١٣١، باب ما جاء في الزكاة؛ ونقله في الكافي:٢/ ٣٥٢باختلاف يسير.

وأداء الواجبات والقيام بالنوافل على أكمل وجه إلى الحدّ الذي يصبح فيه المؤمن ـ اعتماداً على قدرته تعالى ـ يسمع ما لم يسمعه الإنسان العادي، ويرى من الأشباح والصور ما لا يراه الإنسان العادي أيضاً. وهكذا يتحقّق له كلّ ما يريده ويرومه.

وبلا أدنى ترديد يكون المراد من قوله: «كنت سمعه وبصره و ...» هو انّ الإنسان المؤمن وفي ظل القدرة الإلهية يتوفر على بصيرة أنفذ وقدرة أوسع.

ومن الواضح أيضاً من الحديث الشريف أنّ الرسول الأكرمﷺ كان يرى في الإنسان قدرات عجيبة ومحيّرة يحصل عليها من خلال سلوك طريق العبودية والتعمّق في المعارف الإلهية الصحيحة والأساليب السليمة.

إذا عرفنا ذلك نشير إلى بعض الآثار العجيبة للعبودية لله سبحانه، والسير في ذلك الطريق المستقيم.

١. الهيمنة والتسلّط على النفس

إنّ الأثر والثمرة الأُولى لسلوك طريق العبودية يتمثّل في سيطرة الإنسان وهيمنته على نفسه وميولها ورغباتها النفسية، بحيث يصبح ذا ولاية عليها، وبالنتيجة يكبح جماح «النفس الأمّارة»، ويصل إلى درجة من الرقي المعنوي والكمال الروحي بنحو يكون زمام أُمور «نفسه الأمّارة» بيده، وهذه المرحلة التي يصل إليها الإنسان يطلق عليها عنوان «الولاية على النفس».

ولقد أشارت آيات الذكر الحكيم إلى هذه المرحلة، حيث قال سبحانه:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.[1]

---

١. العنكبوت:٤٥.

يعني أنّ الصلاة تخلق في الإنسان حالة معنوية عظيمة، حيث تُوجد فيه حالة المصونية عن الذنب وارتكاب الفحشاء والمنكر.

٢. الرؤية النافذة

من خصائص العبودية لله انّ الإنسان يحصل من خلالها على بصيرة نافذة ورؤية حادّة،وصفاء خاص بحيث يستطيع أن يميّز بين الحق والباطل بسهولة ويسر، ويحصل أيضاً على نوع من المصونية عن الوقوع في الضلال والانحراف.

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرقاناً﴾.[١]

والمراد من الفرقان هو تلك الرؤية النافذة التي تُمكّن الإنسان من التمييز بين الحق والباطل.

وفي آية أُخرى يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا﴾.[٢]

وفي آية ثالثة:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِه﴾.[٣]

فإنّ مفاد هذه الآية أنّ ثمرة التقوىٰ والإيمان في هذا العالم هي البصيرة والوضوح، وسوقه نحو الطهر والتزكية.

---

١. الأنفال:٢٩.

٢. العنكبوت:٦٩.

٣. الحديد:٢٨.

٣. الهيمنة على الأفكار المتشتّتة

من الأُمور التي يطمح إليها الإنسان المؤمن والآمال التي يرنو إليها هو الهيمنة على قواه العقلية وصبّها على مركز واحد حال العبادة، وهذا المركز هو التوجّه المطلق إلى الله تعالى والابتعاد عمّا سواه، ولا ريب أنّ هناك الكثير من الناس ممّن يفتقدون الحضور القلبي تجدهم يذهبون يميناً وشمالاً، وتسرح أذهانهم وأفكارهم هنا وهناك حال الصلاة وحال القيام بالعبادات الأُخرى كالدعاء وتلاوة القرآن وغير ذلك. وما ذلك إلاّ لأنّهم لم يهيمنوا على القوّة الخيالية ولم تكن لديهم الولاية عليها، ومن هنا لا يستطيعون أن يأتوا بصلاة واحدة ذات أربع ركعات من دون أن تسرح مخيلتهم هنا وهناك،ومن هنا تجدهم في حقيقة الأمر يقفون للعبادة مجرّد هياكل بدنية فقط فأمّا الروح فسارحة مع خيالها الخاص بها بعيداً عن أجواء العبادة.

٤. تحرير الروح عن البدن

إنّ العلاقة بين الروح والبدن في عالم الطبيعة علاقة وثيقة وأنّ أحدهما بحاجة ماسة إلى الآخر، فالروح مهمتها تدبير البدن وحفظه من الفساد والخراب فالبدن محتاج إليها، ولكن من جهة أُخرى نجد أنّ الروح هي الأُخرى بحاجة إلى البدن لتنفيذ ما ترومه الروح والقيام بالنشاطات التي تبتغيها من خلال الأعضاء والجوارح المادية، فالروح تسمع من خلال الأُذن وتبصر من خلال العين وهكذا....

ولكن قد تتحرر الروح من البدن بسبب التكامل والقدرات المعنوية التي تحصل عليها عن طريق العبادة والخضوع للحق تعالى، الأمر الذي يصحّ أن يطلق

عليه عنوان «خلع البدن».

وليس من السهل تصوّر هذا الأمر بالنسبة إلى الناس العادّيين الذين ينظرون إلى الحياة من بعدها المادي فقط، ولكنّه سهل جداً على المؤمنين الذين سلكوا طريق العبودية والعروج الروحي، فإنّ بإمكانهم متى شاءوا خلع البدن المادي والتحرر منه فعلوا ذلك بقدرته وتمكينه تعالى.

ولقد شاهدنا في حياتنا نماذج من تلك الشخصيات التي تمتلك تلك الصفة الكمالية العالية.

٥. مشاهدة الأجسام اللطيفة

من الثمار التي يجنيها الإنسان المؤمن والناتجة من القرب الإلهي والسمو المعنوي هو التمكّن من مشاهدة الأجسام اللطيفة والشفّافة، فلا ريب أنّه يوجد في عالم الطبيعة أجسام لطيفة لا يمكن أن تدرك بالعين الباصرة الظاهرية، بل تحتاج إلى حاسة أُخرى لإدراكها ومشاهدتها، فعلى سبيل المثال يؤكّد القرآن الكريم وجود الملائكة تطير في السماء بأجنحة خاصة، كما ورد في قوله تعالى:

﴿**الْحَمدُ للهِ فاطِرِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَثُلاثَ وَرُباعَ**﴾.[1]

فعلى هذا الأساس يكون الملائكة موجودات جسمانية ظاهراً وذات أجنحة، والحال أنّنا لم نتمكن من مشاهدة تلك الأجسام اللطيفة، ولكن إذا رجعنا إلى الرؤية القرآنية نجد أنّه يؤكّد أنّ العباد الطاهرين والذوات الزكية

١. فاطر:١.

صاحبة القرب الإلهي والسمو المعنوي يشاهدون تلك الملائكة.

بل انّ عباد الله المخلصين يتحدّثون مع تلك الأجسام فضلاً عن مشاهدتها. ولقد أشار أمير المؤمنينعليه السلام إلى هذا المعنى في الخطبة المعروفة بالقاصعة:

«ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشُمُّ ريح النبوة.

ولقد سمعت رنَّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنّك لست بنبيّ، ولكنّك الوزير وإنّك لعلىٰ خير».[1]

ولقد أشار القرآن الكريم ــ من بين نساء بني إسرائيل ـ إلى مريم عليها السلام بأنّها كانت قادرة على رؤية الملك والحديث معه قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنّي أَعُوذُ بِالرَّحمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾.[2]

٦. التصرّف في عالم الخلق

إنّ الإنسان المؤمن والمنقطع لله سبحانه بالطاعة والعبودية لا أنّه يهيمن على قواه الجسمانية فقط، بل ــ و في ظل القدرة الإلهية ـ يتمكّن من الهيمنة على

---

١. نهج البلاغة: ١٩٢، ط صبحي الصالح.

٢. مريم: ١٧ـ١٩.

عالم الطبيعة بحيث تصبح نفسه قادرة على التصرّف فيه بإذن الله تعالى وبدون أن يعتمد على الأسباب الطبيعية. وحينئذٍ يكون قادراً على القيام بسلسلة من الأعمال الخارقة للعادة من قبيل المعجزات والكرامات.

ولإثبات هذا الادّعاء نأتي بطائفة من آيات الذكر الحكيم والتي تشهد بوضوح على أنّ أولياء الله يستطيعون ـ و لمصلحة ما ـ التصرّف في عالم الطبيعة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى القدرة العظيمة التي وهبها الله سبحانه للأنبياء عليهم السلام في التصرف ـ بإذنه ـ في عالم الطبيعة، نكتفي هنا بالإشارة وبصورة مختصرة إلى بعضهم عليهم السلام، وهم: يوسف، سليمان، و المسيح عليهم السلام.

الف: تصرّف يوسف عليه السلام في ردّ البصر إلى والده

أكّد القرآن الكريم هذه القصة بقوله:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ* وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ* قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ* فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾.[1]

وأنت ترى أنّ القرآن الكريم يؤكّد تلك الحقيقة في ضمن آيتين:

١. **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾**.

٢. وقوله: **﴿فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾**.

ولا ريب أنّ المعافي والمشافي الواقعي هو الله سبحانه وتعالى، ولكن ـ وكما

---

١. يوسف:٩٣ـ٩٦.

قلنا ــ إنّه قد شاءت الإرادة الإلهيـة أن يجري الفيض الإلهي على مخلوقاته سبحـانه عن طريق الأسباب الأعم من (الطبيعية وغير الطبيعية).

ولا شكّ هنا أنّ لإرادة يوسف عليه السلام تأثيراً واضحاً، وأنّه أرجع القدرة الباصرة إلى أبيه تحت ظل القدرة والفيض الإلهي الذي منح له عليه السلام.

وهنـا سؤال يطـرح نفسـه وهو: لماذا استعمل يـوسف عليه السلام هذه الـوسيلة البسيطة جداً ـ القميص ـ و لم يستعمل وسيلة أعقد من ذلك؟

والجواب: انّ منهج الأنبيـاء في الإتيـان بـا لمعجـزة والصـالحين في القيـام بالكرامـات هو اعتماد الوسائل البسيطة جدّاً في القيـام بالأعمال العظيمة،وذلك لكي يـذعن الجميع بـارتباطهـم بالسماء وتلقّيهم قـدراتهم من ذي القـدرة الغير المتنـاهية،وإلاّ فلـو استفـادوا من الأسباب والعلل المعقـدة والـوسائل المتطـوّرة لنسب الناس تلك النتائج إلى تلك العلل والأسبـاب المعقّدة، وأخيراً لنسبوها إلى علم الأنبيـاء وإمكـاناتهم الماديـة مثـلاً. وحينها تنتفي الغـايـة والهدف من وراء المعجزة.

ب. أصحاب سليمان عليه السلام والقدرات العجيبة

كلّنا يعلم أنّ سليمان عليه السلام استدعى ملكة سبأ للحضور عنده، ولكنّه وقبل أن تحضر عنده بلقيس، سأل الحاضرين في ناديه وأصحابه قائلاً:

﴿يا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسْلِمين﴾.[1]

فانبرى أحـد الحاضرين ملبيّاً الدعوة ومظهـراً استعداده للإتيان بـه بسرعة فائقة، فقال:

---

١. النمل:٣٨.

﴿أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمين﴾. (١)

فنهض وزير سليمان وابن أُخته «آصف بن برخيا» ـ كما يقول المفسّرون ـ و أعلن عن استعداده للإتيان به قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه، قال تعالى:

﴿قَالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرفُكَ فَلَمّا رآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبّي﴾. (٢)

ولابدّ من الإمعان في الآيات الكريمة لنرى من هو فاعل هذه الأعمال العجيبة ـ الإتيان بعرش بلقيس ـ عبر مسافات طويلة جداً وبطرفة عين فقط؟

الظاهر من الآيات أنّ فاعل تلك الأُمور العجيبة هو أصحاب سليمان أنفسهم ـ و لكن بإذنه سبحانه ـ ويمكن تأكيد ذلك من خلال النقاط التالية:

أوّلاً: أنّ سليمان عليه السلام قد طلب منهم مباشرة القيام بهذا العمل، وهذا يعني أنّه كان عليه السلام يعلم من حالهم أنّهم قادرون على القيام بمثل تلك الأعمال الخارقة للعادة.

ثانياً: انّ الشخص الذي أبدىٰ استعداده للقيام بالمهمة والإتيان بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه، أردف كلامه بالجملة التالية فقال: ﴿وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمين﴾.

ومن الواضح أنّه إذا لم يكن للشخص المذكور دور في العمل لما كان لقوله: ﴿وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمين﴾ أيّ معنى، بل يصبح ذلك القول لغواً.

---

١. النمل: ٣٩.

٢. النمل: ٤٠.

ثالثاً: أنّ الشخص الآخر الذي قال: ﴿**أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرفُكَ**﴾ نسب الإتيان بهذا العمل الخارق للعادة إلى نفسه، وقال: ﴿**أَنَا آتيكَ...**﴾.

وهل يوجد أصرح من هذا التعبير القرآني الكريم الذي يبيّن بما لا لبس فيه بأنّ أصحاب النفوس الطاهرة والأرواح الزكية يمتلكون من القدرات والإمكانات العجيبة والمحيّرة للعقول في الإتيان بالمعجزات والكرامات، وحينئذٍ لا يبقى مجال للمشكّكين للتشكيك أو الميل نحو التأويلات الباردة التي لا تقوم على أساس علمي.

رابعاً: أنّ الله سبحانه وتعالى قد صرّح بالسبب الذي جعل وزير سليمان قادراً على القيام بذلك العمل بسرعة زمانية قياسية،وهو انّ هذا الإنسان كان يمتلك علماً غير العلم المتوفّر لدى سائر الناس،بل هو من نوع العلوم الخاصة بعباد الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ**﴾.

ج. سليمان عليه السلام والقدرات العجيبة

يصرّح القرآن الكريم بالقدرات التي كان سليمان عليه السلام يمتلكها، فقال تعالى:

﴿**وَلِسُلَيمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْري بِأَمْرِهِ إِلى الأَرضِ الّتي بارَكْنا فِيها وَكُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمين**﴾.[١]

والأمر الجدير بالاهتمام هو أنّ الآية المباركة تؤكّد وبصراحة تامة أنّ حركة الريح وتعيين الجهة التي تتحرك فيها خاضع لأمر سليمان وإرادته النافذة، فيقول

١. الأنبياء:٨١.

سبحانه: ﴿تجْري بِأَمْرِهِ﴾.

وفي آية أُخرى يقول سبحانه:

﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ...﴾.(١)

وهذا يعني أنّ سليمان عليه السلام كان يطوي المسافات البعيدة بفترة زمنية قصيرة بحيث يقطع في يوم واحد المسافة التي كان يقطعها غيره خلال شهرين متتاليين.

نعم، صحيح أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي سخّر الرياح وروّحها لسليمان إلاّ أنّ جملة ﴿تجْري بِأَمْرِهِ﴾ تدلّ بصراحة أنّ لأمر سليمان وإرادته دوراً بارزاً في الاستفادة من هذه الظاهرة الطبيعية، كما في تعيين الوقت وتحديد المسير وإيقاف الحركة، وغير ذلك.

د. قدرات السيد المسيح عليه السلام وتصرّفاته

لقد نسب القرآن الكريم إلى السيد المسيح عليه السلام أعمالاً خارقة للعادة، تنبع جميعها من القدرة الباطنية والإرادة الخلاّقة له عليه السلام، حيث قال تعالى:

﴿أَنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾.(٢)

ففي هذه الآية نسب المسيح عليه السلام إلى نفسه مجموعة من الأعمال التي يقوم بها، وهي:

١. أخلق لكم من الطين كهيئة الطير.

---

١. سبأ:١٢.

٢. آل عمران:٤٩.

٢. فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

٣. أُبرئ الأكمه(من ولد فاقداً للبصر).

٤. أُبرئ الأبرص.

٥. أُحيي الموتى.

فالسيد المسيح عليه السلام كان يرى نفسه فاعلاً لتلك الأعمال جميعها،وليس معنى ذلك أنّه عليه السلام كان يطلب من الله ويدعوه أن يقوم هو سبحانه بتلك الأُمور، بل كان هو عليه السلام يقوم بها ولكن ﴿بإذن الله﴾، وهنا لابدّ من معرفة المراد والمقصود من الإذن الإلهي: فهل هو الإذن اللفظي؟ أم هو شيء آخر؟

لا ريب أنّه ليس من قبيل الإذن اللفظي والإجازة القولية، وإنّما المقصود منه هو الإذن الباطني، بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يمنح عباده الصالحين والمخلصين قدرات خارقة وإمكانات كبيرة جداً، يستطيعون من خلالها القيام بتلك الأُمور العجيبة والمحيّرة.

والشاهد على هذا التفسير أنّ الإنسان بحاجة إلى الإذن الإلهي حتى في القيام بالأُمور الاعتيادية فضلاً عن الأُمور الخارقة للعادة، فبدون إذنه سبحانه يعجز عن القيام بأبسط الأُمور، وهذا يعني أنّ المقصود من إذنه سبحانه هو منحه القدرة والطاقة على الإتيان بالفعل والقيام بالعمل، و من هنا نجد السيد المسيح عليه السلام ينسب الأفعال الواردة في الآية إلى نفسه، بل في آية أُخرى نجد أنّ الله سبحانه وتعالى ينسب و بصراحة تلك الأفعال إلى السيد المسيح عليه السلام حيث يقول تعالى:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً

بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتىٰ بِإِذْنِي﴾.[1]

ولابدّ من الإمعان في الجمل الواردة في الآية لنرى من هو الفاعل وفقاً للرؤية القرآنية؟ انّ الله سبحانه وتعالى لم يقل انّي أنا الذي أخلق الطير، أو أشفي الأكمه، أو أُحيي الموتى، بل قال تعالى:

١. ﴿إِذْ تخلق﴾.

٢. ﴿وتبرئ﴾.

٣. ﴿إِذ تخرج الموتىٰ﴾.

وهل يوجد أصرح من ذلك في نسبة الأفعال إلى السيد المسيح عليه السلام؟!

ولكن ومن أجل أن يرتفع اللبس ويتّضح للجميع أنّه لا يوجد مخلوق ـ مهما كان نبيّاً أو غيره ـ يقدر على الإيجاد والإبداع بصورة مستقلة ـ ولكي يبطل القرآن الكريم بعض الأفكار المنحرفة القائلة بالثنوية، أو القائلة بأنّ الإنسان محتاج في وجوده إلى الله فقط، وأمّا في أفعاله وأعماله فهو مستقل عن ذلك استقلالاً كاملاً وغير محتاج إلى الله تعالى. نعم لكي يبطل القرآن الكريم كلّ هذه المزاعم الباطلة والأفكار الواهية قيّد جميع الأفعال التي كان يقوم بها السيد المسيح عليه السلام بإذنه سبحانه وتعالى، ليؤكّد سبحانه التوحيد في الفاعلية ويصونه من الانحراف والقول بالثنوية.

نكتفي بهذا المقدار من التصرفات التكوينية للأنبياء والتي تتم جميعها بإذن من الله سبحانه، ومن أراد المزيد من التفصيل فعليه بمراجعة القرآن الكريم، والموسوعات التفسيرية، والموسوعات الحديثية، وكذلك «نهج البلاغة» ذلك الأثر

---

١. المائدة: ١١٠.

الخالد لسيد الأوصياء أمير المؤمنين عليه السلام.

ثمّ لابدّ من الإشارة إلى مسألة مهمة وهي: تصوّر البعض من الكتّاب أنّ القول بالولاية التكوينية للأنبياء والأولياء والاعتقاد بأنّهم قادرون على التصرّف في عالم الخلق، يُعدّ نوعاً من الشرك، غافلين عن أنّ تسلّط الإنسان على التصرّف في عالم الخلق يتم بصورتين، هما:

١. انّ نفس الإنسان يمتلك تلك الهيمنة والسلطة والقدرة، وبحسب الاصطلاح يمتلك «القدرة الذاتية» على ذلك.

٢. القدرة والاستعداد النابعة من القدرة الإلهية، وانّ الله سبحانه وتعالى ـ ولمصالح ما ـ يمنح بعض الأفراد تلك القدرات، ويفيض عليهم بتلك المواهب بحيث يستطيعون القيام بتلك الأعمال الخارقة.

ولا ريب أنّ الصورة الأُولى باطلة قطعاً وأنّها نوع من الشرك، فكلّ نظرية تذهب إلى أنّ الإنسان مستقل في أعماله وأفعاله ـ الظاهرية أو الباطنية ـ عن الله سبحانه فهي نظرية إلحادية وشرك بالله تعالى. وأمّا الصورة الثانية فلا شكّ في صحّتها وانسجامها مع التوحيد، بل هي عين التوحيد، لأنّها مستقاة من القدرة الإلهية المطلقة.

وفي الختام نقول: إنّه ومع الالتفات إلى المقامات والمواهب التي يمنحها الله سبحانه لأوليائه الصالحين،فلا ينبغي الترديد والتشكيك بصحّة الكرامات التي تصدر عنهم في أثناء حياتهم أو بعد رحيلهم إلى الرفيق الأعلى، وذلك لأنّ كرامة السيد المسيح عليه السلام لا تنحصر بحياته الدنيوية وفي عالم المادة فقط، بل هي نتيجة لقربه المعنوي عليه السلام، ومن الواضح أنّ القرب المعنوي محفوظ دائماً، سواء في الحياة الدنيا، أو في عالم البرزخ.

الفصل الرابع عشر

التبرّك بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وآثاره

التبرّك بالنبي الأكرم ﷺ وآثاره

من مراتب التوحيد، التوحيد في الخالقية، بمعنى أنّه لا يوجد للعالم إلاّ خالق واحد، وأنّ العالم بكلّ تجلّياته المختلفة مخلوق له سبحانه، وانّ جميع الظواهر المادية وغير المادية فاقدة ذاتاً لكلّ أنواع الكمال، وإذا ما تحلّت ظاهراً بالكمال فما ذلك إلاّ في ظل المشيئة والإرادة الإلهية.

وهذا الأصل من الأُصول المتسالم عليها بين الموحّدين والمشركين،وهذا ما أشارت إليه آيات الذكر الحكيم التي جاءت على نحو السؤال والجواب أو على نحو القضية الشرطية، ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾.[1]

نعم، انّ الاختلاف بين الموحّدين وبين مشركي عصر الرسالة كان في «المدبريّة» حيث كان يرى الموحّدون انّ «المدبرية» أيضاً تنحصر في الله سبحانه فهو الخالق وهو المدبّر في آن واحد، وأمّا المشركون فقد كانوا يرون أنّ لآلهتهم المزيّفة نصيباً في تدبير العالم وإدارة شؤونه.

وهنا مسألة جديرة بالاهتمام ينبغي الالتفات إليها وهي أنّ حصر الخالقية

---

١. العنكبوت:٦١.

والمدبّـرية في الله سبحـانه لا يعني بحـال من الأحوال نفي تأثير الظـواهر الماديـة وغير المادية بعضهـا بالبعض الآخـر، وذلك لأنّه قـد أثبتت آيات الـذكر الحكيم وكـذلك الأدلّـة العلميـة والفلسفية أنّ عـالم الخلق قـائم على سلسلـة من العلل والمعاليل، وبعبارة أُخرى: الأسباب والمسبّبات، وأنّ الظاهرة المتقدّمة تؤثر ـ وتحت شرائط خـاصـة ــ في الظـاهـرة الـلاحقـة. ولكن جميع تلك التجلّيـات «المؤثّـر» و«المؤثّـرية» و «الأثـر» كلّهـا تخضع لمشيئته وإرادتـه سبحـانه، فشعـاع الشمس، وتـلألـؤ القمر، والإحـراق للنـار، ونمـو النباتـات بـواسطـة الماء، وغير ذلك من الظـواهر، كلّهـا إنّما تعمل عملهـا وتؤثـر أثـرها في ظل إرادتـه سبحـانه، وإذامـا انقطعت الإرادة الإلهية ولو لحظة واحدة لم يبق من عالم الخلق شيء يذكر أبداً.

ولمزيـد التـوضيح نقول: إنّ في عـالم الـوجـود يوجـد سبب واحـد يتّصف بالأصالـة والواقعية وهو الله سبحـانه،ولكن وفي نفس الوقت يوجـد في قلب عالم الوجـود سلسلة من الأسباب والعلل الفـرعية والتبعية التي تعمل في إطـار إرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، فعلىٰ سبيل المثـال نمو الأشجار وحياة الإنسان يخضعان لسلسلـة من العلل والأسبـاب الطبيعية بحيـث لو انتفت لانتفى وجـود النبـات والإنسان قطعاً. وهذه الأسبـاب تتمثّل في الماء والهواء والنور و...، ومن هنا يمكن اعتبـار تلك الأسبـاب والعلل من جنود الله سبحـانـه التي تخضع لأوامـره وتمتثل مقرراته سبحانه.

ولقد صرحت الآيـة ٢٢ من سورة البقرة بهذا المؤثـر التبعي، أو ما يصطلح عليه الفلاسفة بـ«المؤثّر الظلي» حيث جاء فيها:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِـراشاً وَالسَّماءَ بِنـاءً وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ

ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾.[١]

فإنّ الحرف «ب» في قوله «به» يعطي معنى السببيّة، وهذا تصريح بمؤثّرية الماء في نمو الثمار .

ومن الأُصول المسلّمة لدى علماء الطبيعة عامّة والأحياء خاصة هو البحث عن العلاقات بين الظواهر المتنوعة لغرض معرفة الأسباب والعلل الطبيعية والمادية، لكي يتسنّى لهم من خلال تلك المعرفة الاستفادة من المنافع الناجمة عنها، واجتناب الأضرار التي قد تواجههم في ذلك.

إنّ نقطة الخلل في التفكير المادي تكمن في أنّهم نظروا إلى عالم المادة نظرة أُحادية الجانب بحيث اعتبروا تلك العلل والأسباب التبعية والظلية أسباباً وعللاً مستقلة غافلين عمّا وراء المادة من عالم غيبي هو الفاعل والسبب الحقيقي والواقعي وهو المدبّر للعالم والمانح للأسباب والعلل المادية قدرة الفاعلية وإمكانية التأثير، وهو الذي رسم للعالم المادي وغير المادي مساره ونهجه الذي ينبغي السير عليه.

الله واهب السببية وسالبها

ومن هنا يظهر أنّ الله سبحانه وتعالى في الوقت الذي يهب السببية والفاعلية للأشياء، فيمنح الشمس القدرة على الإشعاع، والقمر القدرة على الإضاءة، والماء القدرة على الإنبات، و... هو نفسه سبحانه وتعالى قادر أيضاً على سلب ذلك كلّه من العلل والأسباب الطبيعية، فالنار التي تمتلك القدرة على إحراق الأخضر واليابس تتحول وفي طرفة عين إلى برد وسلام على إبراهيم عليه السلام

١. البقرة:٢٢.

بإرادته ومشيئته سبحانه: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ* قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً علىٰ إبراهيمَ**﴾ .[١]

وهو سبحانه الذي يسلب البحر الكثير من خصائصه ويحوله من حالة إلى حالة أُخرى تختلف اختلافاً جوهرياً مع طبيعة الماء في الحالات الاعتيادية، وهذا ما نشاهده في قصة نبي الله موسى عليه السلام حيث قال تعالى:

﴿**فَلَمّا تَرَاءَا الجَمْعانِ قَالَ أَصْحابُ مُوسىٰ إِنّا لَمُدْرَكُونَ* قالَ كَلاّ إِنَّ مَعي رَبّي سَيَهْدِينِ* فَأَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ الْعَظيمِ**﴾.[٢]

ومن هنا ندرك بما لا مزيد عليه أنّ الله تعالى هو واهب الأسباب فاعليتها، وهو نفسه قادر على سلب ذلك كلّه منها.

تجلّيات أُخرى لمنح السببية والفاعلية

لقد تعلّقت الإرادة الإلهية بأن تصدر الظواهر من عللها وأسبابها الطبيعية، ولكن قد يحدث ــ و لمصالح ماتقتضي ذلك ــ أن تصدر الظاهرة من غير مجراها الطبيعي، وذلك فيما إذا أراد الأنبياء عليهم السلام إثبات أو تأكيد ارتباطهم بالسماء. فحينئذٍ تقع على أيديهم ما يصطلح عليه عنوان «المعجزة».

ولا ريب أنّ معاجز الأنبياء ـ وبلا استثناء ـ تسير من خلال هذا الطريق، فمن المسلّم أنّ تحوّل العصا إلى ثعبان مبين، وانفلاق البحر بضربه بالعصا، أو إعادة البصر إلى الأكمه وشفاء الأمراض المستعصية و... كلّ ذلك في الواقع وليد

---

١. الأنبياء:٦٨ـ٦٩.

٢. الشعراء:٦١ـ٦٣.

عوامل وأسباب غير طبيعية، ولسنا هنا في صدد بيان ماهيتها.

يتّضح من خلال هذا البيان انّ الفيض الإلهي يصب على الإنسان في الأعم الأغلب من خلال الأسباب والعلل الطبيعية، ولكن قد يصب ذلك الفيض في بعض الأحيان من غير مجراه الطبيعي، وهذا ما يطلق عليه عنوان «المعجزة»، وهذا فيما إذا كان الفاعل بصدد إثبات صدقه في ادّعاء النبوة وارتباطه بالسماء وعالم الغيب، أمّا إذا لم يكن الفعل مقترناً بدعوى النبوة فحينئذٍ يكون من قبيل «الكرامة».

كرامتان لمريم عليها السلام

لقد ذكر القرآن كرامتين كبيرتين للسيدة مريم عليها السلام.

١. انّها عليها السلام كانت تجد رزقها في محراب عبادتها، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية:

﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.[1]

٢. حينما جاءها المخاض إلى جذع النخلة تلقت النداء الإلهي **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾**.[2]

والملاحظ من الآيتين أنّ السيدة مريم عليها السلام كانت تتلقّى رزقها والرطب

---

١. آل عمران:٣٧.

٢. مريم:٢٥.

الجني من غير المجاري الطبيعية، وما ذلك إلاّ لمقامها ومنزلتها الرفيعة عند الله سبحانه والروح الزكية والنفس الطاهرة التي كانت تتحلّى بها، وهذه كرامة عظيمة لمريم عليها السلام، ومن المعلوم أنّ مريم ما كانت تدّعي مقاماً ما.

إلى هنا تعرفنا على ما يتعلّق بمصطلحي: «المعجزة»، و«الكرامة»، ومن الحريّ بنا أن نتعرّف على مصطلح ومفهوم آخر وهو «التبرّك».

ما هو التبرّك؟

التبرّك لغة مشتق من «البركة» بمعنى الزيادة في النعمة.

وأمّا اصطلاحاً فهو: طلب الموحّدين إفاضة النعم عليهم وزيادة البركة من خلال التبرّك بالذوات الصالحة للنبي الأكرم والصالحين من عباده، أو التبرّك بآثارهم الباقية.

وهذا لا يعني أنّ المتبرّك يسد في وجهه الطرق والأسباب الطبيعية لتحقيق مراده والأُمور التي يتوخّاها، بل في الوقت الذي يعتمد فيه الأسباب و العلل الطبيعية، يبقي أمامه باب التبرّك مفتوحاً ليتسنّى له من خلاله نيل الفيض الإلهي النازل من خلال هذا الطريق بالإضافة إلى الفيوضات النازلة من خلال الطرق والأسباب الطبيعية.

ومن المسلّم به أنّه لا توجد علاقة مادية بين آثار الأنبياء عليهم السلام والصالحين، وبين الخيرات التي يجنيها الإنسان من خلال هذا الطريق، ولكن ـ كما قلنا سابقاً ـ انّ الفيوضات الإلهية تارة تفاض على العباد من غير مجاريها الطبيعية حيث تتعلّق الإرادة الإلهية بأن تلبّى حاجات الإنسان المؤمن عن طريق التبرّك بشخص النبي أو الآثار المتبقية منه، وهذه الحقيقة قد أكّدتها آيات الذكر الحكيم والروايات المتواترة، أضف إلى ذلك أنّه لا يوجد مانع عقلي يمنع عن فاعلية آثار النبي

والصالحين في تلبية حاجات الإنسان وإنجاح طلبته.

وهانحن نستعرض بعض الآيات الواردة في هذا الصدد:

١. التبرّك بمقام إبراهيم عليه السلام

لقد اعتبر الله سبحانه وتعالى بعض الأراضي التي لامست بدن دعاة التوحيد،محلاً للعبادة. فعلى سبيل المثال جعل من مقام إبراهيم عليه السلام مصلّى، حيث قال سبحانه:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْت مَثابَة لِلنّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهِيمَ مُصلّىٰ﴾.[1]

ولا ريب أنّ الصلاة نفسها لا تختلف من الناحية الجوهرية، سواء أُقيمت في هذا المقام أو سائر نقاط المسجد، وهذا يكشف عن أنّ المقام المذكور قد اكتسب بسبب وجود النبي إبراهيم عليه السلام ميزة أُخرى، فأصبح مكاناً مباركاً، لذلك تجد المصلّي يأتي بصلاته هناك لأجل التبرّك بذلك المكان الطاهر.

وفي موضع آخر من القرآن نجد الله سبحانه وتعالى يعتبر «المسعىٰ» ـ و هو المسافة الواقعة بين الصفا والمروة ـ محلاً للعبادة، وما ذلك إلاّ لأنّ السيدة الطاهرة والموحّدة «هاجر» قد لامست بقدميها المباركتين هذه الأرض سبعة أشواط بحثاً عن الماء، وليس لذلك الأمر علّة إلاّ التبرّك بهذه البقعة المقدّسة التي لامست جزءاً من بدن أُمّ إسماعيل عليه وعليها السلام.

٢. قميص يوسف عليه السلام وعودة البصر إلى يعقوب

لقد عانى يعقوب عليه السلام ألم فراق ولده العزيز يوسف عليه السلام ردحاً طويلاً من

---

١. البقرة:١٢٥.

الزمن، ولقد بكاه طوال تلك المدّة حتّى فقد بصره إلى الدرجة التي وصفه فيها الذكر الحكيم بقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.[١]

فشاءت الإرادة الإلهية أن يعود إلى يعقوب بصره عن طريق قميص ولده يوسف عليه السلام حيث قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾.[٢]

ولا ريب أنّ قميص يوسف عليه السلام لا يختلف من الناحية المادية أو من ناحية الشكل عن غيره، ولكن تعلّقت الإرادة الإلهية بأن يصدر الفيض الإلهي إلى عبده يعقوب من خلال هذا الطريق، وقد صرّح القرآن الكريم بهذه الحقيقة حيث قال سبحانه:

﴿فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقَاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيراً﴾.[٣]

٣. تابوت بني إسرائيل والسكينة

لقد وضع موسى عليه السلام وفي الأيام الأخيرة من عمره الشريف، الألواح المقدّسة التي تحتوي على شريعته عليه السلام، ودرعه وسلاحه وآثاره الأُخرى في صندوق، وجعل الصندوق عند وصيّه «يوشع بن نون»، ومن هنا اكتسب هذا الصندوق أهمية كبرى لدى بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم أثناء الحروب التي تقع بينهم وبين خصومهم متبرّكين به، ومستنزلين النصر من الله عن طريقه، وكانوا يعيشون حياة عزيزة مادام ذلك الصندوق المبارك بين ظهرانيهم، ولكن لمّا دبّ فيهم الضعف الديني، وقلّ تأثير الوازع الأخلاقي في أوساطهم، تمكّن خصومهم من

---

١. يوسف:٨٤.
٢. يوسف:٩٣.
٣. يوسف:٩٦.

هزيمتهم والتغلّب عليهم، وتمكّنوا كذلك من نهب ذلك الصندوق المبارك.

ولمّا اختار الله سبحانه ـ بعد فترة من الزمن ـ طالوت ملكاً وقائداً لبني إسرائيل، قال لهم نبيّهم: إنّ آية صدقه وكونه قائداً منصباً من قبله سبحانه هو أن يأتيكم ذلك الصندوق، ولقد أشار الذكر الحكيم إلى ذلك بقوله سبحانه:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسىٰ وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١]

والإمعان في الآية المباركة يكشف أنّ القرآن الكريم ينقل لنا على لسان نبيه، تبرّك بني إسرائيل بذلك الصندوق ويؤكّد كذلك مدى قيمته وشرفه بحيث تحمله الملائكة، وحينئذٍ نتساءل لو كان هذا العمل مخالفاً لأُصول التوحيد ومتعارضاً معها، فكيف ياترى جاز لذلك النبي أن يلقي إليهم الخبر على نحو البشرى؟!!

٤. التبرّك بمقام أصحاب الكهف

حين اكتشف المؤمنون والموحّدون المكان الذي اختفىٰ فيه الفتية «أصحاب الكهف» فأخذوا يتداولون الأمر بينهم ماذا نعمل؟ فكان إطباق الجميع واتّفاقهم على أن يبنوا على قبورهم مسجداً ليكون محلاً للعبادة وللتبرّك بالعبادة إلى جنب تلك الأجساد الطاهرة، ولقد نقل لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾.[٢]

---

١. البقرة:٢٤٨.

٢. الكهف:٢١.

قال المفسّرون: إنّ الهدف من بناء المسجد هو إقامة الصلاة والتبرّك بأجسادهم الطاهرة.

إلى هنا نكتفي بهذه الآيات الأربع، والتي يكشف الإمعان فيها عن حقيقة واضحة وترشدنا إلى أصل علمي وقرآني جليّ، وهو أنّ المشيئة الإلهية قد تعلّقت بأن تفاض نعمه ومواهبه المادية والمعنوية على البشر من خلال الأسباب الطبيعية، بلا فرق بين الأُمور المادية والمعنوية، فعلى سبيل المثال شاءت الإرادة الإلهية أن تفاض هدايته على البشر عن طريق الأسباب الطبيعية فأرسل لهم الأنبياء مبشّرين ومنذرين.

ولكن في الوقت نفسه قد تتعلّق الإرادة الإلهية بأن يجري فيضه عن طريق الأسباب والطرق والمجاري غير الطبيعية، وما التبرّك إلاّ واحداً من تلك المجاري التي يتمسّك بها الإنسان لاستنزال الفيض الإلهي والنعم الربّانية عليه.

الغرض من التبرّك

إنّ الغرض من التبرّك يكمن في أمرين:

١. طلب الفيض المعنوي والنعم الإلهية التي قد ترد أحياناً من غير المجرى الطبيعي على الإنسان والتي أشرنا إلى نماذج منها في الصفحات السابقة.

٢. لا ريب أنّ مودة النبي الأكرم ومحبّة أهل بيته الطاهرين وأصحابه الميامين من الدساتير الإلهية التي نطق بها القرآن الكريم ونزلت بها الآيات الشريفة، ولا ريب ــ أيضاً ــ أنّ هذه المودة وهذا الحب لابدّ أن يتجلّى بمظاهر معيّنة، ففي حياتهم عليهم السلام يتجلّى بما يقوم به التابعون المخلصون لهم، وأمّا بعد مماتهم فيتجلّى بصور أُخرى متنوّعة، أبرزها وأهمها إظهار الفرح والسرور في أيّام

مواليدهم، والحزن والأسىٰ بمناسبة شهادتهم ورحيلهم من الدنيا، وتقبيل المشاهد التي يرقدون فيها، والأبواب والجدران التي شيّدت على قبورهم الطاهرة، ونحن إذا حلّلنا عمل المسلمين وقرأنا ما يكمن في تصرّفهم هذا نجد أنّهم لا يقبّلون الأبواب والجدران هياماً منهم بها وشوقاً إليها، بل أرواحهم ولهى وقلوبهم هائمة برسول الله ﷺ وأهل بيته والصالحين من أنصاره وأتباعه ولكن بما أنّ أيديهم لا تصل إلى تلك الذوات الطاهرة التي هاموا بها لذلك يقبلون آثارهم وما يمت إليهم، ولسان حالهم كلسان حال مجنون ليلىٰ حيث يقول:

أمرّ على الديار ديار ليلىٰ أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

صحيح أنّ أماكن الزيارة تتألّف ظاهراً من الأحجار والأخشاب والحديد و...، ولكن إظهار المحبّة الباطنية لها والتعلّق بها، يعكس الحب العميق والمودة الكبيرة التي تصل إلى حد الهيام والوله بالنبي الأكرم ﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، وانّ تلك الأحجار والأخشاب ما اكتسبت قداستها إلّا من إضافتها إليهم عليهم السلام، فمن أحبّ شخصاً أحبّ كلّ ما يمتّ إليه بصلة وكأنّه حينما يرى تلك الآثار يرى محبوبه حقيقة.

ومن هنا انطلق المسلمون في التعامل مع آثار النبي الأكرم ﷺ وكلّ ما يمت إليه بصلة، فإنّ حبهم الشديد للرسول ﷺ جعلهم يبحثون عن كلّ أثر من آثاره ﷺ من موضع قدم، أو لباس، أو قبر أو ساحة حرب، أو ... فيسارعون إلى تلك الأماكن يحدوهم الشوق لرؤية تلك الآثار.

ولقد كانت سيرة المسلمين بحد من الانتشار والسعة بحيث لا يمكن نقل جميع تلك الصور في هذا الفصل، ولذلك سنكتفي بنقل نماذج من ذلك.

١. التبرّك بتحنيك الأطفال

كانت السنّة الرائجة في أوساط المسلمين في عصر الرسالة حينما يرزق أحدهم بمولود يأتي به إلى الرسول الأكرمﷺ، فكانﷺ يحنكه بشيء من التمر ثمّ يدعو له، يقول ابن حجر في هذا الصدد: في من ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبيﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال ممّن ماتﷺ وهو في دون سن التمييز، ... لغلبة الظن على أنّه ﷺرآهم لتوفر دواعي أصحابه على إحضارهم أولادهم عنده حين ولادتهم ليحنكهم ويسمّيهم ويتبرّك عليهم، والأخبار بذلك كثيرة شهيرة، ففي «صحيح مسلم» عن عائشة أنّ النبيﷺ كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم؛ وأخرجه الحاكم في كتاب الفتن في «المستدرك» عن عبد الرحمن بن عوف قال: ما كان يولد لأحد مولود إلاّ أتى به النبيﷺ فدعا له ـ الحديث.[١]

ولما ولد عبد الله بن عباس وكان الرسول الأكرمﷺ وبنو هاشم في شعب أبي طالب، حنكه رسول اللهﷺ بريقه.

٢. التبرّك بالمسح واللمس

لم تنحصر مسألة التبرّك والتحنيك بأطفال المسلمين فقط، بل كان الكبار منهم يصرّون على التبرّك بالنبي الأكرمﷺ، حيث كانوا يطلبون منهﷺ أن يمسح على رؤوسهم ويبارك لهم، ومن هؤلاء زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، قال ابن حجر: فدخل زياد منزل ميمونة أُمّ المؤمنين وكانت خالته ... فقالت يا رسول اللهﷺ: إنّه ابن أُختي، فدعاه فوضع يده على رأسه ثمّ حدرها على طرف أنفه،

١. الإصابة:١/ ٦ـ٧؛ الاستيعاب(في حاشية الإصابة):٣/ ٦٣١.

فكان بنو هلال يقولون: ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد.

ثمّ قال ابن حجر: وذكر ابن سعد القصة مطولة عن هشام بن الكلبي... وقال الشاعر لعلي بن زياد المذكور:

يا ابن الذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير عند المسجد
مازال ذاك النور في عرنينه حتىٰ تبوّأ بيته في ملحد[1]

٣. التبرّك بماء وضوء النبي ﷺ

من الظواهر البارزة والأعمال الرائجة في حياة الرسول الأكرم ﷺ تبرّك الصحابة بماء وضوئه وغسله، بحيث كانوا لا يدعون قطرة منه تسقط على الأرض، وإذا كان ذلك الماء كثيراً يشربونه للبركة، وقد نقل عروة بن مسعود، موفد قريش إلى الرسول ﷺ في صلح الحديبية، الصورة التالية:

يا معشر قريش إنّي قد وفدت على الملوك، على قيصر في ملكه بالشام، وعلى النجاشي بأرض الحبشة، وعلى كسرىٰ بالعراق، وإنّي والله ما رأيت ملكاً هو أعظم ممّن هو بين ظهريه من محمد في أصحابه، والله ما يشدّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يتوضأ بوضوء إلاّ ازدحموا عليه، أيّهم يظفر منه بشيء.... [2]

٤. التبرّك بقبر النبي ﷺ

ألف: روى الحاكم في «المستدرك» عن داود بن صالح، قال:

---

١. الإصابة: ١/ ٥٣٩ـ ٥٤٠، رقم الترجمة ٢٨٥٦.

٢. كنز العمال: ١٠/ ٤٩٣؛ سيرة زيني دحلان: ٢/ ٢٤٦، صحيح مسلم: ٣/ ١٩٤٣ (فضائل ابن موسى).

«أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته، ثمّ قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاري، فقال: نَعم، إنّي لم آت الحجر، إنّما جئت رسول الله ولم آت الحجر، سمعت رسول الله يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن إبكوا على الدين إذا وليه غيرُ أهله» .[١]

إنّ هذه الظاهرة التي نقلها الحاكم في «المستدرك» تحكي أنّ سيرة صحابة النبي الأكرمﷺ كانت قائمة على التبرّك بقبره الشريف بوضع الخد عليه، كما تحكي في الوقت نفسه عداء مروان وغيره من رجال البيت الأُموي وخصومتهم للرسول الأكرمﷺ حتى بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى.

ب: أقام الصحابي الكبير ومؤذن الرسول الأكرمﷺ بلال الحبشي في الشام في عهد عمر بن الخطاب، فرأىٰ في منامه النبيﷺ وهو يقول له:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبيﷺ فجعل يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسينعليهما السلام، فجعل يضمّهما ويقبلهما...».[٢]

ج: انّ فاطمة الزهراءعليها السلام سيدة نساء العالمين بنت رسول الله، حضرت عند قبر أبيهاﷺ وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكي،وهي تقول:

---

١. مستدرك الحاكم: ٤/ ٥٦٠، رقم الحديث ٨٥٧١.

٢. أسد الغابة: ١/ ٢٨.

مـاذا على من شمّ تربـة أحمـد ألاّ يشـم مـدى الـزمـان غواليا
صبّت عليّ مصائـب لـو أنّها صُبّت على الأيام صِرن لياليا[١]

ومن الواضح إنّ هذا التصرّف من السيدة الزهراءعليها السلام يدلّ على جواز التبرّك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.

نكتفي هنا بـذكر هذه المجموعـة القليلة جداً من بين الكثير من الـوقائع التي تحكي عن اتّفـاق الصحـابة على التبـرّك بـآثـار النبيصلى الله عليه وآله وسلم، ومَن تتبّع كتب السير والحـديث و التاريـخ والصحاح والمسانيـد يرى أنّ مسـألة التبرّك بـالنبي والصالحين قد بلغت حـدّ التواتر بحيث يستحيل عند العقل أن تكون مـوضوعة ومجعولة.

نتيجة البحث

إنّ دراسـة التـاريخ الإسلامي وسيرة المسلمين في صـدر الإسـلام تكشف وبوضوح أنّ التبرّك بآثار النبيصلى الله عليه وآله وسلم وبكلّ ما يرتبط به صلى الله عليه وآله وسلم كقبره، وتربته، وعصاه، وملابسه، والصلاة في الأماكن التي صلّى فيهاصلى الله عليه وآله وسلم، أو مشى فيها، وكلّ ذلك كان يمثّل في الواقع ثقافة إسلامية رائجة في ذلك الوقت، وكانوا يرومون من ورائه أحد أمرين:

١. التبرّك بالآثـار تيمّناً بها لغـاية استنزال الفيـض الإلهي من خلال ذلك الطريق، كما حدث ليعقوبعليه السلام عن طريق قميص ولده يوسفعليه السلام.

٢. الـدافع والبـاعث لهم هـو حبّهم ومـودتهم للـرسـول الأكـرمصلى الله عليه وآله وسلم، إذ يحثّانهم لتكريم كلّ ما ينتسب إليهصلى الله عليه وآله وسلم من درع، أو سيف، أو ملابس، أو قدح

---

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٤٠٥؛ المواهب اللدنية: ٤/ ٥٦٣.

قد شرب بها، أو بئر، أو عصاً كان قد استعملها، أو خاتم، أو... ، فكلّ تلك الآثار كانت مورد اهتمام أصحابه وأنصاره ﷺ، بل كان الخلفاء يتوارثون ختمه وخاتمه ﷺ.

وفي الختام نرى من اللازم التذكير بمسألتين مهمتين، هما:

المسألة الأُولى: كانت للإمام أحمد بن حنبل ـ إمام الحنابلة والذي له منزلة وقداسة خاصة في أوساط أهل السنّة ـ رؤية ثاقبة في مسألة التبرّك، وهذا ما أكّدته كلماته التي نقلت عنه وكذلك سيرته، فمن ذلك:

قال العز بن جماعة الحموي الشافعي (المتوفّى ٨١٩هـ) في كتاب «العلل والسؤالات» قال عبد الله: سألت أبي عن الرجل يمسّ منبر رسول الله ﷺ ويتبرّك بمسّه ويقبّله، ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى: قال: لا بأس به.[1]

وقال العلاّمة أحمد بن محمد المقري المالكي (المتوفّى ١٠٤١هـ) في «فتح المتعال» نقلاً عن ولي الدين العراقي قال: أخبر الحافظ أبو سعيد بن العلا، قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر[2] وغيره من الحفّاظ: انّ الإمام أحمد سُئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك.

قال: فأريناه التقي ابن تيمية فصار يتعجّب من ذلك، ويقول: عجبت من أحمد عندي جليل، هذا كلامه أو معنى كلامه.

وقال: وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنّه غسل قميصاً

---

١. وفاء الوفا: ٢/ ٤٤٣.

٢. هو الحافظ محمد بن ناصر أبو الفضل البغدادي توفّي سنة ٥٥٠هـ قال ابن الجوزي في المنتظم: ١٠/ ١٦٣: «كان حافظاً متقناً ثقة لا مغمز فيه».

للشافعي وشرب الماء الذي غسله به.[١]

وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم، فما بالك بمقادير الصحابة وكيف بآثار الأنبياء عليهم السلام؟[٢]

المسألة الثانية: لقد بحث الكثير من العلماء في مسألة التبرّك، إلاّ أنّه قد صنف مؤخراً كتابان قيّمان في هذا المجال قد بذل مؤلّفاهما غاية الجهد، ودرسا المسألة من جميع أبعادها، وسلّطا الضوء على كافة الخفايا التي تكمن في البحث وأوضحا بما لا مزيد عليه تلك القضية البالغة الأهمية. والكتاب الأوّل لأحد أعلام أهل السنّة، والثاني لعالم شيعي،والكتابان هما:

١. «تبرّك الصحابة بآثار النبي والصالحين» للعلاّمة المحقّق والمؤرّخ الخبير محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود المكي، طبع الكتاب في القاهرة، مطبعة المدني، عام ١٣٨٥ هـ.ق .

٢. «التبرك» بقلم المحقّق الخبير آية الله علي الأحمدي الميانجي(١٣٤٤ـ ١٤٢١هـ)، فقد تتبّع قدس سره في كتابه هذا وبنحو يثير الإعجاب حقّاً ــ المسألة من جميع أبعادها التاريخية والحديثية و...، وأثبت بما لا مزيد عليه وبنحو لا يدع للترديد أو الشكّ مجالاً في أنّ سيرة المسلمين عامّة والصحابة والتابعين خاصة كانت قائمة على التبرّك بآثار النبي والصالحين.

وفي الختام: إنّ ما نشاهده اليوم عند قبر خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وما يقوم به من يطلق عليهم لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المنع عن تقبيل ضريح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما يمت إليه بصلة تحت غطاء الاتّهام بالشرك والابتداع و...، ففي

١. ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد: ٤٥٥، وابن كثير في تاريخه: ١٠/ ٣٣١.

٢. انظر الغدير:٥/ ١٥٠ـ ١٥١.

الحقيقة أنّ ما تقوم به هذه اللجـان ذنب لا يغتفر، وانحراف فكري نابع عن عدم إدراك المفاهيم الإسـلامية، ولو أنّ مشـايخ هذه الطـائفة سمحت بانعقـاد مؤتمر إسلامي يجتمـع فيه علماء الفرق الإسـلامية لـدراسة المسألـة من جذورهـا، لرفع الكثير من الإبهام، وأُزيل الكثير من اللبس، ولانكشفت القضيـة بأجلى صورهـا، وحلّ بـدل التكفير والتفسيق الود والإلفـة الإسـلامية،وحل الـوئام بدل العـداوة والخصام.

الفصل الخامس عشر

تكريم مواليد أولياء الله

يشهد التاريخ الإسلامي ومنذ زمن طويل أنّ مسلمي العالم كانوا يحيون ذكرى ميلاد الرسول الأكرمﷺ حيث يعتلي الخطباء المنابر، والمتحدّثون منصّات الحديث لبيان فضائلهﷺ والثناء عليه، وبيان السجايا الأخلاقية والخلق الرفيع الذي كان يتحلّى به ﷺ ، صحيح أنّ التاريخ لم يحدّد لنا الزمن الذي نشأت به تلك الظاهرة بصورة دقيقة، إلاّ أنّ المسلّم به هو أنّ جذورها تمتد إلى مئات السنين من عمر التاريخ الإسلامي، وأنّها كانت رائجة في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

فهذا أحمد بن محمد المعروف بالقسطلاني من مشاهير أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر (المتوفّى ٩٢٣هـ) ينقل لنا صورة عن سيرة المسلمين في الاحتفاء بذكرى الرسول الأكرم وتكريم تلك المناسبة، إذ يقول:

ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولدهﷺ، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم. وممّا جرب من خواصه أنّه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، فرحم الله امرءاً اتّخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علّة على من في قلبه مرض وأعياه داء.[1]

---

١. المواهب اللدنية:١/ ١٤٨.

وأمّا الحسين بن محمد بن الحسن المعروف بـ«الدياربكري»(المتوفّى ٩٦٠هـ) والذي يُعدّ أحد القضاة في مكة المكرّمة،فهو الآخر يكتب في تاريخه:

ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم.[١]

فهذان النصّان لعالمين من علماء القرن العاشر الميلادي يكشفان وبوضح تام أنّ ظاهرة الاحتفاء بذكرى مولد الرسول الأكرم ﷺ وسائر الأولياء والصالحين كانت من المظاهر التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي، وكانت على مرأى ومسمع من علماء المسلمين الكبار ولم يستنكر منهم أحد هذا العمل ممّا يدلّ على صحّته وجواز إقامته، كما أنّهم كانوا يرون انّ هذه الظاهرة نوعاً من إظهار الحب والمودة للرسول الأكرم ﷺ.

فكلّنا يعلم أنّ من المفاهيم المسلّمة والأُصول الثابتة في الفكر الإسلامي هو إظهار الحب و الولاء والمودة للنبي الأكرم ﷺ، وهذا ما أكّدته آيات الذكر الحكيم، حيث قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَأَموالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَونَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الْفاسِقينَ﴾.[٢]

كما أكّدت ذلك أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة، يقول ﷺ:

---

١. تاريخ الخميس:١/ ٣٢٣.

٢. التوبة:٢٤.

«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبَّ الناس إليه من والده وولده».[١]

والروايات الواردة في هذا المجال بحدّ من الكثرة بحيث لا يمكن ذكرها هنا، ومن هنا نكتفي بالرواية السابقة فقط.

ثمّ إنّ من المسلّم به هو أنّ المسلمين حينما يحيون ذكرى مولد الرسول الأكرم ويحتفلون بهذه المناسبة العظيمة لا يحدوهم في ذلك إلاّ دافع إظهار الحب والولاء للرسولﷺ والتعبير عن مدى ولائهم و إخلاصهم ومودتهم لهﷺ، فيبرزون ما يكمن في صدورهم ويكن في ضمائرهم من حبّ وشوق لهﷺ.

ولقد حثّ القرآن الكريم المسلمين ـ بالإضافة إلى الإيمان بالرسولﷺ ـ إلى تعزيره وتكريمهﷺ، حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[٢]

فمن الواضح أنّ الآية الكريمة تتوجه إلى المسلمين مجموعة من الدساتير، وهي:

١. **﴿آمنوا به﴾**.

٢. **﴿عزّروه﴾**.

٣. **﴿نصروه﴾**.

٤. **﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾**.

---

١. جامع الأُصول:١/ ٢٣٧، برقم٣١.

٢. الأعراف:١٥٧.

ومع الالتفات إلى هذه الدساتير الأربعة، يكون الاحتفال بمولده ﷺ وإحياء تلك المناسبة العطرة، موافقاً لدستوره سبحانه، وامتثالاً لأمره حيث عبّر سبحانه بقوله: ﴿وعَزّروه﴾.

ثمّ إنّ القرآن الكريم حينما يعد النعم الإلهية التي أنعم بها على رسوله الكريم يعد منها نعمة رفع الذكر، حيث يقول عزّ من قائل:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.[1]

ولا ريب أنّ إقامة مجالس الفرح التي يقيمها المسلمون بمناسبة ذكرى ولادة الرسول الأكرم والاحتفاء بها هو مصداق بارز من مصاديق رفع الذكر، وتجسيم جليّ لمفاد قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

وحينئذٍ نتساءل واستناداً لما ورد في الآيات والروايات السابقة، ما هو حكم مجالس الاحتفال بمولد الرسول ﷺ إذا خلت من المحرمات العارضة، كاستعمال وسائل الطرب واللهو والغناء؟ فهل هي من مصاديق تكريم الرسول الأعظم أم تحقيره؟

وهل هي من مصاديق إظهار المودة والولاء أم من مصاديق العداوة له والبغضاء والشحناء؟ وهل هي من مصاديق رفع الذكر أم طمسه؟

لا شكّ أنّ الجواب أنّها من مصاديق التكريم وإظهار المودّة والولاء ورفع الذكر وإعلاء الكلمة، وحينئذٍ يطرح السؤال الآخر نفسه: فهل ياترى عملٌ بهذه المواصفات الحسنة والمميزات السامية يمكن أن يكون أمراً محرماً ينهى الشارع عنه ويعاقب عليه؟!

---

١. الإنشراح:١ـ٤.

ذرائع المخالفين

لقد تمسّك المخالفون لإقامة مجالس التكريم والاحتفال بذكرى المولد بذريعتين أدنى ما يقال عنها: إنّها واهية ولا تعتمد على منهج موضوعي، وهانحن نتعرض لبيان هاتين الذريعتين بالنقد والتحليل:

١. إنّ تلك الاحتفالات لم ترد في الكتاب و لا السنّة

يدّعي المخالفون لإقامة مجالس الذكر والاحتفال أنّ هذه المجالس لم يرد لها ذكر في الكتاب ولا في السنّة المطهّرة، وإذا كانت كذلك فهي بدعة، ولا ريب أنّ البدعة أمر محرّم نهى الشارع عنه.

جواب الشبهة

لقد تعرضنا في الفصل الذي عقدناه لدراسة البدعة وبيّنا هناك انّ الملاك في كون الشيء «بدعة» هو أن لا يوجد له جذور في القرآن الكريم والسنّة النبوية، والحال إذا نظرنا إلى ظاهرة إقامة مجالس الاحتفال بالمولد وتكريم الرسول الأعظم نجد أنّ لهذه الظاهرة جذورها في القرآن الكريم حيث حثّت الآيات الكريمة على تكريمه وتعظيمه وتعزيره و....

وأمّا الأحاديث الإسلامية، فصحيح أنّه لم يرد حديث ينص على إحياء ذكرى المولد النبوي بصورة مباشرة، ولا يوجد مسلم يدّعي وجود حديث من هذا القبيل، لكن المسلمين الذين يقومون بإحياء تلك المناسبات يستدلّون على شرعية عملهم هذا بقولهم: إنّ الله تعالى قد أمرنا ـ بما لا ريب فيه ـ بإظهار الود والولاء للرسول الأكرم ﷺ على طول السنة، فمن حقّنا أن نستعمل تلك المناسبات

الكريمة لتجسيد ذلك الأمر، وامتثال ما أمر به سبحانه وتعالى.

وفي الختام نشير إلى نكتة قرآنية ظريفة، وهي أنّ السيد المسيح عليه السلام دعا الله سبحانه وتعالى أن ينزل عليه وعلى الحواريين معه مائدة من السماء واعتبروا يوم نزول هذه المائدة مناسبة جديرة بالاهتمام والاحتفاء بها واعتبارها عيداً لهم، ولقد أشار الذكر الحكيم إلى ذلك بقوله: ﴿رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لأَوّلنا وآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾.[١]

فإذا كانت تلك النعمة المحدودة التي تشبع البطن وتسد الرمق بصورة مؤقتة تستحق هذا الاهتمام والاحتفاء بها، وإقامة الاحتفال بمناسبة نزولها، فلماذا ياترىٰ يحرم على المسلمين الاحتفال بالنعم الكبرى التي أنزلها الله سبحانه وتعالى عليهم، مثل نعمة وجود الرسول الأكرم، أو نعمة مبعثه المبارك صلى الله عليه وآله وسلم تلك النعم العظيمة والخالدة؟ أو لماذا لا يحق لهم إقامة مجالس الفرح والسرور بتلك المناسبات العطرة؟!!

٢. إنّ الاحتفال نوع من العبادة

والعجيب أنّ البعض يرى أنّ الاحتفال بتلك المناسبة وإقامة مجالس الفرح والسرور، الروحية والمعنوية هو عبادة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ينبغي على المسلمين التنزّه عنها، حيث يقول:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هو نوع من العبادة لهم وتعظيمهم».[٢]

---

١. المائدة: ١١٤.

٢. فتح المجيد: ١٥٤.

إنّ مـركـز الخلل في هذا التفكير هـو أنّ أصحـاب هـذا الاتّجاه اعتبروا كلّ تعظيم عبـادة، والحال أنّ حقيقـة مفهـوم العبـادة تتحقّق مع وجـود شرطين أسـاسيّين، هما: التعظيم أوّلاً، وأن يكون هـذا التعظيم والخشـوع والخضوع مقترنـاً ونابعـاً من الاعتقاد بكون «المخشوع لـه» ربّاً أو فوّضت إليه بعض صفـات الرب ثانياً.

والحال أنّ القائمين بتلك المجـالس في جميع أرجاء العـالم منزهـون من هذا الاعتقـاد الخاطئ، بل يعتقـدون اعتقـاداً راسخـاً أنّ النبي الأكـرم رسـول كـريم وواسطة بينهم وبين الله تعالى.

أضف إلى ذلك لـو سلّمنا بأنّ التعظيم يعتبر نـوعاً من العبـادة، فحينئذٍ لا تجد موحـداً على وجه الأرض أبداً، لأنّـه ما من إنسان إلاّ ويعظّم شيئـاً آخر، مثل الأب والأُمّ أو الأُستـاذ أو...، وهل تجد عـاقـلاً يلتزم بهذه النتيجـة الـواضحـة البطلان؟!

الفصل السادس عشر

تسمية الأبناء بعبد النبي أو عبد الحسين

قد تصل درجة الحب والولاء وشدّة الشوق في الإنسان إلى درجة بحيث يرى نفسه «عبداً» أو «غلاماً» لمن يحبه ويوده، وما ذلك إلاّ إمعاناً منه في إبراز الحب وإظهار التصاغر أمام حبيبه.

ومن هذا المنطلق تجد الكثير من ذوي النفوس الطاهرة والأرواح الزكية يعشقون الرسول الأكرمﷺ، ويهيمون به وبالأولياء والصالحين إلى درجة يدفعهم ذلك الحب والشوق والمودة لهم إلى أن يسمّوا أبناءهم «بعبد النبي» أو «عبد الحسين»، وغير ذلك من الأسماء التي تبدأ بكلمة «عبد»، وفي الحقيقة أنّ هذه التسمية هي انعكاس طبيعي وتعبير بريء عمّا تكن نفوسهم من الحب والولاء والشوق للنبيﷺوأهل بيت الوحي عليهم السلام.

وليس وراء تلك التسمية غاية أو قصد آخر غير ما ذكرنا، وما يدرك ذلك إلاّ ذوو النفوس الطاهرة والأحاسيس المرهفة.

بعد هذه المقدّمة نشير إلى إشكالية أثارها البعض حول تلك التسمية حيث قالوا:

لا ينبغي للإنسان أن يرتدي برداء العبودية إلاّ لله سبحانه، لأنّ هذا الرداء من شأنه سبحانه وتعالى وحده لا يشاركه فيه أحد مهما كان، كما يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾.[1]

---

١. مريم٩٣.

فإذا كان الإنسان عبداً لله سبحانه وتعالى فكيف يصحّ أن نسمّيه بـ «عبد زيد» أو «عبد عمرو» فإنّ هذه التسمية تشم منها رائحة الشرك؟!!

جواب الشبهة

من أجل أن تظهر الحقيقة وينجلي الحق، وليتّضح مدى وهن هذا الإشكال لابدّ أوّلاً من معرفة وبيان ملاك «العبودية» ثمّ الانتقال للحديث عن «الانحصار وعدم الانحصار» ثانياً.

وبعبارة أُخرى: لابدّ من التمييز بين العبودية التكوينية التي عجنت مع جوهر الإنسان، و بين العبودية التشريعية أو القانونية التي قد تنفصل عن الإنسان، فإنّ ذلك مهم جدّاً في مقام الإجابة عن الشبهة المطروحة فنقول:

إذا كان الملاك في العبودية هو «الخالقية» و«منح الوجود» للطرف المقابل، فلا شكّ أنّ جميع بني الإنسان يشتركون في هذه العبودية لله سبحانه وتعالى ولا يشاركه فيها أحدٌ أبداً، وإذا ما وجدنا السيد المسيح عليه السلام يقول: ﴿**إِنّي عَبْدُ الله**﴾[1]، أو نراه سبحانه ينادي المؤمنين بقوله: ﴿**يا عباد**﴾، وبقوله: ﴿**قُل يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾[2] فإنّ ذلك كلّه منطلق من هذا الملاك، أعني: ملاك الخالقية ومنح الوجود للإنسان.

ومن الواضح أنّ هذا النوع من العبودية ملازم للإنسان ويستحيل أن ينفك عنه أبداً، ولابدّ للإنسان أن ينطلق في عبوديته لله سبحانه ويطيعه ويعبده من خلال هذا الملاك؛ أمّا إذا كانت العبودية ناشئة من الملاك التشريعي أو العقد

---

١. مريم: ٣٠.

٢. الزمر: ١٠.

الاجتماعي، فحينئذٍ لا تكون العبوديّة هنا منحصرة بالله سبحانه وتعالى، بل يمكن ـ و تحت شروط خاصة وظروف معينة ـ أن يكون الإنسان عبداً لغيره، نشير هنا إلى كلا النموذجين:

١. طالما هيمن الطواغيت والمستكبرون على مقدّرات المستضعفين والمحرومين واسترقّوهم بحيث أصبحوا بمنزلة السلعة تباع وتشترى في أسواق النخاسة، ولم ينحصر الأمر بهم بل امتد ليشمل أبناءهم وذراريهم، وليس التاريخ الأُوروبي والأمريكي ببعيد عنّا، حيث كانوا ولفترة قريبة جداً يزاولون تجارة الرق، بل كان كسب الكثير منهم قائماً على أساس سرقة واختطاف الإنسان الأسود في أفريقيا وشحنه بطريقة مأساوية جداً في سفن لا تتوفر فيها أبسط الوسائل لنقل الإنسان،بل كانت تمارس بحقّهم أقسى أنواع المعاملة، وأنت إذا نظرت إلى المجتمع الأُوروبي أو الأمريكي تجد الكثير من نسل أُولئك الأفارقة الذين اختطفوا من أرضهم وأُرسلوا قسراً إلى تلك البلاد. ولقد عارض الإسلام هذا النوع من الاسترقاق والعبودية. وسعى للقضاء على ظاهرة الرق، وإذا ما وجدنا الإسلام قد أجاز ذلك في الحروب الشرعية فلأجل الحفاظ على حياة الأسرى، ولكنّه في الوقت نفسه جعل لهم أحكاماً خاصة تؤول في النتيجة إلى تحريرهم وخلاصهم، وقد بحثت هذه القضية مفصّلاً في أبواب الفقه الإسلامي.

٢. انّ القرآن الكريم قسّم الناس إلى صنفين، فقال: ﴿**الحُرُّ بِالحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالعَبْدِ**﴾[١]، ولا ريب أنّه ليس المقصود في الآية هو العبد التكويني، وذلك لأنّ العبودية بهذا المعنى لا تختص بصنف من الناس دون صنف، بل الكلّ فيها

١. البقرة:١٧٨.

سواسية فالجميع عبيد له سبحـانه، إذاً المقصود من الآية «العبد» مقابل «الحرّ»، فلابـدّ حينئذٍ من بيان هـذه العبودية، وانّ العبد الـذي جاء ذكره في القـرآن عبد لمن؟

لا ريب أنّ المراد منه الإنسان الذي يكـون عبداً لغيره، والذي يمتلك زمام أُموره ويتسلّط عليه وفقاً للقانون والتشريع الإسلامي.

وفي آية أُخـرى نجد القرآن المجيـد وفي مجال الحثّ على التزويج والترغيب فيه يقول:

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيامى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾.(١)

وحينئذٍ نتساءل الآية تقصد عبد من؟ وأمة من؟ لا شكّ أنّها تقصد العبد أو الأمة اللذين تسلط عليهما مالكهما بطريقة شرعية.

بعـد هذه المقـدمـة يتّضح لنـا وبجلاء أنّ العبـوديـة النابعـة من الخالقيـة والربـوبية لا يمكن أن تضـاف إلى غيره سبحانـه وتعالى ، فالكـلّ عبيده بما فيهم الأنبيـاء والأولياء فضـلاً عن عـامّة النـاس، وأمّا العبـوديـة النابعـة من التشريع والتقنين فمن الممكن أن تنسب إلى غيره سبحانه فيقال: «زيد غلام النبيّ ﷺ»، و «قنبر غلام علي» و «فلان عبد زيد» و«فلانة أمة فلان» و هكذا.

وبالالتفات إلى هذين النوعين من العبودية نفهم: أنّ العبودية القانونية رمز للطاعة والتبعية للمولى، أي ينبغي على العبد أو الأمة إطاعة مولاهما واتّباع أوامره ونواهيه، ولقد حدّد الفقه الإسلامي دائرة تلك الأوامر والنواهي ومقدار دائرة حقّ المولى على عبيده وإمائه. ومن هنا نعرف انّ الغاية من تسمية الأبناء بـ«عبد النبي»

١. النور:٣٢.

أو «عبد الحسين» هـو تشبيه الأطفـال بالعبد القـانوني الذي جـوهر حقيقتـه هو الطاعـة، فيكون المعنى هكـذا: كما أنّ العبد القـانوني مطيع وتـابع لمولاه، فهكذا صاحب هذا الاسم ـ أي الوليد ـ هو عبد للنبي أو لسيد الشهداء ومطيع لهما.

وبعبارة أُخرى: انّ مصطلح «العبد» يراد بـه هنا «المطيع»، وهذا المعنى قد استعمل في اللغة العربية[١]، والمسلمون وطبقاً لقـوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[٢] هم في الحقيقة مطيعـون لله وللرسـول ولأُولي الأمر وتابعين لهم.

والعجب انّ الذين تثار حميتهم وتنبض عـروق الغيرة على الدين في أبدانهم حينما يسمعون بمثل تلك التسميات، تجدهم في نفس الوقت يقفون موقف الخائر الذليل والعبد المطيع أمام السـلاطين والحكام غير الشرعيين، ولا يكتفون بذلك، بل يسبغون عليهم ـ زوراً وبهتاناً ـ صفة أمير المؤمنين!!!

ولقـد أشارت الصحف في المملكـة العربيـة السعوديـة إلى نماذج من ذلك حينما تصدّى الملك «فيصل بن عبد العزيز» لمنصب القيادة في السعودية بعد أخيه «سعود بن عبد العزيز» حيث خاطبه في حينها مفتي الديار السعودية السابق «ابن باز» بلقب أمير المؤمنين، الأمـر الذي اعتذر منـه الملك فيصل نفسه ووجـده لقباً كبيراً لا يستحقه.

ولقـد أشـارت الصحف والمجـلات في المملكـة إلى تلك المذكـرات،وقـد طالعتها بنفسي.

---

١. انظر المنجد: مادة «عبد».

٢. النساء:٥٩.

الفصل السابع عشر

إهداء ثواب العمل الصالح إلى الموتى

أثبتت البحوث العلميـة والفلسفية أنّ الموت لا يمثّل نهاية حيـاة الإنسان وفنـاءَها، بل هـو في الحقيقـة، يمثّل نقلـة من عالم إلى عـالم آخـر، كما أثبتت تلك البحـوث أنّ حقيقـة الإنسـان وجـوهـره لا يتمثّل في بـدنـه المادي حتّى تنعـدم بانعدامه، بل الذي يمثّل حقيقة الإنسـان وواقعه هو روحه ونفسه، وهذه لا تفنىٰ ولا تنعدم، بموت الجسد وفنائه، وانّما تنتقل لتعيش في بدن يناسب مقامها الجديد في ذلك العالم الذي أطلق عليه العلماء والمفكّرون اسم «عالم البرزخ».

وبما أنّنـا قـد تعـرضنـا لهذه المسألـة في البحـوث السـابقـة «بحث الحيـاة البرزخية» بـالبحث والتحقيق، لذا نكتفي بما ذكرنـاه سابقاً ولا نعيـد البحث فيها هنـا مرّة أُخـرى، ونركّـز البحث على محل النـزاع، وهو:هل الموتى ينتفعـون بعمل الأحياء؟

وبعبارة أُخـرى: إذا قام الإنسان الحي بعمل صالح ثمّ أهـدىٰ ثواب ذلك العمل إلى والده أو أُمّـه أو لقريب منه ممّن كـانوا قد رحلوا عن هـذه الحياة، فهل ياتـرى ينتفع هؤلاء الموتى بـذلك العمل ويعود ذلك العمل عليهم بـالفائدة، أم لا؟

وفي مقام الإجـابة عن هذاالتساؤل لابـدّ من مراجعة آيات الـذكر الحكيم والروايات الـواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام لتحـدد لنا الإجـابـة عن ذلك، لأنّها هي المرجع الوحيد في الإجابة عن مثل تلك التساؤلات.

وقبل البدء بدراسة الآيات لابدّ من التذكير بنكتة مهمة، وهي: انّ من المفاهيم الإسلامية الثابتة والأُصول الواضحة انّ الإيمان إذا لم يقترن بالعمل لا يجدي نفعاً ولا يكون سبباً للنجاة في ذلك العالم، من هنا نجد أنّ آيات الذكر الحكيم في الغالب تقرن الإيمان بالعمل كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالحات**﴾، ومن هنا لا يمكن للإنسان أن يتكئ على إيمانه فقط، أو على عمل ابنه أو صديقه أو... ، بل لابدّ لمن يتوخّى النجاة ويروم الفوز بالنعيم أن يقرن إيمانه بالعمل الصالح.

نعم ظهرت على الساحة الفكرية الإسلامية في نهاية القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني فرقة كلامية يقال لها: «المرجئة» ذهبت إلى كفاية الإيمان ولم تعر للعمل الصالح أهمية تذكر، فتصدّى لهذه الفرقة أئمّة الهدى عليهم السلام وبيّنوا نقاط الخلل والانحراف الكامن في طيّ هذه النظرية، كما حذّروا المسلمين عامّة وشيعتهم خاصة من الانجراف مع هذا التيار المنحرف، وخاصة بالنسبة إلى الشباب حيث قالوا عليهم السلام: «بادروا أولادكم بالأدب قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة».[١]

كما واجه الأئمّة عليهم السلام النظرية الأُخرى التي ترى في الانتساب إلى بيت الرسالة عاملاً للفوز والنجاح حتّى إذا لم يقترن ذلك الانتساب بالعمل الصالح،وقد اعتبر الأئمّة عليهم السلام انّ هذه النظرية هي الأُخرى لا أساس لها من الصحة ولا تقوم على أُسس قرآنية متينة، بل هي في الحقيقة تمثّل امتداداً للفكر اليهودي المنحرف المتمثّل في قولهم: ﴿**نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِباؤُهُ**﴾.[٢]

ومن هنا ندرك جيداً انّ نجاة الإنسان وفوزه مقترنان بالإيمان أوّلاً والعمل

---

١. الكافي:٦/ ٤٧، الحديث٥.

٢. المائدة:١٨.

الصالح ثـانياً، وأمّا الاتّكـاء على مجرد الإيمان أو مجرد العلاقـة النسبية بأهل بيت الوحي فهو في الـواقع تفكير خاطئ ورؤية باطلة لا يصحّ الاعتماد عليهـا والركون إليها أبداً.

ولأمير المؤمنين وإمام البـلاغة وسيد الفصـاحة كلام رائع في هـذا المجال، حيث يقول عليه السلام مؤكداً على العمل:

١. «ألا وإنّ اليوم عمل ولا حساب،وغداً حسابٌ ولا عمل».[1]

٢. «ألا وإنّ اليوم المضمارُ وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه».[2]

ومع التسليم بهذا الأصل والمفهـوم الإسلامي الثـابت يبقى السؤال الـذي أثرناه مطروحاً، هل ينتفع الميت بعمل الحي أم لا؟

وفي مقـام الإجـابة عن التسـاؤل المطـروح، لابـدّ من الإشارة إلى مقـدّمـة ضرورية، وهي:

انّ عمل الإنسان الحي بالنسبة إلى الميت تتصوّر على صنفين:

١. تارة يكون للميت دور في العمل الصادر من الحي.

٢. وتارة أُخرى لا يكون له أيّ دور في ذلك العمل إلاّ كونه مؤمناً فقط.

ولا كلام في النوع الأوّل الذي يكون لـلإنسان المتوفّى دور في صدور العمل من الحي، فلا ريب أنّه يستفيد منـه وينتفع به، ويكفي شاهداً على ذلك الحديث المروي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والذي رواه الفـريقان، فعن أبي هـريرة قـال: قال

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٤٢.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٢٨.

رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله، إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».[1]

فالحديث الشريف يشير إلى ثلاثة أُمور يبقى ثوابها يتابع الإنسان حتى بعد رحيله من هذه الدنيا، وهي:

١. الصدقة الجارية كبناء المسجد، أو تعبيد الطرق أو إقامة جسر، أو بناء مستشفى، أو تشييد مدرسة، وغير ذلك من أعمال الخير التي ينتفع بها الناس.

٢. علم ينتفع به.

٣. ولد صالح يدعو له.

ولا ريب انّ الإنسان ينتفع بهذه الأعمال انطلاقاً من دوره الفاعل في نشوئها في حياته كالبناء، أو التأليف، أو إعداد الولد الصالح وتربيته تربية إسلامية صحيحة.

روى جرير بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أُجورهم شيء؛ ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء».[2]

إذاً عودة أثر العمل على الميت ـ سواء كان ذلك الأثر ثواباً أو عقاباً ـ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدور الذي يقوم به الميت في أثناء حياته في إظهار السنّة ـ حسنة كانت أم سيئة ـ، إذ لو لم يقم هو بذلك العمل لما استنّ به غيره من الناس ولم يعمل بها أحد بعده.

---

١. صحيح مسلم: ٥/ ٧٣، باب «وصول ثواب الصدقات إلى الميت» من كتاب الإلهيات.

٢. صحيح مسلم: ٨/ ٦١، باب «من سنّ سنة حسنة أو سيئة» من كتاب العلم.

نعم يقع البحث في العمل من الصنف الثاني الذي لم يكن للميت دور فيه أبداً فإذا قام الإنسان الحي بعمل صالح فهل يستطيع أن يهدي ثوابه إلى الميت أم لا؟ وهل ينتفع به الميت أم لا؟

إنّ القرآن الكريم والسنّة المطهّرة يؤكّدان ذلك، وأنّه يمكن للإنسان أن يهدي ثواب ذلك العمل، هذا من جهة ومن جهة أُخرى الميت ينتفع بذلك العمل وإن لم يكن له دور فيه. فإذااستغفر الحي للميت، أو قام بعمل صالح من صوم أو صلاة أو صدقة أو برّ ـ إمّا نيابة عن الميت أو بدون أن يقصد النيابة ـ ثمّ أهدى ثوابه للميت، فلا ريب أنّ الميت ينتفع بذلك، ولقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج متعدّدة من الاستغفار للآخرين وانتفاعهم بها، مثل:

استغفار الملائكة للمؤمنين

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بوضوح تام لا لبس فيه وأكّد أنّ الملائكة تستغفر للمؤمنين، فإذا لم يكن في هذاالاستغفار فائدة تعود على الميت، فحينئذٍ يكون طلب الاستغفار لغواً لا طائل وراءه. ومن تلك الآيات:

١. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.[١]

٢. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[٢]

---

١. المؤمن:٧.

٢. الشورى:٥.

٣. في الآيتين السابقتين كان الحديث عن استغفار الملائكة للمؤمنين، وأمّا الآية الثالثة فتتحدث عن استغفار المؤمنين للمؤمنين، حيث قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِر لَنَا وَلإخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ وَلاَ تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاً لِلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ﴾.[١]

إنّ الآيات الثلاث المذكورة تحكي عن انتفاع الموتىٰ باستغفار الملائكة والمؤمنين،ولكن الأمر لا ينحصر بالاستغفار فقط، بل الفائدة أوسع من ذلك وأشمل، وهذا ما أكّدته الروايات الكثيرة، فقد وردت في مجال الإحسان إلى الموتىٰ روايات كثيرة منتشرة في المصادر الحديثية كلّها تؤكّد حقيقة انتفاع الميت بعمل الحي، وهانحن نستعرض تلك الروايات ضمن العناوين التالية:

١. انتفاع الميّت بالصوم والحجّ النيابيّين

وقد ورد في هذا المجال روايات متعدّدة، منها:

الف: انّ رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليّه».[٢]

ب: روى ابن عباس: أنّ امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ أُمّي ماتت وعليها صوم شهر فقال ﷺ: «أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟».

قالت: نعم.

قال ﷺ: «فدين الله أحقّ بالقضاء».[٣]

---

١. الحشر:١٠.

٢. صحيح مسلم:٣/ ١٥٥، باب قضاء الصيام عن الميت.

٣. نفس المصدر.

ج: عن عبد الله بن عطاء، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إنّي تصدّقت على أُمّي بجارية وانّها ماتت، قال: فقال ﷺ: «وجب أجرك»، ثمّ قالت: يا رسول الله إنّه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت: إنّها لم تحجّ قط أفأحجّ عنها؟ قال ﷺ: «حجّي عنها».[١]

٢. انتفاع الميت بالصدقة عنه

إنّ الروايات الواردة في هذا المجال كثيرة لا يمكن حصرها هنا، ولذا نكتفي بذكر روايتين منها يكفي نقلهما للإجابة عن بعض الإشكالات المطروحة:

الف: قالت عائشة: إنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ أُمّي اقتلعت نفسها، ولم توص وأظنها لو تكلّمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال ﷺ: «نعم».[٢]

ب: عن سعد بن عبادة، أنّه قال: يا رسول الله إنّ أُمّ سعد ماتت فأي الصدقة أفضل؟ قال ﷺ: «الماء». فحفر بئراً وقال: هذه لأُمّ سعد.[٣]

وإذا أردنا أن نحلّل تلك الروايات نقول:

إنّ الإنسان قد يقوم بسلسلة من الأعمال الصالحة من دون تعهد مسبق ثمّ يهدي ثوابها إلى الموتى، فإنّ من المسلّم به أنّ الأعمال التي تصدر من الإنسان ويراد بها وجه الله تعالى والتقرّب إليه، فإنّ الله سبحانه يثيب على ذلك ويجزي

١. نفس المصدر.
٢. صحيح مسلم:٣/ ٧٣، باب دخول ثواب الصدقات إلى الميت.
٣. سنن أبي داود:٢/ ١٣٠ برقم ١٦٨١.

المحسنين، ولكن هذا الثـواب والجزاء تفضّل منه سبحانه وتعـالى وليس للعبد أو عملـه استحقـاق على الله، وانطـلاقـاً من هـذا التفضّل والعطف الإلهي والـرحمة الربانية جاءت الروايات لتجيز العمل النيابي عن الميت، ليتسنّى للميت الحصول على ذلك الفضل الرباني والرحمة الإلهية.

النذر لأولياء الله

إنّ النذر سنّـة معروفة بين كافّـة المسلمين في العالم كلّه، وخاصـة في البلاد التي تحتضن قبور أولياء الله وعباده الصالحين.

ولقد تعارف بين المسلمين النذر لله وإهداء ثـوابه للنبي أو لعترته الطاهرة أو لأحد الصالحين، فيقـول الناذر: «لله عليّ» ثمّ يهدي ثوابه للنبي مثـلاً، ولا مانع من ذلك أبداً.

إذا عرفنا ذلك الأصل حينها تتّضح لنـا وبجلاء معنى قول الناذر في بعض الأحيان: «لله عليّ أن أذبح شـاة للنبي أو للوصي»، فإنّ مفاد كلمـة «لله» غير مفاد كلمة «للنبـي» قطعاً، وإن كانـت الكلمتان مقـرونتين بحرف اللاّم، ولكـن مفاد الحرف في لفظ الجلالـة غير مفاده في لفظ النبي، وذلك لأنّ معنى الـلام في الأوّل يراد به التقرّب والقيام بـالفعل لله تعالى وحده، والحال أنّ المراد من اللام في الثاني «النبي» ينصرف إلى معنى آخـر ويـراد به معنى الانتفـاع والاستفـادة،ومن حسن الحظ انّ كلا التعبيرين قد وردا في الذكر الحكيم حيث قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ﴾.[1]

وفي آية أُخرى قال تعالى:

---

١. سبأ:٤٦.

﴿إِنَّمَا الصَّدقاتُ لِلْفُقَراءِ﴾.[١]

وعلى هذا الأساس لا يمكن عدّ هذا النوع من التعبير علامة للشرك بالله وعبادة لغيره، بل انّ هذا التعبير نفسه قد ورد في حديث سعد بن عبادة الذي مرّ ذكره حيث قال: «هذه لأُمّ سعد».

المعيار هو النيّة لا ظاهر العمل

روى المحدّثون عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال: «إنّما الأعمال بالنيات».[٢]

ومن هذا المنطلق واعتماداً على هذا الأصل الإسلامي المسلّم لابدّ من التفريق ووضع المائز بين العمل الذي يقوم به الموحّدون من النذر أو الذبح للنبي أو الأولياء وبين ما يقوم به المشركون تجاه أصنامهم وأوثانهم، فإنّ العملين وإن اتّحدا ظاهراً وشكلاً، ولكنّهما يختلفان جوهراً وحقيقة، فلا يمكن قياس أحدهما بالآخر. لأنّ الإنسان الموحّد إنّما ينذر لله وحده ويذبح طمعاً في نيل ثوابه وجزائه تعالى، والحال انّ المشركين يذبحون باسم أوثانهم ويطلبون الثواب منها، فكيف ياترى جعل العملين عملاً واحداً والتسوية بينهما؟!!

فإذا كان المعيار في الحكم هو ظاهر العمل، فلا شكّ انّ ظاهر أعمال الحجّ لدى المسلمين يشبه عمل المشركين، فهم يطوفون حول أصنامهم ونحن نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبّلها،وهم ينحرون في منىٰ لأصنامهم ونحن أيضاً ننحر في ذلك اليوم، ولكن هل من الصحيح التسوية بين العملين اعتماداً على الشكل الظاهري للعمل وإغفال جانب النيّة التي تدفع الإنسان إلى القيام بذلك

---

١. التوبة:٦٠.

٢. صحيح البخاري:١/ ١.

الفعل؟!!

فلا ريب أنّ المحرّك والدافع للمشركين هو التـزلّف للأوثان والتقرب إليها والطمع بنيل رضـاهـا، والحال انّ المحـرك الـذي يـدفع الموحّـدين هـو التـزلّف والتقرب لله وحده لا شريك له والطمع بنيل ثوابه والفـوز بالجنة والرضوان، ولقد أكّدت الروايات صحّة هذا العمل وأضفت عليه صفة الشرعية.

إذا عـرفنا ذلك كلّـه نعطف عنـان القلم للحديـث عن نظريـة علماء أهل السنّة في هذا المجال وما يذهبون إليه.

نظرية المحقّقين من أهل السنّة

لأجل إتمام الفائدة واتّضاح الأمر جليّاً نأتي هنا بكلمتين لعلمَيْن ومفكّرين من أهل السنّة، وهما:

الأوّل: الخالـدي البغدادي(المتـوفّى سنـة ١٢٩٩هــ) حيث قـال في كتابـه «صلح الإخوان»: إنّ المسألـة تدور مدار نيات الناذريـن، وإنّما الأعمال بالنيّات، فإن كان قصد الناذر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز، قولاً واحداً. وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء ـ بوجه من الوجوه ـ و ثوابه لذلك المنذور له ـ سـواء عيّن وجهاً من وجـوه الانتفاع، أو أطلق القـول فيه وكـان هناك مـا يطّرد الصرف فيه في عرف الناس، أو أقرباء الميّت أو نحو ذلك، ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور.[1]

الثاني: العزامي في كتابه«فرقان القرآن» حيث قال:

ومن استخبر حـــال من يفعل ذلك من المسلمين، وجـدهـم لا يقصـدون

---

١. صلح الإخوان للخالدي:١٠٢ و مابعده.

بذبائحهم ونـذورهم للأموات ـ من الأنبياء والأولياء ـ إلاّ الصدقة عنهم وجعل ثوابها إليهم، وقد علمـوا أنّ إجماع أهل السنّة منعقد على أنّ صدقة الأحيـاء نافعة للأموات، واصلة إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحه مشهورة.[١]

ومنهـا ما نقلـه أبو داود عن ميمـونة بنت كـردم قالت: خـرجت مع أبي في حجة رسول الله ﷺ... إلى أن قالت: فقال (أبي): يا رسول الله ﷺ إنّي نذرت إن ولد لي ولد ذكـر أن أنحر على رأس بوانة في عقبـة من الثنايا عـدة من الغنم، قال: لا أعلم إلاّ أنّها قالت خمسين، فقال رسول الله ﷺ: «هل بها من الأوثان شيء»؟ قال: لا، قال ﷺ: «فأوف بها نذرت به لله».[٢]

ومن الملاحظ أنّ الرسول الأكرم ﷺ قد ركّز في جوابـه على وجود الأوثان في المنطقة ممّـا يحكي أنّ النذر المحرّم هو النـذر للأصنـام والأوثان، لأنّـه كان من عادات عرب الجاهلية، ولقد أشـار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿**وَما ذُبِحَ على النُّصُبِ... ذٰلِكُمْ فِسْقٌ**﴾.[٣]

ومن يمعن النظر في سلـوك ومنهج الزائرين وطريقـة تصرفهم في العتبات المقدّسة ومـراقد الأولياء الصالحين، يصل إلى نتيجة قطعيـة ويكتشف بها لا مزيد عليه أنّ هـؤلاء يذبحون بـاسمه ولغرض الفـوز برضـاه والتقرب إليه سبحـانه ثمّ انتفاع صاحب القبر بثواب ذلك العمل من جهة وانتفاع الفقراء والمحتاجين من جهة ثانية.

---

١. فرقان القرآن:١٣٣.

٢. سنن أبي داود:٢/ ١٠٤، ح٣٣١٤.

٣. المائدة:٣.

فتوى فقهاء أهل السنّة

بما انّ المسألة من المسائل الفقهية لـذلك من الجدير بنا أن نشير إلى فتاوى فقهاء أهـل السنّة، لتتّضح حقيقة الحال وليتجلّى الأمـر بأحسن صورة،وقـد قسّم هؤلاء المسألة إلى صورتين، هما:

الف: إذا أوصى الميت بالقيـام بعد وفـاته بعمل صالح فقـد أجمع الفقهاء الأربعة على لزوم تنفيذ الوصيّة ، وقالوا: الميت ينتفع بعمل الحي.

ب: إذا لم يوص الميت، ولكن تصدّى أبناؤه وذووه للقيام بالعمل نيابة عنه، فقد أفتىٰ بصحّة هذا العمل جميع الفقهاء إلاّ الإمام مالكاً.

١. قال فقهاء الحنابلة: الحج يقبل النيـابة وكذلك العمرة... ومن توفّي قبل أن يحجّ الحجّ الواجب عليه، سواء كـان ذلك بعذر أو بغير عذر، وجب أن يخرج من جميع ماله نفقة حجّة وعمرة، ولو لم يوص.[١]

٢. وأمّا فقهـاء الحنفية فقالـوا: إذا لم يوص ــ الميت ـ وتبرّع أحد الـورثة أو غيرهم، فإنّه يرجى قبول حجّهم عنه إن شاء الله تعالى.[٢]

٣. وأمّا الشافعيـة فقالوا: فإن عجز عن مبـاشرة الحجّ بنفسه يحجّ عنه الغير بعد موته من تركته.[٣]

ونحن إذا أردنـا استعـراض جميع كلمات وآراء علماء أهل السنّة لطـال بنـا المقام، لذا نكتفي بهذا المقدار، ونعطف عنان القلم للحديث عن الشبهات المثارة هنا،وهي:

١، ٢و٣. الفقـه على المـذاهب الأربعــة:١/ ٥٧١، ٥٦٧، ٥٦٩، كتـاب الحج، مباحث الحج عــن الغيـر.

الشبهة الأُولى

تنطلق هذه الشبهة من نكتة مفادها أنّ القرآن الكريم قدحصر انتفاع الإنسان بالعمل الذي يتصدّى بنفسه للقيام به ويسعى في تحصيله ويبذل الجهد بإنجازه، حيث قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاّ ما سعَىٰ﴾[١]، ومع هذا التصريح في الآية كيف ينتفع الميّت بعمل لم يبذل فيه أدنى جهد أو سعي؟!!

جواب الشبهة

إنّ الإجابة عن الشبهة المذكورة واضحة، بشرط بيان المرادمن الآية آنفة الذكر، ومن هنا نقول:

أوّلاً: انّ الآية المباركة بصدد الحديث عن العقاب والجزاء وانّ كلّ إنسان إنّما يجازى بعمله ويؤاخذ به وبما يقترفه هو بنفسه، ولا علاقة للآية بالثواب والجزاء، والشاهد على ذلك أنّها تقول:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلّىٰ * وَأَعْطىٰ قَلِيلاً وَأَكْدىٰ * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرىٰ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسىٰ * وَإِبراهيمَ الَّذِي وَفّىٰ * أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاّ ما سعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ * ثُمَّ يُجزاهُ الجَزاءَ الأَوفىٰ * وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ﴾.[٢]

فإنّ ملاحظة لحن الخطاب الوارد في الآيات والذي هو في الحقيقة لحن ذم وتوبيخ،يظهر وبجلاء أنّ الآية في مقام الحديث عن العقاب والجزاء وخاصة الآية

---

١. النجم:٣٩.

٢. النجم:٣٣ـ٤٢.

السابقة عليها والتي تقول: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ﴾ ومن هنا نعرف أنّ اللام الداخلة على كلمة الإنسان في قوله تعالى﴿للإنسان﴾ لا يراد منها الانتفاع، بل هي بمعنى الاستحقاق،ولقد أكّد علماء اللغة أنّ أحد معاني «اللام» الاستحقاق كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[1]، فعلى هـذا الأساس لا عـلاقة لـلآية بمسألـة الهدية والثواب.

وثانياً: على فرض التسليم بشمولية الآية ودلالتها على الثواب والعقاب معاً، مع ذلك نقول: يوجد هنا أمران لا ينبغي الخلط بينهما:

١ . انّ سعادة الإنسان وشقاءه مرهون بعمله وسلوكه، فإذا كان محسناً فاعلاً للخيرات فلا ريب أنّـه سعيد، وأمّا إذاكـان سيّء العمل مذموم الطـريقة والمنهج فلا ريب أنّ عاقبته الشقاء والخسران، وهذا أصل قرآنيّ أكّدته آيات الذكر الحكيم حيث قال عزّ من قائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾.[2]

٢ . إذا قام الإنسـان بعمل صالح ثمّ أهدى ثواب ذلك العمل إلى آخـر قد رحل عن هذه الدنيا، فإنّ الميّت ينتفع بثواب ذلك العمل الصالح.

ولا ريب أنّه لا منافـاة بين هذين الأصلين، لأنّ الأصل يمثّل قاعـدة عامّة شاخصـة للعيان في حياة الإنسان، كما أنّ هـذا الأصل يبيّـن المحور الـذي تدور عليـه كلّ من السعـادة والشقـاء. والحال أنّ الأصل الثـاني أصل فـرعي وحـالـة استثنائية،ومن الممكن بيان عدم التنافي بين الأصلين من خلال المثال التالي:

لو فـرضنا أنّ إنساناً مـا ينصح ولده ويقول له: إنّ سعـادتك أو شقاءَك في الحيـاة رهن بعملك وسعيك، وإنّ الأمل بـالنجـاح والسعادة بـلا عمل أو كـدح

---

١ . المطففين:١ .

٢ .فصلت:٤٦ .

خيال واه وحلم بـاطل، فهل تعني تلك النصيحة أنّـه لا يحقّ لهذا الابن أن يتلقّى الهدية من الآخرين، أو إذا تلقّاها لا تزيده نفعاً؟ أو أنّ استلامه للهدية يُعدّ مخالفة لنصيحة الأب و إرشاده؟

فـلا ريب انّ الإجابـة عن هذا التسـاؤل بالنفي قطعـاً، وذلك لأنّ الأب في واقع الأمر بصدد بيان قاعدة كلّية وأصل عام تسير عليه الحياة وتدور عليه رحاها والنجـاح أو الإخفاق فيهـا، وأمّـا الانتفاع بهدايـا الآخـرين ومنحهم فهـو حالـة استثنـائيـة، فإنّ الأب يقـول لـولـده: اعتمـد على نفسك وسعيك وجهـدك ودع التكاسل والبطالة والاعتماد على الآخـرين بالكلية، ولكن ذلك لا يمنع أن تحصل وفي حـالات خاصـة واستثنائيـة بين الحين والآخر على هـدية أو هبـة تنتفع بها في حياتك.

الشبهة الثانية

تقـوم هـذه الشبهة على الحصر الـوارد في الحديث النبـوي الشريف حيث حصر انتفاع الإنسـان بعد مـوته بثـلاثة أُمـور لم يكن من ضمنها انتفـاع الإنسان بعمل غيره، لأنّ الحديث النبـوي قال: «إذا مـات الإنسان، انقطع عملـه إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

جواب الشبهة

إنّ الحديث ناظر إلى تلك الأعمال التي تصدر من الإنسان بصورة مباشرة، وليس بالخفي أنّ الإنسان إذا مات انقطعت الأعمال التي يقوم بها بنفسه وبصورة مباشرة إلاّ الثلاثة التي بقي أثرها بعده ولم تمت بموته.

وعلى هذا الأساس لا توجد بين الحديث وبين انتفاع الإنسان بعمل يقوم به غيره أيّة صلة أو علاقة، بل أنّ هيكل الحديث المستثنى «انقطع عمله» والمستثنى منه«إلاّ من ثلاثة» ناظر إلى الأعمال التي يقوم بها الإنسان بصورة مباشرة وأنّ محور الحديث يدور حول بيان انقطاع عمل الإنسان بموته إلاّ ما استثني في الحديث، وليس الحديث بصدد بيان الانتفاع بثواب العمل الذي يقوم به غيره ويهدي ثوابه إليه.

الشبهة الثالثة

إنّ العبادات على صنفين: بعضها يقبل النيابة كالصدقة والحج، والبعض الآخر لا يقبل النيابة كالصلاة وقراءة القرآن والصيام، وحينئذٍ كيف يتصدّى الإنسان للنيابة عن الميت في أُمور لا تقبل النيابة أصلاً؟!

جواب الشبهة

إنّ قبول العمل للنيابة أو عدم قبوله لابدّ أن يؤخذ من الشرع، فالشارع هو الذي يحدّد ذلك، فعلى سبيل المثال: الإسلام لا يقبل النيابة، فلو تشهد الإنسان الشهادتين ألف مرة ــ نيابة عن الكافر ـ لا يجدي الكافر نفعاً أبداً، وأمّا الصوم مثلاً فلا ريب أنّ الروايات قد أكّدت قبوله للنيابة فقد روي عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليّه».[1]

ونظير ذلك الروايات التي ذكرناها في صدر البحث، وحينئذٍ كيف يدّعي المستشكل أنّ الصلاة لا تقبل النيابة في الوقت الذي يعترف به بقبول الحجّ

---

١. صحيح مسلم:٣/ ١٥٥، باب قضاء الصيام عن الميت.

للنيابـة،والحال أنّ من أعمال الحجّ الواجبة صلاة الطـواف؟! فلا ريب أنّ العمل إذا قبل النيابة في مورد يقبلها في المورد الآخر بلا فرق بين الموردين أبداً.

ولقد روى الإمام أحمد في مسنده الحديث التالي:

ويٰس قلب القرآن لا يقرؤهـا رجل يريد الله تبارك وتعـالى والدار الآخرة إلاّ غفر له، واقرأوها على موتاكم.[١]

الفصل الثامن عشر

الحلف على الله بحقّ أوليائه الصالحين

لقد أولى القرآن الكريم المؤمنين الذين يدعون الله تضرعاً وخفية ويطلبون منه العفو وغفران الذنوب، أهمية خاصة ووصفهم بصفات ونعوت كثيرة كالصابرين، والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار و... قال تعالى: ﴿الصّابِرينَ وَالصّادِقينَ وَالقانِتينَ وَالْمُنْفِقينَ وَالْمُسْتَغْفِرينَ بِالأَسْحار﴾.[1]

فلو انّ إنساناً قام في جوف الليل ثمّ أسبغ وضوءه وتوجه إلى الله مصلّياً صلاة الليل ذارفاً دموع الخوف راجياً منه، متضرعاً إليه سبحانه وتعالى قائلاً:

«اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ المستغفرين بالأسحار اغفر لي ذنبي».

فكيف يمكن اعتبار الحلف على الله سبحانه بمقام ومنزلة الموحّدين الصالحين الذائبين في التوحيد والإخلاص له سبحانه، نوعاً من الشرك في العبادة؟!

ولقد أوضحنا في بحوثنا السابقة انّ المعيار في العبادة هو: الخضوع مقابل موجود يعتقد أنّه ربّ أو أنّه منشأ لبعض الأعمال الإلهية، والحال أنّ الموحّدين الذين يقسمون على الله بحقّ الأنبياء والأولياء ومنزلتهم عليهم السلام لا ينطلقون من هذا الاعتقاد المنحرف، بل أقصى ما يعتقدونه في حقّهم أنّهم عباد مقربون لله سبحانه

---

١. آل عمران:١٧.

يحبّهم الله ويحبّونه.

إذا اتّضح ذلك وتبيّن انّ القسم على الله تعالى بحقّ الأولياء ليس عبادة لهم ولا شركاً بـه سبحانه، ننقل الكـلام للحديث عن الشق الثاني من البحث ونـركّز البحث حولـه، وهو: هل أنّ القسم على الله تعالى بحقّ الأولياء جـائز أم لا؟ لأنّه من الممكن أن يكون الشيء ليس بعبادة لغيره سبحانه، ولكنّه في نفس الوقت غير جائز في نظر الشرع؟

وفي مقـام الإجابـة عن التساؤل المطـروح لابدّ من الـرجوع إلى الأحـاديث والروايات الإسـلامية الواردة عن الـرسول الأكرمﷺ وأهل بيتهعليهم السلام واستنطاقها لتنجلي الحقيقـة وينكشف الواقع، وهـا نحن نشير إلى الأدلّة التي تبيح مثل هـذا القسم، وهي:

١. لقد ورد القسم في الدعاء الذي علّمه النبي الأكرمﷺ للرجل الضرير ـ والذي تحدّثنا عنـه سابقاً ـ نرى أنّ الـرسول الأكرمﷺ علّم الرجل أن يقـول بعد الوضوء والصلاة ـ : «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبي الرحمة».[١]

صحيح انّـه لم ترد في الحديث لفظـة «القسم» أو «الحلف» ولكن استعمال لفظة «الباء» في قوله: «بنبيّك» تتضمن معنى القسم.

وحينئـذٍ يطرح السـؤال التالي نفسـه: إذا كـان القسم على الله بأوليائه أمـراً محرماً فكيف علّم الـرسول الأكرمﷺ الرجل الضريـر هذا الدعـاء الذي يتضمّن حقيقة ذلك القسم؟!

٢. روى أبو سعيـد الخدري عن النبيﷺ هذا الـدعاء لمن خـرج من بيته

١. انظر ص ٣١٠ـ٣١١ من هذا الكتاب.

قاصداً الصلاة في المسجد:

«اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاي هذا...».[١]

قد يدّعي المخالف ضعف الحديث لوجود عطية العوفي في سلسلة سنده، وإذا كان الحديث ضعيفاً يسقط عن الاعتبار ولا يصح الاستدلال به.

ولكن يرد على هذا الادّعاء أنّنا قد أثبتنا أنّ عطية العوفي لاغمز فيه إلاّ من جهة حبّه وولائه لأهل بيت الوحي والنبوة[٢] هذا من جهة، ومن جهة أُخرى أنّ ابن خزيمة قد روى الحديث بطريق صحيح لدى أهل السنّة.[٣]

٣. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا اقترف آدم الخطيئة، قال: يا ربّ! أسألك بحق محمد لماغفرت لي، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً إذ لم أخلقه؟ قال: يا ربّ لأنّك لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك،رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فعلمت أنّك لم تُضفْ إلى اسمك إلاّ أحبّ الخلق إليك...».[٤]

ولا يوجد أدنى إشكال في سند الحديث، لأنّ أحاديث المستدرك من ناحية القيمة والاعتبار العلمي كالأحاديث الواردة في الصحيحين.

هذه نماذج من الروايات التي نقلت عن الرسول الأكرم ﷺ وأمّا الأحاديث الواردة عن طريق أئمّة الهدى فكثيرة جداً، وكلّها تثبت بما لا مزيد عليه أنّهم عليهم السلام

---

١. سنن ابن ماجة:١/ ٢٥٦، برقم ٧٧٨؛ مسند أحمد:٣/ ٢١.

٢. انظر صفحة ٣٣٠ من هذا الكتاب.

٣. انظر تعليقة المحقّق فؤاد عبد الباقي على سنن ابن ماجة.

٤. مستدرك الحاكم:٢/ ٦١٥؛ الدر المنثور:١/ ٥٩؛ روح المعاني:١/ ٢١٧.

كانوا دائماً يقسمون على الله بحقّ أوليائه الصالحين، ويكفي شاهداً على ما نقول مراجعة الصحيفة السجادية لتتّضح الحقيقة بأجلى صورها.

٤. يقول عليه السلام في دعائه يوم عرفة مناجياً ربّه:

«بحقّ من انتخبت من خلقك، وبمن اصطفيته لنفسك، بحقّ من اخترت من بريّتك، ومن اجتبيت لشأنك، بحقّ من وصلت طاعته بطاعتك، ومن نيطت معاداته بمعاداتك».[١]

٥. وعندما زار الإمام الصادق عليه السلام مرقد جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام دعا في ختام الزيارة:

«اللّهمّ استجب دعائي، واقبل ثنائي، واجمع بيني و بين أوليائي، بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين».[٢]

وكما ذكرنا أنّ الأدعية المروية عن أمير المؤمنين وأبنائه المعصومين عليهم السلام تشتمل على الكثير من تلك الأقسام ولا يسع المقام لذكرها جميعاً.

وبعد أن اتّضح لنا جواز ذلك النوع من الطلب والقسم على الله تعالى، ننقل الكلام للحديث عن مسألة أُخرى وهي: التعرض لأدلّة المانعين ونقدها، فقد تمسّك المانعون بأدلّة، منها:

انّه لاحق للمخلوق على الخالق

لقد تمسّك المانعون بهذا الدليل قائلين: «إنّ المسألة بحقّ المخلوقين لا تجوز، لأنّه لاحق للمخلوق على الخالق».[٣]

---

١. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

٢. مصباح المتهجّد: ٦٨٢.

٣. كشف الارتياب: ٣٣١، نقلاً عن القدوري.

الجواب

يمكن الرد على هذا النمط من الاستدلال بطريقين:

الطريق الأوّل: انّ هذا الاستدلال من قبيل الاجتهاد في مقابل النصّ، إذ من الواضح لكلّ من راجع القرآن الكريم والسنّة المطهّرة يجد عدداً من الآيات والروايات التي تحكي أنّ للمخلوق حقّاً في ذمّة الخالق، وهانحن نشير إلى نماذج من كلا المصدرين الأساسيّين:

القرآن الكريم والحقوق المذكورة

١. قوله تعالى: ﴿**وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[١]

٢. وقوله تعالى: ﴿**وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرآنِ**﴾.[٢]

٣. وفي آية ثالثة: ﴿**كَذلِكَ حَقّاً عَلَيْنا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[٣]

٤. وفي رابعة قال عزّ من قائل:﴿**إِنّما التَّوْبَةُ عَلى اللهِ لِلَّذِينَ يعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ**﴾.[٤]

ومع وجود هذه الآيات كيف يسيغ الإنسان لنفسه السعي وراء التأويلات الباردة التي لا تنبع إلاّ من نظريات باطلة وتوهّمات لا أساس لها من الصحّة.

السنّة والحقوق المذكورة

بالإضافة إلى ما سبق من الآيات الكريمة، هناك مجموعة كبرى من

١. الروم:٤٧.

٢. التوبة:١١١.

٣. يونس:١٠٣.

٤. النساء:١٧.

الأحاديث الشريفة في هذا المجال نقتطف منها بعض النماذج:

١. «حقّ على الله عون من نكح التماس العفاف ممّا حرّم الله».[١]

٢. قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريدُ الأداء، والناكح الذي يريد التعفّف».[٢]

٣. «أتدري ما حقّ العباد على الله...».[٣]

الطريق الثاني: صحيح انّه لا حق لمخلوق في ذمّة الخالق، لأنّ عباد الله لا يملكون شيئاً حتّى يكون لهم حقّ على الله تعالى، نعم، انّ المقصود من الحق ـ في تلك العبارات ـ هو الجزاء والمنزلة التي تفضل الله بها على عباده حيث منحهم هذا الحقّ مقابل طاعتهم وانقيادهم له سبحانه، فهو في الحقيقة مزيد من التفضّل والعناية واللطف منه تعالى، فهذا «الحق» الذي نقسم به على الله، حق جعله الله، لا أنّ العبد له حقّ على الله، وهذا مثل القرض الذي يستقرضه الله من عباده في قوله سبحانه:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.[٤]

حقّاً انّ درك المعارف الإسلامية الحقة يحتاج إلى رؤية ثاقبة وبصيرة نافذة تستطيع الغور في الأعماق للحصول على الجواهر والدرر القرآنية والحديثية.

---

١. الجامع الصغير للسيوطي: ٢/ ٣٣.

٢. سنن ابن ماجة: ٢/ ٨٤١.

٣. النهاية لابن الأثير: مادة «حق».

٣. البقرة: ٢٤٥.

الفصل التاسع عشر

الحلف بغير الله تعالى

كان البحث في السابق يدور حول القسم على الله بحقّ الأولياء الصالحين بنحو يتوسّل الإنسان بمقامات ومنازل الأولياء ويقسم على الله تعالى بها، لينجح طلبته ويستجيب دعاءه.

وأمّا البحث في المقام فيدور حول مسألة أُخرى ألا وهي «الحلف بغير الله تعالى»، فمن السائد بين المسلمين أنّهم وفي محادثاتهم اليومية يقسمون بالنبي الأكرم أو القرآن الكريم فيقول أحدهم لصاحبه: أقسم بالرسول إنّي لم أفعل الفعل الفلاني، أو أقسم بالقرآن الكريم إنّي سأفعل كذا، وحينئذٍ يطرح السؤال التالي نفسه: ما هو حكم هذا النوع من القسم في الشرع الإسلامي؟

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل نقدّم مقدّمة نشير فيها إلى مسألتين، هما:

١ . ما هي الغاية من القسم بغير الله في القرآن الكريم؟

إنّه سبحانه وتعالى حلف في القرآن الكريم بأشياء غير ذاته سبحانه يربو عددها على الأربعين ، منها: الحلف بالتين والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين، والليل والنّهار، والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور، والحلف بعمر النبي، فقال عزّ من قائل:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهٰذا البَلَدِ الأَمينِ﴾.[1]

﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشىٰ* وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّىٰ﴾.[2]

﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾.[3]

﴿وَالطُّورِ * وَكِتابٍ مَسْطُورٍ* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.[4]

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.[5]

فإذا أمعنا النظر في هذه الآيات يظهر لنا أنّ الهدف من وراء قسمه سبحانه وتعالى بهذه الموجودات يكمن في أحد الأمرين التاليين:

الهدف الأوّل: حثّ الإنسان وتحفيزه للاهتمام بتلك الموجودات، والبحث والتفكير فيها، ودراستها لمعرفة السرّ الكامن فيها، والذي جعلها موضع اهتمام الباري تعالى إلى الحد الذي يقسم بها تعالى شأنه، وممّا لا ريب فيه أنّ التفكّر في خلق السماوات والأرض من أهمّ صفات وخصوصيات المؤمنين، وقد حثّ القرآن الكريم المؤمنين إلى ذلك وأثنىٰ على المتفكّرين كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذا فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾.[6]

وقال تعالى في آية أُخرى:

---

١. التين:١ـ٣.

٢. الضحى:١ـ٢.

٣. الفجر:١ـ٤.

٤. الطور:١ـ٦.

٥. الحجر:٧٢.

٦. يونس:١٠١.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾.(١)

كما أقسم القرآن الكريم بالشمس والقمر والنهار والليل، فقال عزّ من قائل:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها* وَالقَمَرِ إِذا تَلاها* وَالنَّهارِ إِذا جَلاّها* وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها* وَالسَّماءِ وَما بَناها* وَالأَرْضِ وَما طَحاها﴾.(٢)

إذاً يمكن أن تكون الغاية من وراء كلّ هذه الأقسام هو تحريك الناس وحثّهم ودفعهم إلى الفكر والتأمّل في آيات الله سبحانه، ليتسنّى لهم من خلال هذا الطريق الحسّي التصديق بخالقها، والإذعان لعظمته، وترسيخ وإحكام أُسسهم التوحيدية والإيمانية.

الهدف الثاني: يمكن أن يكون الهدف من وراء ذلك القسم إظهار المنزلة والمقام والفضيلة التي يتحلّى بها المقسم به لدى الله سبحانه، كما في القسم بذات الرسول ﷺ حيث قال تعالى:

﴿لعمرك انّهم لفي سكرتهم يعمهون﴾.

٢. القرآن أُسوة وقدوة

إنّ القرآن الكريم كتاب هداية للبشر، والناس يتّخذونه قدوة وأُسوة لهم،

١. آل عمران:١٩١.

٢. الشمس:١ـ٦.

يهتدون بهديه، ويسيرون على واضح نهجه، ومن المعلـوم أنّه قد ورد فيه الكثير من الآيات التي يقسم بها بغير الله سبحانه، ممّا يدلّ ـ وبوضوح تام ـ على أنّ هذا النوع من القسم ليس بدعة في الـدين ولا شركاً بالله سبحانـه وتعالى، كما يثبت أنّه ليس من الأمر المحـرّم والمنهيّ عنه، إذ لو كـان كذلك لكان المفـروض أن يحذر القرآن الكريم أو السنّة المطهرة منه، أو يذكران الناس بأنّ ذلك القسم من خصائص الله تعالى، فلا يحق لأحد مهما كان مشاركته في هذه الخصوصية.

وهـذا ليس بالأمـر العجيب، ففي الوقت الـذي نجد فيـه القرآن الكـريم يصف الله سبحانه «بالكبرياء»[١] نجد العقل والروايات قد بيّنت أنّ الكبرياء من صفـات الله تعالى، لأنّ ذاتـه سبحانـه تفيض كمالاً وجمالاً، وأمـا غيره فلا يحق لـه الاتّصاف بهذا الوصف، لأنّه فاقد لكلّ أنواع الكمال، وكلّ ما يملكه غيره انّما هو من فيضه وسببه وأفضاله سبحانه وتعالى.

ثمّ إنّ وجـود هـذا الكم الهائل من الأقسـام في القـرآن الكـريم إذا لم يكن جميلاً ومستحسناً، فعلى أقلّ تقدير أنّـه ليس بالأمر المستقبح. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى لـو كان ذلك شركاً منهياً عنـه، فهذا يعني أنّ الله تعالى هـو نفسه قد وفّر الأرضية المناسبة لذلك الشرك من خلال ما أورده من آيات القسم!!!

يتّضح من ذلك أنّـه لا محذور في هـذا النـوع مـن القسم والـذي يعبّر في الغالب عن العظمة والكرامة لا غير.

ثمّ إنّ البعض من المخالفين لمّا واجهـوا هذا المنطق القـويم والبرهان النيّر، والدليل المستحكم حاولوا الهروب من المأزق الحرج بالتوسّل بتأويلات ضعيفة لا نصيب لها من الحقّ، فقالوا: إنّ حقيقة هذه الأقسام ترجع إلى قسم واحد لا أكثر،

---

١. انظر الحشر:٢٣.

وذلك بتقدير كلمة «رب» في جميع الجمل والآيات، فقوله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاهـا * وَالْقَمر...﴾ يعني «وربّ الشمس» ، «و ربّ القمر» و هكذا، وبالنتيجة ترجع حقيقة القسم إلى القسم بذاته سبحانه، وهذا أمر لا ضير فيه ولا مانع منه.

ومن الواضح انّ هذا التأويل من المصاديق البارزة للتفسير بالرأي، الذي ينطلق من العقائد والآراء السابقة التي دفعت صاحبها إلى أن ينحو هذا المنحى من التأويل ظناً منه أن يستطيع بذلك إيجاد حالة من الوئام بين الآيات الكريمة وبين ما ذهب إليه من المعتقد!!!

الحلف بغير الله في السنّة النبوية

لقد سارت السنّة النبوية على منوال القرآن الكريم حيث جاء فيها نماذج كثيرة من الأحاديث والروايات التي تمّ فيها الحلف بغير الله سبحانه وتعالى، نشير إلى بعضها:

١. قال مسلم في صحيحه:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيّ الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أما وأبيك لتنبّأنّه، أن تُصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء».[1]

٢. وروى مسلم أيضاً:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ـ من نجد ـ يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليل».

---

١. صحيح مسلم:٣/ ٩٤، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة.

فقال: هل عليّ غيرهن؟ قال: «لا... إلاّ أن تطوّع، وصيام شهر رمضان».

فقال: هل عليّ غيره؟

قال: «لا... إلاّ أن تطوّع»، وذكر رسول الله ﷺ الزكاة.

فقال الرجل: هل عليّ غيره؟ قال: «لا إلاّ أن تطوع».

فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

فقال رسول الله ﷺ: «أفلح ـ وأبيه ـ إن صدق».

أو قال: «دخل الجنة ـ وأبيه ـ إن صدق».[١]

ولم يختص الأمر بالرسول الأكرم ﷺ بل تجد ربيب الرسالة وتلميذ النبي الأكرم والنموذج السامي للرجال المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب يضمّن خطبه وكلماته ــ التي تنبع كلّها من عين الرسالة المحمدية وتنهل من نميرها ــ بهذا النحو من الحلف، فيقسم عليه السلام كثيراً بنفسه ويقول: «لعمري»[٢] أو يقسم بعمر أب مخاطبه فيقول: «لعمر أبيك».[٣]

وقد حلف غير واحد من الصحابة بغيره سبحانه، فهذا أبو بكر بن أبي قحافة ــ على ما يرويه مالك في الموطّأ ـ قد حلف بغير الله، قال مالك: إنّ رجلاً من أهل اليمن أقطع اليد والرجل، قدم فنزل على أبي بكر فشكا إليه انّ عامل اليمن قد ظلمه، فكان يصلّي من الليل، فيقول أبو بكر: «وأبيك ما ليلك بليل سارق».[٤]

---

١. صحيح مسلم: ١/ ٣٢، باب ما هو الإسلام.

٢. انظر نهج البلاغة: الخطبة ٢٤، ٣٣، ٥٦، ٨٩.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢٥.

٤. موطأ مالك بشرح الزرقاني: ٤/ ١٥٩، الحديث ٥٨٠.

إلى غير ذلك من الأقسام الواردة في كلامهﷺ وكلام الأئمّة عليهم السلام والصحابة.

فقهاء أهل السنّة والحلف بغير الله

قال ابن قدامة في كتابه«المغني» ـ الذي كتبه وفقاً لفقه الإمام أحمد بن حنبل ـ: وقال أصحابنا الحلف برسول اللهﷺ يمين موجبة للكفّارة، وروي عن أحمد أنّه قال: إذا حلف بحق رسول اللهﷺ فحنث فعليه الكفّارة. قال أصحابنا: لأنّه أحد شرطي الشهادة، فالحلف به موجب للكفّارة كالحلف باسم الله تعالى.[١]

وأمّا الحنفية فيقولون: إنّ الحلف بالأب والحياة، كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك ... وما شابه، مكروه.

وأمّا الشافعية فيقولون: إنّ الحلف بغير الله ـ لو لم يكن باعتقاد الشرك ـ فهو مكروه.

وأمّا المالكية فيقولون: إنّ القسم بالعظماء والمقدّسات ـ كالنبي والكعبة ـ فيه قولان: الحرمة والكراهة.[٢]

إلى هنا اتّضح ومن خلال الآيات والروايات وكلمات الأصحاب حكم المسألة، نعم ثمّة أحاديث استدلّ بها المخالفون على المنع عن الحلف بغير الله، نحاول هنا التعرّض لها بالدراسة والتحقيق، لنرى مدى مصداقيتها ومقدار دلالتها.

---

١. المغني:٩/ ٥١٧.

٢. الفقه على المذاهب الأربعة:١/ ٧٥، كتاب اليمين؛ إرشاد الساري: ٩/ ٣٥٨نقل فيه الكراهة عن مالك.

أدلّة القائلين بالتحريم

تمسّك المخالفون للحلف بغير الله بحديثين، هما:

الحديث الأوّل: انّ رسول اللهﷺ سمع عمر، وهو يقول: وأبي، فقال: إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت.[١]

والجواب: انّ الحديث لا يدلّ على ما يرومه المخالف، وذلك: لأنّ النهي عن الحلف بالآباء قد جاء، لأنّهم كانوا ـ في الغالب ـ مشركين وعبدة للأوثان، فلم تكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم، والشاهد على ذلك أنّ النبي الأكرمﷺ قد جعل آباءهم قرناء مع الطواغيت تارة، ومع الأنداد تارة أُخرى، فقالﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت».[٢]

وقالﷺ أيضاً:

«لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأُمّهاتكم، ولا بالأنداد».[٣]

وهذان الحديثان يؤكّدان أنّ المنهيّ عنه هو الحلف بالآباء الكافرين الذين كانوا يعبدون الأنداد والطواغيت، ومن هنا يكون النهي متوجهاً إلى مورد خاص، فأين هذا من حلف المسلم بالوجودات المقدّسة، كالقرآن والكعبة والأنبياء والأولياء؟!

وكيف يمكن الاستدلال بالحديث المذكور على ما يرومه المخالف؟!

الحديث الثاني: جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن احلف بربّ الكعبة، فإنّ عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول اللهﷺ: «لا

---

١. سنن ابن ماجة:١/ ٢٧٧؛ سنن الترمذي:٤/ ١٠٩؛ سنن النسائي:٧/ ٤ـ٥.

٢. سنن النسائي:٧/ ٧ـ٨.

٣. سنن ابن ماجة:١/ ٢٧٨.

تحلف بأبيك، فإنّ من حلف بغير الله فقد أشرك».[١]

والحديث يتألّف من ثلاثة مقاطع، هي:

الف: جاء رجل ابن عمر، فسأله هل يحق لـه الحلف بالكعبة؟ فنهاه ابن عمر.

ب: انّ عمر كان يحلف بأبيه عند رسول الله فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك.

ج: القاعدة الكلية التي ذكرها النبي الأكرم ﷺ وهي: «من حلف بغير الله فقد أشرك».[٢]

أمّا اجتهاد ابن عمر حيث عدّ الحلف بالكعبة من مصاديق الحديث، فهو اجتهاد منه وحجّة عليه دون غيره.

وأمّا أنّ الرسول ﷺ عدّ حلف عمر بأبيه من أقسام الشرك، فلأجل أنّ أباه كان مشركاً، وقد قلنا: إنّ الرواية ناظرة إلى هذا النوع من الحلف.

وأمّا القاعدة الكلية فالقدر المتيقّن من كلامه ﷺ ما إذا كان المحلوف به شيئاً يعدّ الحلف به شركاً، كالحلف بالأنداد والطواغيت والآباء الكافرين، فهذا الذي قصده النبي ﷺ ولا يعمّ الحلف بالمقدّسات كالقرآن والكعبة وغيرهما، والشاهد على ذلك ما روي عن الرسول الأكرم ﷺ حيث قال:

«من حلف فقال في حلفه باللات والعزّى، فليقل: لا إله إلاّ الله».[٣]

وهذا الحديث وبضميمة ما قبله يدلّ على أنّه ما زالت رواسب الجاهلية فاعلة في المجتمع ولم يمح أثرها من أذهان المسلمين بصورة كلّية، ولذلك كانت

١و٢. السنن الكبرى: ١٠/ ٢٩؛ مسند أحمد: ١/ ٤٧؛ ٢/ ٣٤، ٦٧، ٧٨، ١٢٥.

٣. سنن النسائي: ٧/ ٨.

تصدر منهم بين الحين والآخر أمثال تلك الشطحات، فيقسمون بأُمور لا يرضاها الشارع، ولـذلك وقف النبي الأكرمﷺ أمـام هذه الحالـة محاولاً قلع تلك الآثـار والقضاء عليها بالكامل.

ومن هذا المنطلق لا يمكن حمل كـلام الرسول ﷺ على الحلف بالمقدّسات الإسلامية التي لها منزلتها ومقامها لدى الله سبحانه وتعالى.

نعم، الحلف بغير الله لا يصحّ في القضـاء وفض الخصومات، بـل لابدّ من الحلف بـالله جلّ جلالـه، أو بإحدى صفاتـه التي هي رمـز ذاته، وقد ثبـت هذا بالدليل ولا علاقة له بالبحث.[1]

---

١. انظر كتابنا، نظام القضاء والشهادة في الشريعة الإسلامية الغرّاء:١/ ٤٧١.

الفصل العشرون

البكاء على الميّت

البكاء على الميّت[1]

الحزن والتأثر عند فقدان الأحبة أمر جُبلت عليه الفطرة الإنسانية، فإذا ابتلي بمصاب عزيز من أعزّائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، يحسّ بحزن شديد يتعقّبه ذرف الدموع على وجناته، دون أن يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحداً ينكر هذه الحقيقة إنكار جدٍ وموضوعية، ومن الواضح بمكان أنّ الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها**﴾.[2]

ولا يمكن لتشريع عالميّ أن يحرم الحزن والبكاء على فقد الأحبة إذا لم يقترن بشيء يغضب الرب.

ومن حسن الحظ نرى أنّ النبي ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

فهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده إبراهيم، ويقول: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنا، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون».[3]

---

١. هذا الفصل مستل من كتاب «بحوث قرآنية في التوحيد والشرك» للمصنّف.

٢. الروم:٣٠.

٣. سنن أبي داود:١/ ٥٨؛ سنن ابن ماجة:١/ ٤٨٢.

روىٰ أصحاب السِّيَر والتاريخ، أنّه لمّا احتضر إبراهيم ابن النبي، جاءﷺ فوجده في حجر أُمّه، فأخذه ووضعهُ في حجره، وقال: «يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً ـ ثمّ ذرفت عيناه ـ وقال: إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ، ولولا أنّه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ وأنّها سبيل مأتيّة لحزنّا عليك حزناً شديداً أشدّ من هذا».

ولمّا قال له عبد الرحمان بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيتُ عن صوتين أحمقين وآخرين، صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشقّ جيوب ورنّة شيطان، وصوت عند نغمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحَم».(١)

وليس هذا أوّل وآخر بكاء منه ﷺ عند ابتلائه بمصاب أعزّائه، بل بكى ﷺ على ابنه «طاهر» وقال: «إنّ العين تذرف، وإنّ الدمع يغلب والقلب يحزن، ولا نعصي الله عزّ وجلّ».(٢)

وقد قام العلاّمة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكىٰ فيها النبي ﷺ والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزّائهم عند افتقادهم، وإليك نصّ ما جاء به ذلك المتتبع الخبير.

وهذا هوﷺ لمّا أُصيب حمزة ـ رضي الله عنه ـ وجاءت صفيّة بنت عبد المطّلب ـ رضي الله عنها ـ تطلبه، فحال بينها و بينه الأنصار، فقالﷺ: دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكىٰ رسول الله ﷺ، و إذا نشجت نَشَجَ،

---

١. السيرة الحلبية:٣/ ٣٤٨.

٢. مجمع الزوائد للهيثمي:٣/ ٨.

وكانت فاطمة عليها السلام تبكي، ورسول الله ﷺ كلّما بكت يبكي، و قال: لن أُصاب بمثلك أبداً.(١)

ولمّا رجع رسول الله ﷺ من أُحد بكت نساء الأنصار على شهدائهن، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لكن حمزة لا بواكي له»، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحداً حتّى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميّتاً إلاّ بدأن بحمزة.(٢)

وهذا هو ﷺ ينعى جعفراً، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعيناه تذرفان.(٣)

وهذا هو ﷺ زار قبر أُمّه وبكىٰ عليها وأبكى من حوله.(٤)

وهذا هو ﷺ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميّت ودموعه تسيل على خدّه.(٥)

وهذا هو ﷺ يبكي على ابن لبعض بناته، فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: «الرحمة التي جعلها الله في بني آدم، وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء».(٦)

وهذه الصدّيقة الطاهرة تبكي على رسول الله ﷺ، وتقول: «يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس

---

١. إمتاع المقريزي: ١٥٤.
٢. مجمع الزوائد: ٦/ ١٢٠.
٣. صحيح البخاري: كتاب المناقب في علامات النبوّة في الإسلام؛ سنن البيهقي: ٤/ ٧٠.
٤. سنن البيهقي: ٤/ ٧٠؛ تاريخ الخطيب البغدادي: ٧/ ٢٨٩.
٥. سنن أبي داود: ٢/ ٦٣؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٤٤٥.
٦. سنن أبي داود: ٢/ ٥٨؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٤٨١.

مأواه».(١)

وهذه هي ـ سلام الله عليها ـ وقفت على قبر أبيها الطاهر، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت، وأنشأت تقول:

مـا ذا على مَن شمَّ تـربـة أحمد أن لا يشمَّ مـدى الزمـان غواليـا

صُبّت عليَّ مصـائبٌ لـو أنّها صُبّـت على الأيّـام صِرن ليـاليـا

وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله ﷺ ويرثيه بقوله:

يـا عين فـابكي ولا تسأمـي وحُـقَّ البكـاء على السيّـد

وهذا حسّان بن ثابت يبكيه ﷺ ويقول:

ظللت بها أبكـي الـرسـول فأسعـدت

عيـونٌ ومثـلاهـا من الجفـن أسعـد

ويقول:

يُبكّـون مـن تبكي السّماوات يومـه

ومن قـد بكتـه الأرض فـالنـاس أكمـد

ويقول:

يـا عين جـودي بـدمع منك إسبـال ولا تملـنَّ مـن سـحّ وإعـوال

---

١. صحيح البخاري، باب مرض النبي ووفاته؛ مسند أبي داود: ٢/ ١٩٧؛ سنن النسائي: ٤/ ١٣؛ مستدرك الحاكم:٣/ ١٦٣؛ تاريخ الخطيب:٦/ ٢٦٢.

وهذه «أروى» بنت عبد المطّلب تبكي عليه ﷺ وترثيه بقولها:

ألا يــا عين! ويحكِ أسعــديني بــدمعك مــا بقيت وطــاوعيني
ألا يـــا عين! ويحك واستهلّي على نــور البــلاد وأسعــديني

وهذه عاتكة بنت عبد المطّلب ترثيه وتقول:

عينيَّ جــودا طــوال الــدّهــر وانهمِـرا
سكبــاً وسحّــاً بــدمع غير تعــذيــر

يـا عين فــاسحنفـري بـالـدَّمع واحتفلي
حتّى الممات بسجـل غير منــــذور

يـــا عين فـــانهملي بـالــدّمع واجتهــدي
للمصطفىٰ دون خلـق الله بـــالنـــور

وهذه صفيّة بنت عبد المطّلب تبكي عليه وترثيه ﷺ وتقول:

أفـــاطـمُ بكّـي ولا تسـأمـي بصحبك مـــا طلـع الكـــوكبُ
هـــو المرء يُبكىٰ وحقّ البكـــاء هـــو الماجـــد السيّـــد الطيِّبُ

وتقول:

أعينـيّ! جـــودا بـــدمع سجْـم يبـــادر غـــربـــاً بما مُنهـــدمْ
أعينيّ! فـــاسحنفـــرا و أسكبـــا بـــوجـدٍ وحـــزنٍ شـــديـــد الألمْ

وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطّلب تبكي عليه وترثيه وتقول:

يـــا عين جـودي بـــدمع منك و ابتـــدري
كما تنـــزّل مـــاء الغيث فـــانثعبـــا

وهذه هند بنت أثاثة ترثيه وتقول:

ألا يـــــــــــا عين! بكّـي لا تملّي
فقــــد بكـــر النعـيُّ بمن هــــويتُ

وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول:

وأمســت مـــــــراكبـــــــه أوحشت
وقـــد كـــان يـــركبهـــا زينهـــا
وأمســـت تُبكّـي على سيِّـــــــــــد
تـــــــــــردَّد عبرتها عينهـــــــــــا

وهذه أُمّ أيمن ترثيه ﷺ وتقول:

عين جـــودي فـإنّ بـــذلك للــــدمــــ
ــــع شفـــاء فـــاكثـري مـن بكـــاء
بـــــدمـــوع غـــزيـــرة منك حتّى
يقضي الله فيـك خير القضـــــــــاء

وهذه عمّة جـابر بن عبد الله جاءت يوم أُحُـد تبكي على أخيها عبد الله بن

عمر، وقال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فقال رسول الله ﷺ: «أبكوه ولا تبكوه فوالله ما زالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى دفنتموه».(١)

دليل المانعين

نعم روي عن عمر بن الخطّاب وعبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الميّت يعذَّب ببكاء أهله».(٢)

أقول: إنّ ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتها التاريخ.

منها: أنّه بكىٰ على النعمان بن مقرن المزني لَمّا جاءه نعيه، فخرج ونعاه إلى الناس على المنبر، ووضع يده على رأسه يبكي.(٣)

ومنها: بكاؤه على خالد بن الوليد عندما مات وامتنعت النساء من البكاء عليه، فلما انتهىٰ ذلك إلى عمر، قال: و ما علىٰ نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهنّ على أبي سليمان ما لم يكن لغواً ولا لقلقة.(٤)

ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطّاب، وكان صحبه رجل من بني عدي ابن كعب فرجع إلى المدينة، فلمّا رآه عمر دمعت عيناه، وقال: وخلّفت زيداً قاضياً وأتيتني.(٥)

فالبكاء المتكرّر من الخليفة يهدينا إلى أنّ المراد من الحديث ـ لو صحّ سنده

---

١. الغدير:٦/ ١٦٤ـ١٦٧.

٢. صحيح مسلم:٣/ ٤١ ـ ٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٣، ٤ و٥. العقد الفريد:٣/ ٢٣٥.

ـ معنى آخر، كيف وأنّ ظاهر الحديث لو قلنا به فإنّه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾.[١] فأيّ معنى لتعذيب الميّت ببكاء غيره عليه!!

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقفنا على أنّ المراد من الحديث «إنّ الميّت يعذّب ... » ـ إن صحّ سنده ـ غير ما يفهم من ظاهره، وقد كان محتفّاً بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلك توهّم البعض حرمة البكاء على الميّت استناداً إلى هذا الحديث، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

أخرج مسلم في صحيحه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ذُكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئاً فلم يحفظه، إنّما مرّت علىٰ رسول الله ﷺ جنازة يهودي، وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون وانّه ليعذب.[٢]

وأخرج أبو داود في سننه عن عروة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت ـ وهي تعني ابن عمر ـ: إنّما مرّ النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: إنّ صاحب هذا ليُعذّب وأهله يبكون عليه. ثمّ قرأت ﴿وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾.[٣]

قال الشافعي: ما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أشبه أن يكون محفوظاً

---

١. فاطر:١٨.

٢. صحيح مسلم:٣/ ٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٣. سنن أبي داود:٣/ ١٩٤، برقم ٣١٢٩.

عنه ﷺ بدلالة الكتاب والسنّة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ...﴾ و﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإنسانِ إِلاّ ما سَعىٰ﴾ [1] وقوله: ﴿فَمَنْ يعْمَلِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَل مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [2] وقوله: ﴿...لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعىٰ﴾. [3]

فإن قيل: أين دلالة السنّة؟ قيل: قال رسول الله ﷺ لرجل: «ابنك هذا؟» قال: نعم، قال: «أما إنّه لا يجني عليك ولا تجني عليه». فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أنّ جناية كلّ امرئ عليه، كما أنّ عمله لا لغيره ولا عليه. [4]

وأخرج مسلم عن ابن عباس:قال رسول الله ﷺ: «إنّ الميت يعذّب ببكاء أهله عليه»، فقال ابن عباس: فلمّا مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدّث رسول الله ﷺ انّ الله يعذّب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: إنّ الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾. [5]

وما أخرجه مسلم عن هشام بن عروة هو الحقّ دون ما أخرجه عن ابن عباس لأنّ تعذيب الكافر ببكاء أهله عليه يضاد الذكر الحكيم.

والحمد لله ربّ العالمين

---

١. النجم:٣٩.

٢. الزلزلة:٧ـ ٨.

٣. طه:١٥.

٤. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأُمّ للشافعي:٧/ ٢٦٧.

٥. صحيح مسلم:٣/ ٤٣، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

الفهارس

فهرس المصادر

نبدأ تبركاً بالقرآن الكريم

حرف الألف

١. **آلاء الرحمن**: محمد جواد البلاغي، مكتبة الوجداني، قم المشرفة.

٢. **الإبانة**: أبو الحسن الأشعري (المتوفّى ٣٢٤هـ) طبع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ـ ١٩٧٠م.

٣. **الأحكام السلطانية**: علي بن محمد بن حبيب (المتوفّى ٤٥٠هـ) دار الفكر، بيروت.

٤. **إحياء علوم الدين**: أبو حامد الغزّالي (المتوفّى ٥٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت.

٥. **أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**: غالب محمد أديب.

٦. **أخبار مدينة الرسول**: محمد بن محمود النجار، طبع مكة المكرمة ـ ١٤٠١هـ.

٧. **اختلاف الحديث**: محمد بن إدريس الشافعي (المتوفّى ٢٠٤هـ) دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

٨. **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**: أبوالعباس أحمد بن محمد

القسطلاني(٨٥١ـ ٩٢٣هـ) دار إحياءالتراث العربي، بيروت.

٩. **الاستيعاب، المطبوع في حاشية الإصابة**: ابن عبد البر(المتوفّى ٤٦٣هـ)، دار النهضة، مصر، القاهرة.

١٠. **أُسد الغابة**: ابن الأثير الجزري (المتوفّى ٦٣٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١. **الإشارات والتنبيهات**: ابن سينا، مؤسسة النصر، طهران ـ ١٣٧٠هـ.

١٢. **الإصابة**: ابن حجر العسقلاني(المتوفّى ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣. **أُصول الدين**: أبو اليسر محمد بن عبد الكريم(٤٢١ـ ٤٩١هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٩٦٠م.

١٤. **الأعلام**: خير الدين الزركلي(المتوفّى ١٣٩٦هـ)دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة السادسة.

١٥. **إقبال الأعمال**: ابن طاووس (٥٨٩ـ ٦٦٤هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٦. **الأُمّ**: محمد بن إدريس الشافعي(١٥٠ـ ٢٠٤هـ) دار المعرفة، بيروت،١٤٠٨هـ.

١٧. **إمتاع الأسماع**: المقريزي أحمد بن علي (المتوفّى ٨٤٥هـ) طبع مصر.

١٨. **أنوار التنزيل (تفسير البيضاوي)**: عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (المتوفّى ٧٩١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٨.

١٩. **أوائل المقالات**: محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٣٣٦ـ ٤١٣هـ)

مكتبة الحقيقة، تبريز ـ ١٣٧١ هـ.

حرف الباء

٢٠. **بحار الأنوار**: محمد باقر المجلسي (المتوفّى ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت ـ ١٤٠٣ هـ.

٢١. **بحوث في الملل والنحل**: جعفر السبحاني (تولّد ١٣٤٧ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

٢٢. **البداية والنهاية**: ابن كثير الدمشقي (المتوفّى ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ.

٢٣. **البدعة**: جعفر السبحاني (تولّد ١٣٤٧ هـ) مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم ـ ١٤١٦ هـ.

٢٤. **البدعة**: الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي، مطبعة النواعير، الرمادي ـ ١٩٩٢ م.

٢٥. **البرهان**: السيد هاشم التوبلي البحراني (المتوفّى ١١٠٧ هـ) قم ـ ١٣٧٥ هـ.

حرف التاء

٢٦. **التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول**: منصور بن علي بن ناصف (أواخر القرن الرابع عشر) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٦ هـ.

٢٧. **تاريخ البلاد العربية**: الدكتور منير العجلاني.

٢٨. **تاريخ الخميس**: حسين بن محمد الديار بكري، مؤسسة شعبان، بيروت.

٢٩. **تاريخ نجد**: محمود الآلوسي البغدادي(المتوفّى ١٣٤٢هـ) القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.

٣٠. **تاريخ مغول**: عباس إقبال الآشتياني، انتشارات أمير كبير، طهران.

٣١. **التبيين بشرح الأربعين**: ابن حجر الهيتمي (المتوفّى ٩٧٤هـ) طبع الحلبي.

٣٢. **الترغيب والترهيب**: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (المتوفّى ٦٥٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٨٨هـ.

٣٣. **تفسير الجلالين**: جلال الدين السيوطي (المتوفّى ٩١١هـ) الطبعة الحجرية.

٣٤. **تصحيح الاعتقاد (شرح عقائد الصدوق)**: الشيخ المفيد(٣٣٦ـ ٤١٣هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز ـ ١٣٧١هـ.

٣٥. **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا(المتوفّى ١٣٥٤هـ) دار المنار، مصر ـ ١٣٧٣هـ.

٣٦. **تقريب التهذيب**: ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ) بيروت ـ ١٩٧٥م.

٣٧. **تهذيب التهذيب**: ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

٣٨. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: جمال الدين المزي(٦٥٤ـ ٧٤٢هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤٠٦هـ.

٣٩. **التوراة**: كتاب التكوين، طبع ١٨٥٦م.

٤٠. **التوسّل والزيارة في الشريعة الإسلامية**: محمد الفقي مـن علماء الأزهر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٨هـ، الطبعة الأُولى.

٤١. **التوصل إلى حقيقة التوسل**: محمد نسيب الرفاعي، بيروت ـ ١٣٩٤هـ.

٤٢. **تطهير الفؤاد**: محمد بخيت (المتوفّى ١٣٥٤هـ) طبع مصر.

حرف الجيم

٤٣. **جامع الأحكام**: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(المتوفّى ٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

٤٤. **جامع الأُصول**: ابن الأثير الجزري المبارك بن محمد(٥٥٤ـ ٦٠٦هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٤٥. **جزيرة العرب في القرن العشرين**: حافظ وهبة، القاهرة ـ ١٩٥٦م.

٤٦. **الجوهـر المنظم في زيـارة القبر المكـرم**: ابن حجـر الهيتمي(المتوفّـى ٩٧٤هـ)، مصر ـ ١٢٧٩هـ.

حرف الحاء

٤٧. **حلية الأولياء**: أحمد بن عبـد الله المعروف بأبي نعيم الاصفهـاني(المتوفّى ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٧٨هـ.

حرف الخاء

٤٨. **الخصال**: الشيخ الصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) مؤسسـة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة ـ ١٤٠٣هـ.

٤٩. **خطط الشام**: محمد كرد علي، مصر ـ ١٩٦٣م.

حرف الدال

٥٠. **الدرر السنية**: زيني دحلان، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر ـ ١٣٦٨هـ.

٥١. **الدر المنثور**: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٥٢. **دلائل النبوة**: أحمد بن الحسن البيهقي(٣٨٤ـ ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

٥٣. **ديوان حسان بن ثابت**: حسان بن ثابت الأنصاري، بيروت.

٥٤. **ديوان الخاقاني**: الخاقاني، مؤسسة انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٣٦هـ.

٥٥. **ديوان سيد صادق (فارسي)**: سيد صادق سرمد.

حرف الراء

٥٦. **رحلة ابن بطوطة**: ابن بطوطة، دار الكتب العلمية ـ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٥٧. **رحلة ابن جبير**: ابن جبير، دار صادر، ١٣٨٤هـ.

٥٨. **الرسائل**: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) مؤسسة النور،بيروت.

٥٩. **الرسالة الحموية**: ابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل والمسائل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤١٢هـ.

٦٠. **الروح**: ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١. **روح البيان**: إسماعيل بن حقّي البروسوي(المتوفّى ١١٣٧هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٦٢. **روح المعاني**: محمود البغدادي الآلوسي (المتوفّى ١٢٧٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٣. **رياض الجنة**: عقيل بن الهادي، طبع الكويت.

حرف الزاء

٦٤. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**: أحمد أمين المصري (المتوفّى ١٣٨٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

٦٥. **الزيارة في الكتاب والسنّة**: جعفر السبحاني، معاونية التعليم والبحوث الإسلامية، قم.

حرف السين

٦٦. **سفينة البحار**: المحدّث القمي(١٢٩٤ـ ١٣٥٩هـ) الطبعة الحجرية، النجف الأشرف.

٦٧. **السنن**: ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ـ ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٣٩٥هـ.

٦٨. **السنن**: أبو داود: سليمان بن الأشعث الأزدي (٢٠٢ـ ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٩. **السنن**: الترمذي محمد بن عيسى بن سورة(٢٠٩ـ ٢٧٩هـ) دار إحياء

التراث العربي، بيروت.

٧٠. **السنن**: الدارقطني: علي بن عمر (٣٠٦ـ ٣٨٥هـ) دار المحاسن، القاهرة.

٧١. **السنن**: الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن(١٨١ـ ٢٥٥هـ) دار إحياء السنة النبوية.

٧٢. **السنن**: النسائي أحمد بن شعيب(٢١٥ـ ٣٠٣هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٣٤٨هـ.

٧٣. **السنّة**: أحمد بن حنبل(المتوفّى ٢٤١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

٧٤. **سير إعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي (المتوفّى ٧٤٨هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٤٠٩هـ.

٧٥. **السيرة الحلبية**: علي بن إبراهيم الحلبي (المتوفّى ١٠٤٤هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.

٧٦. **السيرة النبوية**: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (المتوفّى ٢١٨هـ) دار التراث العربي، بيروت.

٧٧. **سيف الجبار المسلول على الأعداء**: شاه فضل رسول القادري، استنبول ـ ١٣٩٥هـ.

حرف الشين

٧٨. **شرح صحيح مسلم**: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٣١ـ

٦٧٦هـ) دار القلم، بيروت ـ ١٤٠٧هـ.

٧٩. **شرح العقيدة الطحاوية**: ابن أبي العز الحنفي (المتوفّى ٧٩٢هـ)، المكتبة الإسلامية، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

٨٠. **شرح المقاصد**: مسعود بن عمر التفتازاني (المتوفّى ٧٩٢هـ) طبع مصر.

٨١. **الشفاء**: القاضي عياض، طبع دار الفيحاء، عمان.

٨٢. **شفاء السقام في زيارة خير الأنام**: تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفّى ٧٥٦هـ) مصر ـ ١٤١٩هـ.

حرف الصاد

٨٣. **الصحيح**: البخاري محمد بن إسماعيل (المتوفّى ٢٥٦هـ) دار الفكر، بيروت.

٨٤. **الصحيح**: مسلم بن الحجاج النيشابوري (المتوفّى ٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٥. **الصحيفة السجادية**: الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (المتوفّى ٩٤هـ) مؤسسة الإمام المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ، قم المقدسة.

٨٦. **الصحيفة العلوية**: جمع عبد الله بن صالح بن جمعة السماهيجي، طبع إيران.

٨٧. **صلح الإخوان**: داود بن سليمان الخالدي البغدادي (المتوفّى ١٢٩٩هـ) طبع بمبي، الهند.

٨٨. **الصواعق الإلهية**: سليمان بن عبدالوهاب (المتوفّى ١٢١٠هـ) استنبول، تركيا ـ ١٣٩٩هـ.

حرف الطاء

٨٩. **طبقات الشافعية**: عبدالوهاب بن علي السبكي(المتوفّى ٧٧١هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٣٩٦هـ.

٩٠. **الطبقات الكبرى**:محمد بن سعد (المتوفّى ٢٣٠هـ) دار صادر، بيروت ـ ١٣٨٠هـ.

حرف العين

٩١. **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، محمد بن طاهر اللبناني.

٩٢. **العقد الفريد**: ابن عبد ربّه الأندلسي(المتوفّى ٣٢٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٩٣. **علل الشرائع**: الشيخ الصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٩٤. **عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري**: محمود بن أحمد العيني الحنفي، طبع مصر.

٩٥. **العين**: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ـ ١٧٥هـ) مؤسسة الأعلمي ، بيروت ـ ١٤٠٨هـ.

حرف الغين

٩٦. **الغدير**: العلاّمة عبد الحسين أحمد الأميني(١٣٢٠ ـ ١٣٩٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٣٨٧هـ.

حرف الفاء

٩٧. **الفتاوى الحديثية**: ابن حجر الهيثمي (المتوفى ٩٧٣هـ) طبع مصر.

٩٨. **فتح الباري**: ابن حجر العسقلاني (المتوفّى ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٩. **فتح المجيد**: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (المتوفّى ١٢٨٥هـ) دار القلم، بيروت.

١٠٠. **فتنة الوهابية**: أحمد زيني دحلان (المتوفّى ١٣٠٤هـ) مكتبة الحقيقة، إسلامبول، تركيا.

١٠١. **فتوح الشام**: الواقدي محمد بن عمر بن واقد(١٣٠ ــ ٢٠٧هـ) دار الجيل، بيروت.

١٠٢. **الفجر الصادق**: جميل صدقي الزهاوي(المتوفّى١٣٥٤هـ) مطبعة الواعظ، مصر ـ ١٣٢٣هـ.

١٠٣. **فرقان القرآن**: العزامي الشافعي القضاعي، المطبوع مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي.

١٠٤. **الفقه على المذاهب الأربعة**: عبد الرحمن الجزيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٥. **فوات الوفيات**: محمد بن شاكر الكتبي(المتوفّى ٧٦٤هـ) دار صادر، بيروت.

حرف القاف

١٠٦. **قاموس الكتاب المقدّس**: المستر هاكس، انتشارات أساطير، إيران.

١٠٧ . **قرب الاسناد**: عبد الله بن جعفر الحميري القمـي (من أعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة آل البيت، قم.

حرف الكاف

١٠٨ . **الكافي**: محمـد بن يعقوب الكلينـي(المتوفّى ٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران ـ ١٣٩٧هـ.

١٠٩ . **الكامل**: ابن الأثير الجزري (المتوفّى ٦٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٠ . **كامل الـزيارات**: جعفر بن محمـد ابن قولـويه(المتـوفّى ٣٦٧هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١١١ . **الكشـاف**: محمـود بن عمـر الـزمخشري(المتوفّى ٥٣٨هـ) مكتبـة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ـ ١٣٦٧هـ.

١١٢ . **كشف الارتيـاب**: السيـد محسن الأمين (المتـوفّى ١٣٧١هـ) منشورات مكتبة الحرمين، قم ـ ١٣٨٢هـ.

١١٣ . **كشف الشبهات**: محمد بن عبد الـوهاب (١١١٥ـ١٢٠٦هـ) دار القلم، بيروت.

١١٤ . **كنـز العمال**: عماد الـدين علي المتقي الهنـدي (المتـوفّى ٩٧٥هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.

حرف اللام

١١٥ . **لسان العرب**: ابن منظور الإفريقي المصري (المتوفـى ٧١١هـ) قم ـ ١٤٠٥هـ.

حرف الميم

١١٦. **مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن**: عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفّى ٥٩٧هـ) دار الراية، الرياض ـ ١٤١٥هـ.

١١٧. **مجمع البيان**: الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفّى ٥٤٨هـ)، دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١١٨. **مجمع الزوائد**: علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ـ ٨٠٧هـ) دار الكتاب العربي، بيروت ـ ١٤٠٢هـ.

١١٩. **المجموع (شرح مهذب الشيرازي)**: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (٦٣١ـ ٦٧٦هـ) مكتبة الإرشاد، جدّة.

١٢٠. **مجموعة الرسائل الكبرى**: ابن تيمية الحرّاني (المتوفّى ٧٢٨هـ) مكتبة محمدعلي صبيح وأولاده، مصر.

١٢١. **محاسن التأويل**: جمال الدين القاسمي (المتوفّى١٣٣٢هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٨هـ.

١٢٢. **مختصر تاريخ دمشق**: ابن منظور محمد بن مكرم (٦٣٠ـ ٧١١هـ) دار الفكر، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

١٢٣. **المدخل**: ابن الحجاج محمد العبدلي القيرواني (المتوفّى ٧٣٧هـ) دار الفكر، بيروت.

١٢٤. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (المتوفّى ٣٤٦هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ـ ١٩٦٥م.

١٢٥. **المستدرك**: الحاكم النيسابوري (المتوفّى ٤٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت.

١٢٦. **المسند** : أحمد بن حنبل (المتوفّى ٢٤١هـ) دار الفكر، بيروت.

١٢٧ . **مصباح المتهجد**: الشيخ الطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) الطبعة الحجرية.

١٢٨ . **المعجم الصغير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني(٢٦٠ـ ٣٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٩هـ.

١٢٩ . **المعجم الكبير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني(٢٦٠ـ ٣٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

١٣٠ . **المغازي**: محمد بن عمر الواقدي (المتوفّى ٢٠٧هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٣١ . **المغني**: عبد الله بن قدامة (٥٤١ـ ٦٢٠) مطبعة الإمام، مصر.

١٣٢ . **مفاتيح الغيب**: الفخر الرازي (المتوفّى ٦٠٦هـ) طبع مصر.

١٣٣ . **مفاهيم القرآن**: جعفر السبحاني(تولد ١٣٤٧هـ) مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في ١٠ أجزاء، قم ـ ١٤٢٠هـ.

١٣٤ . **مفردات القرآن**: الراغب الاصفهاني (المتوفّى ٥٠٢هـ) المكتبة المرتضوية، طهران.

١٣٥ . **مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس بن زكريا(المتوفّى ٣٩٥هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

١٣٦ . **منشور جاويد**: الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.

١٣٧ . **المواهب اللدنية**: أحمد بن محمد القسطلاني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٣٨ . **الموطأ**: مالك بن أنس (المتوفّى ١٧٩هـ) دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٣٩ . **ميزان الاعتدال**: محمد بن أحمد الذهبي (المتوفّى ٧٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت.

حرف النون

١٤٠ . **نظام القضاء والشهادة في الشريعة الإسلامية الغراء**: جعفر السبحاني(تولد١٣٤٧هـ) مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدسة ـ ١٤١٨هـ.

١٤١ . **النهاية**: ابن الأثير الجزري (المتوفّى ٦٠٦هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٤٠٥هـ.

١٤٢ . **نهج البلاغة**: جمع الشريف الرضي (المتوفّى ٤٠٦هـ) بيروت، ١٣٨٧هـ.

١٤٣ . **نور الثقلين**: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي(من أعلام القرن الحادي عشر الهجري) مؤسسة إسماعيليان، قم ـ ١٤١٢هـ.

حرف الهاء

١٤٤ . **الهدية السنيّة**: محمد بن عبد الوهاب(١١١٥ـ١٢٠٦هـ).

١٤٥ . **هذه هي الوهابية**: محمد جواد مغنية(المتوفّى ١٤٠٠هـ) بيروت.

حرف الواو

١٤٦ . **وسائل الشيعة**: محمد بن الحسن الحر العاملي (المتوفّى ١١٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

١٤٧ . **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: نور الدين علي بن أحمد السمهودي (المتوفّى ٩١١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ ١٤٠١هـ.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
ابن تيمية، حياته، عصره، أفكاره

الفصل الثالث
الوهابية، الأُسس الفكرية، والمنهج العملي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن عشر	
الحلف على الله بحقّ أوليائه الصالحين	
أدلّة المانعين للحلف على الله بحقّ أوليائه الصالحين	٤٥٢
لا حق للمخلوق على الخالق	٤٥٢
القرآن الكريم والحقوق المذكورة	٤٥٣
السنّة المطهّرة والحقوق المذكورة	٤٥٣
الفصل التاسع عشر	
الحلف بغير الله تعالى	
ما هي الغاية من القسم بغير الله في القرآن الكريم؟	٤٥٧
القرآن أُسوة وقدوة	٤٥٩
الحلف بغير الله في السنّة النبوية	٤٦١
فقهاء أهل السنّة والحلف بغير الله	٤٦٣
أدلّة القائلين بالتحريم	٤٦٤
الفصل العشرون	
البكاء على الميت	
أدلّة المانعين للبكاء على الميت	٤٧٥
فهارس الكتاب	٤٧٩
١ . فهرس مصادر الكتاب	٤٨١
٢ . فهرس المحتويات	٤٩٧